السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

أحداث ودلالات

قالت الظَّعينةُ: لا تَلاوَموا، فإني رأيتُ وجْهَ رجُلٍ لم يكُنْ لِيُخفِرَكم [يَخدَعُكم]، ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ بالقمَرِ ليلةَ البدرِ مِن وجهِه

محمد السيد حسن

الجزء الرابع

السيرة النبويـــة

أحداث ودلالات

الشيخ

محمد السيد حسن محمد

بطاقة الكتاب

اســـم الكتـــاب: السيرة النبوية (أحداث ودلالات – الجزء الرابع)

تـــــــــأليف: الشيخ محمد السيد حسن محمد

غـــــــــلاف: عبد الله أحمد

تــدقيق لغــوي: الشيخ محمد السيد حسن محمد

تنســـــــيق: منى الغريب

الطبعـــــــة: الثانية

المقـــــــاس: ١٧*٢٤

رقـــم الإيـــداع: 2024/ 27962

التـرقيم الـدولي: 978-977-6937-96-2

للتواصل مع الكاتب haledsayed398@gmail.com

السيرة النبويــــة

أحـــداث ودلالات

الجـــزء الرابع

الشيخ

محمد السيد حسن محمد

الباب الأول: أحداث السنة التاسعة

الفصل الأول: غزوة تبوك غزوة العسرة!

بين يدي الحدث: تمثل غزوة تبوك هذه ملحمة فريدة من يوم الجهاد الإسلامي وفصوله المنيرة المشرقة في جبين هذه الأمة الإسلامية العريقة الأصيلة الميمونة، وبرشدها ونورها الذين شرفت بمثلهما الآفاق كلها، شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، وما بين ذلك كثيرا، وخاصة وحينما نستحضر هذه الأجواء التي كانت محيطة برسول الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يومها، ورغمه فإنه قد عزم أمره، وحين شد الله تعالى أزره، حاسما حازما، وعلى الفتح الإسلامي المباشر، والمجاور للدولة الإسلامية الناشئة آنذاك، والتي كان الروم وقتها لهم صيتهم وشأنهم، وعلى ملأ من الجزيرة العربية كلها، وحين كانت كل الجزيرة تعمل لها ألف حساب، ولكنه وها هو عهد جديد يظلل الكون، ومن ثم فلا تعوق مسيرته أمة، ولا يعرقل فتحه طائفة!

وكذا فإن يوم تبوك هذا، وإذ كان في يوم حصاد الناس زرعهم، ومنه فلا وقت لديهم للفتح والجهاد والمقاتلة، وكذا ما كان فيه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، من عسرة، ومن ضيق ذات يده، في التجهيز، حتى نادى في الباذلين- وكل كانوا باذلين، وعلى قدره- وأن يضع كل ما قدر عليه، وكذا علمه صلى الله عليه وسلم، بأنباء المنافقين، والتي ما فتئت تسكت، وما زالت تكيد.

وفي ظل هذه الأجواء اتخذ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قراره بالفتح المبين، لهذه بلاد الروم؛ وكيما يأمن شرهم من جانب، وكيما يكونوا هم هذه الدولة الأولى بالرعاية؛ ولأنهم أولو القربى، ومن حيث الديانة، وباعتبار أصلها السماوي، وباعتبار أن منهم قسيسين ورهبانا، وأنهم لا يستكبرون، وبه فقد كانوا أولى بذلكم

الفتح لبلادهم من غيرهم، وإن حسبوا ما يحسبون! ولسوف يجيء يوم في ظلال الإسلام الحنيف الخالد، يرتعون، ويهنأون، ويسعدون، وكأني بهم يقولون: ويكأن الفتح قد كان قبل هذا؟!

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٨ - ٢٩] .

هذا قرآن مجيد، أنزله الله تعالى ربنا الرحمن الرحيم، ويكأني به يتنزل كل آن معنى ملائما، وحالا ملاصقا، وليحكي لنا مسيرة البشرية، وفي عهدها الطويل، وحين انكبت على غير هذا الهدي الكريم، وكأنما لم يتنزل، أو كأنما نزلت آيات الصلوات والزكوات والحج والعمرات، والناس يجتهدون في إعمال ما سبق، وإلا أنه إذا حام آخرون حول آيتي سورة التوبة السابقتين، رأيت الدنيا، وقد أقاموها، ولم يقعدوها، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون:٥]. وفي تمرير غريب، ولما لم نلحظ منه، أو قريبه شأن غيره.

والواقع أن كل ذلك من شعائر الله تعالى، ويستوي فيها أن نكون أمام صلاة، أو صوم، أو زكاة، أو حج، وكما يستوي أيضا أن نكون فيها أمام نفرة، أو جهاد، أو قتال، ولأن نصوص التنزيل تنزلت، وليقوم الناس عندها بالقسط، والقسط هنا هو هذا العمل، والفعل، والتنفيذ، والتطبيق، لكل ما فرضه القرآن الكريم، وإعطاؤه حقه،

وما يستحقه، والأمر ههنا يعد عبادة للرب العظيم الكريم سبحانه، ولما كانت عبادته مشمولة بسائر ما أنف، لا بعضه، وغض الطرف عما سواه.

ولكن الله تعالى، وإذ يعلم ركون قوم، أو استسهال آخرين، أو تلمس آخرين أيضا، ولإيجاد أعذار مبيحة، أو صارفة، لا توقف أمامها العزم، ولا يوهن عندها الإصرار، ولإعلاء كلمة الله تعالى، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وأن هذا لهو الدين الحنيف، وأن هذا لهو القسم العدل، ذو القسطاس المستقيم، وأما ما عداه فمنزلق حذر، واتجاه خطر!

ومهما كانت المعايير،وأيا ما كانت المعاذير أيضا، فإننا جميعا نكون وقد أوقعنا أنفسنا في خطر، وإذ كنا جميعا وفي غنى عن ذلكم حشر لنا أنفسنا في نطاق الصلوات والزكوات والعمرات والحج، وإذ تلهث ألسنتنا بالدعاء، وكثرة الصلاة والسلام على هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، آناء الليل وأطراف النهار وأن كل ذلك خير، ومأجور فاعله، لا مأزور، ولكنه ليس يمكن قبوله انفراديا عن شعائر مولانا الله تعالى قاطبة، وخاصة في حق من كانت لديهم ملكة التحقيق، والتحرير، والعلم، والبيان والبلاغ الصادق عن الله تعالى مولانا الحق لا إله إلا هو وإليه المصير، وإذ ما كان مندوبا في حق عامي، يكون واجبا على أولي العلم بيانه، وإلا صاروا كاتمين ما أنزل الله تعالى من البينات والهدى من بعد ما بينه الله تعالى للناس في الكتاب، وكما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[البقرة:١٥٩].

وهذا الإعلان القرآني العام، وكما قد جاءت به سورة التوبة، ومستنفرا أولي العزيمة والرشد، وللنفرة في سبيل الله تعالى مولاهم الحق المبين سبحانه، وكما قد

فعل نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين تنزلت الآيات القوارع، نهض ولم يستأن، وقام ولم يؤجل ونفر ولم يترخص، وتعجل ولم يركن، ولأن نداء الحق أوجب، ولأن أمر الجهاد أحكم، وحين كان لله تعالى، ولإقرار نظامه في أرضه تعالى، وجعله ملزما لمن نكص واستدبر، وإلا حورب وقوتل وجوهد، وإلا سار الناس على منهج رسوله صلى الله عليه وسلم، وبعد أن يأخذوا آيتي المائدة، وعلى معانيهما.

ولكن هذه النفرة القرآنية المجيدة، وحين كانت مسببة، وكل عمل في هذا الدين ذو سبب، وله وسيلة، وكلها متضامة، بعضها إلى بعض، وكيما تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وكلمة الله هي دينه، وتوحيده، وشرائعه، وحينما نزلت من السماء، ولم تنزل إلا لكي تكون منهجا للناس وسبيلا، يعيشون من أجله، ويموتون من أجله أيضا، ولأن هذا من قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

وحين تتعطل منهجية الله تعالى في أرضه، أو تتغير، أو تتبدل، وإنما يتبع فيه سبيل هذا القرآن نفسه، وفي علاج كل قضية أو مسألة تجد للناس، وحين وجب الجلوس، والقيام، والقعود، والتحلق، والخروج بمنهج عملي، ولمجابهة هكذا منهج عملي أيضا، وأنه ليس معقولا أن يجابه المنهج العملي، وبمنهج آخر قولي! أو مسطر بين دفات الكتب، والتحصيل، والفقه، والعلم، ودون ممارسة! وإلا كان ذلك مفرغا للقرآن الكريم نفسه، ومن معناه، الذي نزل به، ولأجله، وحين قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

وانظر كيف قدم القرآن المجيد النفرة، وجعلها أصلا، وعلى الفقه في الدين، وجعله تبعا! وحين قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾. ومن ثم ليأتي الذي بعده، ومن بعده أيضا! وهو ذلكم الفقه في الدين؛ ولأنهما جناحا الحفظ لهذا الدين الحنيف الخالد، وإذ لا طائر بجناح واحد!

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، ولأنه كان أعلم بمقصود ما نزله عليه مولاه تعالى ربنا الحق المبين، وإذ تجهز، ولغزوة تبوك، وليقف بنفسه على مراد القرآن الكريم، وكما أنف، بلا تأويل يقعد النص عن إلفه، وبلا تأجيل يصرف النظم عن مؤداه.

وهذا الذي حدث، ويوم أن علم الله تعالى أن الأقرب فالأقرب هو ذلك المشمول بالدعوة أولا، وإلا كان دفع الجزية حملا على الدين، وإلا كان القتال سبيلا.

ولكن الحمل على الدين حملا، وإن هو إلا رغبة خير للغير، وإيثار فضل لمن فاتتهم قاطرة الهدى، والصلاح، والتقوى، والنور، والسرور، والحبور.

ولكنه صلى الله عليه وسلم، وحين فعل ذلك، فإنما كان من أمر ربه أيضا، وحين قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ولست أذهب مذهب من ذهب إلى أن هذا الأمر بقتال الذين يلونهم؛ ولأجل المغنم أو الجزية، وإنما ولأننا نقف مع القرآن الحكيم حيث وقف، وإنما نذهب معه حيث ذهب، ولأنهم ﴿يَلُونَكُم﴾ وليس هناك مدخل لتأويل غير سائغ، وإلا لأنهم ﴿يَلُونَكُم﴾!

وأما التأويل، ولأنهم أهل قربى! وهذه نظرة هذا الدين لأغيار! ولربما جاءتنا منهم الحملات، ولربما أطلقوا في وجوهنا الأعيرة النارية القاذفة! وها نحن ندعوهم إلى

خير ما نحن فيه؛ برا بهم! ومن حيث قال الله تعالى فيهم ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة :٨٢].

وهذا هو الموافق لظواهر النصوص، وتلك من مناقب هذا الدين، وحين كانت لأولي القربى قيمة، وأهمية، وحرص على أن يسلموا، ولئن أدفعناهم الجزية! ولما يرفضوا!

وليس في ذلكم من عجب، ولأننا نريد أن نحملهم على مجيء يوم يسلمون فيه لله تعالى ربنا، الخلاق، العليم، سبحانه.

ولهذا كله كان تجهز نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لغزو الروم، جيران الجزيرة، ولما يحكم الله تعالى أمره.

قال الله تعالى ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤١ - ٤٢].

هذا أمر من الله تعالى، وخاطب به جميع عباده المؤمنين.

وأمره تعالى واجب النفاذ، فوريا، لا تراخيا.

وليس ثمة ما يدعو إلى التأخير في تنفيذ أوامر الله تعالى، وحين يكون الأمر متعلقا بما كان موجب التقوى، وبما كان سبيل تحقيق هذا الإيمان.

ولعل النظم جاء مخاطبا عموم المؤمنين، وبلفظ الأمر الجازم.

وجاء أمره تعالى ههنا، وفي غير ههنا، حسما لمادة التكاسل، وقطعا لدابر الاحتجاج، والزعم، والتماس الأعذار، ولما كان الله تعالى بكل شيء عليما، وإذ كان من علمه سبحانه أن قوما سيتثاقلون، فأمرهم بالخروج، وأن آخرين سيعتذرون، فأمرهم بالخروج، والخروج خفافا، وبما تحمله المفردة من معاني الخفة الحاملة على البذل، ولمن كان كذلك، أو ثقالا، وبكل ما تحمله المفردة أيضا من معاني الثقل، والمعينة والمشجعة على البذل أيضا، ولمن كان كذلك، وبه فلا يمنعن أحدا عذر أن يتخلف، وبه أيضا حسمت مادة الخلاف حسما. فالخروج ولا بديل عنه، وهذا هو موجب تصديق الإيمان، وحين كان دعوى، وتحقيق مناطها هو ذلكم الخروج خفافا وثقالا، ولأن الخروج ههنا كان من معاني الجهاد ومتطلباته، فجيء به خاصة، ثم عطف عليه بالعام، وهو الجهاد- والجهاد في سبيل الله تعالى-، وهذا هو موضوع هذا الدين، الذي هو الإخلاص، وعلى كل حال، وحين يكون الإخلاص هو سائق العبد ودليله، فثم الإيمان، ولهذا جعل الخروج خفافا و ثقالا جهادا في سبيل الله تعالى، شرطا لتحقيق دعوى الإيمان، وهذا الذي يجعل أحدنا واضعا يده على صدره؛ خوفا ووجلا، وحين كان هذا الأمر المزلزل لكيان العبد كله! وأين هو من هذا، وأين هذا منه؟!

ولكن الله تعالى، ولعلمه أن قوما سيعتذرون، ولا ثمة عذر، فقد سبق القدر بفضحهم، وهتك أسرارهم، ولما لم يعتذروا بعد، وهذا من إعجاز هذا القرآن، وإذ كان يمكن لهؤلاء المنافقين ألا يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنه فقد أصاب الدين كله في مقتل، ولكنه الله تعالى! وهذا إعلان عام آخر على أن الله تعالى يعلم السر وأخفى، وأنه تعالى يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون، وفي تحد كاشف عن مدلول الإعجاز القرآني، وفي أوسع معانيه!

ولأنه الله تعالى يعلم السر وأخفى، فقد أنبأ في هذا القرآن أن أولاء الذين سوف يعتذرون هم أولاء الذين لو دعوا إلى عرض من الدنيا للبوا، ولم يتخلف منهم أحد! وأنهم كذلك لو كان سفرا قاصدا لمتاع، ومن لعاعة الدنيا لاتبعوك، ولم يتخلف منهم أحد أيضا، وهذا فضح لبواطن السرائر، وهذا كشف لدواخل الصدور، وبحيث يعلم أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، ومن ههنا وجب الحذر، ومن ههنا وجب الوجل.

ولا يزال النظم فاضحا، وحين لا يزال كاشفا، لعلهم وإذ لا يزال متتبعا لما يمكن أن يقولوه، بل لما سوف يقولونه حرفا حرفا! وحين تجاسروا على الحلف كذبا، وأنهم لو استطاعوا الخروج لخرجوا! ولكن الله تعالى يبغتهم بغتة، وحين أنبأ أنهم كاذبون! وهذا الكذب هو صفة لصيقة بالمنافقين، وعلى كل حال من أحوالهم، ولهذا وجب اجتناب هذا الكذب؛ ولأنه وحين يكذب العبد فإنما يحقق قسطا من النفاق، وعلى قدر هذا الكذب، وأنه قد حاز نصيبا من النفاق، وعلى قدره أيضا!

ولهذا جعل الاستجابة لأمره تعالى بالخروج، برهانا، ودليلا وآية، على صدق هذا الإيمان، ومن عدمه، ولهذا أيضا قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ افْتَتَحَ مَكَّةَ: لا هِجْرَةَ، ولَكِنْ جِهَادٌ ونِيَّةٌ، وإذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا، فإنَّ هذا بَلَدٌ حَرَّمَ اللَّهُ يَومَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ، وهو حَرَامٌ بحُرْمَةِ اللَّهِ إلى يَومِ القِيَامَةِ، وإنَّه لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فيه لأحَدٍ قَبْلِي، ولَمْ يَحِلَّ لي إلَّا سَاعَةً مِن نَهَارٍ، فَهو حَرَامٌ بحُرْمَةِ اللَّهِ إلى يَومِ القِيَامَةِ، لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، ولَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، ولَا

يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إلَّا مَن عَرَّفَهَا، ولَا يُخْتَلَى خَلَاهَا. قالَ العَبَّاسُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إلَّا الإذْخِرَ؛ فإنَّه لِقَيْنِهِمْ ولِبُيُوتِهِمْ، قالَ: قالَ: إلَّا الإذْخِرَ [١].

وعن أنس بن مالك: أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قال: ((جاهِدوا المشركِينَ بأموالِكُم، وأنفسِكم، وألسنتِكُم)) [٢].

وسائر ما ذكر وغيره، ومما حفل له وبه هذا المنهج السامي الكريم، وإنه ليمثل منظومة متكاملة للعود إلى حياة هذا الدين، ودعوة الناس أجمعين، لدين رب العالمين، وإنما يبدأ بالأدنى فالأدنى، وعدم استعجال النتائج، وريثما يكون العبيد مستأهلين لتحقيق موجب إيمانهم بالله تعالى ربهم الحق المبين سبحانه.

ولكن الله تعالى؛ ومن لطفه، وإذ يعلم كراهية الناس البذل بنفوسهم رخيصة في سبيله تعالى، وإذ يعلم سبحانه شأن العبيد وضعهم هذا، ومنه فقد أعلم أنه، ولئن كان القتال كرها، وإلا أن ما عند الله تعالى خير وأبقى، والعاقل هو ذلكم العبد الذي يختار ما عند الله تعالي، وهذا فصل في الأمر، وحين يحسب الناس أنهم وحين يقتلون رجلا أن يقول ربي الله، وقد جاءهم بالبينات من ربهم، وإلا أنهم بذلك يقدمونه شعلة خير، وبرهان وقود لهذا الدين، وحين كان منه عصبة نذرت نفسها لله، وخلت عن دنيا، وعلمت أن ما عند الله خير وأبقى، وأنه ولا شك هو الحق، وقياس لدنيا أيامها معدودة، وعلى آخرة كان الخلود حقا ثابتا فيها. ولهذا قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

---

(١) صحيح البخاري: ١٨٣٤

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٥٠٤

وعن عبادة بن الصامت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(عليكم بالجهاد في سبيلِ اللهِ تبارك وتعالَى، فإنه بابٌ من أبوابِ الجنَّةِ، يُذهِبُ اللهُ به الهمَّ والغمَّ)[١] .

قال الله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

جاءت غزوة تبوك؛ لتمحيص الصف المسلم، وتطهيره، وارجاعه إلى صوابه، وايقافه عند حده! وحين جاء القرآن الكريم، فاضحا ستر المنافقين، وحين اتخذ كل فريق منهم عذرا، وما كان بعذرا!

وأول ما كان ابتلاء هو ذلكم الإعلان النبوي العام بالنفير العام أيضا، وإذ ليس كان ذلك من عهده بالغزو، ويكأنه علم أن من الناس من سيرجفون، وأن منهم من سيعتذرون، وإذ لا عذر.

وهذا الذي حدث ويوم اعتذر الجد بن قيس، وبدهاء، وحين خادع نفسه، وخدع نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وحين اتخذ مطية عذره المفضوح، وحين يكشفها القرآن الحكيم كشفا، وستظل آية على هكذا صنف، ليس يخلو منه مجتمع ما.

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه: لما أراد النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يخرجَ إلى غزوةِ تبوكَ قال للجَدِّ بنِ قيسٍ: يا جدَّ بنَ قيسٍ، ما تقولُ في مجاهدةِ بني الأصفرِ قال يا رسولَ اللهِ إني امرؤٌ صاحبَ نساءٍ ومتى أرَى نساءَ بني

---

(١) السلسلة الصحيحة الألباني: ١٩٤١

الأصفرِ أفتَتِنُ أفتأذنُ لي في الجلوسِ ولا تفتِنِّي فأنزل اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا [١].

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان يُعَرِّضُ بغزواته، وإلا غزوة تبوك، ولعله لعلمٍ عن ربه كان يعلمه!

وبه دل على أن هذا المشار إليه هو الجد بن قيس، وكان واحدا من هكذا صنف عانى منه الإسلام عهده كله!

وثمة فريق آخر كان من المنافقين، وحين فضح القرآن الكريم سريرته، وحين اعتذر من الحر وشدته، وإذ لو كان استحضار حقيقي لحر جهنم ما قالوا قولهم هذا، وحين قال الله تعالى عنهم، ورد عليهم أيضا ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨١ و٨٢].

وإلا أن غزوة تبوك وإذ كانت موجهة إلى الروم، وكما أنف، ابتداء بالأقرب فالأقرب، وفي اكتساح إسلامي مهيب لأرض الله تعالى؛ ولتطهيرها من هكذا شرك ضرب أطنابه في عمق الحضر والبادية آنذاك، وإذ كان لا بد أن ينتهض الدين قائما، ونفرة واحدة، لإعلان كلمة الله تعالى وإعلائها، وفوق كل كلام آخر.

ولكنه ابتلاء منه تعالى، وأن يحزم النبي صلى الله عليه وسلم أمره، وفي حين عسرة من يد، وفي وقت شدة من حال، ولكنه هو هذا الدين، ولما لم تسعفه طبيعته، وإلا أن يقوم الناس نشطاء، وإلى يوم جهادهم عدو الله تعالى وعدوهم، ومن حيث كان

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي:٧/٣٣. حكم المحدث: فيه يحيى الحماني وهو ضعيف.

الرزق مكفولا، ومن حيث كان الجهاد مفروضا، ومن ثم فلا عذر للتأخير، ولا تأويل للتخلف، وإلا من عذر الله تعالى، وإلا أن يكون نفاقا، ولعل الله تعالى أن يكشفه، وأن يخذله، وأن يذله، وحين نصره تعالى للمؤمنين.

يمثل جهاز الاستخبارات عصب الأمة. وعليه مدار نصرتها وهزيمتها، ولهذا كان اختيار مكوناته جد مهم، وعلى عين من القائد، وتحت حراسته أيضا.

وهذا عمل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم غزوة تبوك، وحين راجت الأخبار وماجت، وأن نفرا من المنافقين يجتمعون في بيت رجل يدعى سويلم اليهودي، ولتثبيط الناس عن الخروج يوم غزوة تبوك، وحين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم يحزم أمره، ويحسم قراره، في مهاجمة الروم، وكيما يبسط نور الحق والهدى على ربوع البسيطة، ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ولا شك أن هذه الأخبار، ومن عقدنا، وأنها جاءت عن طريق جهاز الاستخبارات الإسلامي، والذي لا شك أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان به أعرف، وأعلم، وأخبر. وأنه كان قد تكون على عين منه صلى الله عليه وسلم.

ولهذا السبب أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبيد الله ونفرا من أصحابه؛ ليحرقوا عليهم دارهم، وليقطعوا عنهم اجتماعهم، وليبوء المرجفون بخزيهم.

وهذا الذي حدث، وحتى باغتهم المسلمون، ومن بعد انكشاف سرهم.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام ابن هشام رحمه الله تعالى أنه بلغ رسول الله ﷺ أن ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي - وكان بيته عند جاسوم - يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم طلحة بن عبيد

الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا [(١)].

وعن عويم بن ساعدة، رضي الله عنه قال لأصحابه يوم بعثوا إلى المنافقين في بيت سويلم: أطيعوني وأحرقوهم بالنار كما أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)].

زعم ورده

وإلا أنه وقد جاءت مزاعم قوم، وأنه وكيف يمكن الجمع بين رحمة نبيكم وإذ تدعونها، وبين تحريق الناس بالنار هذا؟!

وأقول: وإذ لسنا ندافع عن هدي نبينا ﷺ، وإذ نتركه هو الذي يدفع عن نفسه، ولما كان هذا النبي رحيما وأيما رحمة، وحين شهد له بذلك هديه، ولست أسارع لأقول: وكذا خصمه، وإنما كان هديه الأول، ومن ثم جاؤوا وحيث بنوا من هديه، أنه حقا رؤوف رحيم، وإن نبيا قال: ومن فجع هذه بولدها؟! وكانت طيرا، لقمن أن يكون نبيا رسولا، ورؤوفا رحيما معا، وهو الذي قال في نفس حديثه هذا: وإنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا من خلقها، وإذ كان بنو آدم أولى رعاية، وأدعى كرامة. وفي وضع ناموس هديٍ منقطع النظير.

فعن عبد الله بن مسعود: كنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سفرٍ فانطلق لحاجته فرأينا حمَّرةً معها فرخان فأخذْنا فرخَيها فجاءت الحُمَّرةُ فجعلت تفرشُ فجاء النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال من فجع هذه بولدِها؟ رُدُّوا ولدَها إليها.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام: ج٤ /١٥٧، ط دار الكتاب العربي- بيروت، ت: عمر عبد السلام تَدْمُري.

(٢) الآحاد والمثاني، ابن أبي عاصم: حديث رقم ١٧١٧

ورأى قريةَ نملٍ قد حرقناها، فقال: من حرقَ هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذِّبَ بالنارِ إلا ربُّ النارِ [١].

ولكن السياق الذي بين أيدينا، وحين أخذت شماعة قولهم منه، ودونما نظر إلى عمل الخيانة العظمى، وأثره في اضمحلال الأمم، ومن ثم أفول نجمها، وها هي دولة الإسلام الفتية، ولما يملأ نورها الآفاق بعد، وماذا كان يمكن أن يتعامل به، وفي مواجهة خيانة عظمى، وكهذا الذي بين أيدينا، ومن منافقين مردوا على النفاق، إلا استئصال شوكتهم، ومن ثم آية للعالمين، وكيما لا يعاود ذلكم صنف، من أن يطل برأسه من جديد، ولعل واحدا أو اثنين، وممن هم على هذه الشاكلة، يكون إنقاذا لمجتمع بأسره، ولما ينتهض أمام ثلة قليلة، تكون آية للعالمين، وهذا سلاح ردع، وإلا استفحل الأمر، واتسع الراقع على المرقوع.

وإن قيل: فهلا كان غير الحرق؟

وأقول: نعم؛ وفرق بين أن يكون الأمر بتحريق بيتهم، وليس يلزم أن يحترق من فيه! وهذا الذي جرى، ويوم أن هربوا منه، وهذا الضحاك قد ترك لنا شعرا، ومن بعد هروبه! وبل هو والذين كفروا ونافقوا معه! وبه نعدل إلى منهج الصواب، وهو أن الوعيد بالعقاب الأليم موجب حياة القوم لا إهلاكهم، وأن التهديد بالإيلام الشديد سبب لأن يرعووا.

وهذه رحمة المنهج، وعند التأمل والتحقيق!

وانظر إلى القصاص، وكيف كان حياة؟! وحين قال الله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩].

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٥٢٦٨

وانظر الى حد الرجم، وكيف كان صونا لمجتمع النبي بأسره، ولما حدثت واقعة واحدة، وكانت سببا في إحصان هذا المجتمع كله!

وأذلكم أهون، أم ترك الأمور، وكما هو مشاهد؛ لنسمع نبيبا هناك مرة، وهنالك مرات أخر؟!

والنبيب: هو صوت التيس عند الجماع!

وهذه عبارة الإمام ابن هشام رحمه الله تعالى: فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا. فقال الضحاك في ذلك:

كادت وبيت الله نار محمد يشيط بها الضحاك وابن أبيرق

وظلت وقد طبقت كبس سويلم أنوء على رجلي كسيرا ومرفق

سلام عليكم لا أعود لمثلها أخاف ومن تشمل به النار يحرق

وأقول: بل ولربما ولو كان غير هذا لوجدت منهم مقاومة، ولربما أدت إلى هلكة من الطرفين، أحدهما، أو كلاهما، فجاء دب الذعر في أبدانهم أولى، وكان قذف الرعب في قلوبهم أدعى، وعلى وجه كهذا، لا ليفكروا معه في المقاومة، بل ليسوا يجدون إلا مهربهم، وإليه يؤولون! وبه فقد أحيوا من مخافة، وليسوا قد أهلكوا ومن مقاتلة!

وفي هذا بلاغ آخر، وحين ارتأى فريق أن ليس تحريما بل تواضعا، وأفضلية، وإن وجد غيره من تعذيب لكان أولى، أو لعل الحال لم يكن ليسمح بغير هذا، ولا سيما أننا أمام عمل يمكن أن يقوض تاريخ ومجد الأمة بأسرها، وفيما لو كان قد كتب لاجتماع كهذا أن تخرج قراراته، وعلى ملأ من الناس، والله تعالى وحده أعلم بما كان يمكن أن يسفر عنه من دمار وهلاك للأمة المسلمة يومها هذا، وإلى يوم الناس هذا

أيضا، ولا غرو! وإذ لا يمكن السكوت والوقوف مكتوفة أيدي الناس، ولحين أن يبغتهم عدوهم، ومن عقر دارهم!

وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]

وبمثل ما أنف هو على ما يلي أيضا:

وروى الإمام البخاري رحمه الله تعالى أنَّ أنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عنْه حَدَّثَهُمْ: **أنَّ ناسًا مِن عُكْلٍ وعُرَيْنَةَ قَدِمُوا المَدِينَةَ علَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَكَلَّمُوا بالإسْلامِ، فقالوا: يا نَبِيَّ اللَّهِ، إنَّا كُنَّا أهْلَ ضَرْعٍ، ولَمْ نَكُنْ أهْلَ رِيفٍ. واسْتَوْخَمُوا المَدِينَةَ، فأمَرَ لهمْ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذَوْدٍ ورَاعٍ، وأَمَرَهُمْ أنْ يَخْرُجُوا فيه فَيَشْرَبُوا مِن ألْبانِهَا وأَبْوالِهَا، فانْطَلَقُوا، حتَّى إذا كانُوا ناحِيَةَ الحَرَّةِ، كَفَرُوا بَعْدَ إسْلامِهِمْ، وقَتَلُوا راعِيَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واسْتاقُوا الذَّوْدَ، فَبَلَغَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ في آثارِهِمْ، فأمَرَ بهِمْ، فَسَمَرُوا أعْيُنَهُمْ، وقَطَعُوا أيْدِيَهُمْ، وتُرِكُوا في ناحِيَةِ الحَرَّةِ حتَّى ماتُوا علَى حالِهِمْ. قالَ قَتادَةُ: بَلَغَنا أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعْدَ ذلكَ كانَ يَحُثُّ علَى الصَّدَقَةِ ويَنْهَى عَنِ المُثْلَةِ. وقالَ شُعْبَةُ، وأَبانُ، وحَمَّادٌ، عن قَتادَةَ: مِن عُرَيْنَةَ. وقالَ يَحْيَى بنُ أبِي كَثِيرٍ، وأَيُّوبُ، عن أبِي قِلابَةَ، عن أنَسٍ: قَدِمَ نَفَرٌ مِن عُكْلٍ.**[1]. فعن عبد الله بن عباس: **أنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عنْه حَرَّقَ قَوْمًا، فَبَلَغَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقالَ: لو كُنْتُ أنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: لا تُعَذِّبُوا بعَذَابِ اللَّهِ، ولَقَتَلْتُهُمْ، كما قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَن بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**[2].

وأقول أيضا: إن مذهب فريق بنسخ ذلكم أمر وارد، وأتوقف فيه، والله أعلم.

---

(١) صحيح البخاري: ٤١٩٢

(٢) صحيح البخاري: ٣٠١٧

ثم لماذا يقيم الناس دنياهم ولا يقعدونها، وهذه آثارهم، وتلك أقوالهم؟!:

١- {ها أنذا آمر يقول الرب: وأردّهم إلى هذه المدينة فيحاربونها ويأخذونها ويحرقونها بالنار وأجعل مدن يهوذا خربة بلا ساكن} [١] .

٢- {ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون المدينة بالنار. كقول الرب تفعلون. انظروا. قد أوصيتكم} [٢] .

ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم

ولكن هذا لا ينسينا عمل ذي النورين، عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وحين سمع النبي صلى الله عليه وسلم يحفز الناس، على تجهيز جيش العسرة، ولما كان مبادرا رضي الله تعالى عنه، وحين تكفل بثلاث مائة بعير بأحلاسها وأقتابها.

وهاتان صورتان ماثلتان، وحين كان الإرجاف يعمل عمله في تثبيط همم المؤمنين، وتخويف الصحب الغر الميامين.

وأما في الجانب الآخر فهذا هو عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، يقدم ما به تقر عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه وإن وجد في الصف ما يعكر صفوه، فإن فيه أيضا ما يبقي رونقه، ولمعانه، وبريقه، مضيئا ساطعا، منيرا، مشرقا.

وإلا أنه قد جاءت روايتان في عمل عثمان هذا.

فأما الرواية الأولى: فقد كانت بأنه وضع ألف دينار في حجر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولتجهيز جيش يوم العسرة، جيش تبوك.

---

(١) العهد الجديد، إرمياء ٣٤-٢٢

(٢) العهد الجديد، يشوع ٨-٨

فعن عبد الرحمن بن سمرة جاءَ عثمانُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ بألفِ دينارٍ قالَ الحسَنُ بنُ واقعٍ: وفي موضعٍ آخرَ من كتابي، في كمِّهِ حينَ جَهَّزَ جيشَ العُسرةِ فينثرُها في حجرِهِ. قالَ عبدُ الرَّحمنِ: فرأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ يقلِّبُها في حجرِهِ ويقولُ: ما ضرَّ عثمانَ ما عَمِلَ بعدَ اليومِ مرَّتينِ.[1]

وأما الرواية الأخرى: فهي بخصوص الثلاث مائة الناقة.

فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَبَّابٍ، قَالَ: شَهِدْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَحُثُّ عَلَى جَيْشِ العُسْرَةِ فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلَيَّ مِائَةُ بَعِيرٍ بِأَحْلاَسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ حَضَّ عَلَى الجَيْشِ فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلَيَّ مِائَتَا بَعِيرٍ بِأَحْلاَسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ حَضَّ عَلَى الجَيْشِ فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلَيَّ ثَلاَثُ مِائَةِ بَعِيرٍ بِأَحْلاَسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْزِلُ عَنِ الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَقُولُ: مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ، مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ.[2].

وأقول: وليس يمنع من اجتماعهما معا؛ ولفضل منه قد عهد؛ ولجود منه قد عرف.

وهذا بيان لفضل عثمان ومناقبه، بذلا وإنفاقا، ولتجهيز جيش العسرة، ولضيق ذات اليد عند نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وليسخر الله تعالى له ذا النورين، زوج ابنتيه، رقية وأم كلثوم رضي الله تعالى عنهما، عثمان بن عفان رضي الله عنه، وليقوم بمثل عمل هكذا، كان سببا في اطمئنانه وأمنه وسلامته يوم القيامة.

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٧٠١

(٢) سنن الترمذي: ٣٧٠٠

وهذا هو عثمان بن عفان رضي الله تعالى، وإذ كان يكفي ومن مثل ذلكم بذل، وأن يكون ردا على تغيبه، وعن غزوة بدر العظمى، وحين كان يمرض زوجه رقية رضي الله تعالى عنهما، وبأمر من القائد الأعلى للقوات المسلحة يومها، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وقد عالجنا هذا الأمر في حينه، ومن هذه السيرة النبوية المباركة.

وهذا هو عثمان بن عفان رضي الله تعالى، وإذ وصفه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه أصدق أمته حياء!

فعن عبد الله بن عمر أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قال: أرْأَف أمتي بأمتي أبو بكرٍ، وأشدُّهم في دينِ اللهِ عمرَ، وأصدقُهم حياءً عثمانُ، وأقضاهم عليٌّ، وأفرضُهم زيدُ بنُ ثابتٍ، وأقرؤهم أُبَيٌّ، وأعلمُهم بالحلالِ والحرامِ معاذُ بنُ جبلٍ، ألا وإنَّ لكلِّ أمةٍ أمينًا، وأمينُ هذه الأمةِ أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاحِ. [١] .

وهذا هو عثمان بن عفان رضي الله تعالى، وحين كان مبشرا بالجنة، وما بعدها ولا قبلها بشرى، يرجوها آحاد الناس! وذلك: أنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عنْه حِينَ حُوصِرَ، أَشْرَفَ عليهم وقالَ: **أَنْشُدُكُمُ اللَّهَ، ولَا أَنْشُدُ إلَّا أَصْحَابَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: مَن حَفَرَ رُومَةَ فَلَهُ الجَنَّةُ، فَحَفَرْتُهَا؟ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أنَّهُ قالَ: مَن جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ، فَجَهَّزْتُهُمْ؟ قالَ: فَصَدَّقُوهُ بما قالَ** [٢] .

---

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٨٦٨

(٢) صحيح البخاري: ٢٧٧٨

أين المتصدق هذه الليلة؟

هذا علم آخر من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم غزوة تبوك، وحين كشف الله تعالى الصدور، ولما أطلع نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على ذلكم صنف من الناس الذين حوله وقرائحهم واستعدادهم بذلا في سبيل الله تعالى مولاهم الحق المبين سبحانه، وإذ توالت المناسبات، ومن كل صوب وحدب؛ لصقل هذا الجيل؛ كيما يعد لحمل أعباء نشر هذه الرسالة الجديدة، وبما تحمل من هدى ونور، يهدي به الذين اتبعوا رضوان سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

لكن هذا رجلا كان في صعيد أولاء الصحب الكرام، وحين حاولوا أن يشاركوا نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم غزوه للروم، يوم تبوك، ولما لم تسعفهم المؤونة، ولما لم يجدوا متنفسا لذلك، بحملهم على الذهاب، وهم صادقون، وبرهان صدقهم ذلكم هو علم النبوة الذي نعيشه الآن، وكل آن من هذه السيرة النبوية المباركة.

ولكن هذا الصحابي الكريم علبة بن زيد، ولما كان يمثل فريقا من أولاء الذين ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليحملهم ويزيدهم زادا، به يستطيعون اللحاق بإخوانهم الباذلين أموالهم وأنفسهم في سبيل ربهم الحق المبين سبحانه، ولما لم يجدوا ما يحملهم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع؛ حزنا ألا يجدوا ما ينفقون، وهذا تعبير قرآني كريم، ينبئ عن صدقهم، ويحكي إخلاصهم، ويدل على هذا اليقين بربهم الله تعالى الحق المبين، وأن ما عند الله تعالى خير وأبقى، ومن هذه الدنيا كلها، ومما فيها، وإن هي في الحياة الآخرة إلا متاع.

وهذا الصنف من الناس هو الذي نزل فيه قرآن يتلى إلى يوم الدين؛ دلالة وبرهانا على أن قوما ههنا كانوا صادقين، من جهادهم، وخروجهم، ومن بذلهم

أنفسهم، ولما لم يجدوا ما يحملهم إلى الجهاد وإلا جودا بأنفسهم، وما هي إلا ملك لمن خلقها، وهو الله تعالى الحق المبين سبحانه.

وقال الله تعالى ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩١و٩٢].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام الذهبي رحمه الله تعالى، وحين قال: وأما علبة بن زيد فخرج من الليل فصلى ما شاء الله، ثم بكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو عرض. ثم أصبح مع النَّاسَ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم: "أين المتصدق هذه الليلة"؟ فلم يقم أحد. ثم قال: "أين المتصدق؟ فليقم". فقام إليه فأخبره. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبشر، فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة" [١] .

ولكن هذا الذي بين أيدينا، ومن مثل علبة بن زيد هذا، وإذ ليس يصرفنا عن صنف آخر، كان موجودا أيضا، وحين تلمس الأعذار، ولما احتال على هذا النبي المصطفى المختار- صلى الله عليه وسلم-، وحين كان مثله ذلكم جد بن قيس، ولما تظاهر بفتنة النساء، ويفضح الله سره، وكما أنف، وليكون آية، ولكنها ليست كآية علبة بن زيد!!!

---

(١) سير اعلام النبلاء، ط الحديث، شمس الدين الذهبي:٢/١٥٩

ولكن هؤلاء البكائين السبعة، كان لهم شأنهم، وحين أتوا ليحملهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، ولما كانوا ذوي عوز من أمرهم، ولما لم يجدوا عنده ما يحملهم تولوا، وأعينهم تفيض من الدمع؛ حزنا ألا يجدوا ما ينفقون، وإذ كان منهم هذان اللذان حدث عنهما الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى، مثلا لغيرهم، فقال: فبلغني أن ابن يامين بن عمير بن كعب النضري لقي أبا ليلى، وعبد الله بن مغفل، وهما يبكيان. فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه، فأعطاهما ناضحا له، فارتحلاه وزودهما شيئا من تمر، فخرجا مع النبي ﷺ [1].

ولكنه كم دل أيضا على ذلكم مجتمع، وكما قد رأيناه مملكة نحل، وإذ كل يقوم فيها بدوره، وعلى نحو مبهر حقا، وعلى سبيل معجز أيضا، فهذا باذل ماله ونفسه، وكعثمان، وهذا باذل ماله كابن يامين، وهذا باذل عرضه وكعلبة بن زيد.

ولكنه وعلى صفحة أخرى، ومن هذا السجل، نجد أولاء الذين نافقوا! وسبحان من خلق هذا وبرأ ذاك!

ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم

هذه تربية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأصحابه الكرام، وبل وتربيته لكل جيل مسلم، وحين يعلق قلبه بالله تعالى أولا وآخرا، وحين يرد الأمر كله لله تعالى؛ ولأن الأمر كله لله تعالى، ولما يرجع الفضل إليه سبحانه أيضا؛ ولأنه تعالى ذو الفضل العظيم.

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ /٩

وهذه قاعدة إيمانية ثابتة، وإذ عليها مدار الأمر كله، ولما كان الأمر كله لله تعالى، ولما كان التوفيق منه تعالى، ولما كانت أزمة الأمور- كلها- بيده تعالى وحده.

ولكن جانبا آخر جدير، وهو ذلكم حرص أولاء الصحب الكرام على أن يأتوا نبيهم محمدا صلى الله عليه وسلم؛ ليحملهم تزودا؛ ليوم تبوك، وإذ لم يجدوا من ذوات جيوبهم ما يجعلهم ينفقون طواعية، وعن رضا، ومن ثم يكون ذهابهم هذا مكتنفا معه رغبة صادقة في الذهاب، وهذه تجعل القائد فرحا، مسرورا، مغبطا؛ ومن أداء أفراد أمته، ومن حرصهم على البذل للنفس في سبيل الله تعالى مولاهم الحق المبين سبحانه، وهو أيضا كاشف عن رغبتهم في إزالة شبهة شكه في صدقهم، أو ريبه في قبولهم، وها هم أولاء بين يديه، وهو من ثم مطلق التصرف في توجيههم الوجهة التي يريد، وهذا تصرف مجيد لأولاء الصحب الأجاويد بحق.

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم ولما كان ليس يملك من حمل يحملهم، أو زاد يزودهم، ومن ثم كان اعتذاره حلفا، وبأنه ليس عنده ما يمونهم به، أو يزودهم منه، ولهذا كان قسمه صلى الله عليه وسلم بربه، وحين قال: والله ما أحملكم، وما عندي ما أحملكم عليه.

ولكنه صلى الله عليه وسلم وكان الله تعالى قد علم صدق نوايا الرهط الأشعريين، وحين جاءه مدد السماء، وعطاء الله تعالى الملك القدوس السلام المؤمن المهين العزيز الجبار المتكبر سبحانه، وحين جيء له بنهب إبل، فاستدعاهم، ومنحهم ستا منها.

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان قد أقسم، وإلا أن هذا الدين رافع حرجا، وميسر أمرا، ومزيل عسرا، ومسهلا يسرا، وحين كان التحلل من القسم، ولما كان خير

منها مأمولا، ومن ثم يعود عن حلفه حانثا، ثم يكفر عنه، وهذه مرة أخرى من تيسيرات ديننا، ومن تسهيلات إسلامنا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أبي موسى قال: كُنَّا عِنْدَ أبِي مُوسَى، وكانَ بيْنَنا وبيْنَ هذا الحَيِّ مِن جَرْمٍ إخاءٌ ومَعْرُوفٌ، قالَ: فَقُدِّمَ طَعامٌ، قالَ: وقُدِّمَ في طَعامِهِ لَحْمُ دَجاجٍ، قالَ: وفي القَوْمِ رَجُلٌ مِن بَنِي تَيْمِ اللَّهِ، أحْمَرُ كَأنَّهُ مَوْلًى، قالَ: فَلَمْ يَدْنُ، فقالَ له أبو مُوسَى: ادْنُ؛ فإنِّي قدْ رَأَيْتُ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأْكُلُ منه، قالَ: إنِّي رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ شيئًا قَذِرْتُهُ، فَحَلَفْتُ أنْ لا أطْعَمَهُ أبَدًا، فقالَ: ادْنُ أُخْبِرْكَ عن ذلكَ؛ أتَيْنا رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رَهْطٍ مِنَ الأشْعَرِيِّينَ أسْتَحْمِلُهُ وهو يَقْسِمُ نَعَمًا مِن نَعَمِ الصَّدَقَةِ -قالَ أيُّوبُ: أحْسِبُهُ قالَ: وهو غَضْبانُ- قالَ: واللَّهِ لا أحْمِلُكُمْ، وما عِندِي ما أحْمِلُكُمْ عليه، قالَ: فانْطَلَقْنا، فَأُتِيَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنَهْبِ إبِلٍ، فقِيلَ: أيْنَ هَؤُلاءِ الأشْعَرِيُّونَ؟ فأتَيْنا، فأمَرَ لنا بخَمْسِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى، قالَ: فانْدَفَعْنا، فَقُلتُ لأصْحابِي: أتَيْنا رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَسْتَحْمِلُهُ، فَحَلَفَ أنْ لا يَحْمِلَنا، ثُمَّ أرْسَلَ إلَيْنا فَحَمَلَنا، نَسِيَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَمِينَهُ، واللَّهِ لَئِنْ تَغَفَّلْنا رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَمِينَهُ لا نُفْلِحُ أبَدًا، ارْجِعُوا بنا إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَلْنُذَكِّرْهُ يَمِينَهُ، فَرَجَعْنا فَقُلْنا: يا رَسولَ اللَّهِ، أتَيْناكَ نَسْتَحْمِلُكَ، فَحَلَفْتَ أنْ لا تَحْمِلَنا، ثُمَّ حَمَلْتَنا، فَظَنَنَّا -أوْ: فَعَرَفْنا- أنَّكَ نَسِيتَ يَمِينَكَ، قالَ: انْطَلِقُوا؛ فإنَّما حَمَلَكُمُ اللَّهُ، إنِّي واللَّهِ -إنْ شاءَ اللَّهُ- لا أحْلِفُ علَى يَمِينٍ، فأرَى غَيْرَها خَيْرًا مِنْها، إلَّا أتَيْتُ الذي هو خَيْرٌ، وتَحَلَّلْتُها.(١).

(١) صحيح البخاري: ٦٧٢١

ونَهْبُ الإِبِلِ، أي: بغَنيمة فيها إبلٌ.

والله إنك عندنا لمصدق، ولنفعلن ما أحببت

هذه منطوقات قلوب أولاء الصحب الكرام، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وهذا برهان سلامة صدورهم، وسعة أفقهم، وفقه تعاملاتهم، ولما كان الأخ منهم يأخذ تصرف أخيه لا سبيل الشك والريبة والتهمة، وإنما على طريق التصديق، وبلا ريب فيه، أو دخن منه.

فهذا عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري، رضي الله تعالى عنه، وحين أبلغ الأشعريين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم ليسوا يجدون ما يحملهم عليه، وهذا بلاغه إليهم، ثم، ولما ابتاع النبي صلى الله عليه وسلم من سعد ستة أبعرة، أو جيء لهم بغنيمة فيها إبل، ومن ثم أمر بلالا أن يناديه؛ ليأخذ حملا لأولاء الكرام الميامين الباذلين، ومن ثم ليدعوهم للوقوف بين يدي نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولإثبات صحة دعواه في المرتين، وليكون ردهم هذا: والله إنك عندنا لمصدق، ولنفعلن ما أحببت.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أبي موسى قال: **أَرْسَلَنِي أصْحَابِي إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أسْأَلُهُ الحُمْلَانَ لهمْ، إذْ هُمْ معهُ في جَيْشِ العُسْرَةِ، وهي غَزْوَةُ تَبُوكَ فَقُلتُ يا نَبِيَّ اللَّهِ، إنَّ أصْحَابِي أرْسَلُونِي إلَيْكَ لِتَحْمِلَهُمْ، فَقَالَ واللَّهِ لا أحْمِلُكُمْ علَى شيءٍ ووَافَقْتُهُ، وهو غَضْبَانُ ولَا أشْعُرُ ورَجَعْتُ حَزِينًا مِن مَنْعِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومِنْ مَخَافَةِ أنْ يَكونَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وجَدَ في نَفْسِهِ عَلَيَّ، فَرَجَعْتُ إلى أصْحَابِي فأخْبَرْتُهُمُ الذي قَالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمْ أَلْبَثْ إلَّا سُوَيْعَةً، إذْ سَمِعْتُ بلَالًا يُنَادِي: أيْ عَبْدَ اللَّهِ بنَ**

قَيْسٍ، فأجَبْتُهُ. فَقَالَ: أجِبْ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعُوكَ، فَلَمَّا أتَيْتُهُ قَالَ: خُذْ هَذَيْنِ القَرِينَيْنِ، وهَذَيْنِ القَرِينَيْنِ - لِسِتَّةِ أبْعِرَةٍ ابْتَاعَهُنَّ حِينَئِذٍ مِن سَعْدٍ -. فَانْطَلِقْ بهِنَّ إلى أصْحَابِكَ، فَقُلْ: إنَّ اللَّهَ، أوْ قَالَ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَحْمِلُكُمْ علَى هَؤُلَاءِ فَارْكَبُوهُنَّ. فَانْطَلَقْتُ إليهِم بهِنَّ، فَقُلتُ: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَحْمِلُكُمْ علَى هَؤُلَاءِ، ولَكِنِّي واللَّهِ لا أدَعُكُمْ حتَّى يَنْطَلِقَ مَعِي بَعْضُكُمْ إلى مَن سَمِعَ مَقَالَةَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لا تَظُنُّوا أنِّي حَدَّثْتُكُمْ شيئًا لَمْ يَقُلْهُ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالوا لِي: واللَّهِ إنَّكَ عِنْدَنَا لَمُصَدَّقٌ، ولَنَفْعَلَنَّ ما أحْبَبْتَ. فَانْطَلَقَ أبو مُوسَى بنَفَرٍ منهمْ، حتَّى أتَوُا الَّذِينَ سَمِعُوا قَوْلَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَنْعَهُ إيَّاهُمْ، ثُمَّ إعْطَاءَهُمْ بَعْدُ فَحَدَّثُوهُمْ بمِثْلِ ما حَدَّثَهُمْ به أبو مُوسَى.[١].

وفيه جواز رفع المسلم التهمة عن نفسه.

وفيه جواز القسم على ذلك؛ تأكيدا.

وفيه سلامة صدور القوم آنذاك.

يا رسول الله أتخلفني في النساء والصبيان؟!

هذا هو استفهام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، ويوم استخلفه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على أهله وأهله يوم تبوك.

وهذا الاستفهام تعجبي لا حقيقة، ولأن هؤلاء الصحب الغر الميامين كانوا يحبون الجهاد حبا جما، وكانوا يؤثرون الشهادة في سبيل الله تعالى، رغبة في جنات عرضها السماوات والأرض، أعدت للمتقين، وقد كانوا يعلمون قول ربهم

(١) صحيح البخاري: ٤٤١٥

الرحمن﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد:١٩].

وإلا أننا ننظر إلى هذا الحدث، وحين كان موازيا لحدث آخر أكثر فظاظة، وأعلى فظاعة، وحين رجع عبد الله بن أبي بن سلول من طريق غزوة يوم تبوك هذا، وفي ثلاثين ألفا ممن معه! وهذا جرح نازف في جسد الأمة يومها، وكل يوم، وحين يتجمع معسكر النفاق، والذين في قلوبهم مرض، ويعملون من ثم على النكوص والرجوع والإدبار، وليكشفوا ظهر نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وما هو بمكشوف!

ولأن هذا الدين منتصر بنا أو بغيرنا، وإنما ولأنه دينه تعالى، وما الناس إلا سبب وبه يكافؤون، وعليه يؤجرون جنات عرضها السماوات والأرض، ومن دنيا يصيبونها، ومن ثم يكون لهم قصب السبق والثناء من رب الأرض والسماء.

والحاصل أن هذا فرد استخلفه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان وكمثابة أولاء الذين تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون!

ولكننا نهدف من وراء استخلافه عليا معنى ملائما، وحين نعرف أن بيت القائد يكون هدفا مرادا، ويتربص به الخصوم الدوائر، ولهذا فليس يستغرب أن يخلف عليا على البيتين معا.

ولكننا أيضا نسجل قول علي بن طالب رضي الله تعالى عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا: يا رسول الله أتخلفني في النساء والصبيان؟

وكما قلت ليعلم ابن أبي، ومن على شاكلته طبائع الرجال الكرام النبلاء وبذلهم.

وكأننا نتلطف بتلطف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كان مهدهدا عليا رضي الله تعالى عنه، وحين قال له: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي»؟

وهذه درجة صديقية له رضي الله تعالى عنه، وقد سجلت له، ونظير حرصه على بذله نفسه في سبيل الله تعالى مولاهم الحق المبين، وحين علم الله تعالى صدقه، وحين أيقن النبي صلى الله عليه وسلم إخلاصه.

وإلا أننا نسجل استخلافه صلى الله عليه وسلم على المدينة أحدهم، وعلى خلاف في اسمه، وهل هو محمد بن مسلمة الأنصاري، وعلى قول الإمام ابن هشام رحمه الله تعالى، أو هو سباع بن عرفطة، وعلى ذكر الدراوردي رحمه الله تعالى، أو هو علي بن أبي طالب، وعلى رواية الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

فعن سعد بن أبي وقاص: **إنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ خرجَ في غزوةِ تبوكَ استخلفَ عليًّا رضيَ اللَّهُ عنهُ على المدينةِ فقالَ عليٌّ : يا رسولَ اللَّهِ ما كنتُ أُحبُّ أن تخرجَ وجهًا إلَّا وأَنا معَكَ فقالَ أوَما ترضَى أن تَكونَ منِّي بمنزلةِ هارونَ من موسى غيرَ أنَّهُ لا نبيَّ بعدي.** [١].

وعلى هذا فإنه يحمل استخلافه صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله تعالى عنه، وإنما كان على المدينة وأهلها، وليس على آله وآل علي وحدهما، وبه تنتفي شبهة تخلفه، ولأن هذا عمل منضاف إلى أعمال الإمام الأعظم، وحيثما قام به أو أناب.

وهذا عمل إداري ممتاز، كيما يحفظ على الجبهة الداخلية التئامها ووحدتها وحاجتها.

---

(١) مسند أحمد، أحمد شاكر: ٦٧/٣

ولكننا أيضا نسجل موقف المنافقين، والمرجفين، والصيادين في الماء العكر، وحين أخذوا من هذا الموقف زعما أنهم بإمكانهم شق الصف، ومن حول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين تبادلوا من قولهم، ومن قبل غيرهم، وأن محمدا أراد استقلال عليا واستخفافه، وليس يريده في المقاتلة، وإلا فقد كان ألحقه مع الجند!

وهذا الذي كشفنا نقابه عما قليل.

وهذه هي الحرب الإعلامية الضروس، والتي تشن على العصبة المؤمنة، والجماعة المسلمة وفي كل آن، وحين وإذ يجب على الجهاز الإعلامي في هيئة الشؤون المعنوية للقوات المسلحة أن تكون جاهزة للرد والادعاء المضاد، وكيما تخمد فتنة، وكيما ترد كذبة، بل ولعلها تقوم في وجه خصمها فتلقنه الدرس يوما، ومن بعد يوم آخر، فتفقده توازنه.

كن أبا خيثمة

وهذا علم ضاف آخر من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم تبوك أيضا، وحين تخلف أبو خيثمة مالك بن قيس بن ثعلبة عن ذلك اليوم المشهود في تاريخ الأمة بأسرها، وحين راح إلى زوجتيه، وقد أعدت له كل منهما نمارقها، وفتنتها، وحسنها، وما به تروح نفوس الرجال إلى أهليهم!

ولكنه وحين رأى ذلك يعود إليه صوابه، ويستعيد رشده، ويستأهل قيمته الإنسانية الرشيدة، وحين يصعب على أولي البصائر والنهى وأن يتركوا رسولهم هكذا، في حر شديد، وبلاء عظيم، وبأس شديد، وها هم يتمتعون بالنساء على الفرش!

ومن ثم لينهض محاكيا نفسه: أ رسول الله وهذا حاله! وأبو خيثمة عند سرير ونمارق وماء بارد؟!

وليأمرهما أن تعدا له راحلته وتهيئانها، وكما تهيأت إحداهما لعرس يوم جديد! وكيما يلحق بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ويشاركه حربه وقتاله وجهاده!

وها هو يقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأن ظلاله لتحكي صورته، ولكن رياحه لتقص حكايته، وأنه ولا شك قادم صدق بحديث الصدق أيضا، وحين توسمه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وليكون أبا خيثمة!

وها هو يحكي له الرواية، وها هو يقصص عليه الحكاية، ويدعو له نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بخير.

وهذا جانب مضيء آخر من جوانب هذه السيرة النبوية المباركة ولنقف لا على تاريخ مجيد لأولاء الصحب الأجاويد الكرام وحسب، وإنما على صنف عز وجوده من قبل، وإنما على جيل ند أن يجود الزمان بمثله بعد!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى، وحيث قال: ثم إن أبا خيثمة رجع بعد ما سار رسول الله ﷺ أياما إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت فيه ماء، وهيأت له فيه طعاما، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له.

فقال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنصف! والله لا أدخل عريش واحدة منكما، حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا زادا ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك. وكان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك. قال أبو خيثمة

لعمير بن وهب: إن لي ذنبا فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ. قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل. فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة، فلما بلغ، أقبل فسلم على رسول الله ﷺ. فقال له: «أولى لك يا أبا خيثمة». ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر فقال: خيرا ودعا له بخير [١].

يرحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده!

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو خبر يحمل معنى الدعاء، وهذا من بلاغته صلى الله عليه وسلم، وإذ أوتي جوامع الكَلِمِ، وإذ منح موانع الكَلْمِ (ما يجرح المشاعر).

وكان قوله هذا إعجازا، وعلم نبوة معا.

وهو إعجاز؛ لأنه يحمل معنى الخبر عما هو آت، وإذ أخبر صلى الله عليه وسلم أن أبا ذر رضي الله تعالى عنه، سيموت وحده، وهذا مما لا يعلم إلا بوحي، ولأنه من علوم الغيب، والتي هي من أخص خصائص الرب الكريم المتعال سبحانه، فدل على أن هذا الذي قاله صلى الله عليه وسلم، وإنما لم يقله إلا بوحي أيضا، ودل على مطلق الإعجاز، وحين مات هذا الرجل وحده، صحبة زوجه وغلامه!

هذا، وإن هذا الإعجاز ليحمل في ثناياه، ومن بين عروقه علما ضافيا، من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، وحين كانت كل مراحل هذا الخبر تتقاطر منها خلايا الإعجاز، وأعلام النبوة معا.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ١٢

وإذ كان أبو ذر هذا مثلا من أمثلة أولاء الرهط الكرام، والذين كانت لهم من الدنيا عزلة، والذين كان لهم من الجهاد نصيب مغفورا!

وهذا ليس جمعا بين النقائض وكيما نعجب! وإذ ليس يعني اعتزال المرء دنيا الناس أن يجبن عند اللقاء! أو أن يتأخر عن اللحاق بركب أولاء المجاهدين الغر الميامين، ولأن هذا الدين من طبيعته النفرة، ولأن هذا الإسلام الحنيف الخالد من إلفه هو ذاك هجر الخلود، والركون، والسكون، والخمول، وحين دعا داع الجهاد أن هلموا، وإلى حيث قال الله تعالى ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

ولكن مناسبة قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذا كانت ذا شأن بالغ، ولما كان يوم تبوك، يوم العسرة، والناس يتفلتون، بل والله تعالى يمحص الصف، وينقيه، ويغربله من هكذا منافق مرجف، ومن هكذا ضعيف هزيل البنية الإيمانية، مخذل، ومن هكذا متعلق قلبه بالدنيا، ولما كان محروما من هكذا بذل في سبيل الله تعالى، ويوم خرج هذا النبي، وإذ قد عزم على مقاتلة الروم، ولو كان وحده، وبل لم يكن وحده، وإنما ربه معه، وتحرسه عنايته أينما حل وارتحل، بل ولم يكن ربه ليذره، وإلا ويجمع حوله أولاء الصحب الكرام الغر الميامين، وممن أسلموا وجوههم لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

ولأن يوم تبوك كان ابتلاء، واختبارا، وامتحانا، ولأنه من ذلك شأن كل يوم لقاء، وحين رأينا كيف كان من شأن هذا عبد الله بن أبي بن سلول، ولما يتخاذل عن كل لقاء جهادي، قتالي، شرفي، عال، سامق، رفيع!

ولأن الناس هاجوا يوم تبوك وماجوا، وقد كان من شأن خبر أبي ذر هذا أن يرجع ويعود وإلى الجهاد، وإلى حيث محله، ولما قد أشيع أنه تخلف مع المتخلفين، وإذ لم يكن ومن مثل هذا إلا أن يسارع ويسابق، ولينفي بريب التهمة، وليلقي خبث الريبة، وأن يثبت، وأن يلحق بهذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، وحتى ولو لم تسعفه راحلته، وحين تأخرت، وعثرت، وليحمل متاعه فوق ظهره، ويلحق بركب العصبة المؤمنة، وليكون ذا عدد، ومع هذه الثلة التي خرجت، وما أخرجها إلا قول الحق الذي فيه يمترون، بيعا لنفس قد اشتراها خالقها، وحين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

وهذا كله، وكما كان وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن. وكما أنف عهدا لكل جيل سامق، وعلى مدار الزمان كله، لا صومعة وديرا وحسب، ولا مسجدا وحسب، ولا كنيسا وحسب، وإنما تعانق بين المحراب والسيف، وحين دعا داع الجهاد، وعلى مر الزمان والمكان.

ومثل هذا الذي حدث مع أبي خيثمة، وحين كان علما على نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، فكذا وهو نفس الذي جرى لأبي ذر رضي الله تعالى عنهما، وحين رأى النبي رجلا قادما، حاملا متاعه فوق ظهره، ويكابد الرمضاء، ويجاهد عناء الطريق، ورياح الزمان، وهبوب المكان، وهذا الطقس الملبد بالغبار، والحر الشديد، وهو إذ يحمل متاعه فوق ظهره، ورغم كل هذا، وليقول هذا النبي صلى الله عليه وسلم: كن أبا ذر، وكما قال يوما مثله: كن أبا خيثمة!

وهذا وكما أنف علم نبوة ضاف، ولما كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم كل مرة يمنحنا من فيض أعلام نبوته، ما يزيد الناس إيمانا مع إيمانهم. وحين كان هو ذا أبا ذر حقا!

وليقول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قوله هذا: يرحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده! وليكون كما قال صلى الله عليه وسلم.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: **لَمَّا سارَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تَبوكَ، جعَلَ لا يَزالُ يَتخلَّفُ الرَّجُلُ. فيَقولونَ: يا رسولَ اللهِ، تَخلَّفَ فُلانٌ. فيَقولُ: دَعُوه، إنْ يَكُنْ فيه خَيرٌ فسيَلحَقُكم، وإنْ يَكُنْ غيرَ ذلك فقد أراحَكم اللهُ منه. حتى قيلَ: يا رسولَ اللهِ، تَخلَّفَ أبو ذَرٍّ، وأبطَأَ به بَعيرُه. قال: وتَلوَّمَ بَعيرُ أبي ذَرٍّ، فلمَّا أبطَأَ عليه أخَذَ مَتاعَه، فجعَلَه على ظَهرِه، وخرَجَ يَتبَعُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ونظَرَ ناظِرٌ، فقال: إنَّ هذا لرَجُلٌ يَمشي على الطَّريقِ! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كُنْ أبا ذَرٍّ. فلمَّا تَأمَّلَه القَومُ، قالوا: هو -واللهِ- أبو ذَرٍّ! فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: رحِمَ اللهُ أبا ذَرٍّ، يَمشي وَحدَه، ويَموتُ وَحدَه، ويُبعَثُ وَحدَه. فضرَبَ الدَّهرُ مَن ضرَبَه، وسُيِّرَ أبو ذَرٍّ إلى الرَّبَذةِ. فلمَّا حضَرَتْه الوَفاةُ أوْصى امرأتَه وغُلامَه، فقال: إذا مِتُّ فاغسِلاني، وكَفِّناني، وضَعاني على الطَّريقِ، فأوَّلُ رَكبٍ يَمُرُّونَ بكم فقولا: هذا أبو ذَرٍّ. فلمَّا مات فعَلا به ذلك، فاطَّلَعَ رَكبٌ، فما عَلِموا به حتى كادتْ رَكائبُهم تَوطَّأُ السَّريرَ. فإذا عَبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ في رَهطٍ مِن أهلِ الكُوفةِ، فقال: ما هذا؟ قيلَ: جِنازةُ أبي ذَرٍّ. فاستَهَلَّ ابنُ**

مَسعودٍ يَبكي، وقال: صدَقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يَرحَمُ اللهُ أبا ذَرٍّ! يَمشي وَحدَه، ويَموتُ وَحدَه، ويُبعَثُ وَحدَه. فنزَلَ، فوَليَه بنَفْسِه، حتى أجَنَّه.[١]

فرحم الله أباذر، ورضي الله تعالى عنه.

دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم تبوك، ويوم أن أخبره صحبه الكرام الغر الميامين الأمجاد، أن تخلفا من فلان، وأن فلانا آخر قد تأخر.

وهذا مؤشر عظيم على أن هذا الدين ذو عزة وأنفة، وحتى بين أهله، وما بالك بغيرهم.

وهو كذلك ذو عزة، ولأن العزة لله جميعا، وأن هذا الدين، وأن هذا الجهاد وأن هذه الشعائر، وإذا لم يؤدها العبد طواعية واختيارا، وعن طيب خاطر منه، فلربما أداها صورة بلا معنى، وجسدا بلا روح، ولا أرضا قطع، ولا سماء أبقى، وحين يرجع وبخفي حنين، وهذا جانب أهم، ومنه الأهم، وأن البذل حينها، ولن يتسنى له عن محبة وإخلاص، والقيام بهما تامين تامين، ومما يعرضه لشرخ في الدين، أو في إخلاصه، ومن ثم يكون بين بين، وفي مدى قبول عمله، أو ليس يقبل منه، ومردود عليه من ثم.

ولكن الذي نقف عليه، هو ذلكم اللطف النبوي الكريم، وفي موقف جد شديد تجابه الأمة المسلمة آنذاك، ويوم تبوك، يوم العسرة، وهو ذلكم اليوم الذي يمثل أول وقعة تقع خارج أرض الجزيرة العربية، وإذ ليس للقوم فيها من حسابات دقيقة، ولأن

---

(١) تخريج سير أعلام النبلاء، شعيب الأرناؤوط:٢/٥٦. حكم المحدث: إسناده ضعيف.

الجبهة مفتوحة على مصراعيها، وليست تعرف حدودها الجغرافية، وليس لديهم إحداثيات لها تبعا، ومما يجعل كل شبر خارج الجزيرة، وداخلا في نطاق الروم الجغرافي جبهة، ومنه فإن الأمر جد لا هزل فيه، ورغم ذلك كان هذا هو موقف النبي صلى الله عليه وسلم، وحين لم يكره أحدا، وهذا أهم، وحين لم يعاقب أحدا، وهذا الأهم، ولما أنف ذكره، من رحمته ورأفته وعزته.

وإلا أن حضور أحد إلى أرض الميدان مكرها، ولربما أضعف الآخرين، أو كان سبيلا للتغرير به، من جانب الخصم، وفي هذه الحالة صار حضوره وبالا على هذه الجماعة المسلمة الناشئة.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى عبد الله بن مسعود قال: عن عبد الله بن مسعود قال: لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك جعل لا يزال الرجل يتخلف فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان. فيقول: " دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ". حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره. فقال: " دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه " [(١)].

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾

هذا بيان دقيق لوصف يوم تبوك، ولما كان ساعة العسرة.

والعسرة تحمل كثيرا من معنى العسر؛ ولما جاءت هكذا معرفة، ويكأنها كانت الآخرة! ولربما كانت من معنى العدد أيضا، ولا عدد، لكننا نتلمس منها صورة عدد،

---

(١) [السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٤ / ١٥].

مكرر، مضاعف للعسر! ولما جاء على وزن فُعْلَةٍ، ولكنه جاء معرفة أيضا، وليحمل من معاني العسر ما كان منه مركبا بعضه فوق بعض.

والعسرة إعجاز، ولأنها تتضمن معنى الدَّيْن، ويكأن كل مسلم مدين لربه تعالى، وفي هذا الدين الحنيف، بإقامة دينه، وذلك ليس يكون إلا ببسط سلطانه، ومن فوق كل سلطان آخر! وإلا فكيف يمكننا فهم معنى هذه العسرة، وإذ كانت عسرة حقا، وإلا بتأويلها ذلكم التأويل الذي أنف، ولأننا كلٌّ مجتمعٌ مدينون لله تعالى العلي الأعلى، ببذل الأموال والمهج والنفوس والأرواح؛ ولإقامة هذا الدين، ومنه كانت عسرة أيضا، ولتأخر نفر، من عذر كأبي ذر، ولتخلف نفر آخر؛ ومن دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، وكالجد بن قيس، ومن شدة حر، ومن ضيق، ذات يد، ومن قلة الزاد والحمولة والظهر، أو كما قالوا، ومن قلة ماء؛ ولأنه تعالى جعل من هذا الماء كل شيء حي أيضا، هذا وحين يستشعر العبد أنه مدين لله تعالى، فإنما كان هذا الدَّيْنُ هو الذي منه في مثل يوم تبوك، يوم العسرة، وإذ كان دَيْنًا، وإلا أنه يحمل من معناه أيضا هذه النظرة إلى ميسرة؛ ولأنه تعالى بعباده رؤوف رحيم كريم جواد حليم عفو جواد سبحانه.

ولكن هذا القرآن، وإذ اكتفى بهذا البيان، ولأنه إلماحات ههنا، ودون تفصيلاتها، ويترك لنا النظر الواسع، والتخيل الأوسع، ولمعاني العسرة، ولتشمل كل شأن يمكن أن يكون عسيرا، وإذ تواجهه هذه الجماعة المسلمة يومها هذا، وإذ تصبر، وتحتسب، وتظل مكانها، ولا تبرحه دفاعا عن بيضة الدين، وابتغاء مرضاة رب العالمين.

ولكن هذا الاسم الموصول(الذين) وحين جاء هكذا، فإنه يشي بالإشارة إلى هذا الجيل، وتقرير قاعدة الانطلاق الأولى نحو بذله، والإشادة به، لذلكم جانب، لست تراه، إلا من هذا الجيل السامق العالي.

ولكننا نتساءل، وكما تساءل الناس يومهم هذا، وعن عسرة إخوانهم يوم تبوك، ولننظر كيف كان قول الفاروق أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وحين أخبر حَرًّا، ولما أنبأ قيظا، وعطشا، وكما واجهوها، وعلى وجه شدة؛ ولأنها عسرة، وحتى بلغت أرواحهم حلاقيمهم.

وحين اضطروا إلى نحر إبلهم، ليعصروا أكراشها، وليشربوا ماءها! وليضعوها بعد على أكبادهم! وبه صارت البلوى ثلاثا، ولما لم يجدوا رواحل تحملهم، أو مياها ترويهم، أو طعاما يشبعهم، وهذا الذي ضاعف الخطب، وأمام أولاء الصابرين المحتسبين.

ولكن هذا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وإذ يطلب من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يدعو ربه، ولأن ربه تعالى قد عوده خيرا! وهذا هو الظن الحسن بالله تعالى العلي الأعلى سبحانه. وحين لا يرد سائلا، ولما يجيب مضطرا، إذا دعاه، وليكشف عنه السوء، ولمَّا يقرره رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقوله: أو ترى ذلك يا أبا بكر؟ وليرد أن نعم، ثم ليرفع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يديه إلى ربه تعالى، ولا يكادها تنزل، وإلا السماء سحا غدا مجللا، سقيا رحمة، لا سقيا غرق ولا هدم ولا عذاب، وحين راحوا يتلمسون إعجازها، وإذ رأوا غمامة ممطرة عليهم وحسب! وإذ لم تجاوز سماءهم!

فعن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ أنه قيل لعمرَ بنِ الخطابِ حدِّثنا عن شأنِ ساعةِ العُسرةِ فقال عمرُ خرجنا إلى تبوكَ في قيظٍ شديدٍ فنزلنا منزلًا وأصابنا فيه عطشٌ حتى ظننا أنَّ رقابَنا ستنقطعُ حتى أن كان أحدُنا ليذهبُ فيلتمسُ الرَّحلَ فلا يجدُه حتى يظنَّ أنَّ رقبتَه ستنقطع حتى أنَّ الرجلَ لَينحرُ بعيرَه فيعصرُ فَرْثَه فيشربه ثم يجعل ما بقِيَ

على كبِدِه فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ يا رسولَ اللهِ إنَّ اللهَ قد عوَّدك في الدعاءِ خيرًا فادع اللهَ لنا فقال أو تحبُّ ذلك قال نعم قال فرفع يدَيه نحو السماءِ فلم يرجِعْهما حتى قالت السماءُ فأطَلَّتْ ثم سكبَت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدْها جاوزتِ العسكرَ.[1]

ولكن هذه العسرة، ولما كانت علما على يوم تبوك، يوم العسرة هذا، وقد أفاض الناس فيها، وقد ذهبوا من وصفها كل مذهب؛ ولأنها كانت بحق ساعة العسرة. وإنما لزمت إضافة؛ وكيما نعيش يومها، ولو وصفا، ومن حيث لم يتسن لنا أن نعيش يومها، مشاركة، ودون تأخير، أو تخلف، ولكنه كان قدرا مقدورا، به آمنا، ولما لم نلحق بالقوم، ويكأننا ندعوه تعالى أن يأجرنا أجر محبتنا لأولاء الصحب الكرام الغر الميامين الأمجاد؛ ولسبقهم ولبذلهم في سبيل الله تعالى ربنا وربهم الحق الرحمن الرحيم سبحانه.

وإذ قال جابر: اجتمع عليهم عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء.

وإذ قال الحسن: كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعير، يعتقبونه بينهم، وكان زادهم التمر المتسوس، والشعير المتغير، والإهالة المنتنة، وكان النفر يخرجون ما معهم - إلا التمرات – بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم، أخذ التمرة فلاكها، حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك، حتى تأتي على آخرهم، فلا يبقى من التمرة إلا النواة، فمضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم[2].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٦/٩٦. خلاصة حكم المحدث: إسناده جيد قوي و لم يخرجوه.

(٢) تفسير القرطبي، القرطبي: ج٤/١٧٧

ويحك هل بعد هذا من شيء؟!

هذا يقين قوم آمنوا بالله تعالى ربهم الحق، وهذا يوم عمل فيه المنافقون عملهم، وحين اشرأبت أعناقهم ونفاقهم معا، يوم تبوك يوم العسرة، وحين أجدب الناس من ماء، ولما أحاطهم قيظ وحر، ولما كانت فتنة الظَّهْرِ معا، وحين رفع هذا النبي صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء، وإذ يتنزل القطر سحا غدا مجللا من السماء!

وهذه لا شك آية، بل ثلاث آيات:

فأما الآية الأولى: فلأنه لم تكن هناك سحائب، بل لا سحابة واحدة، ولم يكن الطقس هو ذلكم الذي يتوقع من خلاله مطر! ولذلك تنعقد النفوس السوية على أن هذا إعجاز، لا كما قال هذا المنافق: سحابة مرت!

وأما الآية الثانية: فهي تلكم السحابة التي استوى منها هذا المنافق ألا إعجاز، بل هي الإعجاز! ولأنه كانت على قدر مساحة القوم يومهم هذا! وإذ لم تتعداهم إلى غيرهم، وإذ لم تفت أحدا منهم!

وأما الآية الثالثة: وحين لم تنتظم معها أولاء الروم! وهذا بحد ذاته إعجاز آخر، بل وإنها ولو كانت قد أظلتهم لبطل ذلكم الإعجاز، وبه دل على هذا الإحكام الرباني في صنعته، ومنه كان ذلكم التحدي الإلهي في آيته!

وهذا الإعجاز بأطراف الثلاثة هو الذي جعل الصحب الكرام يومهم ذلك يتعجبون، ومن ذلكم المنافق الذي طبع الله تعالى على قلبه، فلم يتحرك لقلبه ساكن، ولم ينعم ربه عليه بمعرفة الآيات، والتفاعل بها، ومعها، ولذلكم ولو لم تكن هذه السحابة فيها من الإعجاز ما أحللته في كتابي هذا، فما كان لقولهم من حاجة، وحين قالوا: ويحك هل بعد هذا من شيء؟!

وهذا الذي قاله هذا المنافق هو الذي عنه كشف القرآن المجيد، وحين هتك ستر معاند كفور، ولما فضح خفية منافق رعديد، وهذا الذي قال الله تعالى به، حجة دامغة، وآية بالغة، وحين قال تعالى ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

ويكأن هذا المنافق، كان عريض القفا، مختوم القلب، وحين قال: سحابة مارة!

وليس هذا الإعجاز يصرفنا عن إعجاز آخر، وإذ وكما حكينا كثيرا في هذه السيرة النبوية المباركة، أن الله تعالى ينزل من آياته، ومن علامات نبوة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ما يجعل الحجة قائمة، وما يجعل الناس يؤمنون، ويزداد إيمانهم، ولكنه في نفس الوقت برهان آخر على قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]. وكما أنف.

ومناسبة قولنا هذا هو تضافر العلامات، وهو تواتر الآيات، على أعلام النبوات، وكل حين من أمر هذه السيرة النبوية المباركة.

ولكننا وحين نذهب مع أعلام النبوة هذه المذاهب كلها، وإنما يحكمنا في ذلكم علم الغيب، وأنه تعالى متفرد به، وأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قائم مؤمن به، وقد علمناه، وعنه اتخذناه، دينا قيما أيضا.

ولكن أعلام النبوة هذه، وحين تتصدر هكذا متفردا بها هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وليس كأحد من مثله يمكنه ادعاؤها، لا من قديم الزمان، ولا من حديثه، وإنما كانت تأتي أيضا، وكفلق الصباح، فدل إذن على أنها أعلام نبوة، وممهورة معا بتواقيع السماء، قدرا مقدورا، وعلم غيب كان مكنونا، وبرهان إعجاز كان في السماء عنده تعالى محفوظا، وفي نقل صدق عن نبينا كان منثورا.

وشاهد هذا، هو قوله صلى الله عليه وسلم: وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله.

وإن قيل: وما مناسبة قولك هذا؟ قلت: ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم! وحين ضلت طريقها عنهم يوم تبوك، يوم العسرة، وحين كانت لهذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم مع أمثال هذا النفاق تجارب عديدة، وجولات لصالح الحق سديدة، وبكأنه قال بقولهم، وحين استحضر تاريخا لهم، مليئا بمثل قولهم، هذا الذي استحضره نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى رواية الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى، وحين قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رجال من بنى عبد الأشهل، قالوا: فقال زيد بن لصيت القينقاعي، وهو في رحل عمارة، وعمارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمارة عنده: إن رجلا قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا، فجاءوا بها. فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شئ حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفا، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد بن لصيت، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى، فأقبل عمارة على زيد يجافي عنقه ويقول: إلى عباد الله، إن في رحلي الداهية وما أشعر، اخرج أي عدو الله من رحلي، فلا تصحبني.

قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيدا تاب بعد ذلك، وقال بعض الناس: لم يزل متهما بشر حتى هلك [١].

أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، لا يَلْقى اللهَ بهما عبْدٌ غيرُ شاكٍّ فيُحْجَبَ عَنِ الجنَّةِ

هذا حديث جليل عظيم الشأن. وقد رواه الإمام مسلم، وغيره من أهل السنن، رحمهم الله تعالى.

وهو يبين فضل هاتين الشهادتين العظيمتين الكريمتين، وحين كانتا سببا في النجاة من النيران، وموجبا لدخول الجنان، وهذان الفضلان، وكفى بهما نعمة، فأن ينجو العبد من السعير والزمهرير، وأن يدخل جنة أعدت لأولاء الذين آمنوا بالله ورسله، ولما وحدوا ربهم، ولم يشركوا به شيئا، ولما أفردوه تعالى بالتوحيد والطاعة والانقياد، وبكل رضا نفس، وطمأنينة قلب، وبحيث كان شرع الله تعالى هو السلطان الأقوى، وهو السبيل الأقوم، اتباعا وعملا ونصرة، وكذا خلع جميع الوزراء، والشركاء، والنظراء، والمشرعين، وجعل الشرع شرعه، والأمر أمره، والنهي نهيه، وحده تعالى بلا شريك.

وكذا شهادة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، حقا وصدقا ويقينا، ومن موجب ذلك طاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله تعالى إلا بما شرع.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٤ / ٩٥٠

وهاتان الشهادتان، وإذ كان هذا من معناهما، ولأنهما ذوا معنى واحد، منسجم، متضام، وإذ لا يلقى الله تعالى أحد غير شاك بهما إلا دخل الجنة.

وهذه بشارة لكل عبد أواب، أواه.

لكن هذا الحديث كانت له مناسبة جليلة، ومن جليل معناه أيضا، وذلك يوم أن كانت ساعة العسرة، أو يوم العسرة، يوم تبوك، وحين أصبح الناس في شدة من أمرهم، وعوز من شأنهم، وحتى أشاروا على نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم أن ينحروا نواضحهم أي: إبلهم، فيأكلوا منها ويدهنوا. ولكن الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه، وإذ كان مسددا، وإذ كان موفقا، وإذ كان ملهما، فقد أشار بغير ذلك؛ ولأنهم إذا فعلوا ذلك، فقد قل زادهم، وصعب ترحالهم، وهذا جد مؤثر على خطوط الإمداد والتموين، وهذه لها شأنها في الشؤون العسكرية، ولربما كان لها من أثرها السلبي في مواجهة الخصوم، وكذا لها أثرها البالغ في حياة الناس عامة أيضا؛ ولذا كان من رأيه رضي الله تعالى عنه استبدال هذه الخطة بخطة أحكم، وخاصة أن نبيهم محمدا صلى الله عليه وسلم بين أيديهم، وما ضرهم، بل نفعهم، أن يرفع صلى الله عليه وسلم كفيه إلى السماء، مستمطرا الفضل من الله تعالى، ومن بعد أن يجود كل مما يملك، ومن ثم يدعو الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وريثما تتقاطر بركات السماء، وكما قد تقاطرت مياهها وأمطارها، ومن قبل توا، وحين قد أشار بذلكم الصديق رضي الله تعالى عنه وأرضاه، على هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه بحق من فوائد الوزراء، ومن مناقب النواب، وحين يكونون يد الصدق والمشاركة الحسنة والمشورة السديدة، وبه تنهض أمتهم، ولا يغشون الراعي، ومنه تتقدم حضارتهم .

وما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن دعا الناس، وليأتي كل بما عليه قدرته واستطاعته وطاقته، وليجيء هذا بكف من ذرة، وآخر بكف من حنطة، وثالث بكف من تمر، وليضعوها على النطع، بأمر نبيهم صلى الله عليه وسلم، وليدعو ربه، فتحل بركات السماء، فيأكلون ويغترفون، ويمونون، ويتزودون، وتتبقى بقية عنهم تفيض، وهذه بركات الله تعالى العزيز الحميد سبحانه. وحينها قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قوله الآنف هذا: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها غير شاك فيحجب عن الجنة».

وإلا أنه ولئن كان هذا فضل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولئن كانت هذه قيمته العظمى عند ربه تعالى، وإلا أن فضل الله تعالى واسع، فيجود منه، وعلى عبيده، آناء الليل وأطراف النهار، وذلكم للأصل العام الذي هو بين أيدينا، وحين قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]. وكذا قوله تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٢].

وأمامنا ويوم استسقى الفاروق عمر بالعباس عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وما كادوا إلا والسماء تظللهم بغمامة منها يمطرون بفضل الله ورحمته تعالى.

فعن أنس بن مالك **أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، كانَ إذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بالعَبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ فَقالَ: اللَّهُمَّ إنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إلَيْكَ بنَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَتَسْقِينَا، وإنَّا نَتَوَسَّلُ إلَيْكَ بعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا قالَ: فيُسْقَوْنَ** [١].

ولست أغادر مكاني هذا، وإلا ببيان أن مسألة الأرزاق مضمونة محسومة قدرا، ومكفولة سلفا، وأن الله تعالى وحين يبتلي العباد، ومن مثل ما رأينا، يوم العسرة، يوم

---

(١) صحيح البخاري: ٣٧١٠

تبوك، وإنما كان ابتلاء، وإنما كان تمحيصا، وإنما كان اختبارا لمدى صبرهم، وإيمانهم، واحتسابهم، أول ذي بدء، وإنما كان استشرافا لأعلام النبوة لهذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما كان استحضارا لعقيدة الإنابة والرجوع إلى الله تعالى، وأن ينفض العبد عن ذات نفسه غرورها، وأن يسلك بها سبيل الأوبة والاتصال بالله تعالى العلي الأعلى سبحانه، ولتتمرغ عند عتبات الربوبية الحانية لهذا الرب الحليم الكريم، وحين ليس يرد إليه يدا رفعت، أو قلوبا سكنت، أو نفوسا رجعت، واهتدت، وقنتت، وإلى وعده اطمأنت، وهو في ذات الوقت أخذ بالسبب، وهذا الأخذ بالسبب دليل أن العبيد يتعلقون بحبال الاتصال بالله تعالى ربهم الكريم الحنان المنان، وكيما يجددوا عقد العبودية، وكل حين من أمرهم.

والناس بحاجة دائما إلى تجديد إيمانهم، وشحذ هممهم، وتبصير جاهلهم، وإيقاظ غافلهم، ومنه هذه الأعلام، وسواها، مما يعود نفعه وأثره على الناس، فيكونون لحمة واحدة، وكما أنهم أمة واحدة، صابرة، عاملة، قائدة، رائدة، وفي ميادين كبح جماح النفوس، وكذا بذلها في سبيل ربها الكريم أيضا.

ومنه كان تخول نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الناس بالموعظة، وبين الفينة وأختها؛ وتجديدا لهذا العقد الكريم، والقائم على رباط الانعتاق من هوى، والمؤصل على أصل الانبطاح بين يدي هذا الرب الكريم سبحانه، وكيما تتقاطر رحماته، وكل حين أيضا، فيصبح الناس ويمسون على هذه العبودية لربهم المنان، فيصطبغون معها بصبغة العبودية أبدا، ومن ثم يمنحهم من عزة ومن أنفة، ومن عبودية لله أيضا.

هـذا، وإن هـذه أعـلام النبـوة المتضـافرة المتتاليـة، وكأنمـا نراهـا نحـن، ويكأننـا نحسبها قد تنزلت فينا، ومن بيننا، ويكأنها هكذا نحسبها حقيقة، وهي إذ تنزل بنا نزول ضيف كريم قادم، يعز على النفوس وألا تكرمه، وجائزته معا، وحين كانت لنا زادا على الطريق أيضا.

وهـذا لـه أثـره في تثبيـت قلـوب المؤمنين، وفي اسـتدعاء طاقـات البر والرحمـة والقنـوت والخلـود والسـكينة والطمأنينـة، وللنـاس المـؤمنين أجمعـين، وكيمـا يعـودوا ويؤوبوا ويرجعوا إلى الله تعالى سبحانه.

وإذا كان هذا أثر هذه الأعلام في الناس يومهم هذا، فما بالنا بأثرها ويوم الناس الأول، ومن مثل يوم العسرة، يوم تبوك أيضا؟! وإذ تنزلت فيهم ومن بينهم حقا.

ودلـك على صحة مـذهبنا هـذا مـا رواه الإمـام مسـلم رحمـه الله تعـالى عـن أبي هريـرة، أو عـن أبي سـعيد الخـدري - شـك الأعمـش - قـال: **يـا رسـولَ اللهِ، لـو أذِنْـتَ لنـا فنحَرْنا نواضِحَنا؛ فأكَلْنا وادَّهَنَّا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: افعَلوا، قال: فجاء عمرُ رَضِيَ اللهُ عنه، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنْ فعلْتَ قَلَّ الظَّهرُ، ولكِنِ ادْعُهم بفَضلِ أَزْوادِهم، وادْعُ اللهَ لهم عليها بالبَركةِ؛ لعلَّ اللهَ أنْ يجعَلَ في ذلك. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: نعم، قال: فدعا بنَطْعٍ فبسَطَه، ثمَّ دعا بفَضلِ أَزْوادِهم، قال: فجعَلَ الرَّجُلُ يَجيءُ بكَفِّ ذُرَةٍ، قال: ويَجيءُ الآخَرُ بكَفِّ تَمرٍ، قال: ويَجيءُ الآخَرُ بكِسرةٍ، حتَّى اجتمَعَ على النَّطعِ مِن ذلكَ شيءٌ يسيرٌ، قال: فدعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالبَركةِ، ثمَّ قال: خُذوا في أَوْعِيَتِكُمْ، قال: فأخَذوا في أوعيتِهم، حتَّى ما ترَكوا في العَسكَرِ وِعاءً إلَّا مَلَؤُوه، قال: فأكَلوا حتَّى شبِعوا، وفضَلَتْ فَضلَةٌ. فقال رسولُ اللهِ**

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، لا يَلْقى اللهَ بهما عبدٌ غيرُ شاكٍّ فيُحْجَبَ عَنِ الجنَّةِ[1].

لا تعقروا الناقة!

عن أبي كبشة الأنماري: لما كان في غزوةِ تبوكَ تسارع الناسُ إلى أرضِ الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فنادَى الناسَ الصلاةُ جامعةٌ قال فأتيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو ممسكٌ بعيرَه وهو يقولُ: ما يدخلون على قومٍ غضب اللهُ عليهم، فناداه رجلٌ تعجب منهم: يا رسولَ اللهِ، قال: أفلا أُنِّبئُكم بأعجبَ من ذلك، رجلٌ من أنفسِكم ينبِّئُكم مما كان قبلَكم، وبما هو كائنٌ بعدَكم، فاستقيموا، وسدِّدوا فإن اللهَ عزَّوجلَّ لا يعبأُ بعذابِكم شيئًا، وسيأتي قومٌ لا يدفعون عن أنفسِهم بشيءٍ[2].

هذا حديث عظيم الشأن، وقد رواه المصنف رحمه الله تعالى مناسبة مرور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ديار ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام، وحين عقروا ناقة الله، الآية! وإذ كان من آياتها، أنها تشرب يوم شربها الماء كله! والذي كانت تشربه ثمود يومها التالي كله أيضا! لكن فارقا، ولا مقارنة من بابها، بين ما يكفي قوما بأكملهم، وإذ تشربه ناقة واحدة يومها التالي بأكمله! ولكنها وكفاها أنها ناقة الله تعالى! وفي إضافة ضافية، ولئلا يقال من بعدها من قول آخر، ومنسوبا لأي أحد آخر أيضا!

وقد كان هذا برهان وجوب إسلام القوم وجوههم لله تعالى، وحين رأوا ذلك، ومن بعد ما رأوا الآيات، ولكنك وماذا تقول، وحين تعمى البصائر عن الهدى وآياته؟!

---

(١) صحيح مسلم: ٢٧

(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٦/١٩٧. خلاصة حكم المحدث: فيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي وقد اختلط. توضيح حكم المحدث: إسناده ضعيف.

ولكنك وماذا أنت فاعل، وحين لا تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون؟! ولكنك أيضا، ولا يزال العجب يتملك فؤادك، وحين أقول لك: إنه كانت من آيات هذه الناقة أنهم ويوم شربها يشربون من لبنها! وهذا مطلق إنكار الجميل، وهذا عموم البلاء، وحين كانت لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، وإلى هذا الحد الذي رأيناه معا! فهذه ناقة يكفي لبنها ثمود قوم صالح يومهم كله! ورغمه، فليس كان قد تحرك فيهم ساكن الإيمان والتوبة إلى الله تعالى الخالق البارئ المصور! ورغم ذلك فقد كان مقتضى العقل السليم، وحين يرى ناقة يشربون- كلهم-، لبنها- كله-، يوم شربها، ولم ترفض، ولم ترفس، ولم تأب! وهاتوا لنا قوما يشربون من لبن بقرة لديهم أو حتى ماعز، ونسألهم الله تعالى معا، وماذا هم فاعلون معها إلا حفظا وإكلاء تامين دائمين!

ولكن الإعجاز الآخر، وحين طلبت ثمود من نبي الله تعالى صالح عليه السلام آية، ولما يأت بها، فيسلموا! وحين عنتوا وطلبوا خروجها من صخرة عينوها! وها هو نبي الله تعالى صالح عليه السلام، ومن بعد تضرعه، وآية إخبات، وأن الأمر كله بيده تعالى، يجيبه ربه، ولتخرج الناقة عشراء، وعن شرطهم أيضا! وإذ ها هم ينكصون، ويظلمون، ويكفرون، وحين قال الله تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩]. وقال تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود:٦٤].

هذا، وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء، عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر، يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء، تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم الله إلى سؤالهم، وأجابهم إلى طلبتهم، ليؤمنن به،

وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته، ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْرَاءَ، يتحرك جنينها بين جنبيها، كما سألوا! (١).

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وحين مر بديار ثمود هذه، وكان على راحلته، فنكس رأسه، وغطى وجهه، وألا يرى يوما كهذا الذي أهلك الله تعالى فيه ثمود؛ ولفعلهم هذا الذي أنفا! وحين رأى الناس يشربون من بئر الناقة، أو يطهون به طعامهم، أو يعجنون به خبزهم، وليأمر صلى الله عليه وسلم بإخراج ذلكم كله، والا ما أمكن أن تأكله الدواب، قيمة اقتصادية، وفقها نبويا، وألا يرمى ما كان صالحا لدواب القوم، ومن حيث قد حرم عليهم ذلك.

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أمرهم وألا يمروا بمثل تلكم ديار، وإلا أن يكونوا باكين، وإلا خرجوا منها، وكما قال صلى الله عليه وسلم: " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم". (٢)

وذلكم استحضارا لماض أليم، مرت به هذه البشرية، ويوم عاندت فيه الرب المنان الكريم، وليردوا جميل خلقه لهم بكفرهم به، وحين تركوا ما خولهم ربهم به، وعن طريق أنبياء هدى لهم، وصراطا مستقيما، ولو كانت لديهم مسحة عقل، أو تدبر، أو تفكر، لراحوا إلى هذا الهدي، الذي بينه الله تعالى للناس، قرآنا، وفرقانا، وبيانا، وكفاهم عناء بحثه، وتقديره، وإلا أن يعملوه، ويا ليت قومي يعلمون! ومن للناس الحيارى المساكين؟، ولما حسبوا أنهم مهتدون، وأنهم بذلك قوم مصلحون! وحين يردون

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٢٣٧

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ١/١٥٩

على البارئ شرعه، ولما يقعدون هم أمرا غير أمره، أو نهيا غير نهيه، أو يبدلون، أو يغيرون، وليتهم يقولون ما ينفعهم! بل ما يضرهم! وها نحن نرى كم يرزح عالم الناس اليوم تحت نير رباه ما الله تعالى به عليم، وحين قال الله تعالى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة:٢٧٦]. وعن غيره، فحدث ولا حرج!

ولكن هذا الحديث الذي بين أيدينا الآن قد أبان مما نرنوا منه، ونحوم عليه، ونطوف حوله، وحين كان ذلكم علما آخر من أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، وحين ذكر أنه سيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا! وهذا أمر جد مخيف، وحين يسكت على ظلم، ولما يتهاون في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا الذي أنبأ عنه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه آية عِلْمٍ، وعَلَمُ نبوة في ذات الوقت، ولأننا نراه بأم رؤوسنا، وأم أعيننا، وحين ترى المنكر عاما ولا نكير، ولما ترى دين ربك يستهزأ به ليل نهار ولا نفير، وحين اتخذ الناس رؤساء جهالا يضلونهم بغير علم، وحين ترى المنابر تعج وتشكو، ولما ترى المعروف قد طورد آمر به، ولما ترى المنكر قد نكل بناهٍ عنه، ولما ترى أهل الدعوات المصلحين يؤخرون، وبغيرهم يقدمون!

وحين نهى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن المرور، ومجرده، من ديار ثمود، وإلا أن يبكوا، أو يخرجوا، وحين كانت مزايلة الباطل دينا، ولما كانت مجانبة الغي هدى وصراطا مستقيما، وأي بكاء يمكن أن يكون، وماذا تكفي من أدمع، تسكبها المقل والجفون والعيون، وها أنت ترى كيف حال الناس، وبكأنه حال ثمود!

ودلك على صحة مذهبنا هذا حديثنا السابق روايته.

وكذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن جابر بن عبد الله، قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: لا تَسألوا الآياتِ، وقد سألَها قومُ صالحٍ، فكانتْ تَرِدُ من هذا

الفَجِّ، وتَصدُرُ من هذا الفَجِّ، فعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم، فعَقَروها، وكانتْ تَشرَبُ ماءَهم يومًا، ويَشرَبونَ لبَنَها يومًا، فعَقَروها، فأخَذَتْهم صَيحةٌ أهمَدَ اللهُ مَن تحت أَديمِ السَّماءِ منهم، إلَّا رجُلًا واحدًا كان في حرَمِ اللهِ، قيلَ: مَن هو يا رسولَ اللهِ؟ قال: هو أبو رِغالٍ، فلمَّا خرَجَ منَ الحرَمِ أصابَه ما أصابَ قومَه.[1]

ولكن هذا أبا رغال، وقد سبق الحديث عنه، يوم غزوة الطائف.

ولكنه ذاك الرجل الذي كان ملازما لحرم الله تعالى، وقبل فتنته بفتنة هدم الكعبة من لدن نصارى الأحباش. وكما أنف أيضا.

وإلا أن ما حدث لهذا أبي رغال وحين فارق البيت الحرام، بل ولما خان عهد الله ورسله، ولما كان عينا للغزاة، وقد حلت به النقمة؛ ولأنه محسوب على أولاء القوم، ولأنه كان أباهم، ولأنه سبقت منه خيانة البيت المحرم، ولما كان عينا لهدم الكعبة المشرفة المكرمة، ولذا فقد كان خروجه منه، بل إخراجه علما على الإعجاز، ولينال ما ناله قومه، وحين التعدي على الحرمات، وحين منابذة الآيات، والله المستعان.

ولكن سؤاله تعالى الآيات فتنة، ولما يحسن ألا يكون ذلك خلقا، ولأنه يخشى على العبد أن يفتن، فلا يصدق، أو يشوش على عقيدته، أو أن يستريب، أو أن يستعجل.

وأقول: وإن هذا الكون بديع في آياته المنظورة، وبأكثر مما يمكن أن يسأله آحاد الناس! ومنه فلا مجال لتمحل ههنا أو هنالك.

---

(١) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ١٤١٦٠خلاصة حكم المحدث: قوي.

وهذا أخو ثمود، قس بن ساعدة، وحين قال حكمة، ولما لم يهتد، وكانت عليه حجج الله تعالى وبراهينه، ومن فيه هو، ومن قوله الذي كان يعد ولا يزال في الكون كتابا آخر مسطورا، وخبرا ضافيا منثورا! وحين قال "أيها الناس اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟

يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد؟ وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا؟ وأطول آجالا؟ طحنهم الدهر بكلكله، ومزقهم بتطاوله". [1].

يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا

وهذا علم آخر ضاف من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان يوم تبوك، يوم ساعة العسرة، وكما هو العهد مع هذه السيرة النبوية المباركة، وبكأن الله تعالى يكرم هذا النبي والذين آمنوا معه، وبمثل هذه الأعلام، وكيما تكون من عوامل تثبيت الناس على الحق وزيادة إيمانهم مع إيمانهم، وكما أن هذه الأعلام يمكن أن ينتشر صداها في الخصوم، فتعمل عملها أيضا، إما كسبا، وحين يسلم المرء منهم، وإما أن ينحدر بخفي حنين، وحين ألقي في قلبه روع الشك والريبة، وحين لم يهتد قلبه، وبمثل هذه الفيوضات الربانية على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى عباده المؤمنين أيضا.

(١) البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي: ٢/٥٣٠

وذلك أنهم رأوا عين ماء فأمرهم نبيهم صلى الله عليه وسلم ألا يمسوها، وإلا بعد أن يأتي إليها هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وحين جاء هذا النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده في العين، وغسل منه وجهه ويديه، ثم أمرهم بحاجتهم من هذا الماء، وإذ هو يجري سحا غدا مجللا، ويصير ماء جاريا يكفيهم، وزيادة عن حاجتهم تلك.

وكما أن فيه أن جزيرة العرب ستعود خضراء كما كانت، وهذا علم آخر ضاف من أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وحين قال: **لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَكْثُرَ المالُ ويَفِيضَ، حتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بزَكاةِ مالِهِ فلا يَجِدُ أحَدًا يَقْبَلُها منه، وحتَّى تَعُودَ أرْضُ العَرَبِ مُرُوجًا وأَنْهارًا.** [١] .

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه مسلم رحمه الله تعالى عن أبي الطفيل عامر بن واثلة: أن معاذ بن جبل أخبره: أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك، فكان يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء. قال: فأخر الصلاة يوما ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعا، ثم دخل ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعا ثم قال: «إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى ضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا، حتى آتي». قال: فجئناها، وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ:«هل مسستما من مائها شيئا». قالا: نعم. فسبهما وقال لهما: «ما شاء الله أن يقول» ثم غرفوا من العين قليلا قليلا، حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله فيه وجهه ويديه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس. ثم قال رسول الله ﷺ:«يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا».

---

(١) صحيح مسلم: ١٥٧

ولكن حديث بابنا هذا يلهمنا من جواز ومشروعية الجمع بين الصلاتين، وهذا الذي فعله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كانوا مسافرين، وحين جمع بين الظهر والعصر تقديما مرة، وتأخيرا مرة أخرى، ولبيان المشروعية لكليهما.

وعلى أنه قد ورد ما به يشرع التقديم أو التأخير للصلاة، ودونما عذر من مطر أو سفر أو مرض، وهذا من يسر ديننا، ومن رفعه الحرج أيضا.

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: صَلَّى رَسولُ اللهِ **صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا بالمَدِينَةِ، في غيرِ خَوْفٍ، وَلَا سَفَرٍ. قالَ أَبُو الزُّبَيْرِ: فَسَأَلْتُ سَعِيدًا: لِمَ**

فَعَلَ ذلكَ؟ فَقالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ كما سَأَلْتَنِي، فَقالَ: أَرَادَ أَنْ لا يُحْرِجَ أَحَدًا مِن أُمَّتِهِ.[١].

وإلا أننا لسنا نغادر مكاننا هذا إلا بيان أنه صلى الله عليه وسلم قد نهى الناس عن المكث في ديار ثمود، وحين خالف اثنان من الصحب الكرام رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ولعل تأولا جانبه صواب، وإذ يخنق أحدهما، وإذ ترمي بالآخر ريح شديدة، وإلى جبل طيء!

وذلك أن رسول الله ﷺ حين مر بالحجر ونزلها، استقى الناس من بئرها، فلما راحوا منها. قال رسول الله ﷺ للناس لا تشربوا من مائها شيئا، ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له». ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعير له، فأما الذي

---

(١) صحيح مسلم: ٧٠٥

ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه. وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى ألقته بجبل طيء، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «ألم أنهكم أن يخرج رجل إلا ومعه صاحب له» ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فشفي. وأما الآخر فإنه وصل إلى رسول الله ﷺ من تبوك. [1].

وهذا علم آخر من أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وإلا أن هذا الدين وقد مثله هذا النبي صلى الله عليه وسلم يوم تبوك، وغير يوم تبوك، ولما نأخذ منه نبأ وعبرا، ولما نستلهم منه فقها وخبرا، وحين كانت لهم من حاجة، ولقلة زادهم، وكما هو مبين في غير هذا الموضع، وحين مروا على حديقة امرأة واستأذنها النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرصوا منها عشرة أوسق، عددا وكيلا، ولحين ميسرة، ولما يعطوها ثمنها.

وفيه جواز الاستلاف، ولحين ميسرة، وكما أن فيه مشروعية البيع الآجل أيضا، وهذا من يسر ديننا، ومن رفعه الحرج أيضا.

فعن أبي حميد الساعدي قال: **غَزَوْنَا مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غَزْوَةَ تَبُوكَ، فَلَمَّا جَاءَ وادِيَ القُرَى إذَا امْرَأَةٌ في حَدِيقَةٍ لَهَا، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأَصْحَابِهِ: اخْرُصُوا، وخَرَصَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَشَرَةَ أَوْسُقٍ، فَقالَ لَهَا: أَحْصِي ما يَخْرُجُ منها. فَلَمَّا أَتَيْنَا تَبُوكَ قالَ: أَما إنَّهَا سَتَهُبُّ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فلا يَقُومَنَّ أَحَدٌ، ومَن كانَ معهُ بَعِيرٌ فَلْيَعْقِلْهُ. فَعَقَلْنَاهَا، وهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَقَامَ رَجُلٌ، فأَلْقَتْهُ بجَبَلِ طَيِّئٍ، وأَهْدَى مَلِكُ أَيْلَةَ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَغْلَةً بَيْضَاءَ، وكَسَاهُ**

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ١٥

بُرْدًا، وكَتَبَ له ببَحْرِهِمْ. فَلَمَّا أَتَى وادِيَ القُرَى قالَ لِلْمَرْأَةِ: كَمْ جَاءَ حَدِيقَتُكِ؟ قالَتْ: عَشَرَةَ أَوْسُقٍ، خَرْصَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنِّي مُتَعَجِّلٌ إلى المَدِينَةِ، فمَن أَرَادَ مِنكُم أَنْ يَتَعَجَّلَ مَعِي، فَلْيَتَعَجَّلْ. فَلَمَّا قالَ ابنُ بَكَّارٍ كَلِمَةً مَعْنَاهَا: أَشْرَفَ علَى المَدِينَةِ قالَ: هذِه طَابَةُ، فَلَمَّا رَأَى أُحُدًا قالَ: هذا جُبَيْلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بخَيْرِ دُورِ الأنْصَارِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: دُورُ بَنِي النَّجَّارِ، ثُمَّ دُورُ بَنِي عبدِ الأشْهَلِ، ثُمَّ دُورُ بَنِي سَاعِدَةَ -أَوْ دُورُ بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ- وفي كُلِّ دُورِ الأنْصَارِ. يَعْنِي خَيْرًا. وقالَ سُلَيْمَانُ بنُ بلَالٍ: حدَّثَنِي عَمْرٌو: ثُمَّ دَارُ بَنِي الحَارِثِ، ثُمَّ بَنِي سَاعِدَةَ. وقالَ سُلَيْمَانُ: عن سَعْدِ بنِ سَعِيدٍ، عن عُمَارَةَ بنِ غَزِيَّةَ، عن عَبَّاسٍ، عن أَبِيهِ، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّهُ.(١).

وفيه التنويه بالأنصار، وكما أن جواز تفرد فريق منهم بفضل.

وفيه فضيلة جبل أحد.

وفيه تسمية المدينة ب(طابا). وتعدد الاسم دليل شرف المسمى،

وفيه الاحتراز من الرياح.

وفيه علم نبوة، وحين أخبر صلى الله عليه وسلم عن هبوب ريح شديدة ليلتهم تلك، وقد هبت.

(١) صحيح البخاري: ١٤٨١

خيار الناس وشرارهم

عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبرُكم بِخَيرِ النَّاسِ وشرِّ النَّاسِ! إنَّ مِن خيرِ النَّاسِ: رجُلًا عملَ في سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ علَى ظَهْرِ فرسِهِ - أو علَى ظَهْرِ بعيرِهِ، أو علَى قدميهِ - حتَّى يأتيَهُ الموتُ، وإنَّ مِن شرِّ النَّاسِ: رجلًا فاجرًا جريئًا يقرأُ كتابَ اللَّهِ، لا يَرعوي إلى شيءٍ منهُ. [١].

وهذا حديث عظيم المعنى، جليل المغزى، ولأنه يحكي لنا صورتين من صور الناس، وحين بين لنا صلى الله عليه وسلم من شرارهم، وحين وضح لنا من هم خيارهم:

وأما خيرهم: فهو ذاك المجاهد في سبيل الله تعالى، وسواء خرج ماشيا أو فارسا، أو متبعرا، ولأن الغاية هي الجهاد، ولأن الهدف هو البذل، ويستوي في ذلك أن يكون على أي حال خرج هذا الصنف، وحين لم يخرج إلا لتكون كلمة الله تعالى هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ولأن كلمة الله العليا هي توحيده وإفراده تعالى بالألوهية، وكما أفردوه الناس في الربوبية، ولأن الربوبية من لازمها هذا التوحيد الذي سماه الناس توحيد الألوهية، وإذ لسنا نريد أن نقول عن اسمه، وبقدر قولنا عن مسماه، وإذ ليست المباني كثيرا تفيد، وحين تعطل أو تبدل المعاني، وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه العمل معنى، وهو أن يكون الله تعالى هو المعبود وحده بلا شريك، وهنا تنتهي المسألة، ولكنها ولعظم المسألة كانت بحاجة إلى بيان، وبيانها أسهل من السهولة، ولأنها تعني ألا أمر إلا أمره، وكذا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبكأنها تعني ألا نهي إلا نهيه، وكذا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى هنا لا إشكال.

---

(١) السلسلة الضعيفة، الألباني: ٣٣٧٣

وأما كلمة الذين كفروا السفلى، فلأنه الكفر، وحين اتخذوا من دون الله آلهة أخرى، يتشعبونهم ذات اليمين وذات الشمال، ويلعبون بهم، كما الصبيان، وحين يركلون الكرة في ملعبهم، غير عابئين بها، ولكن هذا الإسلام، وحين جاء فإنما جاء بكرامة الإنسان وتحريره من نير العبودية لغيره تعالى.

وأما شر الناس: فهو ذاك الذي يقرأ القرآن الحكيم، ولكنه غير عابئ بحلاله فلا يحله، وغير آبه بحرامه فلا يحرمه، وهنا أيضا قضي الأمر، وحين جعلت مادة القرآن الكريم سلعة يتاجر بها، أو ميدانا للنفاق، أو سبيلا لامتطاء ظهر الباطل، أو تحريفا للكلم عن مواضعه.

وبهذا كان حقا من شرار الناس من كان هذا شأنهم، ولأن القرآن الحكيم وحين أنزله الله تعالى، وإلا ليحل الناس حلاله، وإلا ليحرم الناس حرامه، ولأنهم وإن فعلوا غير ذلك، فإنه ليس يغني عنهم من الله تعالى شيئا، وإن قرؤوه آناء الليل وأطراف النهار.

هذا، والحديث وإن كان فيه ضعف، وإلا أن حديث أول من تسعر بهم النار ثلاثة صحيح، وهو يؤدي ذات المعنى، وحين كانا جنبا إلى جنب يقومان مقام الإنابة كل عن أخيه.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: **أنَّ شُفيًّا، حدَّثَهُ: أنَّهُ دخلَ المدينةَ، فإذا هوَ برجُلٍ قدِ اجتمعَ عليْهِ النَّاسُ، فقالَ: مَن هذا؟ فقالوا: أبو هُريرةَ، فدنوتُ منْهُ حتَّى قعَدتُ بينَ يديْهِ، وَهوَ يحدِّثُ النَّاسَ، فلمَّا سَكتَ وخلا، قلتُ : أنشدُكَ بحقٍّ وحقٍّ لمَّا حدَّثتني حديثًا سمعتَهُ مِن رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ عقلتَهُ وعلمتَهُ، فقالَ أبو هريرةَ: أفعلُ، لأحدِّثنَّكَ حديثًا حدَّثنيهِ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ وعلِمتُهُ، ثمَّ نشغَ أبو هريرةَ نَشغةً، فمَكثَ قليلًا، ثمَّ أفاقَ، فقالَ: لأحدِّثنَّكَ حديثًا حدَّثنيهِ رسولُ**

اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ في هذا البيتِ ما معَنا أحدٌ غيري وغيرُهُ، ثمَّ نَشَغَ أبو هريرةَ نشغةً أخرى، فمَكثَ بذلِكَ، ثمَّ أفاقَ ومسحَ وجْهَهُ قالَ: أفعلُ لأُحدِّثنَّكَ بحديثٍ حدَّثنيهِ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ، وأنا وَهوَ في هذا البيتِ ما معنا أحدٌ غيري وغيرُهُ، ثمَّ نشغَ أبوهريرة نشغةً شديدةً، ثمَّ مالَ خارًّا علَى وجْهِهِ أسندتُهُ طويلًا، ثمَّ أفاقَ، فقالَ: حدَّثني رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ: إنَّ اللَّهَ تبارَكَ وتعالى إذا كانَ يومُ القيامةِ نزلَ إلى العبادِ ليَقضيَ بينَهم، وَكلُّ أمَّةٍ جاثيةٌ، فأوَّلُ من يدعو بهِ رجلٌ جمعَ القرآنَ، ورجلٌ يُقتلُ في سبيلِ اللَّهِ، ورجلٌ كثيرُ المالِ، فيقولُ للقارئِ: ألم أعلِّمْكَ ما أنزلتُ علَى رسولِي؟ قالَ: بلى يا ربِّ قالَ: فماذا عمِلتَ فيما عُلِّمتَ؟ قالَ: كنتُ أقومُ بهِ أثناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ، فيقولُ اللَّهُ لهُ: كذبتَ، وتقولُ الملائِكةُ: كذبتَ، ويقولُ اللَّهُ: بل أردتَ أن يقالَ: فلانٌ قارئٌ، فقَد قيلَ، ويؤتى بصاحبِ المالِ فيقولُ اللَّهُ: ألم أوسِّع عليْكَ حتَّى لم أدعْكَ تحتاجُ إلى أحدٍ؟ قالَ: بلَى قالَ: فماذا عملتَ فيما آتيتُكَ؟ قالَ: كنتُ أصلُ الرَّحمَ، وأتصدَّقُ؟ فيقولُ اللَّهُ: كذبتَ، وتقولُ الملائِكةُ: كذبتَ، فيقولُ اللَّهُ: بل أردتَ أن يقالَ: فلانٌ جوَّادٌ، فقد قيلَ ذاكَ، ويؤتى بالَّذي قتلَ في سبيلِ اللَّهِ، فيقالُ لهُ: فيمَ قُتلتَ؟ فيقولُ: أُمِرتُ بالجِهادِ في سبيلِكَ، فقاتلتُ حتَّى قُتلتُ، فيقولُ اللَّهُ: كذبتَ، وتقولُ الملائِكةُ: كذبتَ، ويقولُ اللَّهُ عزَّوجلَّ لهُ: بل أردتَ أن يقالَ: فلانٌ جَريءٌ: فقد قيلَ ذلِكَ، ثمَّ ضربَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ علَى رُكبتيَّ، فقالَ: يا أبا هُريرةَ، أولئِكَ الثَّلاثةُ أوَّلُ خَلقِ اللَّهِ تُسعَّرُبِهمُ النَّارُيومَ القيامَةِ. (١) .

(١) صحيح ابن خزيمة، الألباني: ٢٤٨٢

ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر

هذا اهتمام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالصلاة عموما وصلاة الفجر خصوصا؛ ولعظم شأن صلاة الفجر في هذا الدين، ولو لم يكن فيها إلا أن قرآن الفجر كان مشهودا لكفى بها فضلا، ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم قد أكد لنا في مناسبة أخرى أن من صلى البردين دخل الجنة وبه دل على أهمية هاتين الصلاتين في هذا الدين، وهكذا يحض صلى الله عليه وسلم عليهما العبد، وليعضوا عليهما بالنواجذ أيضا.

فعن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من صلى البردين دخل الجنة.[1]

وإنما سميا البردين؛ من البرودة، ولأنهما يقعان في المنطقة المعتدلة طقسا من يوم الناس.

لكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان رؤوفا ببلال رضي الله تعالى عنه رحيما به، وحين لم يزجره، ولما لم يعنفه.

ولكن بلالا هذا كان مهذبا أيضا، وحين أبان للنبي صلى الله عليه وسلم، أنه وقد أخذه من النوم ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي أسلوب نداء حان لطيف، وحين قال: يا رسول الله ذهب بي من النوم مثل الذي ذهب بك. وكما كان منه صلى الله عليه وسلم أيضا هذا الأسلوب الندائي الحاني اللطيف، وحين قال صلى الله عليه وسلم: ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر؟

---

(١) صحيح البخاري: ٥٧٤

وليس يصرفنا هذا عن يسر ديننا، ورفعه الحرج، وحين صلى النبي صلى الله عليه وسلم الفجر بالناس بعد الشروق قيد رمح.

ولفعله صلى الله عليه وسلم أيضا وكما حدث منه يوم الناس هذا، وحين صلى بالناس ومن بعد الشروق أيضا. ومن ثم لتجتمع دلالتا القول والعمل معا.

وفيه أن مراعاة أوقات الأذان والإقامة من أعمال المؤذن. وأن الإمام له إلزامه بذلك.

وفيه تقدير الأمور قدرها، والأحوال أنصباءها، وحين رفعت الملامة عن بلال، وحين تبين منه صلى الله عليه وسلم أنه كان نائما.

وكما أن فيع رفع الإثم عن النائم.

فعن عائشة أم المؤمنين: رُفِعَ القلَمُ عن ثَلاثٍ، عنِ النَّائمِ حتَّى يستَيقظَ، وعنِ الصَّغيرِ حتَّى يَكْبَرَ، وعنِ المَجنونِ حتَّى يعقلَ أو يُفيقَ. [١].

وفيه مشروعية قضاء الفائتة، ولحديثه صلى الله عليه وسلم في ذلك.

فعن أبي قتادة: ذَكَروا للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ نومَهُم عنِ الصَّلاةِ؟ فقالَ: إنَّهُ ليسَ في النَّومِ تَفريطٌ، إنَّما التَّفريطُ في اليقَظةِ، فإذا نسيَ أحدُكُم صلاةً، أو نامَ عنها، فليصلِّها إذا ذَكَرَها.[٢].

وإلا أن حديثا بذات المعنى ورد، ولكن أهل السنن ساقوه على أنه كان في غزوة خيبر لا تبوك.

---

(١) صحيح النسائي الألباني:٣٤٣٢

(٢) صحيح النسائي، الألباني: ٦١٤

وهذا لا يهمنا كثيرا، وبقدر ما يهمنا فقهه.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ قفلَ من غزوةِ خيبرَ ، فسارَ ليلَه ، حتَّى إذا أدرَكَهُ الكَرى عرَّسَ ، وقالَ لبِلالٍ: اكلأ لَنا اللَّيلَ فصلَّى بلالٌ ما قُدِّرَ لَهُ ، وَنامَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ ، فلمَّا تقاربَ الفجرُ ، استَندَ بلالٌ إلى راحلتِهِ مواجِهَ الفجرِ ، فغلبت بلالًا عيناهُ وَهوَ مستَندٌ إلى راحلتِهِ ، فلم يَستيقظ بلالٌ ولا أحدٌ من أصحابِهِ حتَّى ضربتهمُ الشَّمسُ ، فَكانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أوَّلَهُمُ استيقاظًا ، ففزِعَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ: أي بلالُ فقالَ بلالٌ: أخذَ بنَفسيَ الَّذي أخذَ بنفسِكَ ، بأبي أنتَ وأمِّيا رسولَ اللَّهِ قالَ: اقتادوا فاقتادوا رواحلَهُم شيئًا ، ثمَّ توضَّأَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأمرَ بلالًا فأقامَ الصَّلاةَ ، فصلَّى بِهِمُ الصُّبحَ ، فلمَّا قضى النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ الصَّلاةَ قالَ: من نسيَ صلاةً ، فليصلِّها إذا ذَكَرَها ، فإنَّ اللَّهَ عزَّوجلَّ قالَ: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لذكري [١].

حديث ضعيف (١)!

عن رجل مقعد: مررتُ بينَ يدي النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ وأنا علَى حِمارٍ وَهوَ يصلِّي فقالَ اللَّهمَّ اقطَع أثرَهُ فما مَشيتُ علَيها بعدُ [وفي روايةٍ] قطعَ صلاتَنا قطعَ اللَّهُ أثرَهُ] [٢].

هذا حديث ضعيف روي عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه نكارة، ونكارته معارضته لما عهد عنه من حلم، ولما عرف عنه من رحمة، ولما أنزل فيه قرآن

---

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٥٧٧

(٢) ضعيف أبي داود، الألباني: ٧٠٥ و٧٠٦

مبين، ثناء ومدحا، ومنقبة وخلقا حسنا حميدا ولا سيما أن هذا الذي مر بين يدي صلاته صلى الله عليه وسلم، وإذ كان قد خالف السنة، وإلا أن هذه المخالفة ليس يناسبها دعاء عليه بقطع أثره! أي: فلا يستطيع أن يمشي من بعد فلا يكون له أثر مشي، بل هو مقعد كما تبين من الحديث!

هذا، وإن من الجزاء حكمة أن يكون مناسبا للمخالفة وإلا عد تعديا.

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، هو الذي يتنزه عن معاقبة، وكمثل هذه؛ ولما سبق بيانه من حلمه ورأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم.

حديث ضعيف (٢)!

نزلَ جبريلُ على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ وهو بِتبوكَ فقالَ: **أحضر جنازةَ معاويةَ بنِ معاويةَ المزنيِّ، فخرجَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ، وَهبطَ جبريلُ في سبعينَ ألفًا منَ الملائِكةِ عليْهمُ السَّلامُ، فوضعَ جناحَهُ على الجبالِ، فتواضَعت حتَّى نظروا إلى مَكَّةَ والمدينةَ، فصلَّى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ وجبريلُ والملائِكةُ، فلمَّا قضى صلاتَهُ قالَ: يا جبريلُ بِمَ أدرَكَ معاويةُ بنُ معاويةَ هذِهِ المنزلةَ منَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، قالَ: بقراءةِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ قائمًا وقاعدًا وراكبًا وماشيا.**[١].

هذا حديث ضعيف أيضا، روي مناسبة غزوة تبوك، وأنه وإن كان لسورة الإخلاص فضل، ولأنها تعدل ثلث القرآن الحكيم، وإلا أن هذا لا يعني أن نذهب بها مذاهب شتى، وفي الصحيح عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم غنية، ولله الحمد.

(١) تاريخ الإسلام، الذهبي:٢/٦٤٠. حكم المحدث: منكر جدًا.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَصْحَابِهِ: " أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ. "[١].

تدعونا إلى أن نذر النصرانية أو نكون عبيدا لأعرابي جاء من الحجاز؟!

هذا قول قساوة الروم وبطارقتهم، وحين اجتمع بهم هرقل زعيمهم، ومن بعد إخبارهم برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين خيره بين ثلاث: إما الإسلام وإما الجزية وإما الحرب.

وقد كان ردهم عليه بذلكم قول، ويحمل من بين يديه ومن خلفه استهزاء بهذا النبي الذي جاء من موطن جزيرة العرب ولا شك، ولكنه جاء رسولا نبيا، ولكن هذه النعرة الجاهلية وهي التي يروح فيها أهلها كل موئل لا حسنا! وحين تكون نظرة الإنسان إلى أخيه الإنسان قائمة على هكذا تنقص، والله تعالى وحده هو الذي منه مقياس الولاء والمحبة والعداوة والبغضاء، وحين كانت قائمة على البر والتقوى، وليست قائمة على أي شيء آخر سواهما. وقول بغير ذلك هو مناف للحق وللفطرة، والتفات إليه قضاء وقت دونما فائدة.

وإلا أن هرقل هذا كان حصيفا جدا! وحين أخبرهم أنه يختبر مدى صلابتهم في دينهم!

هذا ولكن هرقل هذا كان داهية جدا أيضا، وحين كان عالما بنصوص عهديه- القديم والجديد- وأنهما تنبئان عن قدوم نبي جديد اسمه أحمد! وكما هم أيضا أولاء

---

(١) صحيح البخاري :٤٦٢٨

البطارقة والقساوسة، وإذ كانوا يعلمونه، وكما يعرفون أبناءهم، ولكن كثيرا منهم يضلون ويضلون.

وعلى كل حال فقد سجل لهرقل موقفه هذا، وحين أرسل رسوله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يستخبره عن ثلاث: وحين قال له: اذهب بكتابي إلى هذا الرجل، فما سمعت من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال: انظر هل يذكر صحيفته إليَّ التي كتب بشيء، وانظر إذا قرأ كتابي، فهل يذكر الليل، وانظر في ظهره، هل به شيء يريبك.

ولكن الرجل كان أذكى وأحنك وأدهى، وحين رجع بإجابات شافيات عما راح من أجله!

وإذ أنقلها كما جاءت، وإذ وأمرها وكما جاءت أيضا، وإذ ليست بحاجة إلى إماطة لثام!

وأما عن الأولى: فقد كان قوله صلى الله عليه وسلم: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين، يا أخا تنوخ إني كتبت بكتاب إلى كسرى، والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها، والله مخرقه، ومخرق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأسا ما دام في العيش خير».

وأما عن الثانية: فهو قوله صلى الله عليه وسلم: فإذا في كتاب صاحبي تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار؟».

وقال العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا يحتمل معنيين " أحدهما " أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في

مكان، وإن كنا لا نعلمه: وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل، وهذا أظهر، كما تقدم في حديث أبي هريرة عن البزار" الثاني " أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السماوات تحت العرش وعرضها كما قال الله عز وجل " كعرض السماوات والأرض " والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض وبين وجود النار والله أعلم [١].

وهذا من قولنا: إن بيتا مكونا من عدة طوابق: ومن نفس القياسات طولا وعرضا. وهذا أمر مشاهد.

وأما عن الثالثة: وهي خاتم النبوة، فهذا هو قول رسول هرقل، ولم يزد عليه التاريخ ولم ينقص منه شيئا، وحين قال: فأقبلت أهوي حتى كنت قائما في مجلسي الذي كنت بين يديه، فحل حبوته عن ظهره، وقال: «ها هنا امض لما أمرت به». فجلت في ظهره، فإذا أنا بخاتم في موضع غضون الكتف، مثل الحمحمة الضخمة!

فعن سعيدِ بنِ أبي راشدٍ قال: رَأيتُ التَّنوخيَّ رسولَ هِرَقْلَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحِمصَ، وكان جارًا لي، شيخًا كبيرًا قد بَلَغَ الفَناءَ أو قَرُبَ، فقُلْتُ: ألَا تُخبِرُني عن رسالةِ هِرَقْلَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورسالةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى هِرَقْلَ؟ قال: بلى، وقَدِمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَبوكَ، وبَعَثَ دِحيَةَ الكَلبيَّ إلى هِرَقْلَ، فلمَّا أنْ جاءَ كتابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، دعا قِسِّيسي الرُّومِ وبَطارِقَتَها، ثم أغْلَقَ عليه وعليهم الدَّارَ، قال: نَزَلَ هذا الرَّجُلُ حيثُ رَأيتُم، وقد أرسَلَ إليَّ يَدْعوني إلى ثَلاثِ خِصالٍ: يَدْعوني أنْ أتَّبِعَه على دِينِه، أو أنْ

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤١٣

نُعطِيَه ما لنا على أرضِنا، والأرضُ أرْضُنا، أو نُلْقي إليه الحَرْبَ، واللهِ لقد عَرَفتُم فيما تَقْرَؤونَ مِن الكُتُبِ لَيأخُذَنَّ ما تحت قَدمي، فهَلُمَّ نَتَّبِعُه على دِينِه أو نُعْطيهِ ما لنا على أرْضِنا، فنَخَروا نَخرَةَ رَجُلٍ واحدٍ حتى خَرَجوا مِن بَرانِسِهم، وقالوا: تَدْعونا إلى أنْ نَذَرَ النَّصْرانيَّةَ أو نَكونَ عَبيدًا لأعْرابيٍّ جاءَ من الحِجازِ؟! فلمَّا ظَنَّ أنَّهم إنْ خَرَجوا أفْسَدوا عليه رِفاقَهم ومُلْكَه، قال: إنَّما قُلتُ ذلك لكم لِأعلَمَ صَلابَتَكم على أمْرِكم، ثم دَعا رَجُلًا مِن عَرَبِ تُجيبَ كان على نَصارى العَرَبِ، قال: ادْعُ لي رَجُلًا حافِظًا لِلْحَديثِ، عَرَبيَّ اللِّسانِ، أَبعَثُه إلى هذا الرَّجُلِ بجَوابِ كِتابِه، فجاءَني، فدَفَعَ إلَيَّ هِرَقْلُ كتابًا فقال: اذهَبْ بكتابي إلى هذا الرَّجُلِ، فما ضَيَّعتُ من حَديثِه، فاحفَظْ منه ثَلاثَ خِصالٍ: انْظُرْ هل يَذكُرُ صَحيفَتَه التي كَتَبَ إلَيَّ بشَيءٍ؟ وانْظُرْ إذا قَرَأَ كتابي، هل يَذكُرُ اللَّيلَ؟ وانْظُرْ في ظَهرِه: هل به شَيءٌ يَرِيبُك؟ فانطَلَقتُ بكتابِه حتى جِئتُ تَبوكَ، فإذا هو جالِسٌ بين أصْحابِه على الماءِ، فقُلتُ: أين صاحِبُكم؟ قيل: ها هو ذا، فأَقبَلتُ أَمْشي حتى جَلَستُ بيْن يَدَيهِ، فنَاوَلتُه كتابي، فوَضَعَه في حِجْرِه، ثم قال: ممَّنْ أنتَ؟ قُلتُ: أنا أحَدُ تَنوخَ، فقال: هل لك في الحنيفيَّةِ مِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ؟ قُلتُ: إنِّي رسولُ قَومٍ، وعلى دِينِ قَوْمٍ، لا أرجِعُ عنه حتى أرجِعَ إليهم، قال: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦]، يا أخا تَنوخَ، إنِّي كَتَبتُ بكتابي إلى النَّجاشيِّ فخَرَقَها، واللهُ مُخرِقُه ومُخرِقُ مُلكِه، وكَتَبتُ إلى صاحِبِكم بصَحيفةٍ فأمْسَكَها، فلنْ يَزالَ الناسُ يَجِدونَ منه بَأْسًا ما دام في العَيشِ خَيرٌ، قُلتُ: هذه إحدى الثَّلاثِ التي أوْصاني بها، وأَخَذتُ سَهمًا مِن جُعبَتي فكَتَبتُها في جِلْدِ سَيفي، ثم إنَّه ناوَلَ الصَّحيفَةَ رَجُلًا عن يَسارِه، فقُلتُ: مَن صاحِبُ كِتابِكم الذي يَقرأُ لكم؟ قالوا: مُعاويةُ، فإذا في كتابِ صاحِبي يَدْعوني إلى جَنَّةٍ عَرْضُها السَّمواتُ والأرْضُ أُعِدَّتْ لِلمُتَّقينَ، فأين النَّارُ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: سُبْحانَ اللهِ، فأين اللَّيلُ إذا جاءَ النَّهارُ؟ فأَخَذتُ

سَهمًا مِن جُعْبَتي، فكَتَبتُه في جِلدِ سَيْفي، فلمَّا فَرَغَ مِن قِراءَةِ كتابي، قال: إنَّ لك حقًّا، وإنَّك رسولُ ، فلو وُجِدَتْ عِندَنا جائِزَةٌ جوَّزْناك بها، إنَّا سَفْرٌ مُرمِلونَ، قال: فنَاداه رَجُلٌ من طائِفَةِ النَّاسِ: أنا أُجَوِّزُه، ففَتَحَ رَحْلَه، فإذا هو يأْتي بحُلَّةٍ صَفوريَّةٍ، فوَضَعَها في حِجْري، فقُلْتُ: مَن صاحِبُ الحُلَّةِ؟ قيل: عُثمانُ، ثم قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن يُنزِلُ هذا الرَّجُلَ؟ فقال فَتًى مِن الأنصارِ: أنا، فقامَ الأنْصاريُّ، وقُمتُ معه، فلمَّا خَرَجتُ مِن طائِفَةِ المَجلِسِ، ناداني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: يا أخا تَنوخَ، فأَقبَلتُ أَهْوي حتى كُنتُ قائِمًا في مَجلِسي الذي كُنتُ فيه بيْن يَدَيهِ، فحَلَّ حَبوَتَه عن ظَهرِه، فقال: هاهنا امْضِ لِمَا أُمِرتَ به، فجُلتُ في ظَهرِه، فإذا أنا بخاتَمٍ في مَوضِعِ غُضروفِ الكَتِفِ مِثلِ الحَجْمَةِ [١].

ونكتفي نحن بما قاله القرآن المجيد عن القوم، وحين أنزل الله تعالى قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

هذه أمنة من الله، ومحمد النبي رسول الله

هذا كلام هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو كلام ينطق حكمة، وتتقاطر من بين جنباته البينات! ولأنه قد عصمت دماء القوم، ولأن الإسلام يحب ذلك، ويريده، ويحض عليه، ويتبع كل سبيل ممكن؛ لئلا يهراق دم واحد على هذا البسيطة.

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٢٣٧/٨. خلاصة حكم المحدث: رجاله ثقات.

ولأن الناس أيضا قد جاؤوا معلنين المصالحة على الجزية، ولعلها مرحلة، ومن ثم يدخلون في دين الله أفواجا، وحيثما أفضت هذه المصالحة إلى بعض معاملات، يعرفون من خلالها شيئا عن هذا الدين الإسلامي الحنيف الخالد، وحين جاء، ولم يجيء إلا لإخراج الناس- كل الناس- من الظلمات إلى النور، وبإذن الله العزيز الحميد، ومن بعد أن ذاقت البشرية عناء تعبيد بعضهم بعضا، أو اتخاذهم لله تعالى ندا وولدا، وإذ كان هذا العجب والتعدي لقواعد المروءة والحكمة البالغة والحجة الدامغة، وقد كان لأجل هذا جعله النبي محمد صلى الله عليه وسلم أعظم الذنب.

فعن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: سَأَلْتُ -أوْ سُئِلَ- رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أكْبَرُ؟ قالَ: أنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ. قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: ثُمَّ أنْ تَقْتُلَ ولَدَكَ خَشْيَةَ أنْ يَطْعَمَ معكَ. قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: أنْ تُزَانِيَ بحَلِيلَةِ جَارِكَ. قالَ: ونَزَلَتْ هذِه الآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} [الفرقان: ٦٨] (١).

وغير أنه أمان الله تعالى وحفظه، وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم وحفظه أيضا، ولهذا الأمر جد أهمية، وحين يربط كل تصرف يقوم به العبد برباط التقوى، ذلك خير، وأن يرد الأمر كله لله تعالى، ولينسلخ من ذات نفسه، إلى هذا الملكوت الأعلى، ملكوت الرب الكريم القدير المتعال، والذي يريد من عباده أن يرتقوا، ومن بعد سفل، وأن يعلوا ومن بعد دنو، وحين يكونون جميعا عبادا لرب كريم واحد، لن يبلغوا نفعه فينفعوه، ولن يبلغوا ضره فيضروه، وإن هي إلا أعمالهم يحصيها ربنا الرحمن

(١) صحيح البخاري: ٤٧٦١

الرحيم عليهم، ومن وجد خيرا على ذلك فيحمده تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

فعن أبي ذر الغفاري عَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فِيما رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنَّهُ قالَ: **يا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَن هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إلَّا مَن أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إلَّا مَن كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبَادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ، ما زَادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلكَ ممَّا عِندِي إلَّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبَادِي إنَّما هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فمَن وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ، فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ. وفي روايةٍ: إنِّي حَرَّمْتُ علَى نَفْسِي الظُّلْمَ وعلَى عِبَادِي، فلا تَظَالَمُوا**[1].

ولكن هذا العهد والماضي صلحا قد جاء جامعا مانعا، ولأنه جمع بنود المصالحة، ومنع بنودا أخر، يمكن أن تكون سببا لنقص أو مطية لتراجع وخذلان.

---

(١) صحيح مسلم: ٢٥٧٧

وهذا الذي نفيده عند كتابة التزام ما، وليبين منه كافة الحقوق، وجميع الواجبات المترتبة على هذا العقد، ويضمن معها الثبات، وعدم التغيير، أو التبديل، أو المخالفة، ومن حين إلى حين آخر، وحيثما نشبت ناشبة.

ودلك على صحة مذهبنا هذا كتابه صلى الله عليه وسلم ليحنة بن رؤبة وأهل إيلة وأنه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله، ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة، وأهل إيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يردونه من بر أو بحر» [١].

وكذا كتابه صلى الله عليه وسلم لأهل جرباء وأذرح وأنه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي رسول الله، لأهل جرباء وأذرح، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب، ومائة أوقية طيبة، وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين» [٢].

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٢١
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٢١

أتعجبون من هذا فو الذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مناسبة يوم إرسال خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل النصراني، وكان ملكا على قريته دومة الجندل هذه، وحين رأوا ما رأوا من متاع الدنيا ﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٣٥]!

وهذا هو شأن الدنيا في حس هذا الدين الحنيف الخالد، وحين كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يلتمس كل فرصة سانحة، مناسبة، ملائمة، وليبلغ فيها رسالة ربه الرحمن الرحيم سبحانه، وأن يربط الناس بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وفيها ما لا أذن سمعت، ولا عين رأت، ولا خطر على قلب بشر!

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ. قالَ أبو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧]. قال أبو مُعاوِيَةَ، عن الأعمَشِ، عن أبي صالِحٍ: قرَأَ أبو هُريرةَ: (قُرَّاتِ أعْيُنٍ) [١].

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه، ويكأن ربط الناس بهذا الخلود والنعيم المقيم، وإذ يربطهم بعلائق صدق بالآخرة وإذ هي الدار الباقية، وإذ يهون عليهم أمر دنياهم قاطبة، وإذ هي الدار الفانية، حلوها ومرها، وفقرها وغناها، وأن كل ذلك إلا قليل شأنه، قصير أمده، وحين يحتسب العبد أمره إلى مولاه تعالى الخالق العظيم، وحين يعلق قلبه لا على أمر هذه الدنيا، فإن شأنها مكابدات، وابتلاءات، واختبارات، ومنغصات بعضها إثر بعض، ومن ثم أيضا ليعمل ناهضا لتحصيل أجره، وفوزه،

---

(١) صحيح البخاري: ٤٧٧٩

وغنمه، وبهذه الجنات، والله تعالى هو الصارف قلوب عبيده إليه، طاعة، وانقيادا، ومحبة، وتألها، ولهذا الرب الكريم الحنان المنان سبحانه.

ولكن هذا لا يصرفنا وعن بعد نظر هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين راسل أولاء النصارى ملكا تلو الآخر: وكيما يبلغ رسالة ربه، وكيما يكون الناس على بينة من أمرهم، من جانب دعوتهم، وكيما يحاول صلى الله عليه وسلم ألا تهراق قطرة دم واحدة، وإذ أمكن ألا تهدر، ولطالما أمكن أن الناس يأتون أما مسلمين، وإما أهل عقد وذمة، وريثما يحل يوم خالد، وفيه يسلمون، وعساه أن يكون قريبا.

ولكن الذي نحيل إليه الأذهان، هو ذلكم المتاع الذي كان يرفل فيه أكيدر دومة هذا، وحين جاء إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بثمان مائة سبي وألف بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح.

وهذا حوزة رجل واحد، وبه دل على كم كانت الدنيا شغل أولاء القوم يومهم ذاك، وهو شغل أحفادهم يومهم هذا!

وهو أمر مشاهد حسا، وهو شأن معاين نظرا، وبصرا، وسمعا.

وهذا مرة أخرى برهان شد على الأزر، وربت على الصدر، وألا تكون الدنيا شاغلة قلب العبد، ولأن الآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يمنح الله تعالى من فضله من صبر، ولسوف يعطي الله تعالى لمن ظفر، ويوم القيامة، وحين يسكنه ما لذ وطاب من جنات ونهر، ومقعد صدق عند مليك مقتدر، وما قد أعد له من نعيم مد البصر، ولهم فيها مما تشتهي أنفسهم، ولهم فيها ما يدعون نزلا من غفور رحيم.

وقال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٣].

ولكننا نسجل ههنا ذلكم التصرف الحكيم النبيل من هذا أكيدر، وحين جاء مصالحا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وكيما يحفظ عليه ملكه ودمه، وريثما يأتي يوم يسلم وجهه فيه لله تعالى، أو أن يكفى شر قتلة، أو يكفى المسلمون أيضا مواجهة، وحين كان السلم أولى، وأهم، وأبقى.

ولكننا أيضا نشير إلى أن هذه هي أنفة أمة خالدة، وحين كانت لها شوكة عز، وقوة بأس، وحتى خافها خصمها، وحين أتوا إليها في ديارهم طالبين سلما، ومعاينين صلحا، به يحفظون أنفسهم، وأموالهم، وكم تتوق نفوسنا إلى مجيء يوم كهذا، وحين تستعيد هذه الأمة أمجادها، فتعلنها صريحة مدوية، وأن الحق لله، وحينها يأتون إليها، ومن كل فج عميق، وليشهدوا عقد صلح أو إسلام، أو إبرام لما فيه صالح العباد والبلاد.

وإلا أننا لسنا نغادر موقعنا هذا وإلا إشارة إلى أن هذا أكيدر دومة الجندل كان صائد بقر! وهذا كما نسجله، وأن الرعي مهنة غالية، وحين قد تأهلها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولعل هذا ما كان عاملا مساعدا، وأن يأتي معه هذا أكيدر مصالحا، ومن بعد أسره، وعلى يدي هذا سيف الله خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، ولما

تطبعه هذه المهنة من تواضع، ولما علم بقوة وشدة بأس المسلمين، ولما صالح إخوانه النصارى النبي العربي الأمي الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم من قبل.

وهذه عوامل ثلاثة، سعدت على مصالحة أكيدر ملك دومة الجنل مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

١- كونه صائد بقر.

٢- كونه علم بقوة وشدة بأس المسلمين.

٣- كونه قد سبقه إخوانه النصارى: يحنة بن رؤبة، وأهل إيلة، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، وأهل جرباء، وأذرح، مصالحة هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما كان هذا أيضا علما على نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكننا نشير إلى استصحاب خالد بن الوليد للقوات المسلحة معه، وحين بلغت أربعمائة وعشرين فارسا، وارهابا، وإرعادا للخصم، ولحمله على النزول على إحدى الثلاث، ومبدؤها بأولها، وهو الإسلام، وإلا الجزية، أو الحرب؛ ولأن هذه القوات عامل مساعد على حسم المسألة، وفي نفس الوقت قوات ردع، ولعلهم يواجهون، وهذا ما يجب أن تكون عليه القوات المسلحة الإسلامية من حيطة وحذر دائمين؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧].

وهذا شأنهم، وذلكم طبعهم، وإنه لدأبهم، وبه يحذر، ومنه يخطر!

ثم إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم خلى سبيل هذا أكيدر، فرجع إلى قريته، فقال رجل من بني طيء يقال له: بجير بن بجرة في ذلك:

تبـارك سـائق البقـرات إنـي رأيت الله يهدي كل هاد

فمن يك حائدا عن ذي تبوك فإنا قـد أمرنـا بالجهـاد

وَأخرج الْبَيْهَقِيّ وَابْن مندة فِي الصَّحَابَة من طَرِيق ابْن اسحاق حَدثنِي يزِيد ابْن رُومَان وَعبد الله بن أبي بكر ان رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم بعث خَالِد بن الْوَلِيد إِلَى أكيدر رجل من كِنْدَة كَانَ ملكا على دومة وَكَانَ نَصْرَانِيّا فَقَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم لخَالِد انك ستجده يصيد الْبَقر فَخرج خَالِد حَتَّى إِذا كَانَ من حصنه منظر الْعين فِي لَيْلَة مُقْمِرَة صَافِيَة وَهُوَ على سطح وَمَعَهُ امْرَأَته فَأَتَت الْبَقر تحك بقرونها بَاب الْقصر فَقَالَت لَهُ امْرَأَته هَل رَأَيْت مثل هَذَا قطّ قَالَ لَا وَالله قَالَت فَمن ترك مثل هَذَا قَالَ لَا أحد فَنزل فَأمر بفرسه فأسرج وَركب مَعَه نفر من أهل بَيته، فَخَرجُوا بمطاردهم فتلقتهم خيل رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فَأَخَذته فَقَالَ رجل من طي يُقَال لَهُ بجير بن بجرة فِي ذَلِك شعرًا:

(تبَـارك سـائق الْبَقَـرَات إِنِّي . رَأَيْت الله يهدي كل هاد)

(فَمن يَك حائدا عَن ذِي تَبُوك فَإنَّا قـد أمرنَـا بِالْجِهَـادِ)

فَقَالَ لَـهُ النَّبِي صلى الله عَلَيْـهِ وَسـلم لَا يفضـض الله فَـاك فَـأتى عَلَيْـهِ تسـعون سنة فَمَا تحرّك لَهُ ضرس وَلَا سنّ.[١].

وهـذا علـم نبـوة آخـر ضـاف مـن أعـلام نبـوة هـذا النبي الكـريم محمـد صـلى الله عَلَيْهِ وَسلم، ولما يستقبلنا كل فينة من هذه السيرة النبوية المباركة.

ولكـن حـديث بابنـا ممهـور بعلـم نبـوة أيضـا، ولمـا كـان مـن أعلامهـا، عنـد أهـل الكتابين! أن نبيا سيخرج من جزيرة العرب، ومن صفاته أنه:

---

(١) الخصائص الكبرى، البيهقي: ١ /٤٥٩

١- لا يقبل الصدقة.

٢- ويقبل الهدية.

٣- وأنه من بين كتفيه صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة.

وها هو صلى الله عليه وسلم يقبل هدية أكيدر ملك دومة الجندل النصراني. حجة لنبينا صلى الله عليه وسلم، وحجة على أكيدر هذا أيضا، وعلى من جاء بعده، أو من أتي قبله!

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ولما كانت هدية هذا الملك هي مما تتشوفها النفوس، وإذ أراد صلى الله عليه وسلم أن يهدم لذاتها، وأن يطفئ بريقها ولمعانها، وأن يقوض رغائبها في النفوس؛ ولذا فقد قال قوله هذا: والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ في الجَنَّةِ أحْسَنُ مِن هذا.

وكما أنه دال على فضيلة هذا الإمام الصحابي الكريم سعد بن معاذ وأنه من أهل الجنة، وهذه منقبة لا من قبلها ولا من بعدا يسأل أحدنا!

ودلك على صحة مذهبنا أن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: أُهْدِيَ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جُبَّةُ سُنْدُسٍ، وكانَ يَنْهَى عَنِ الحَرِيرِ، فَعَجِبَ النَّاسُ منها، فَقالَ: والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ في الجَنَّةِ أحْسَنُ مِن هذا، وقالَ سَعِيدٌ، عن قَتَادَةَ، عن أنَسٍ: إنَّ أُكَيْدِرَ دُومَةَ أهْدَى إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ [١].

---

(١) صحيح البخاري: ٢٦١٥

«أولم أنهم أن يستقوا منه حتى آتيه»

هذا علم آخر من أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وهو ببان معجزاته وكراماته، والتي ما فتئت سيرته تفيض منها سحا غدقا مجللا، وكما أنف من قولنا أبدا، فإن هذه الأعلام دليل صدق، وبرهان ثبات، ودليل زيادة الإيمان، وحجة بالغة، وكلمة دامغة، وحيثما جاء ذكر لهذه الأعلام، فإنما نقول ونكرر هذا أيضا أبدا.

ولأنه صلى الله عليه وسلم وحين رأوا عينا ينز منها الماء، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم أمره، وألا يقربنها أحد، وريثما يأتي صلى الله عليه وسلم، ولأن طاعته ههنا واجبة، ولأنه قد أمر، وإلا أن منافقين اثنين راحا إلى الماء وخاضا فيه، وحتى غاض!

ومنه فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قد دعا عليهما، ولعل هذا؛ ولعلمه أنهما كانا منافقين ابتداء، وإلا فإن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان أرحم من خلق ربنا، وكان أرأف من برأ من البشر، يومهم هذا، وغير يومهم هذا.

وإلا أن هذا ليس يصرفنا عن عمله صلى الله عليه وسلم، وحين وضع يده تحت الوشل، فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب، ثم نضحه به، ومسحه بيده، ودعا بما شاء الله أن يدعو، فانخرق من الماء - كما يقول من سمعه - ما أن له حسا كحس الصواعق، فشرب الناس، واستقوا حاجتهم منه.

والوشل، بالتحريك: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة يقطر منه قليلا قليلا، لا يتصل قطره [١].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ١١ / ٧٢٥

وهذه أيضا منح الله تعالى العلي الأكرم سبحانه، وحين أجاب دعاء نبيه، وليُسْقَى القوم، ومن بعد ظمأ، وليرتوي الناس ومن بعد عسرة، حكى عنها الكتاب المجيد، الذكر الحكيم، القرآن العظيم، وحين قال الله تعالى ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧].

ودلك على صحة مذهبنا هذا أنه وحين: انصرف صلى الله عليه وسلم قافلا إلى المدينة وكان في الطريق ماء يخرج من وشل قليل جدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يسقين منه شيئا حتى نأتيه فسبق اليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه فلما أتاه رسول الله صلى اللهعليه وسلم وقف عليه فلم يجد فيه شيئا فقال من سقبنا إلى هذا الماء فقيل له فلان وفلان وفلان فقال أولم أنهم أن يستقوا منه شيئا حتى آتيه ثم لعنهم ودعا عليهم ثم نزل صلى الله عليه وسلم فوضع يده تحت الوشل فصار يصب في يده ما شاء الله أن يصب ثم نضحه ومسح بيده ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شاء أن يدعو به فانخرق من الماء وكان له حس كحس الصواعق فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بقيتم أو بقي منكم أحد لتسمعن بهذا الوادي وقد أخصب ما بين يديه وما خلفه [١].

(١) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ٣ / ١١٩و١٢٠

علم نبوة ضاف: لئن بقيتم أو من بقي منكم ليسمعن بهذا الوادي، وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه

وليس يصرفنا هذا عن علم آخر من أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أبلغ الناس الحاضر منهم والباد، وأن هذا الوادي سوف يكون خصبا ومن بعد جدب! وحين قال صلى الله عليه وسلم: لئن بقيتم أو من بقي منكم ليسمعن بهذا الوادي، وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه» [١].

«اللهم إني قد أمسيت راضيا عنه فارض عنه»

وهذا أيضا حدث من أحداث يوم تبوك، يوم العسرة، وحين مات عبد الله ذو البجادين، رضي الله تعالى عنه، وقد حفروا له قبره، وليدعو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم دعاءه الميمون هذا، وبيان رضاه تعالى عن هكذا رجل؛ ولطالما كان قد جاهد في الله تعالى حق جهاده، وحتى أتاه اليقين.

وإلا أنها ولا شك موتة خير، لرجل خير، وحين أثنى هذا النبي على هذا الصحابي، ذي البجادين، رضي الله تعالى عنه، وهذه ولا شك أيضا منقبة عليا، ودرجة أسمى، ووسام أرفع، وحين يرضى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن أحدهم، وهكذا علنا، وكيما يقول عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: يا ليتني كنت صاحب الحفرة.

ولكن ذا البجادين هذا، وما أكرمه من وصف! وحين أسلم وجهه لله تعالى، وقد ناصبه أهله العداء، وحتى اضطروه أن يهرب من بينهم، وحين اضطروه أن يتزر

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٢٣

بنصف بجاده، وأن يرتدي بالنصف الآخر، ولذا سمي بذي البجادين. والبجاد هو ذلكم الثوب الخشن.

والبجاد: كساء مخطط من أكسية الأعراب، وقيل: إذا غزل الصوف بسرة ونسج بالصيصة، فهو بجاد، والجمع بجد [١].

وهذه دلالة الصبر والاحتساب في الدين، وهذا برهان أن يواجه العبد ضريبة التزامه، عنتا من أهله، وشدة من ذوي قرباه، فلا يجزع، ولأنه ولإخوانه لهم في هذا الحقل منه النصيب الأعلى، ولهم منه الجزاء الأوفى.

ودلك على صحة مذهبنا هذا: أنَّ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ كان يُحدِّثُ، قال: قُمْتُ مِن جوفِ الليلِ وأنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غزوةِ تَبُوكَ، فرأَيْتُ شُعْلَةً مِن نارٍ في ناحيةِ العسكرِ، فاتَّبَعْتُها أنظُرُ إليها، فإذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأبو بكرٍ وعُمَرُ، وإذا عبدُ اللهِ ذو البِجَادَيْنِ المُزَنيُّ قد مات، وإذا هم قد حفَروا له، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حُفْرتِهِ، وأبو بكرٍ وعُمَرُ يُدلِّيانِهِ إليه وهو يقولُ: أَدْنِيَا إليَّ أخاكما، فدلَّياه إليه، فلمَّا هيَّأه لِشَقِّهِ، قال: اللهمَّ إنِّي قد أمسَيْتُ راضيًا عنه؛ فارْضَ عنه، قال: يقولُ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: يا ليتَني كنتُ صاحبَ الحُفْرةِ[٢].

«أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه».

هذا خلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كان يعرف المنافقين واحدا واحدا، والوحيد أيضا، وإلا ما أخبر به صاحب سره حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر من شيء، وليس يعلم من الغيب

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٣ / ٧٧

(٢) تخريج زاد المعاد، شعيب الأرناؤوط:٣/٤٧٣. حكم المحدث: رجاله ثقات، إلا أن محمد بن إبراهيم لم يسمع من ابن مسعود.

شيئا، ولأن الله تعالى قال ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ولكن هؤلاء المنافقين، وإذ ما خلت منهم دولة، وإذ ما كفي شرهم محلة، وعلى مدار التاريخ هم لوثة، وعلى طول الزمان هم فسدة، وعلى عرض المكان هم عيبة. وحين يتربصون بالعباد الدوائر، ولما بيتوا نواياهم لقتل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين رجوعه من تبوك إلى المدينة، ولكن الله تعالى أطلعه على ذلكم سر، ويكأن الله تعالى قال ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

وكما هو المنهج في هذه السيرة النبوية المباركة، فإن هذه أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، ويكأنها ماثلة بين أيدينا، ونصب عيوننا، وفي القلب أيضا، ولقد كانت عاملا لإسلام أولاء المنافقين، وحيث قد تعمد النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلك الطريق الذي عزموا قتله فيه! وحين مروره منه، وإذ كان يمكنه أن يغير مساره، وأخذا بالسبب أيضا، ولكنه ههنا نحن لسنا أمام أخذ بالسبب، وإنما نحن من وراء السبب إعجازه، وآية، وبرهانا، وإفحاما، وتحديا، ولأن هؤلاء وإذ لو كانت لديهم مسحة من عقل لأسلموا، ومن توّهِم، وحين رأوا بأعينهم كيف تحديه لهم صلى الله عليه وسلم، وبل مطاردته لهم وحده يومهم ذلك، وحتى اضطرهم هم أن يهربوا، وأن يندحروا، ومما لا قوا من هكذا ثبات، وعزم، وإصرار، ومواجهة، وإذ يعينه على أمره هذا؛ هو ذلكم يقينه بربه الرحمن سبحانه، والذي معه لا تسل عن قوة، بل عن قوى، بل عن كل القوى!

وليس يفوتنا إلا أن نشير من خلال هذا الحدث أن الله تعالى مع المؤمنين عموما، ولأنه الله تعالى قال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩].

ومنه فيسيرون وعلى بركة الله تعالى، وعلى منهج الحق، والصراط المستقيم، وإنما تحفهم عناية ربهم، ولم يضرهم كيد خصومهم شيئا، وكما قال تعالى ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران:١٢٠]. وإلا ما كان من إذنه، وسوى ما هو من قدره، ولأنه ومن باب قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة:٥٢].

وإلا أن الصحابيين الكريمين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنهما، وحين رافقا نبيهما محمدا صلى الله عليه وسلم، ولما أشارا عليه بقتل أولاء المنافقين، وإذ كان رده عليهم ما سلف قوله: «أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه».

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما حكاه الإمام ابن شهاب الزهري عن ابن أكيمة الليثي، عن ابن أخي أبي رهم الغفاري، أنه سمع أبا رهم كلثوم بن الحصين، وكان من أصحاب الشجرة يقول: غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فسرت ذات ليلة معه، ونحن بالأخضر، وألقى الله علي النعاس، وطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة النبي ﷺ فيفزعني دنوها منه، مخافة أن أصيب رجله في الغرز، فطفقت أحوز راحلتي عنه، حتى غلبتني عيني في بعض الطريق، فزاحمت راحلتي راحلته، ورجله في الغرز، فلم أستيقظ إلا بقوله: «حس». فقلت: يا رسول الله استغفر لي. قال: «سر». فجعل رسول الله ﷺ يسألني عمن تخلف عنه من بني غفار، فأخبره به. فقال وهو يسألني: «ما فعل النفر الحمر الطوال الثطاط الذين لا شعر في وجوههم؟». فحدثته بتخلفهم. قال: «فما فعل النفر السود الجعاد القصار؟». قال: قلت: والله ما أعرف هؤلاء منا. قال: «بلى الذين لهم نعم بشبكة شدخ». فتذكرتهم في بني غفار، فلم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا. فقلت: يا رسول الله أولئك رهط من أسلم حلفاء

فينا. فقال رسول الله ﷺ: «ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرءا نشيطا في سبيل الله، إن أعز أهلي علي أن يتخلف عني المهاجرون والأنصار، وغفار وأسلم». قال ابن لهيعة عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير قال: لما قفل رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة، هم جماعة من المنافقين بالفتك به، وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق، فأخبر بخبرهم، فأمر الناس بالمسير من الوادي، وصعد هو العقبة، وسلكها معه أولئك النفر وقد تلثموا، وأمر رسول الله ﷺ عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه، عمار آخذ بزمام الناقة، وحذيفة يسوقها، فبينما هم يسيرون، إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم، فغضب رسول الله، وأبصر حذيفة غضبه، فرجع إليهم ومعه محجن، فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه، فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد أظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم، فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ فأمرهما، فأسرعا حتى قطعوا العقبة، ووقفوا ينتظرون الناس.ثم قال رسول الله ﷺ لحذيفة: «هل عرفت هؤلاء القوم؟» قال: ما عرفت إلا رواحلهم في ظلمة الليل حين غشيتهم. ثم قال: «علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب؟» قالا: لا، فأخبرهما بما كانوا تمالئوا عليه، وسماهم لهما، واستكتمهما ذلك؟ فقالا: يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟فقال: «أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»[١].

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام: ج٤/٥٢٨

صاحب السواد والوساد!

هذا وسم جميل جليل، وقد وسم به الصحابي الكريم عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

وأما أنه صاحب السواد؛ ولأنه كان أعرف بأسرار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا شأن عام.

وإما أنه كان صاحب الوساد؛ ولشدة ملازمته لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان لا يبرح مكانا هو فيه، وإذ كان هذا الرجل يجد عبادته في أن يتقرب إلى الله تعالى بخدمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان يطلق عليه أيضا صاحب نعلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنه كان يحملهما عنه، وحين تطأ قدماه الشريفتان مكانا ما، وإذ كان يسارع ابن أم عبد، عبدالله بن مسعود فيخلعهما عنه صلى الله عليه وسلم، ويضعهما تحت إبطيه.

ولعل هذا العبد الفرد، الذي هو ابن أم عبد عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى لينطبق عليه قوله صلى الله عليه وسلم: فَخِيارُكُمْ في الجاهليةِ خِيارُكُمْ في الإسلامِ إذا فَقِهوا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: سُئِلَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: **مَن أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قالَ: أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ. قالوا: ليسَ عن هذا نَسْأَلُكَ، قالَ: فأكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ. قالوا: ليسَ عن هذا نَسْأَلُكَ، قالَ:**

فَعَنْ معادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ مَعادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا [١] .

ولأن قصة إسلام الرجل فيها شيء من هذا، وحين كان راعيا لغنم عقبة بن أبي معيط، وقد مر عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يوم الهجرة، وإذ طلبا منه حليبا يترويان منه، وإذ كان جوابه أنه مؤتمن! وعلى هذه الأغنام! وهذا جواب آحادهم، وإذ كان كافرا فما بالنا ويوم أسلم؟ وليكون من ثم صاحب السواد والوساد، وصاحب أسرار رسول الله، وصاحب فراشه، وصاحب سواكه، وصاحب نعليه، وطهوره، وإذ يفعل ذلك كله في السفر.

ثم إنه صلى الله عليه وسلم وكعلم على نبوته أيضا سأله شاة لا حليب فيها، ومن ثم حتى لا يحرجه أمام هذه أمانته صلى الله عليه وسلم. وليقرأ عليها قرآنا، وليحلب منها النبي صلى الله عليه وسلم، ويشرب هو، ويشرب أبو بكر، ويشرب عبد الله بن مسعود، ومن ثم كان يوم إسلامه ولما رأى من الآيات بين يديه نبأ لا خبرا من أحد آخر، ومن ثم ليسلم وجهه لله تعالى وهو محسن، ومن توها غير متلعثم، وكتلعثم من سواه يوم إسلامه!

وهذا الرجل كانت له مواقف شاهدة على تقواه، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسمع منه القرآن الحكيم، ولحلاوة صوته، ونداه معا، وحين طلب منه صلى الله عليه وسلم أن يقرأ عليه القرآن، ولكن الرجل يتأبى، ولأنه قد نزل عليه صلى الله عليه وسلم هذا القرآن، ولكن نبينا أراد أن يسمعه منه خصيصا، ويوم أخبره أنه يريد أن يسمعه من غيره.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٣٨٣

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: قالَ لي النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: **اقْرَأْ عَلَيَّ، قُلتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قالَ: فإنِّي أُحِبُّ أنْ أسْمَعَهُ مِن غَيْرِي، فَقَرَأْتُ عليه سُورَةَ النِّسَاءِ، حتَّى بَلَغْتُ: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١]، قالَ: أمْسِكْ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ** [١].

ومن يومه، ويقول عنه نبينا صلى الله عليه وسلم: من أراد أن يسمع القرآن غضا طريا كما أنزل فليسمعه من ابن أم عبد!

فعن عبد الله بن مسعود: أنَّ أبا بَكرٍ، وعُمرَ، بشَّراه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد [٢].

وذُكِرَ عبدُ اللَّهِ بنُ مَسْعُودٍ عِنْدَ عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو، فَقالَ: **ذَاكَ رَجُلٌ لا أزَالُ أُحِبُّهُ، سَمِعْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: خُذُوا القُرْآنَ مِن أرْبَعَةٍ مِن عبدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ - فَبَدَأَ به -، وسَالِمٍ، مَوْلَى أبِي حُذَيْفَةَ، ومُعَاذِ بنِ جَبَلٍ، وأُبَيِّ بنِ كَعْبٍ** [٣].

وحتى ذاع صيته عند أهل القرآن، وحين عرفت قراءة باسمه رضي الله تعالى عنه، وتناقلها الناس كابرا عن كابر.

وهذا العبد لله تعالى، وإذ تراه يثني على إخوانه، ولما يذكر مناقبهم، صفاء سريرة، ونقاء لب ومعرفة الفضل، وعوده لأهله، وحين قال رضي الله تعالى عنه: قالَ

---

(١) صحيح البخاري: ٤٥٨٢

(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١١٤

(٣) صحيح البخاري: ٣٨٠٨

عبدُ اللَّهِ [بنُ مُسعودٍ]: لو أنَّ ابنَ عبَّاسٍ أدرَكَ أسنانَنا ما عاشَرَهُ منَّا أحدٌ [١]. ولأنهم جملتهم لم يصلوا إلى كثير مما عند الإمام الحبر الترجمان من علم، وما لديه من فقه!

وهذا علمه الواسع وهذا فقهه الغزير، فعن أبي العبيدين العامري سألتُ عبدَ اللهِ بن مَسعودٍ، عن المُبَذِّرِينَ؟ قال: الَّذينَ يُنفقونَ في غَيرِ حقٍّ [٢].

وهذه أمة لم يكن لديها هذا الوقت الذي يشرحون فيه عن الغناء ويقضون وقتهم في ذلك ولأن همة العبد وإنما هي أكبر من ذلكم بكثير.

وهذا هو قول عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه في هذا الغناء: فعن إبراهيم النخعي، قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: الغِناءُ يُنبِتُ النِّفاقَ في القلبِ [٣].

وهذا عن فقهه، فعن علقمة: جاء رجُلٌ إلى ابنِ مَسعودٍ، فقال: **إنِّي طلَّقْتُ امْرَأتي تِسعًا وتِسعينَ، فقال له ابنُ مسعودٍ: ثلاثٌ تُبينُها منكَ، وسائرُهُنَّ عُدوانٌ** [٤].

وعن ابنِ مسعودٍ: أنَّه سُئِل عن رجُلٍ تزوَّجَ امرأةً ولم يَفرِضْ لها صداقًا، ولم يدخُلْ بها حتى مات، فقال ابنُ مسعودٍ: لها صداقُ نسائِها، لا وَكْسَ ولا شَطَطَ، وعليها العِدَّةُ، ولها الميراثُ، فقام مَعقِلُ بنُ سِنانٍ الأشجَعيُّ، فقال: قضى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بِرْوَعَ بنتِ واشقٍ امرأةٍ منَّا مِثْلَ ما قضَيْتَ، ففَرِحَ بها ابنُ مسعودٍ [٥].

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٤/٦٩٢

(٢) صحيح الأدب المفرد، الألباني: ٣٤٥

(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم: ١/٣٧٢. خلاصة حكم المحدث: صحيح عن ابن مسعود من قوله، وقد روي عن ابن مسعود مرفوعا.

(٤) تخريج زاد المعاد، شعيب الأرناؤوط: ٥/٢٣٧. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

(٥) تخريج شرح السنة، شعيب الأرناؤوط: ٩ / ١٢٦، ١٢٧. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

صاحب السر!

هو أبو عَبْد الله، واسمه اليمان حسيل بن جابر، واليمان لقب، وهو حذيفة بن حسل، ويقال حسيل بن جابر بن عمرو بن ربيعة بن جروة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس العبسي القطيعي، من بني عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان، حليف لبني عبد الأشهل من الأنصار.

وأمه امرأة من الأنصار من الأوس من بني عَبْد الأشهل، واسمها الرباب بنت كعب بن عدىّ بن عَبْد الأشهل. وإنما قيل لأبيه حسيل اليمان، لأنه من ولد اليمان جروة بن الحارث بن قطيعة بن عبس، وكان جروة بن الحارث أيضًا يقال له اليمان، لأنه أصاب في قومه دمًا فهرب إلى المدينة، فخالف بني عَبْد الأشهل، فسماه قومه اليمان، لأنه حالف اليمانية.

شهد حذيفة وأبوه حسيل وأخوه صفوان أحدًا، وقتل أباه يومئذ بعض المسلمين وهو يحسبه من المشركين.

كان حذيفة من كبار أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، وهو الذي بعثه رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم يوم الخندق ينظر إلى قريش [١].

وأسلم حذيفة وأبوه وأراد شهود بدر فصدها المشركون وشهدا أحدا فاستشهد اليمان بها، واستعمله عمر على المدائن فلم يزل بها حتى مات بعد قتل عثمان وبعد بيعة عليٍّ بأربعين يوما " وذلك في سنة ست وثلاثين، وهاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فخيره بين الهجرة والنصرةَ فاختار النصرة [٢].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر: ١/٣٣٤
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر: ٢/٤٤

وهو صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين، لم يعلمهم أحد إلا حذيفة؛ أعلمه بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأله عمر: أفي عمالي أحد من المنافقين؟ قال: نعم، واحد. قال: من هو؟ قال: لا أذكره. قال حذيفة: فعزله، كأنما دُلّ عليه [(١)].

وكان عمر إذا مات رجل يسأل عن حذيفة، فإن حضر الصلاة عليه صلى عليه عمر، وإن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضر عمر [(٢)].

وعنه رضي الله عنه قَالَ: ما منعني أن أشهد بدرا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل، قال: فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدا، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم [(٣)].

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: **لما كان يوم أحد هزم المشركون، فصرخ إبليس لعنة الله عليه: أي عباد الله، أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد الله، أبي أبي، قال: قالت: فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله عزوجل** [(٤)].

---

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ١/ ٣٩١

(٢) المرجع السابق: ١ / ٣٩١

(٣) صحيح مسلم:١٧٨٧.

(٤) صحيح البخاري:٤٠٦٥

وعن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد قال لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد رفع حسيل بن جابر وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش بن زعورا في الآطام مع النساء والصبيان وهما شيخان كبيران فقال أحدهما لصاحبه لا أبا لك ما تنظر فوالله ما بقى لواحد منا من عمره الا مثل ظم ء حمار انما نحن هامة اليوم أو غدا أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله أن يرزقنا الشهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذا أسيافهما ولحقا برسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلا في المسلمين ولا يعلم بهما فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون وأما حسيل بن جابر فاختلفت عليه أسياف المسلمين وهم لا يعرفونه فقتلوه فقال حذيفة أبى فقالوا والله ما عرفناه فصدقوا فقال حذيفة يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يديه فتصدق حذيفة بديته على المسلمين فزاده رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا أخرجه الثلاثة.[1]

وعن يزيد بن شريك التيمي كنا عند حذيفة، فقال رجل: **لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبليت، فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم، فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: اذهب فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي،**

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج ٢ / ١٦

فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهما في كبد القوس فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولا تذعرهم علي، ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم، وفرغت قررت، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قم يا نومان [1].

وفيه فضيلة ظاهرة لحذيفة رضي الله عنه، حيث اختاره النبي صلى الله عليه وسلم لهذه المهمة الصعبة، وفي هذا الخوف والبرد الشديد.

وفيه كرامة ظاهرة له رضي الله عنه، ومن حيث وقد تعرض لهذا البرد الشديد، ولم تصبه مصيبة برد، وكما لم ينص على ذلك. ولا سيما أنه وحين رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم عاد إليه البرد الذي يجده. كل حاضر يومهم ذلك.

وكان رضي الله عنه شديد الاحتراز لدينه، وعظيم الاحتياط لنفسه، ويسأل عن الشر ليتقيه. وحين سأل الرسول عن الشر: مخافة أن يدركه، وهذه منقبة عالية؛ ولأن الناس عادة يسألون عن الخير وسبله، ونادرا ما يسألون عن الشر وطرقه.

فعن حذيفة بن اليمان كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة إلى

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٨٨

أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك (١).

ومن غزير فقهه علمه بالفتن وإلى أن تقوم الساعة.

وقال حذيفة بن اليمان: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة، فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر إلي في ذلك شيئا، لم يحدثه غيري، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وهو يحدث مجلسا أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهو يعد الفتن: منهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئا، ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار (٢).

وإنما كان علمه ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه: قد خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم خطبة، ما ترك فيها شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه وجهله من جهله، إن كنت لأرى الشيء قد نسيت، فأعرف ما يعرف الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه (٣).

وأما تسميتهم حُذَيْفة فهو تصغير حِذْفَة وهي قطعة تحذِفها من لحم أو غيره، أو تصغير حَذَفَة، والحَذَف ضرب من البطّ صغار الجُروم شُبِّه بالحَذَف (٤).

---

(١) صحيح البخاري: ٣٦٠٦

(٢) صحيح مسلم: ٢٨٩١

(٣) صحيح البخاري: ٦٦٠٤

(٤) جمهرة اللغة، ابن دُرَيْد: ١/٥٠٨

ومنه فإن تسمية الأبناء بهذا الاسم عمل صالح تأسيا بسيرتهم ودفعا لضر حاق بتسمية الناس بناتهم وأولادهم بأناس غرباء!

في أصحابي اثنا عشر منافقا منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط.

هذا حديث صحيح رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى، وكم هو يبين قلة أعداد المنافقين الذين أفرزوا، وعلى مدار اثنين وعشرين عاما تقريبا من عمر هذه الدعوة المباركة، ومن مبعثه صلى الله عليه وسلم، وإلى يوم تبوك هذا!

ولكن سمو هذا الدين وطهارته وعلوه وسمقه، وإن كل ذلك وراء كبحه جماح المنافقين، وإن كل ذلك ولما أقام عليهم حملته، وإن كان أيضا وبمثل معهودنا عنه، من أدب جم، وإن كمثل ما عرفناه عنه من خلق حميد، وإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، وإن لفي التلميح لأبين من التصريح، ولما كان القرآن الحكيم، الذكر المبين، وكذا سيد المرسلين، خاتم النبيين، ولما لم يبديا ببنت شفة عن فلان أنه كان منافقا تصريحا، وإن حدث ذلكم عن طائفة بأجمعها، لا بأسمائها، وقد كان ذلكم تلميحا، وإلا من اشرأب في الظلام نفاقه، وإلا من تطاول في النهار ساقه!

ولأنك تعلم أننا ما وصلنا إلى متوسط عددي لا يساوي حتى الواحد الصحيح ولكل عام!

وهذا برهان بركة هذا الدين- من حق- ومن موجب أنه دين تخالط بشاشته شغاف القلوب، وحتى ينظر ومن مثل ما نرى الآن أن يكون نفاقا، وبهذا الحد الذي يعني كثرة.

ولكن هذا الدين ولعلمه بخطورة هذه الحقيقة، ولأنها يمكن أن تهدم بنيتنا من علٍ، والا أنه أقام حربا شعواء ضد هذا الكيان، وكيما لا ينتفش عوده، فيكون والحال كذلك من تمدده، وكما تمدد النار في الهشيم، وحينها أصبح من الصعوبة محاصرته، أو مكابتته، أو إطفاء سعاره!

ولذلكم جاءت سورة كاملة أسموها الناس السورة الفاضحة، وهي سورة التوبة، ولمجرد هؤلاء الاثني عشر منافقا! وحينما شنت عليهم حربها الضروس، وبكأنهم أمة!

ولكننا إذا قسنا هذا المعدل على يوم من أيام الناس، فلربما كانت الصاعقة! وحين ترى أن شأن مجمع واحد من مجمعات الناس، ولربما كان كله أو أكثره وعلى هذه الرذيلة من خلق، وعلى هذه الدنية من خلاق! وليس يعد ذلكم افتئاتا، وبقدر ما هو تشخيص ربما حالف الحقيقة، وأسبر غورها معا!

ولست هنا أريد كيلا لذلك، وبقدر ما أريد الوقوف على الداء من جانب، وهو ذاك الذي يمكن أن يكون عاملا للهدم الأفقي، والانحدار الرأسي من علٍ أيضا، ولهذه المؤسسة أو تلك، وكما أنه كان من جانب آخر عامل تشخيص، ويسره أن وجود من مثل تلكم ناخرة السوس في هيكل المنظمة، ومن سبب قمة الهرم وإلى قاعدته معا، وحين لا يكون قائما على البر والتقوى والإيمان والتقوى والصلاح والفلاح، وإذ تراه مترهلا، وحين لم يستو على سوقه!

وكأننا نطوف حول وجود هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وسط هذه المنظمة التي علت، وفي مقياس زمني ليس طويلا، وقياسا على الأمم الناشئة، وحين يستغرق بنيان سوقها أمدا بعيدًا، ولكنه ولأن بينهم نبيهم، وهذا الرسول الذي كان الوحي

مقدمته وقائده، وهذا النبي الذي كان عون ربه له سابقه ورائده، فكان هذا المحفل الكريم الواسع، والمترابط بأطرافه، ومن مكون رجال عز على تاريخ أن يوجد مثلهم فيه، وإلا هذا التاريخ الذي بين أيدينا، وحين سطر لنا ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين، وأنهم أولاء هم تلاميذ هذا النبي! ومع ذلك، وإن كانوا وقد وجدوا أولئك المنافقين الاثني عشر، فلا شك أنهم قلة، وكما بينت آنفا، ولا شك أنهم ربما كان شيئا طبيعيا؛ وأمام قوة هذا الدين، وحينه ويوم أن جاء ليبسط سناه على البسيطة، وينشر هداه على المشارق والمغارب، ومنه كان الحين مادة ملائمة، ولبعض مواقف قد تظهر، وأثناء عملية تأسيس مثل هذا البنيان، المشيد، الضخم؛ ولقيادة البشرية، ومن بعد هذا النبي، وإلى أن تقوم الساعة، وقد كان لمادة الحسم إذًا لزومها، وقد كانت طريقة الحزم إذًا وجوبها، وإبان هذه الفترة من التاريخ، ولذلك كان ملائما جدا بدو ظاهرة النفاق.

ولكنها ظاهرة، ورغم خطورتها، لم تكن بهذا الذي يروج له، وحين علمنا أنهم ينحصرون عدا ما بين اثني عشر إلى خمسة عشر منافقا! وخلال اثنين وعشرين عاما من عداد ثلاثين ألفا، هم كانوا عدة الجيش الباذل وئذ فقط! وإذ كان لحسن الحظ أنهم مكشوفون! ومن هنا يهون الخطب، ولأن هذا الصنف، ليس يكون إلا من طبيعته الانكسار، وما كان الله تعالى ربنا ليذر عباده، إلا ويكشف لهم عن هكذا فريق، وكيما يعدوا له؛ ولمواجهته، وحسب المقام، ومقتضى الحال.

ولكن الحدث الذي بين أيدينا، وهو يوم تبوك هذا، ولربما كان موجب بدو مثل هذه الطائفة، ولما كان أمر البذل لم يكن قد استقر في وجدان البعض، وممن هم على شاكلته خمسة عشر أو اثني عشر، وحين كان هذا ولربما ظرفا مواتيا، شكل قلاقل بوجودهم، ولست أقول سببا وجيها، ولست أقول وجها مقبولا، ولكنه هكذا يمكن تقبل وجوده! ولست أقول تبرير وجوده أيضلا!

وإن قيل كيف؟

قلت:

أولا: إن طبيعة المعركة يوم تبوك، ساعة العسرة، وإذ كان يكفي من ملخصها وموجزها هذا الذي قالوه، ونقلوه، وشخصوه، وأنها كانت عسرة في الظهر والحر والزاد والماء، وهذا أمر عند تأمله حق تأمله، فقد كان وضعا شبه ملازم، ولبدو طفرة، ومن هذا النوع في جسد أمة ظاهرة.

ثانيا: وهو ذلكم الانتشار الجديد، والذي أعد له النبي صلى الله عليه وسلم رجالا، وإن كانوا ذوي عسرة! وهذه من مقومات هذا الدين، وأن ينتشر، وأن يصول، وأن يجول، وبقطع النظر كثيرا عن مدى هذه القوات المسلحة، ورغم ضروتها، وإلا أنه لا محالة ليس يقعد، وحين تمطر السماء ذهبا أو فضة! ولأنها ليست بفاعلة ذلك! ولأن الامتداد من طبيعته، ولأن الفتح من شيمته، وخاصة أننا هنا وأمام مواجهة جديدة، والناس لا عهد للناس بأمثالها من قبل، وكان شيئا طبيعيا منه بدو من مثل ذلكم ظاهرة، ومقتضى الحال ما أنف.

وإلا أنه وكما قلت آنفا كانت نبتة، لا بادرة، وإذ كانت مراقبة من السماء لحظة بلحظة، وكيما لا يمتد شررها، وحتى لا ينتشر أوارها.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن قيس بن عبادة قال: **قُلْنَا لِعَمَّارٍ: أَرَأَيْتَ قِتَالَكُمْ، أَرَأْيًا رَأَيْتُمُوهُ؟ فإنَّ الرَّأْيَ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، أَوْ عَهْدًا عَهِدَهُ إلَيْكُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ؟ فَقالَ: ما عَهِدَ إلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ شيئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إلى النَّاسِ كَافَّةً، وَقالَ: إنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، قالَ: إنَّ في أُمَّتِي. قالَ شُعْبَةُ: وَأَحْسِبُهُ قالَ: حدَّثَني حُذَيْفَةُ. وَقالَ غُنْدَرٌ: أُرَاهُ قالَ: في**

أُمَّتِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا، حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ ثَمَانِيَةٌ منهمْ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ، سِرَاجٌ مِنَ النَّارِ يَظْهَرُ في أَكْتَافِهِمْ، حتَّى يَنْجُمَ مِن صُدُورِهِمْ[١].

وهذا النفاق الذي يكون هذا شأنه، هو النفاق الذي يسمونه النفاق الأكبر، وهو ذلكم الذي يخرج صاحبه من الملة، ولأنه يعني إبطان الكفر وإظهار الإسلام؛ وحين كان شأنه نفاقا اعتقاديا وعمليا، والذي كان من شأنه قول الله تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

وأما النفاق الذي يسمونه النفاق الأصغر، والذي هو ما دون النفاق الأكبر، فإنه وإن عد نفاقا، وإلا أنه ليس يخرج من ملة الإسلام، ولأنه عد نفاقا عمليا لا اعتقاديا، وهو الذي مثلوا له بقول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا وعَدَ أخْلَفَ، وإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ[٢].

وإنه ولئن عد كذلك؛ وإنما تخويفا وتحذيرا، من أن يطَّاول ليبدو كما الأول منه!

---

(١) صحيح مسلم: ٢٧٧٩

(٢) صحيح البخاري: ٣٣

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١١٠].

وهذا تقرير القرآن الكريم، الذكر الحكيم، الكتاب المبين، لشين خلق المنافقين، وهذا إعراض الفرقان التبيان العظيم، عن ذكرهم؛ أنفة، وتأففا ههنا، وهذا ذم للمنافقين، ومن وراء النظم ألمحه؛ ونظير فعلهم هذا!!

وكل ما أنف مما دل عليه تصدر آيتنا بالاسم الموصول وصلته معا! ولما كانت صلته مضاعفة أيضا، ومن وراء تضعيف هذا المبنى ﴿اتَّخَذُوا﴾، وهو ذلكم تضعيف هذا المعنى أيضا، ولقولهم: إن زيادة المبني برهان زيادة المعني، ولقولهم أيضا: إن زيادة المبنى إفادة معنى أوسع. للحصول على معنى جديدٍ لم نحصل عليه من المجرّد [١]. ومبالغا فيه في آن، وبكأنه دال على الاجتهاد والطلب أيضا! [٢] وإذ أغرقوا أنفسهم، وأتعبوها، وأرهقوها، ونظير هذا التطالب والاجتهاد في العداوة، وقد كان من أيسرَ أن يسلموا بواطنهم، وكما قد تظاهرت ظواهرهم، وليس يكلف المرء نفسه هذا العناء كله!!!

---

(١) كتاب شرح المفصل، ابن يعيش: ٧/ ١٥٠

(٢) معاني صيغ الزوائد، حسن غازي عكروك السعدي، مقال منشور على شبكة المعلومات

وهذا التضعيف ماثل أمامنا، وليس من شأننا بحث عما جاء به، أو سببه، ومن إدغام المتماثلين الكبير، وحين من جذرا أتتخذ ، أومن جذر ائتخذ ، أو من جذر استخذ، ولأن الناتج هو ذلكم التشديد، والتضعيف، وبما أسبغ على المفردة من قوة، وتمكين، وزيادة معنى.

وقال ابن جني: وفيه وجه آخر وهو أنه يجوز أن يكون أصله أتتخذ وزنه افتعل ثم إنهم أبدلوا من التاء الأولى التي هي فاء افتعل سينا كما أبدلوا التاء من السين في ست، فلما كانت السين والتاء مهموستين جاز إبدال كل واحدة منهما من أختها. وفي حديث موسى والخضر، عليهما السلام، قال: لو شئت لتخذت عليه أجرا. (١)

وقال ابن الأثير: يقال تخذ يتخذ يوزن سمع يسمع مثل أخذ يأخذ، وقرئ:

لتخذت ولاتخذت، وهو افتعل، من تخذ، فأدغم إحدى التاءين في الأخرى، قال: وليس من أخذ في شئ، فإن الافتعال من أخذ ائتخذ؛ لأن فاءها همزة، والهمزة لا تدغم في التاء. قال الجوهري: الاتخاذ الافتعال من الأخذ، إلا أنه أدغم بعد تليين الهمزة وإبدال التاء، ثم لما كثر استعماله بلفظ الافتعال توهموا أن التاء أصلية، فبنوا منه فعل يفعل، قالوا: تخذ يتخذ، قال: وأهل العربية على خلاف ما قال الجوهري (٢).

ولما كانت أفعال المنافقين، وكما حكى القرآن العظيم كثيرة كثرة ما في قلوبهم من غيظ، وحين كان من أمر اتخاذهم مسجدا ضرارا، وإذ ليس لعلة واحدة، وإذ كان كفاه أن يكون ضرارا، وإنما لأسباب متعددة، وحين حكى النظم عنهم ما أنف، وكيما يتفق أصل التضعيف مع أصل تنوع ضرارهم! وإذ ليس ضرا واحدا!

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٣ / ٤٧٨

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٣ / ٤٧٨

ولكن مجيء مفردة(ضرار) هكذا نكرةً، ومن معناه حصول المعاني من كثير الضرر وصنوفه، ومما أمكنهم كيده، ومما أوغلهم فيه نفاقهم، وما يمكن أن يجد من ضرر آخر لاحقا!

ولكني أريد أن أبقي على نكرته، فلا أعرفه، وكما نكره، فأنكره القرآن العظيم أيضا!

ولكن هذا التنوين، والذي يسمونه تنوين التمكين، فدل أيضا على سبق إصرارهم وترصدهم بضرارهم هذا، وهذه أسباب مشددة للعقوبة أيضا.

وهذه لفتات لغتنا العربية الجميلة!

ولكن هذا الوصف لهكذا مسجد ضرار، ولما كان على وزن فِعَال، ولما كانت صيغة من صيغ جموع الكثرة، وإذ كان هذا الوزن حاملا معه معنى الامتناع، وهو ما يدل عليه فعلهم أيضا، وحين كان منعا لكلمة الله العليا، وأن تقال فيه! وكذا ولتحمل معها من المعاني الغلاظ الشداد، ما أداه هذا المشتق وزيادته معه أيضا، وإذ أنتج المشتق معنى موازيا، وحين كان ليس من وزن فِعَال وحسب، وإنما ومن تكرار حرف الراء أيضا، ومن جنس واحد متماثل كبير، ومن بينهما هذا المد بالألف، وليمد معه معناه أيضا، وحين جاء متراكبة منه هذه الأوصاف النكدة لهكذا مسجد ضرار أيضا، وإن ومن حكمة وإحاطة ربنا الرحمن، واضع النظم، ومنزل القرآن، وخالق الأداء اللفظي المعن إعجازا وتحديا، فدل على انعقاد كيدهم، وتراكب مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال! وكما قال تعالى ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ﴾ [إبراهيم:٤٦].

ويكـأن الله تعـالى مذهبـه، ومميطـه، ومـدحره، ومبطلـه، كلـه، وعلـى قدرتـه اللامحـدودة بحـد، وإذ لـيس يـرد عليها قيـدا! ولـئن جـاء ومـن مثـل هـذا التزاحم في الأداء، ولـو كانـت أمثالـه معـه أيضـا! وقـد أكسـبه زخمـا جمـيلا جمـيلا، وقـد منحـه معنـى غزيـرا غزيرا.

ولكـن هـذه المعـاني المتراكبـة المتضـاعفة، وليـؤدي عنهـا هـذا الفـتح المختـوم بـه، صـرفا ونحـوا، ولينفـتح الفـم معهـا غـير منغلـق؛ ولاعتبـارات المـد الطبيعـي، ولينفـتح معـه أيضـا سـيل المعـاني المتراكبـة المتضـاعفة، ومـن هكـذا كـان وزن ضـرار، ولمـا جـاء مفتوحـا! وخاصة عند الوقف تراه أعظمَ!

ولكن هذا الفعل (اتَّخذ) وحين كان يحمل معه معني الصيرورة، فـدل أيضا على ذلكم الإعجاز حتى في اختيـار المفردة، ومن مكانها هـذا، بـالنظم القرآني الكريم! ويكـأن المساجد وضعا ليست تكون إلا وحين كان منعقد النية أنها تكون لله تعالى، ولما كان من شأن أغيار غير هذا الوضع، وإنما صيروها مما يجب أن تكون، وإلى ما لـيس يجوز أن يكون! وإذ لـيس ذلك فحسب أيضا، وإنما ومما كان من عمل هذا الفعل (اتَّخذ) كونه ناصبا لمفعـولين أصلـهما المبتـدأ والخبر! فـدل على تراكـب المعـاني أيضـا، وفـرق بـين أن ينصـب فعل مفعـولا واحـدا، وأن ينصـب آخـر مفعـولين! أصـلهما أو لـيس أصلـهما المبتـدأ والخبر! وهذا بحث آخر!

وهذا عمل الكلمة، ولما كانت من وضع خالق هذه الكلمة سبحانه!

وهذه من تفننات لغتنا الجميلة أيضا.

وهـذا فعـل المنـافقين أبـدا، وليسـوا يكـادون يهـدأ لهـم مـن بـال، وإلا أن يريـدوا أن يطفئوا نورا الله بأفواههم، ولكن الله متم نوره، ولو كره المشركون.

وجميل هكذا صنع ربي! وأي فاه، بل أية أفواه شهد لها التاريخ يوما أن لها أو بها مكنة إطفاء أو إخماد نور عم بهاؤه، أو أن لها طاقة إسكان أو إهماد فلاح وهدى وهذا بيانه؟! وحتى يمكننا أن نصدق قولا للمكذبين المنافقين، أو ألا نكذب مسعى للمرجفين المناوئين؟!

وهكذا يجب على الفئة المؤمنة أن تكون واعية للدرس تماما، ولما يمكن أن يحاك أو يدبر لها بليل، أو أن يحاق بها من زيغ ومكر ودهاء.

ولكن هذا مسجد ضرار، وحين بناه المنافقون، مرجع نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، من تبوك، ونصرها، ومن يوم العسرة، وبذلها، وإذ رأوا أن هذا الدين ممتد، متسع، منفرج، وكما نهار قد انفلج من ليل بهيم، وكما نور قد انبلج من ظلام حالك عميم، ورغم ذلك لا يكادون يصبرون على شروق شمس يوم الإسلام وضحاها، أفلم يكونوا يرونها؟! وما يتركون نقيصتهم إلا اتبعوها، وليس يدعون عيبتهم إلا سلكوها، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وبدل أن يسلموا، ومن بعد ما رأوا الآيات، وإذ بك تراهم يعرضون! وليتهم أعرضوا، ولكنهم عاندوا! وخططوا، وحاكوا، ونصبوا حبالهم، وأفردوا شباكهم! ولصيد حسبوه ثمينا سمينا! وحين كانت هذه طويتهم، يلوون على المؤمنين، ويكيدون للمسلمين، وفي كل مرة تجد ريحا زاكمة خبيثة، لما تنتهض دليلا آخر على خسارهم، ولما يدبرون، وإذ بهم يغوصون كثور في الوحل، وهيهات أن يخرجوا سالمين، بل مكلومين مجروحين؛ ونظير فعلهم، وموجب ضغينتهم، وسوء سريرتهم.

ولست ناسيا يوم حنين، وكما لم ينسه قارئ كريم أيضا، ولأنه الأقرب ليومنا هذا، وإلا أن تاريخهم- كله- وَحِلٌ! وحين كانت غلبة ظاهرة لثقيف أول أمرهم، وحين

كشفوا عما تكن صدورهم من غل، وإذ انكشفوا، وحين عبروا عما في قلوبهم من غيظ، وإذ ظهروا أول مرة!

وحين قال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته.، وحين صرخ جبلة بن الحنبل قائلا: ألا بطل السحر اليوم [١].

ولكن مسجد ضرار هذا صورة، ويكأنه مسجدا! وحين سماه الله تعالى مسجدا، وعلى تسميتهم له، ولكنه تعالى فصل بين المسجدين، مسجد في الصورة، وهو ذاك مسجد المنافقين، مسجد ضرار ذاك، وحين كان خاليا عن معنى كريم، وإلا معاني أنفت! وكما بينتها آيتنا الكريمة محل البيان والكشف والتوضيح.

وثمت مسجد آخر في الصورة والمعنى، وهو ذلك الذي تقام فيه كلمة الله العليا، وحين كان يؤذن للصلاة فيه خمس مرات، يبدأها المؤذن بالتكبير، وأنه لا كبير إلا ربنا، ومن ثم يثني بالشهادتين، وحين يشهد بأنه الله تعالى، وكما أنه هو الخالق البارئ المصور، فإنه كذلك هو ذلكم الرب الإله الذي لا تصرف العبادة إلا له، إن في جلي، وإن في خفي، وهنا يكون الناس قد حققوهما، ولما لم يأتمروا إلا بأمره، ولما ينتهون عن نهيه، وهذه هي خلاصة عقيدتنا في الله تعالى ربنا الخلاق العليم، وهذا هو تقديم هذه العقيدة صافية من كدر، وهذا هو بيانها خالية من عكر: (لا أمر إلا أمره ولا نهي إلا نهيه)، وكذا نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه المبلغ الأمين عن ربه الرحمن الرحيم سبحانه؛ ولأنه ومن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٤ / ٨٩٤

ولكن المنافقين يريدونها سفلا، بل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، وكما أن كلمة الله العليا، وقد أوجزناها في أنه لا أمر إلا أمره تعالى ولا نهي إلا نهيه تعالى، وحين تكون كلمته تعالى نظاما عاما، يحتكم إليه الناس في أقضيتهم، وعن عبادة، وليس عن حاجة!

هذا، وحين تكون كلمة الله تعالى العليا هي المصدر، والمرجع، والأصل، والفرع، والقاعدة، والأساس، فثم الناس، ومن ثم الحق أيضا تبعا. وأما وحين يقع ما بين ذلك من خطأ؛ عن اجتهاد، ولا عن قصد المخالفة، فإن ربنا لغفور رحيم، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى:٢٥].

فكذلكم هذه هي كلمة الذين كفروا السفلى، وعكس ما رأيناه، وحين كانت لا أمر إلا أمر من كفر، ولا نهي إلا نهي من أدبر! وهذا هو إيجاز عقائد الكفر أيضا!

ولكن أولاء المنافقين قفاهم عريض! وإذ كان مليحا أن يروا نصر الله، وفتحه المبين على هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين جاءت أباطرة الروم مصالحة، وللجزية دافعة، وإيذانا بميلاد عصر جديد، تكون لهذا الدين فيه الكلمة العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ولما كان الأمر كذلك، وها هم يبنون مسجد ضرار، فإن هذا صيد في الماء العكر!

وإن قفاهم لأعرض! وحين رأوا الأباطرة هكذا يسارعون خطاهم، وإذ تكاد وكجلمود صخر حطه السيل من عل، وإلى هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا أن يصالحوه، فدل على كم هي قوة غامرة لهذا الكون مكتسحة ظلامه الدامس، وليحل محله نور الهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، والكافرون، والمرجفون، والمنافقون! وإذ كان عليهم، والطقس هكذا، أن يلملموا

أوراقهم، ويتوبوا، وأن يراجعوا أنفسهم، ويعودوا، ولكنها القرائح الماكرة، النكدة، الناكرة، الأشرة، النكرة، المعاندة، وحين تسبح عكس تيار ماء يجرف كل مارد طريقه، ويدمر كل هالك سبيله.

وإن قفاهم لأعرض! ولما لم يعلموا أن رب هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم ما كان ليدعه لقمة سائغة في أفواه الذين كفروا! ولا الذين نافقوا أيضا؛ ولأنه تعالى لم يذره يوما، ولم يتركه، ولم يسلمه، ولم يخذله، وفي أقل أو أكثر من فعل المنافقين هذا! أَوَلَمَّا أرادوا ضرارا بمسجدهم هذا، أيسلمه الله ههنا؟!

وهذا درس مهيب، وحين يوقن أحدنا بمعية مولاه تعالى الحق المبين، ويكأن العبد يبحث أولا عما يرضي ربه تعالى، ومن ثم فليس عليه من خوف، وما أنعم عبدا! وأسعده! وأهنأه! وأفرحه! وأزكاه! وأهناه! وحين يعرف ربه رخاءه، وكيما يعرفه ربه تعالى شدته. وهذا هو الذي جاءنا به حديث رب العزة والجلال سبحانه.

فعن عبد الله بن عباس كنتُ رديفَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فقال لي: **يا غلامُ– أو يا بنيَّ– ألا أُعلِّمُك كلماتٍ ينفعُك اللهُ بهنَّ؟ فقلتُ: بلى، فقال: احفظِ اللهَ يحفظْك، احفظِ اللهَ تجدْه أمامَك، تعرَّفْ إلى اللهِ في الرخاءِ يعرفُك في الشدَّةِ، إذا سألتَ فاسْألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاسْتعنْ باللهِ، فقد جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ، فلو أنَّ الخلقَ كلَّهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيءٍ لم يقسمْه اللهُ لك؛ لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضرُّوك بشيءٍ لم يقضِه اللهُ عليك؛ لم يقدروا عليه، واعمل للهِ بالشكرِ واليقينِ، واعلم أنَّ في الصبرِ على ما تكرَه خيرًا كثيرًا، وأنَّ النصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفرجَ مع الكربِ، وأنَّ مع العسرِ يُسرًا** [1].

(١) تفسير القرطبي: ٨/٣٣٥. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

ولكن الذي يلفت إليه النظر، هو ذاك القصد المعيب، وحين بنوا مسجدا ضرارا! وذلك لوصفه تعالى له. وإذ كان مسجدا، وأن نعم، ولكنه مسجد ضرار!

وإذ وما أقبح ضِرَارَهُ! وحين جاء هكذا وعلى وزن فِعَالٍ! ومما أنف، ولتنضم إليه ذمائم النعوت، وأسافل الصفات، وأدني المعائب، وأنكى المصائب، وشين النقائص، ورين النقائض! وإذ كان الله تعالى مهلكه، ومدمره، ومبطله، وما كان الله تعالى أبدا وليصلح عمل المفسدين! وكما قال الله تعالى أيضا ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

أما قوله تعالى: ﴿ضِرَارًا﴾ فلأنهم أرادوا مضاهاة مسجد قباء. وحين أسس على التقوى من أول يوم! وهذه هي النقطة الفارقة، وحين يكون إطلاق الاسم على المجاز، ولما تكون النية منعقدة على خلاف كونه مسجدا، ولأنه ليس يكون المسجد مسجدا معتبرا شأنه، ووضعه، وقيمته، وهدفه، وغايته، وإلا حين تعلى فيه كلمة الله تعالى: وألا أمر إلا أمره، وألا نهي إلا نهيه، وأما غير ذلك فثمت مسجد ضرار، وحيثما شاركه وصفا ونعتا، وإما أصالة، وإما استصحابا!

وكل مسجد بني على ضرار أو رياء وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه.[1] .

ولهذا السبب فقد ثنى القرآن الكريم فاضحا مسعاهم، ولما كان قصدهم المحادة لله تعالى ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كان من وصفه مسجدهم كونه: ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله تعالى، لا للإيمان به، ولأن الله تعالى قال أيضا ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

---

(١) المرجع السابق، تفسير سورة التوبة: الآية ١٠٧

وإن أسفا، وحين كان كفرهم واقعا، وبهذه المثابة، ولما كان تغطية لمعنى طيب هني مري، وهو هذا الإيمان بالله تعالى رب الأرباب، وخالق الناس من تراب، وإظهارا لنقيصة الشرك بالله تعالى العلي الأعلى، ولما كان هذا هو الذي به نعى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وحين جعل أعظم الذنب أن يتخذ الإنسان لله تعالى ندا، وهو الذي خلق هذا الإنسان! ويكأنه يرد جميلًا صنعًا، وبديعًا خلقًا، بقبيحٍ كيدٍ، ورينٍ مكرٍ! والله المستعان.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سَأَلْتُ -أوْ سُئِلَ- رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أكْبَرُ؟ قالَ: أنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ. قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: ثُمَّ أنْ تَقْتُلَ ولَدَكَ خَشْيَةَ أنْ يَطْعَمَ معكَ. قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: أنْ تُزَانِيَ بحَلِيلَةِ جَارِكَ. قالَ: ونَزَلَتْ هذِه الآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} [الفرقان: ٦٨] (١).

وحين يكون المسجد، وليس يكون إلا ولتعلو فيه كلمة الكافرين، فلا شك أنه سيكون ومن نعته هذا، ما انتصب القرآن الحكيم له، وحين كان من شأنه أنه ﴿وَتَفْرِيقًا﴾ للجماعة عن مسجد قباء، بل وتفريقا لشأن المسلمين عامة، وعلى مدار الزمان والمكان أيضا؛ ولأن هذا القرآن، وإنما نزل لكل زمان، ولكل مكان أيضا، ولأن الأمة المؤمنة لم ولن ترضى بذلكم مسلك معيب، وحين يُناصَبُ ربُهم العداءَ، وها هم يرون، ويسمعون، وينظرون، ويبصرون! وإلا تراهم نفرة واحدة، وزأرة واحدة، وقومة واحدة، وعلى أنقى سريرة، ومن عين قريرة، وعلى أعلى بذل، وأقوم قيلا.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٧٦١

وأما وحين يلبس على الناس، وحين تعلو الحناجر، وبغير ما كان هديا سالما من الشرك وعيبته، وما كان رشدا خاليا عن الكفر ونقيصته، فإن لدينا المنابر، وليست تكف، أو تسكت، أو تصمت عن بيان، وإلا أن يعلو صوتها، ومن برهان؛ إعلاء لدين الله تعالى الرحمن، وإن هذا أيضا ما يحسن للأمة المسلمة الواعية أن تبصره، وأن تلمحه، وأن تدَّاركه، وأن تلفت أنظار الناس إليه، وكيما تكون محجة بيضاء ليلها كنهارها أيضا!

وهذا محل الأمر، ورأسه، وأسه، وذروة سنامه، ولأن الأمة المسلمة لن تسكت، وما سكتت، وما سكنت، وحين يكون مسجد مواجها لمسجدهم، وحين يؤمر فيه بالمنكر، وينهى فيه عن المعروف، وحين يقال فيه بغير أمر ربهم، أو ينهى فيه بغير نهي ربهم، وإنهم لسوف تأخذهم النفرة، ومن غيرة طَبْعِيَّةٍ جبلية، يرزقها المؤمنون، ولاتها، ورعاتها، ورعيتها، ودعاتها، وأفرادها، ورجالها، ونساؤها؛ ولمواجهة وسحق هذا الباطل المدلهم. وإماطة هذا الأذى، القاتم، المكفهر، المظلم.

وإذ كان من وصف مسجد ضرار هذا أنه ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾، وهو هذا أبو عامر الراهب الفاسق! وإعلانا قرآنيا عاما بأن الله تعالى مخزي الكافرين، ولن يتر أهل الملة الحنيفية السمحاء من عملهم من شيء!

ولكن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وحين تبين له سوء صنيع هذا أبي عامر الراهب، فكان قد دعا عليه أن يموت طريدا، وقد كان! وعلما أخر ضافيا من أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وليزداد الذين آمنوا إيمان، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا وبوارا، وقال الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣١].

ولكن هكذا حِيَلٌ لا تنطوي، ولكن سبل كشفها ودحرها لا تنضوي، ولكن حياكها لا ينجبر، بل منكس منكسر، وحين يكون هكذا فعل المناوئين جلة هوس تحيط بهم، ولما تملي عليهم، بكرة وأصيلا، أو أول النهار وآخره، كذبا وبهتانا وقيلا، أن إمكانا لهم أن تنطلي على دعاة الحق خططهم، أو أن ينخدعوا بهم وشباكهم!

وهذا الذي حدث يوم مسجد ضرار هذا، وحين جاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه، على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: " إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله " [١].

وهذا تذكير القرآن الحكيم للأمة على مدار زمانها أبدا، وألا تؤخذ عن غفلة، وألا تفجأ عن بغتة، ولأنها يقظة، وحين يتخذ المنافقون مساجدها عرضة لتعظيمٍ من كُفرٍ، أو تنويهٍ من إدبار، وهنا سيكون من وصف مساجدهم ما به ينسحب عليه أوصاف مسجد ضرار تماماً بتمام، وهذا ملحظ جد مهم: ليعرف الناس أين هم من مسألة الأمر والنهي، وبكل إيجاز، وليس يمكننا إيجاز بأقل من ذلك.

وإنهم، ولسوف يحلفون، وإنهم لم يريدوا إلا الحسنى! والله يشهد إنهم لكاذبون!، وكما قال تعالى ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير: ابن كثير: ٢ / ٤٠٢

ولأن الحسنى هي أيضا: لا أمر إلا أمره تعالى، ولا نهي إلا نهيه تعالى، وأما من يحرفون الكلم عن مواضعه، ويسمون الأسماء بغير مسمياتها، فهذا الذي نبه عليه القرآن الحكيم، ولفت الأنظار إليه، وحين لم يكن المسلمون إلا على يقظة من أمرهم، ولما لم تنطل عليهم شباك قوم قد صنعوها وحبكوها، ولعداوة الله تعالى قد حاكوها، والمؤمن كيس فطن، ولِمَا يُحاكُ من حوله، ويعرف طريقه تماما.

ولذلك جاء النهي السماوي، وألا تقم فيه أبدا، حكما سماويا ساميا، وقضاءً قرآنيا كريما عاليا، وكما قال تعالى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

وإنه، لمسجد واحد، تقام فيه كلمة الله العليا، لهو أحق أن تقوم فيه، ومن هذا الذي بني لأجله مسجد ضرار هذا، ولما كان على وصفه آنفا زاكما، وإن مسجدا أسست قواعده، وقعدت أصوله، على تقوى من الله ورضوان خير، وإنه وربي لأحق من مساجد كثيرة، وحين كانت على وجه لا على هذا الذي قال الله تعالى لنا عنه، وكما قال الله تعالى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

وإنه وإن كان مسجد ليقام فيه دين الله تعالى الحنيف الخالد الإسلام، وإذ كان من صفته أن يزاحم مسجدا آخر، وليقل بسببه مرتادو المسجد الآخر، وحين قرر هدمه، فإن مسجد ضرار هذا يكون أشد وأولى هدما، ولأسبابه التي قد خلت من قبل.

وهذا هو الذي قرره أهل سنتنا، وأصحاب عقيدتنا، وحنفاء ملتنا، وحين قالوا: لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد، ويجب هدمه، والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغرا، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفي أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ. وكذلك قالوا. لا ينبغي أن يبنى في المصر الواحد جامعان وثلاثة.

ويجب منع الثاني، ومن صلى فيه الجمعة لم تجزه. وقد أحرق النبي صلى الله عليه وسلم مسجد الضرار وهدمه [١].

وهذا ثناء ربنا، وهذا إطراء خالقنا، ولثلة من المؤمنين، وإن قلت، ولطائفة من الموحدين، وإن نزرت، وحين كان أولاء متطهرين من الشرك أولا، ومن ثم كانوا يتطهرون بالماء استنجاءً، ولما قد جمعوا بين اثنتين هما: طهارة أجسادهم من حدث، وطهارة قلوبهم من خبث.

وهذا مسألة غاية لمن وفقه مولاه، وعرف طريق بارئه وسناه وهداه.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨].

وهذه مجابهة بين مسجد ضرار، ولأنه أسس على غير التقوى، ومن أول يوم، ولهذا السبب جاء أمره تعالى ألا يقوم فيه، وأن يفزع مسلم هكذا من مسجد تحقق أنه مسجد ضرار، وحين تقام كلمة الكفر في أروقته، وحين يلقى منه الكفر، ومن على منبره؛ وحين تتشعب بالناس السبل، وما من سبيل إلا سبيل واحد، هو سبيل الله تعالى العزيز الجبار المتكبر، ولما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

ولأن هذه السبل وإن هي إلا من صنع الإنسان، ولذا؛ فكان حريا أن تُرَدَّ عليه، ولإعادته إلى صراط الله تعالى المستقيم وحده، وحين كان عليه به الهدى، ولما كان منه إليه الفلاح، والرشد، والاستقامة، والأمن، والسكينة.

---

(١) تفسير القرطبي، تفسير سورة التوبة: الآية ١٠٧

ولأن الناس يقلدون، ومنه فقد كان حريا لدعاة الحق، أن يكونوا وعلى قدر ما استأمنهم عليه ربهم، من إقامة دينه، وتعظيم شعائره تعالى، وإذ كان من تعظيمها ذلكم، وألا تنطلي عليهم رغائب أهل الباطل وزبانيته، فيغرون بهم ويقدمونهم، وحين يكونون ذوي حاجة لتمرير باطلهم وزيغهم على الناس؛ ولأن المؤمن كيس فطن أيضا، وحين يأبى أن يكون مطية باطل زهوق، ويكأنه عالم بصنعته، ومدرك لمهنته، وموقن بمهمته، ولما يكون خادما شرفا لإعلاء حق كريم؛ ولأن المؤمنين هم خلفاء ربهم في أرضه، ولأنهم هم أمناء شرعه في كونه، وإذ يقولون من قوله، وإذ يؤمنون من منهجه، وسبيله، وحكمه، وأمره ونهيه، وما أودعه تعالى قرآنه، وما أوحاه إلى نبيه، وحين جعل ذروة الأمر وسنامه، وهو قوله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨].

وكل مسجد أسس على التقوى، فهو الأحق أن يقوم الناس فيه، ويبطل أن يقوم الناس في غيره، ولما يتقرر ذلك من أولي العلم والنهي، في محلة كان نصبه فيها، ولما رأوه، وعلموه، وأيقنوه، ودرسوه، وفحصوه، ومحصوه وفلوه! وهذا الذي نفيده من عقد مواجهة بسيطة بين مسجدين هما:

مسجد ضرار: وحين كان على غير أساس من الهدى، بل محادة لله تعالى ولرسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فإنه محادة، وعداوة لهما، وحين كان شأنه الخروج عن المنهج، والولوغ في الباطل، والولوج في الغي والضلال، ولما كان قائما على هكذا نعوت، لا يتبدى منها سوى الشر كله، لا بعضه، ولا جزؤه؛ ولما كان ﴿مَسْجِدًا، ضِرَارًا، وَكُفْرًا، وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. ومن هذه الأسباب كان نهيه تعالى، وحين قال سبحانه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

ومسجد قباء: وكذا مسجد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كانا مؤسسين على التقوى، وهي إقامة الدين فيه، وألا يقام فيه إلا العدل، والتوحيد، والهدى، والنور، والحبور، والسرور، والصلاح، والفلاح، وحين كان من شأنه، ووصفه، ونعته أنه ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

ومن هنا فحسن، بل وجب البحث، والتأني، في أين يقيم العبد دينه وثمت! ولا اعتبار بتسمية مكان ما أنه مسجدا! ولأنه يمكن أن يتحد الوصف، وكما أسمى الله تعالى مسجد ضرار بهذا الاسم الموجِبِ وحشةً، ونفرة، وافرنقاعا عنه! ولكنه قام على غير توحيد، وكما أنف، بل قام على محادة وعداوة لمنهج رشيد، هو منهج الحق، والعدل، والنصفة، والسمو، والعلو، ولأنه الله تعالى الحق المبين، وحين كان من شأنه، ويكون أبدا أنه يريد بعباده اليسر، ولا يريد بهم العسر، رحمة وفضلا حسنا.

وإلا أنه: ولأن العبرة بعموم اللفظ وليست بخصوص السبب، فإنه ينسحب أمر الآيات على كل واقعة مماثلة، وبمعنى أنه وإن تحقق أن مسجدا ما هو مسجد ضرار، فثم البعد عنه، وأنه وإن تحقق أن مسجدا ما أسس على التقوى والتوحيد، والهدي المجيد، فثمت الصلاة فيه، وهذا هو الاعتبار القيم، وكيما يكون هذا الدين مرنا لكل زمان حل، وصالحا لكل مكان ضم.

والمسجد المشار إليه في الآية هو مسجد قباء، وحين أثنى الله تعالى على أهله: ولأنهم أناس يحبون أن يتطهروا، فدل ذلك على أهمية الطهارتين الحسية منها والمعنوية.

وقد أنف بيان أن الطهارة المعنوية هي طهارة القلب من رين الشرك والنفاق، وتلبسه بلباس التقوى والتوحيد، ذلك خير، وأن الطهارة الحسية هي طهارة الثوب والبقعة والبدن، وإذ كان منه ما أنف أيضا، ولأنهم كانوا يتطهرون بالماء من الغائط.

فعن أبي أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك: **يا مَعشرَ الأَنصارِ، إنَّ اللَّهَ قَد أثنى عليكُم في الطُّهورِ، فما طُهورُكُم؟ قالوا: نتَوضَّأُ للصَّلاةِ، ونغتَسلُ منَ الجَنابةِ، ونَستَنجي بالماءِ. قالَ: فَهوَ ذاكَ، فعليكُموه** [(١)].

وقد صرح جماعة من السلف بأنه مسجد قباء رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير وقاله عطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى والأحرى [(٢)].

ولكن اشتراط أن يكون عقد النية عند إقامة مسجد ما وأنه ضرار، وإذ نرى أنه وإن كان وجها مليحا وجيها، وإلا أنه ينسحب الحكم أيضا، وحين كانت مساجد مبتناة، والأصل فيها هو هذه الصفة، وهي محادة الله ورسوله، وعداوة منهجهما، والوقوف حائط صد منيع عن أن تقال فيه كلمة الحق والصلاح والتوحيد والهدى والنور، بل وقول الباطل الذي فيه يعمهون.

---

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٩٠

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/٤٠٤

وتنازع الناس بين المراد بمسجد أسس على التقوى من أول يوم، وعما إذا كان هو مسجد قباء، أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يخرجنا عن عموم الكلام وإطلاقه، من أنه يراد به ديمومة أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وقد أنف بيان أن كلمة الله العليا، هي توحيده، وأنه لا أمر إلا أمره ولا نهي إلا نهيه، وأن كلمة الذين كفروا السفلى؛ ولأنهم اتخذوا آمرا سواه وناهيا خلاه، سبحانه!

فعن أبي سعيد الخدري: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ بنَ عبدِ الرَّحْمَنِ، قالَ: مَرَّ بي عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قالَ: قُلتُ له: كيفَ سَمِعْتَ أَبَاكَ يَذْكُرُ في المَسْجِدِ الذي أُسِّسَ علَى التَّقْوَى؟ قالَ: قالَ أَبِي: دَخَلْتُ علَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ في بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَيُّ المَسْجِدَيْنِ الذي أُسِّسَ علَى التَّقْوَى؟ قالَ: فأخَذَ كَفًّا مِن حَصْبَاءَ، فَضَرَبَ به الأرْضَ، ثُمَّ قالَ: هو مَسْجِدُكُمْ هذا، لِمَسْجِدِ المَدِينَةِ. قالَ: فَقُلتُ: أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ أَبَاكَ هَكَذَا يَذْكُرُهُ [١].

ورواية للإمام ابن حبان رحمه الله تعالى أخص وأصرح وحين: اختَلَفَ رجُلانِ في المسجِدِ الَّذي أُسِّس على التَّقوى فقال أحَدُهما: هو مسجِدُ المدينةِ وقال الآخَرُ: هو مسجِدُ قُبَاءٍ فأتَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: هو مسجدي هذا [٢].

---

(١) صحيح مسلم: ١٣٩٨

(٢) صحيح ابن حبان: ١٦٠٥

ديننا هذا دين عظيم كريم حليم رؤوف رحيم.

ولو لم يكن هكذا دينا قيما صالحا مستقيما ملة إبراهيم حنيفا ولم يك من المشركين، لكان هكذا، ولكفاه ذلكم، وحين يعذر من عذر، وهذه رحمة، وحين يحزم مع تخلف، ودونما عذر، وهذه رحمة أيضا.

لأنه من حبس بعذر، ولأن هذا الدين قد جعل مساحة عريضة منه لأهل الأعذار، وفي كل شأن من شؤونه، وعند كل محلة من محلاته، وهذا الذي نحن فيه الآن، واحد من هذا الأعذار، التي أقام لها هذا الدين سوقها، بل وليس ولأنهم معذورون من حبسهم هذا فحسب، بل ولأنهم مأجورون، وكمن حضر أيضا! وهذه في حس أرباب الأعمال، ولربما كانت كبيرة من الكبائر! وإذ كيف يمنح الموظف، وحين غاب؟! وبل وكيف لا يعاقب، ولما لم يحضر عمله؟!

ولكنه في حس هذا الدين ترى عجبا! وحين يؤجرون ويمنحون، ويغنمون، وها هم قد غابوا، ولست أقول تخلفوا، ولفارق بينهما عظيم، وإلا أنهم وقد حبسهم عذرهم وكفى!

وهذه رسالة لأهل الأعمال، ولذوي التجارات أن امنحوا المعذورين أجرهم، تكفون، وأن اعطوهم، يعطونكم الفلذات، ويبذلون لكم ما لا تشرئب إليه أعناقكم، ولترون منهم ما تقر به قلوبكم، وأبصاركم وأسماعكم، فإن العامل لحم ودم، يتأثر، ويؤثر، ويعطي، ويمنح، ويعطي، وأكثر مما منح.

وأذكر في الصدد أن أخا عاملا كان يغسل سيارتي، وكنت أمنحه من فضل ربي، وخارج أجرته المتفق عليها، ومما مَنَّ به على عبده الضعيف، المسكين، الفقير إلى عفو

ربه ورضاه سبحانه، ولكني شاهدت ولاحظت أن هذا الأخ العامل، وكثيرا ما كنت أجده يظل يمسح في السيارة، ويلمع فيها، وحتى خشيت عليها دهانها، أن يزيله إخلاصه! بل قد تباركت من يده، وبل تزايد لمعانها، وبريقها، نظير تفانيه، وإخلاصه، وهكذا منحني من فضله، وأكثر مما منحته من فضل ربي عليَّ وعليه!

وهذا الحزم مع من ليس من ذوي عذر، هو أيضا به رحمة، وحين كان هذا عاملا من عوامل استدعاء طاقات البذل، والمهارة، والعمل، والتفاني، وكل ذلك في قلبه مجتمع، وإن كل ذلك ولما كان في فؤاده ولبه مؤتلفا.

النظرية الاقتصادية الإسلامية في مضاعفة الإنتاج

وإلا أن هذا العقاب عامل لكفه، وداع لزجره، وموجب رحمة به، ولتحويل الطاقة الوضعية السلبية لديه، إلى طاقة إيجابية حركية، وإذ معها تجده فارس ميدانه، ولما أخذ على يده، ولما لم يترك فريسة خطأ أوقعه شيطانه فيه، ومن تدليس، ومن غبن، ومن وسواس شيطاني رجيم، وهذا مما يحسب لديننا هذا، وحين وضع أنظمة الثواب والعقاب، لا لكف وغنم فحسب، وإنما لغنم كان مركبا، وحين حولنا الطاقة السلبية بالعقاب إلى طاقة إيجابية بالعمل، والإخلاص، والتفاني، وبه صارت إنتاجية المجتمع مضاعفة مركبة! وكل على قدره وحسبه.

وهذه نظرية اقتصادية إيجابية، ونحسبها لهذا الدين. سبقا فريدا!

ومضاعفة الإنتاج هذه أجد لها سندا آخر من ديننا أيضا.

فعن عمران بن الحصين: لقد تابت توبةً لو قُسِّمَتْ بين سبعين من أهلِ المدينةِ لوسعَتْهم، وهل وجدَتْ توبةً أفضلَ من أن جادَتْ بنفسِها للهِ[(١)].

وألم تر كيف كانت توبة الغامدية، لو وزعت على سبعين من أهل المدينة جميعا لكفتهم؟! بل ليس مركبا من ضعفين، بل من سبعين ضعفا!

وهاتوا لنا نظرية اقتصادية، وفي غير هذا الدين، يكون فيها مضاعفة الإنتاج بركة مركبة مضاعفة من سبعين ضعفا، حلالا حلالا، لا ربا فيه، ولا غبن، ولا استغلال للطبقات الكادحة المكلومة!

وقلت: بل من سبعمائةٍ ضعفا!

ومنه قوله تعالى ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَجَعَ مِن غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ المَدِينَةِ، فقالَ: إنَّ بالمَدِينَةِ أقْوامًا، ما سِرْتُمْ مَسِيرًا، ولا قَطَعْتُمْ وادِيًا إلَّا كانُوا معكُمْ، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، وهُمْ بالمَدِينَةِ؟ قالَ: وهُمْ بالمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ[(٢)].

---

(١) صحيح الجامع الألباني: ٥١٢٨. ورواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في حديث آخر مطولا، برقم ١٦٩٥.

(٢) صحيح البخاري: ٤٤٢٣

«أحسنتم وأصبتم»

هذا هو قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، رجوعه من تبوك، وحين راح يتوضأ لصلاة الفجر، وحين استبطأه الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم، فتقدم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فصلى بالناس، ولما أدركهم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، في الركعة الثانية، وحين سلمَ، أعظم الناس ذلكم؛ ولوجوده صلى الله عليه وسلم، وبكأنهم أعظموا ذلكم، ولأنه الإمام أولى بإمامته، وبكأن الإمام، ولما يستأخر قليلا، وكان لهم انتظاره، ولكن هذا النبي قال قوله هذا رحمة بالأمة، ورفعا للحرج عنها.

وهو بمثابة إقرار لفعل عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه، وحتى لا تتأخر مصالح الأمة، وأن كان في أمورها التعبدية، أو في أمورها العملية الأخرى.

وكما أنه يعد بمثابة اجتهاد صحابي، وفي حضرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أجاز هذا، فدل على جواز الاجتهاد في حضرة الإمام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا من علو همة هذه الأمة، وحين تجتهد طاعة لربها، وكيما لا يتعطل دولاب عملها، ولو لحظة واحدة، ولأنها أمة عاملة، مثابرة، مجاهدة، قانتة، عابدة.

وإنه ليمثل عامل الوقت في حسها أمرا عظيما.

وكما أنه دل على كم كانت سرعة بديهة هذا الصحابي الكريم عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه، وكذا فقهه، وحين كان اجتهاده صوابا، دلالة إقراره صلى الله عليه وسلم، وكذا ورعه معا، ولأن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا، وتأخيرها عن وقتها الأفضل لم يقره قلبه، ولم يرضه لبه وفؤاده، وكما وأنه دال على

أن الأمة كلها مخاطبة بدين ربها، وحين خاطبهم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وبقوله: أحسنتم وأصبتم. ولأنه صلى الله عليه وسلم قال أيضا: المسلمونَ تتكافأُ دماؤهُم ويسعى بذمَّتِهِم أدناهُم ويردُّ عليهم أقصاهُم وهم يدٌ على من سواهم ولا يُقتَلُ مسلمٌ بكافرٍ ولا ذو عهدٍ في عهدِهِ [1].

وكما أن هذه الأمة، وإذ كانت مستأهلة لقيام هذا الدين فيها، بل ولإقامتها دين ربها، ولأنها خير مستأمنة على ذلك، وبرهانه قيامهم، بل قيام أحدهم نائبا عنهم، ومتجشما أداء فرض الرحمن سبحانه، وألا يؤخر عن وقته، وهذا برهان تعظيم شعائر الله تعالى في قلوبهم، ومنه فقد كانوا وعلى ما قال ربهم الحق المبين سبحانه ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

ومنه فليس يقال وحين تعظيم شعائر الله تعالى، حين كان ذلكم برهان تقوى القلوب: فهلا شققت عن قلبه! ولأن الأثر يدل على المسير!

وبه دل أيضا على كم كانت لربهم تقواهم، ومنه برهانٌ على كم كان لجلال ربهم في أفئدتهم هذا الكم الضخم، الذي لاتوازنه موازين، ولا تعادله مكاييل، فرضي الله عنهم ورضوا عنه، وهذا الذي جاء به هذا الذكر الحكيم، القرآن الكريم، وحين أثنى عليهم، وبقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

---

(١) تخريج مشكاة المصابيح، ابن حجر العسقلاني: ٣/٣٨١. خلاصة حكم المحدث: حسن كما قال في المقدمة. وأخرجه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى برقم: (٤٥٣٠). وصححه الإمام الألباني رحمه الله تعالى أيضا.

ولك أن تصور وكيف أسبق الله مولانا رضاه عنهم، ومن قبل رضاهم عنه، منقبة منه تعالى، وفضلا عليهم - عليهم رضوانه وسلامه ورحماته- وكما قد كان الله في قلوبهم، ولاشيء يزاحمه، في ذلكم، هو الله!

وألم تر كيف كان رضوانه تعالى عنهم قيمة، ومنضافة إلى جنات- لاجنة واحدة- ، قد أعدها تعالى، وبنفسه الكريمة، المقدسة، المنزهة، الأعلى، الأعظم، الأكبر!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى: **أنَّ المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ أخْبَرَهُ أنَّه غزا مع رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ تَبُوكَ قالَ: المُغِيرَةُ فَتَبَرَّزَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ قِبَلَ الغائِطِ فَحَمَلْتُ معهُ إداوَةً قَبْلَ صَلاةِ الفَجْرِ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ إلَيَّ أخَذْتُ أُهَرِيقُ علَى يَدَيْهِ مِنَ الإداوَةِ وغَسَلَ يَدَيْهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ غَسَلَ وجْهَهُ، ثُمَّ ذَهَبَ يُخْرِجُ جُبَّتَهُ عن ذِراعَيْهِ، فَضاقَ كُمَّا جُبَّتِهِ فأدْخَلَ يَدَيْهِ في الجُبَّةِ، حتَّى أخْرَجَ ذِراعَيْهِ مِن أسْفَلِ الجُبَّةِ، وغَسَلَ ذِراعَيْهِ إلى المِرْفَقَيْنِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ علَى خُفَّيْهِ، ثُمَّ أقْبَلَ. قالَ: المُغِيرَةُ فأقْبَلْتُ معهُ حتَّى نَجِدُ النَّاسَ قدْ قَدَّمُوا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ عَوْفٍ فَصَلَّى لهمْ فأدْرَكَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ إحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ فَصَلَّى مع النَّاسِ الرَّكْعَةَ الآخِرَةَ، فَلَمَّا سَلَّمَ عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ قامَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يُتِمُّ صَلاتَهُ فأفْزَعَ ذلكَ المُسْلِمِينَ فأكْثَرُوا التَّسْبِيحَ فَلَمَّا قَضَى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ صَلاتَهُ أقْبَلَ عليهم، ثُمَّ قالَ: أحْسَنْتُمْ، أوْ قالَ: قدْ أصَبْتُمْ يَغْبِطُهُمْ أنْ صَلَّوُا الصَّلاةَ لِوَقْتِها. وفي رواية: قالَ المُغِيرَةُ: فأرَدْتُ تَأْخِيرَ عبدِ الرَّحْمَنِ فقالَ: النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ دَعْهُ** [1].

(١) [صحيح مسلم: ٢٧٤].

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا

هذا نبأ القرآن المجيد، الذكر الحكيم، الكتاب المبين، وعن ثلة من الأولين، وعبرة، وعظة، وإماما للآخرين، وزادا ومعينا للأوابين، التوابين، الوقافين.

وهؤلاء هم الثلاثة الأصحاب رضي الله تعالى عنهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وقد تنزل فيهم قرآن كريم يحكي توبتهم؛ ومن نَبْوَةٍ، ويروي قصتهم، ومن إثر كَبْوَةٍ، ويقصص نبأهم؛ ومن هَفْوَةٍ، تاريخا به تقر العيون، ومجدا تذرف منه الجفون.

وأعالجه في عشرين مسألة هي:

المسألة الأولى: ساعة العسرة

وإذ كان من شأنهم تأخرهم، بل تخلفهم، عن غزوة تبوك، ساعة العسرة، عسرة الزاد والماء والراحلة، ولما كان الأمر بهذه المثابة، فلم يكن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يعوزه تخلف، ومن بعد هذه العسرات الثلاثة، والتي كان منها ذلكم الوصف الرباني الكريم لذلكم اليوم العظيم أيضا في تاريخ هذه الأمة، المرصع بجواهر الصبر، والبذل، والاحتساب، والنفرة، والقومة الواحدة، استشرافا لفضل ربهم، وإرضاء له تعالى، ولما قد خلعوا عن أنفسهم لعاعة الدنيا، وإذ كان منهم صدق التوبة، وحلاوة الأوبة، وإخلاص الرجعة، وحين قال الله تعالى ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧].

المسألة الثانية: الله تعالى يشتري نفسا خلقها وثمنها الجنة!

ولما كان منهم إدراكهم الحسن الجميل الكريم، وإذ وقع منهم يقينهم بفضله تعالى العظيم، وأن النفس التي خلقها باريها، وإنما هو سبحانه قد اشتراها منهم! ولما كان هذا الاشتراء ثمنه الجنة، وحين قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].وهذه غاية كل عبد منيب، أواه، حليم، ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٣]. وليُنادى من فوق سبع سماوات يوم اللقاء الأعظم، ويوم الجزاء الأوفى، ويوم لقاء العلي الأعلى، الأكرم التواب المنان الرؤوف الرحيم، وحين نودى التوابون الأوابون، وبقوله تعالى الهني الرحيم الرخيم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٤و٣٥]. ولما كان الرضوان أبدا، وبلا سخط أبدا، ولما كان المزيد هو اتحاف الأبرار، بوجه رب كريم غفار، ولما كانت هذه بغية محب للرحمن، ومنتظرا وعدا منه بكريم العطاء، ونعيم الجنان، ولما كان وعده تعالى هو الصدق، بل كان الصدق وعده.

المسألة الثالثة: ثناء وتحميد وتعظيم وتمجيد

وهو سبحانه أعز من أوفى، وأكرم من أعطى، وأجزل من سئل، وخير من منح، وأجود من أعطى، وأكرم من عفا، وأعظم من غفر، وأعدل من حكم، وأصدق من حدث، وأوفى من وعد، وأبصر من راقب، وأسرع من حاسب، وأرحم من عاقب، وأحسن من خلق، وأحكم من شرع، وأحق من عبد، وأولى من دعي، وأبر من أجاب.

ربنا تم نورك فهديت فلك الحمد، وبسطت يدك فأعطيت فلك الحمد، ربنا وجهك أكرم الوجوه، وعطيتك أفضل العطايا وأهنأها، تطاع ربنا فتشكر، وتعصى ربنا فتغفر، تجيب المضطر، وتكشف الضر، وتقبل التوبة، وتعفو عن السيئات، لا تجازى أياديك، ولا تحصى نعمك، ولا يبلغ مدحتك قول قائل، حسن التجاوز، يا عظيم المن، ويا كريم الصفح، يا واسع المغفرة، يا قابل التوب، يا باسط اليدين بالرحمة، ستير العيوب، علام الغيوب، مثبت القلوب، سبحانك.

المسألة الرابعة: من مشاهد الجنان ورفع المقام

وإذ كانت جنانه وقد أعدت، ومن نعيمها وقد شيدت، ومن فضل وسعة، ورحمة للعالمين، وقد خص منها ربنا الأبرار، وحين حرمها الفجار، وقد تمايز بها الباذلون لأموالهم وأنفسهم، وبأن لهم الجنة ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠]. وحين قد أثنى عليهم ربهم فقال ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣].

المسألة الخامسة: حزم نبينا وحلم رسولنا

ولكن هؤلاء الثلاثة، ولما تخلفوا عن يوم غزوة تبوك، وهذا مما زاد نبينا وحبيبنا محمدا همًّا، وهذا الذي أثقله ورب الكعبة غمًّا، وليزداد عسر يومها عسرا.

ولكن هؤلاء الثلاثة الأصحاب الكرام البررة، ولما كان من شأنهم تخلفهم، ودون عذر، ولما راح الناس فيهم يخوضون، ولما صدقوا ربهم، فصدقهم ربهم المنان، ولكنه

ومن بعد حين وتمحيص، وألا يعودوا لمثلها أبدا، هم ومن سمع، ومن رأى، وحتى يكون الأمر جدا لا هزل فيه.

ولكن هذا النبي الرؤوف الرحيم، ولما كان تَزَاوُجٌ بين حزمه وحلمه، وحين كان تناسب بين حسمه وعفوه، ولما كان اعتراف الثلاثة الأصحاب بفعلهم، وحين تغيبوا، بل تخلفوا عن يوم تبوك، يوم ساعة العسرة، وإذ يأمر الناس باعتزالهم، ولو كانوا أصحابه! ثلاثة أو أقل أو أكثر من ثلاثة، ولما يأته ويأتهم أمر ربهم الحق المبين سبحانه، بل ولأن هذا النبي، وإنما كان يستشرف التوبة دائما، ويلتمس العفو أبدا، ويكأنه لا يفعل من ذلكم من شيء، وإلا بما يأتيه من أمر ربه، ولأنه نبي يعمل بوحي منه تعالى، وفي المسائل العظام، بل في شراك النعل أيضا، وبرهان أن هذا الدين جد، ومن جده ألا يكون من عمل أو من قول إلا بهدي من الله وسلطان مبين، ومن قول من رب العالمين، وهو الذي يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير.

المسألة السادسة: أمة وقافة عند الوحيين

وكيما يكون سننا متبعا، وهديا رشدا، إذ ولما كان هذا هو شأن النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ وما بال غيره اتباعا، ووقوفا عند النص، وعن يمينه، وعن شماله، ومن شرقه، ومن غربه، فلا يبرحنه، ولا يعملن فيه عقله، وكيما يكون عبدا، منيبا، أواها، حليما، توابا، وذلك لأنه ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

المسألة السابعة: إمهال في العقاب وإغراق في الثواب

ولذا، وحين جاءه الثلاثة الأصحاب أنظرهم، ولما ينزل فيهم وحي يستشرفه، ويكأن الهدية، والمنحة، والمنة، والفضل، والإنعام، ولما تأت من نَظِرَةٍ، ولتكون لها بهاؤها، وجمالها، ووقعها، وجرسها، وإيقاعها، وعملها في النفوس، والأبدان، وفي القلوب أيضا، وإذ قد غاب عنهم نزول الفرج الهنيهة! بل أمدا، وليكون يوم توبة ربهم عليهم عيدا، ولما قد انخلع مالك من ثوبيه، إهداء للبشير، ولما لم يكن يملك غيرهما، وحين استعار عنهما ثوبا واحدا بدلا!

المسألة الثامنة: بين حسم وحزم، ولين وحلم

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وكما أنف كان حازما، وحين أمر الناس باعتزال الثلاثة الأصحاب، وريثما يتنزل فيهم أمر ربهم، بل وفيمن يسلك سبيلهم، وينهج نهجم، ويتبع شأنهم، ويقلد فعلهم، وليكون مصيره من مصيرهم.

ولكن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، هو هذا- وليس ذاك- الذي قال يوما: مَن فجعَ هذِهِ بولدِها؟! وفي تجانس مهيب بين الرحمة وقتها وزمانها، وبين الشدة حينها وأوانها، صلى الله عليه وسلم.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: كنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سفرٍ فانطلق لحاجته فرأينا حمَّرةً معها فرخان فأخذْنا فرخَيها فجاءت الحُمَّرةُ فجعلت تفرشُ فجاء النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال من فجع هذه بولدِها؟ رُدُّوا

ولدَها إليها. ورأى قريةَ نملٍ قد حرقناها، فقال: من حرقَ هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذِّبَ بالنارِ إلا ربُّ النارِ [(١)].

وإن هذا ليس من توارد الأضداد، وإن هذا ليس من تقابل النقائض، ولكن هذا من تجانس القيم، ولكن هذا من تماثل الشيم، وحين كان كل من زمانه، ولما كان جميع من أوانه.

وهذه المزاوجة عمل إداري بهيج، وحين يراوح مدير المنشأة بينهما، ولما يجانس منهما، عملا إداريا ممتازا، فلا يطمعن قوي من حلمه، ولا يخافن ضعيف من بطشه.

ولكنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من اعتزاله أنه أمر الأصحاب كل الأصحاب باعتزالهم، وحتى نساءهم، فلا يقربوهن ولا يخدموهن، وإلا أحدهم، هلال بن أمية رضي الله تعالى عنه، ولكبر من سنه، وانعدام شبق بالنساء، من كِبَرٍ، صرح له الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أن تخدمه زوجه في بيته، وأما كعب فلا زال في المسجد ينظر إلى هذا مرة فيرمقه، وإلى هذا أخرى فينظُره، وهل ألقى السلام، أو رده، وهل من نَظْرَةِ إشفاق على أولاء الثلاثة الصحب المساكين المحاويج؟! وحين ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾.

المسألة التاسعة: مشروعية الاعتزال أكثر من ثلاث

ولكن كعبا بن مالك رضي الله تعالى عنه، ومن فعل فعله، ومن عمل النبي صلى الله عليه وسلم معه، وحين جاز اعتزال أهل المعصية، ولأكثر من ثلاث، وحين يشتد فعلهم، وبما يعظم إثمهم، ويكون ومن مثل تخلف عن غزو، ومن مثل تخلف ودون عذر، وأما هينات الأمور، فلا مساغ للزيادة عن ثلاث، ولأن الضرورة تقدر

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٥٢٦٨

بقدرها، ولأن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: إنَّ الشَّيْطانَ قدْ أيِسَ أنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ، ولَكِنْ في التَّحْرِيشِ بيْنَهُمْ [1].

المسألة العاشرة: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

ولكن هذه المعاصي، والذنوب، والخطايا، والآثام، وحين واتت توبة نصوحا، وكأنما لم تكن وقعت، وبكأنه الله تعالى الرحمن الرحيم، وحين بدل السيئات إلى حسنات، وهذا من فضل، وبكأنه الرحمن، وحين كَفَّرَ، وبكأنه المَنُّ! وحين قال تعالى ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠].

المسألة الحادية عشرة: وإن الصدق يهدي إلى البر

ولكن الصدق منجاة، وإن تأخر الفرج قليلا قليلا، وهذا الذي حدث، ويوم أنزل الله تعالى توبته على الثلاثة الذين خلفوا، وليسارع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم بالبشرى بهم، وليسابق الأصحاب الخطى، مبشرين لإخوانهم، ومن بعد صدقهم، ولما يأتهم فرج ربهم، ومن بعد اعتزالهم، وصبرهم، وبكأنه كيوم ميلادهم من جديد، وهذا رد كيد للشيطان اللعين، وحين أوقعهم في شباك تخلفهم، ولما لم يفتنهم عن صدقهم، وحين لم يصرفهم عن أصل إيمانهم، ولأنه ولئن جفت وردة، فزكاء طيبها

---

(١) صحيح مسلم: ٢٨١٢

عالق بها، وإن توالت الأيام، والدهور، والسنون، ولأن أصل الإيمان باق، ولأن أساس المحبة لهذا الرب الكريم المتعال قد تأصل في القلوب، وقد تربع في الأفئدة المستشرفة للعفو، والفضل، والمن، والمنح، والصفح، والتجاوز.

المسألة الثانية عشرة: جواز التهنئة والبشري

ولكن أولاء الأصحاب الكرام البررة، وحين راحوا إلى إخوانهم فرحين، مهنئين، ومبشرين، فدل على جواز التبشير بالخير. وكما دل على هذه محبة بينية للأصحاب، ومن بينهم البين الكريم، ولما يأتهم فرج ربهم، وعفوه، وكرمه، ورضاه، وتوبته، ومغفرته، ورضوانه سبحانه.

المسألة الثالثة عشرة: مشروعية القيام للقادم تقديرا واحتراما لا إطراء وتعظيما

ولكن الناس قد قاموا ولإخوانهم غبطة وسرورا، وفرحا وحبورا، وهذا مما أنف بيان محبتهم، ولكنه برهان جواز القيام للإخوان القادمين، ولا سيما عند الترحاب والبشرى، ولأنها تعمل من محبة، وبكأنها تفعل من مودة، وشرعنا سهل يسير، وديننا واسع كريم، ومن حيث لا إطراء فوق العبودية، ومن وقفتنا بذلك عند محبة وسبيلها، لا أكثر من ذلك، من إطراء، بل من محبة، واحتفاء، وثناء.

وليس يعارض هذا موقف أمير المؤمنين عمر الفاروق، رضي الله تعالى عنه، ويوم أن عاد سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه من يوم توفيق الله تعالى له من مسألة التحكيم والقضاء في بني قريظة، ويوم أن استرضاهم صلى الله عليه وسلم بينهم وفيهم حكما وقاضيا، بالعدل والقسطاس المستقيم، وحين روت عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قال: قوموا إلى سيّدكم فأَنزِلوه، فقال

عمرُ: سيّدُنا اللهُ عزَّ وجلَّ، قال: أنزِلوه، فأَنزَلوه [١]. ولاحتمال خوفه رضي الله تعالى عنه على أخيه من فتنة، ولرب ذريعة كان سدها أولى، ولرب شر كان إغلاق بابه أوفى.

ولكن رواية أخرى لحديث عائشة أم المؤمنين الآنف ذكره، وقد جاءت من شك من الراوي، وبه يحمل على هذا الاحتمال، ولربما منه سقط الاستدلال، أو جمعا مع غيره، ولما كان سدا للذرائع، وكما أنف. أو لأن درجته أقل من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: أن أهلَ قريظةَ لما نزلوا على حكمِ سعدٍ أرسلَ إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فجاءَ على حمارٍ أقمرَ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: قوموا إلى سيدِكم. أو إلى خيرِكم، فجاء حتى قعدَ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم [٢].

ولكن الصدق منجاة، وقد أنف، وحين كان من ثماره هذه الحفاوة القرآنية، وبتنزل توبة الثلاثة الأصحاب الكرام، ومن تسارع إخوانهم لتبشيرهم، وتهنئتهم، وما أجله من يوم! وحين يتنزل قرآن كريم من سببهم، ومن بعد تخلفهم، ومن إثر اعتزالهم.

المسألة الرابعة عشرة: أهمية الجهاد في سبيل الله

ولكن ذلك برهان اهتمام الإسلام الحنيف الخالد بشأن الجهاد، وحفاوته به، وحين وقف المجتمع الإسلامي كله يومه عينه على ساق، ولفعل هؤلاء الثلاثة الأصحاب الكرام، رضي الله تعالى عنهم.

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٦٧

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٥٢١٥

المسألة الخامسة عشرة: التشنيع على المنافقين

ولكن أولاء الذين غرر بهم شيطانهم، ولما كانوا قد حلفوا وبأيمانهم، وإنهم لصادقون، ولينزل فيهم قرآن مكذبا، فإن هذا شأن، وعند موازاته بفعل الثلاثة الأصحاب، ليبدون أن الصدق منجاة حقا، وليعلمن أن الكذب مهلكة صدقا!

وقد كان من فعلهم يوم مسجد ضرار عملا خائبا، وحين خيب الله تعالى مسعاهم، وحين شن عليهم حملة، تنبئهم بما في قلوبهم، وهذا هو عين التحدي، وحين يجابه أحدهم بما في قلبه! ولأنه يعلم أن الله تعالى عالم محيط بما في قلبه، وما تنطوي عليه سريرته! وليس من شأنهم التحدي والرجوع؛ وكيما يتنفذ الإعجاز، وكيما يتحقق التحدي!

وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧]. وقال الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:١- ٣].

المسألة السادسة عشرة: مشروعية مكافأة البشير

وكما أنف، وقد انخلع كعب من ثوبيه، هذا كعب بن مالك، برهان جواز الاهداء، للبشير، ولو كان من ثوبه الذي لا غيره يملكه، ولأن الخلف منه تعالى أولا، ولأنه قد استعار، ولم يشحذ غيرهما، برهان جواز الاستعارة، ولو ثوبا، ودليل عزة مسلم وأنفته، ولو ثوبا أيضا! ولما يستوي على سوقه، فينهض عاملا، متجرا، وليرزقنه

الله تعالى رزقا حسنا، ومن حيث لا يحتسب، وحين قد توكل على تعالى مولاه الحق المبين، وليرزقنه، كما يرزق الطير، تغدو خماصا، وتعود بطانا، بل لما ينهض إلى بيته، والرجل قد كان من سعة من أمره.

فعن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لو أنَّكم كنتُم توَكلونَ علَى اللهِ حقَّ توَكلِه لرزقتُم كما يرزقُ الطَّيرُ تغدو خماصًا وتروحُ بطانًا [1].

ولكن كعبا هذا قد أرانا كيف هوان الدنيا، وحين راح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنا رغبته الانخلاع من ماله كله، صدقة وحسبة لله تعالى، ومن توبته أيضا، ومن فرحه بها!

المسألة السابعة عشرة: مشروعية التصدق بثلث مال العبد

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم قد أخذ على يد كعب، وشد من أزره، ومن بعد أخذ ورد، وافق أن يتصدق، وببعض من ماله، وليس كله، ولكفاء ورثته من بعده، وبرهان جواز التصدق وإلى الثلث من مال العبد، ودليل التصدق؛ وفرحا بيوم بشراه بالخير أيضا.

وكما أن فيه برهان مصافحة قادم، وقيام له، وكما أنف، ومنه اجتماع الناس للتهنئة بالخير والبشرى.

ويكأن فضيلة التوبة لا أعظم منها، ولا أكثر، ولا أهم، ولا أقوم، ولا أرفع ولا أسمى، ويكأن الجهاد، والمقاتلة، والبذل، والتضحية، والفداء، وإن كل ذلك له هذه الأهمية الكبرى، والعظمى، والقصوى، في هذا الدين، برهان ما حدث، وحين وقف

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٣٤٤

المجتمع الإسلامي كله وعلى ساق، ومن فعل كعب ومرارة وهلال، وبرهان عظم شأن المعصية، وشؤمها، وخاصة في مواقف البذل.

المسألة الثامنة عشرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨].

ولكن الله تعالى قد تاب، ومن بعد صدق توبة عبده، وبرهان تقديم شروطها ومن تأنيب، ومن عزم، ومن اعتراف، وسبحان التواب الرحيم، وحين قال تعالى ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٢].

المسألة التاسعة عشرة: جيل متفرد وصحب متجرد

وإنه كان ذلك، ولأن الناس من سابق عهدٍ كانت قلوبهم صافية، وإذ كانت بالإيمان والمراقبة والتقوى عامرة، وليس يكاد آحادم يطرف بغمض، وحين تكون منه الهفوة، وعلى غير مثال لأولاء، وقد قست قلوبهم، وحين كان كثير منهم فاسقون، وعلى حد ما قال الله تعالى ربنا سبحانه ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وإذ كان من شأن أولاء وإنهم وعلى حد قول عبدِ اللهِ ابنِ مسعودٍ رضي الله تعالى عنه: إنَّ المؤمنَ يرَى ذنوبَه كأنه في أصلِ جبلٍ يخافُ أنْ يقعَ عليه وإنَّ الفاجرَ يرَى ذنوبَه كذبابٍ وقع على أنفِه قال به هكذا، فطار [(١)].

المسألة العشرون: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾

ولكنهم خُلِّفُوا، لا عن الجهاد، وإنما وحين ينزل الله تعالى فيهم أمره، وها هو قد تنزل، احتفاء بتوبتهم، وحين أنزل الله تعالى سورة التوبة، وبهذا الاسم الجليل، عنوانا وتاريخا، ليبقى محفورا في الأذهان، ما بقي الناس، وما خلدت توبة، وما خلد تائبون.

وقال الله تعالى ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى: أن عبد الله بن كعب بن مالك -وكان قائد كعب من بنيه حين عمي- قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٤٩٧

جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان- قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت! فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلا، حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟! واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما، زاح عني الباطل،

وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته، فلما سلمت عليه تبسم المغضب، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك

خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا، فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشأم، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد؛ فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله: إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما

كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله؛ قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرسا، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبي، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتلقاني الناس فوجا فوجا، يهنوني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا

رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك. قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أحسن مما أبلاني؛ ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: **{لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار}** إلى قوله: **{وكونوا مع الصادقين}** [التوبة: ١١٧ - ١١٩]، فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا؛ فإن الله قال للذين كذبوا -حين أنزل الوحي- شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: **{سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم}** إلى قوله: **{فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين}** [التوبة: ٩٦]. قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: **{وعلى الثلاثة الذين خلفوا}** [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو؛ إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه [(١)].

---

(١) صحيح البخاري: ٤٤١٨

ما أمرت أن آخذ أموالكم

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأبي لبابة وأصحابه، ويوم أن تخلفوا عن غزوة تبوك. ولما قد تاب الله تعالى عليهم، وأرادوا الانخلاع من أموالهم كلها حسبة لله تعالى، وليتصدق بها كلها عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمبهر فيها أنهم أرادوا الانخلاع من أموالهم، لا عن توبة، وقد قدمها القرآن الحكيم على مائدة التوبة الربانية الحانية، وإنما بعد هذه التوبة، وبه كم دل على أن هذا الجيل كان فريدا مخلصا حقا! ولما أن أراد أن يقدم من بين يدي نبيه ومن خلفه هذا البذل، ومن بعد وعكة آلمت، ومن إثر غمامة مرت!

وهذا الذي ينبغي الوقوف عنده مليا، ولأنه وكما قلت آنفا قد أصبحت الغاية من فعلهم هذا خالية عن قصد، بل عالية من همة، ولما قد كان هذا برهان اعتمال قلوبهم، ومن فعلهم الذي أنف، ولما كان هذا دليل الذي يسمونه تأنيب الضمير، وحين تخلفوا عن ساعة أسماها الله تعالى العلي الأعلى ساعة العسرة، ومن عسرة من زاد وراحلة وظهر وماء! وما كان لأحد يحمل إيمانا أن يترك رسوله هكذا في الميدان، وإذ وما الشأن ولو كان قد فعلها كثير منهم، وليكشفوا ظهر نبيهم، وكيما يكون لقمة سائغة للروم؟!

وهذا هو النتاج الطبيعي لفعلهم هذا، ولعل هذا هو الذي جعلهم يعضون أصابع الندم، ومن بعد انقشاع ظلمة خيمت، ومن عاقبة انبلاج نهار عن ليل مدلهم، وقد كان منه أن يعض أحدهم إصبعا عن أصبع، أو أن يضرب كفا عن كف، ولكن أولاء القوم، وعلى كل حال، هم الذين عليهم ينطبق قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

وليس من قولنا غير هذا، والحق أقول؛ وذلك لأن الناس قد آبوا أوبة، وكأنما لو قسمت على أهل الأرض لكفتهم، ودلك عليها ذلكم الانخلاع من أموالهم، ومن بعد توبة ربهم عليهم! وهذا في حس العقلاء ولربما كان بعيدا بعيدا!!

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم ليس صاحب فرص! ولم يعهد عنه صلى الله عليه وسلم إلا العفة، ولم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم سوي العزة. وإن أموال المسلمين، بل وسائر أمورهم أمانة في عنقه، وإنما هو أيضا صلى الله عليه وسلم ليس يعمل إلا من وحي، وليست لديه سلطات تخوله أن يستلب أموال الناس، وتحت عاطفة ما أخذتهم، ولئن كانت نابعة عن قصد، ولئن أضحت منبعثة عن يقين، ومن بعد ما رأينا طقسا مشحونا بالتوبة، وطاقة أكثر شحنا بثمارها، وأن من ثمارها ذلكم البذل الذي عرضوه، وذلكم التصدق الذي بلغوه، وحتى كان رغبة من تصدقهم، وبكل أموالهم، ولأنهم رجعت إليهم الفكرة، ومن بعد أن نزغ الشيطان بينهم.

ولكن هذا الذي حدث، وبما قد نقله القرآن الحكيم، تصويرا له، وكأنما نلقاه ماثلا بين أعيننا، معين هدى، وزاد صلاح، وفلاح، وحين أنزل الله تعالى مشروعية أخذ من أموالهم، لا كل أموالهم؛ تطييبا للخواطر الباذلة، وإشاعة لأمرها، وأن كانوا وإذ أذن مؤذن الابلاغ عنهم أنهم تصدقوا، ومن بعد توبة، وإذ كان العقل ليستبعد ذلكم، ولكنه هذا هو الذي جرى ووقع، وحدث، وها هو ماثل بين أعيننا، وبكأنما قد وقع من أمامنا، نلمحه، ونبصره، زينة، وشارة، وبلاغا عن قوم، قد سبقونا، وكفاهم وكفانا قول ربهم بصددهم ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]. وقد كان هذا شيئا من تاريخهم! نلفاه دليلا على ما يعجز عن وصفه قلم، وما ينأى عن رسمه ريش!

وقال الله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

وهذا سياق آخر جبرا، وهذا قرآن كريم جبرا أيضا، ولما كانت توبتهم مركبة مضاعفة، ومن قرآن تنزل بها، ومن رغبة صادقة بالانخلاع من أموالهم سائرها، ولأن الله تعالى وجبرا للخواطر الكواسر، ومن أمثال هذه الشم الرواسي، ومن أمثال أولاء العوالي، وليردن إليهم بذلهم، وبأن يأخذ منهم رسولهم بعض أموالهم، لا كلها! وكما أنف اصلاحا لخاطر قد انكسر من تخلف، وجبرانا لخاطر قد انصلح من توبة أيضا.

ولكن هذا الدين ليس يصطاد في الماء العكر! ولينتهزها فرصة للانقضاض على أموالهم كلها، وقد قالوا! وإنما الهوينى الهوينى! فأموال الناس حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في عامكم هذا، وفي كل يوم، وفي كل شهر، وفي كل عام أيضا، وإنما لا تؤخذ أموال الناس غصبا، وإنما ليست تجبى منهم عنوة وجباية، وإنما ليست تؤخذ منهم عنتا ونكاية! إلا ببرهان، وسلطان، وبيان، صادق، شاف، واف، عن الله! ولما تؤخذ أموال الناس، وعن غير طيب خاطر منهم، أو من حق معلوم، قد تقاصرت هممهم عنه، وهكذا من غير سلطان، اللهم فذلكم الضلال لا الحق، وذلكم الحيف والجور والتعدي، وذلكم الظلم لا العدل.

ولكن هذا ليس يصرفنا عن فعل أبي لبابة رضي الله تعالى عنه، وحين قد تخلف، وعلى مذهب كثير من أهل العلم بتأويل كلام الله تعالى، يوم تبوك مرة، ويوم قريظة مرة أخرى، وها هو ينزل فيه القرآن الحكيم، وحين ربط وربطوا أنفسهم في سواري مسجد نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولتكون آية، وعبرة، وعظة، أن فريقا من المؤمنين، وها هم قد ربطوا أنفسهم بأنفسهم في سواري مسجد نبيهم، ولما ينزل

فيهم توبة! ويكأن الناس كانوا يستشرفون هذا الفضل من الله تعالى ربهم الحق المبين سبحانه، ولكنه تعالى ليس يخيب ظنهم، ولينزل فيهم هذا القرآن، مجدا نبيلا، وتاريخا حسنا جميلا، وحين قال الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٢]. وقد أنف تناول هذا ويوم حديثنا في غزوة بني قريظة، والله تعالى هو المسؤول قبولا، وتوفيقا، وصلاحا، وفلاحا، وهدى وتقوى، ونورا، وبرهانا مبينا.

ولكن هذا الطقس الذي بين أيدينا، ليس يعكر صفوه المنافقون! ولأنه أمر لا أقول طبيعيا، ولأن هذا الدين، وإذ إن من رسمه أنه يريد طهارة للعالمين، كل العالمين، وليس يبتغي من أحدهم إلا الإخلاص، ولكنه، ولحكمة يعلمها الله تعالى، وأن يوجد في الصفوف من منافقين مردوا على النفاق، لا يعلمهم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن الله تعالى يعلمهم، ويكأن هذا من سنن أن نعرف، وندرك، ونفقه، وننظر، ونعلم، ونرى، وكأنما كان قرآنا بيننا قد تنزل، ويكأنه نور أمامنا، وإذ نسير في سناه، وها نحن نتنسم شذاه، ولما قد ارتوينا من هداه.

وأقول: ولعلها حكمة، وأن نجد سبيلا لفهم كلام ربنا أوقع، وكأنما هو يحكي لنا سيرة قوم مؤمنين، وكما أنف من توبته تعالى عليهم، وهو إذ في نفس الوقت يقف بنا على تأويل عملي لقوله تعالى ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٧].

ولكن الإعجاز والتحدي قائمان مقامهما! ولا يتزحزحان شيئا! وحين أعلم الله تعالى نبيه محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن المنافقين، ولما أوقفه عليهم، لا صفة ونعتا وحسب، وإنما صفة واسما ورسما أيضا. وحين خطب صلى الله عليه

وسلم في الناس، وكما روى أبو مسعود عقبة بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: خَطَبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خُطبةً فحَمِدَ اللهَ، وأثْنَى عليه، ثُمَّ قال: إنَّ فيكم مُنافِقينَ، فمَن سَمَّيتُ فليَقُمْ، ثُمَّ قال: قُمْ يا فُلانُ، قُمْ يا فُلانُ، قُمْ يا فُلان، حتى سَمَّى سِتَّةً وثَلاثينَ رَجُلًا، ثُمَّ قال: إنَّ فيكم -أو منكم- فاتَّقوا اللهَ، قال: فمَرَّ عُمَرُ على رَجُلٍ ممَّن سُمِّيَ مُقنَّعٍ قد كان يَعرِفُه، قال: ما لك؟ قال: فحَدَّثَه بما قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقال: بُعدًا لك سائرَ اليومِ[1].

ولكن الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى قد أوفى، وحين أوجز فرقاء الناس يوم تبوك ساعة العسرة، وكما قال رحمه الله تعالى: كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام:

مأمورون مأجورون: كعلي ابن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة، وابن أم مكتوم.

ومعذورون: وهم الضعفاء، والمرضى.

والمقلون: وهم البكاؤون.

وعصاة مذنبون: وهم الثلاثة: أبو لبابة، وأصحابه المذكورون.

وآخرون ملومون مذمومون: وهم المنافقون.

(١) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط:٢٢٣٤٨. حكم المحدث: إسناده ضعيف.

هذه الحيرة البيضاء رفعت لي، وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود

هذان علمان من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومناسبة يوم منصرفه من تبوك أيضا، ومناسبة هذا الكم المدرار من هذه الأعلام النبوية المباركة، والتي هي موجب تثبيت لقوم مؤمنين، وكما وأنها عامل جذب دعوي لغير المسلمين، ولعلهم أن يفيقوا، ومن بعد غفلة، وعساهم أن يرجعوا، ومن بعد هلكة، ألمت بهم.

وأما العلم الأول هنا: فهو إشارته صلى الله عليه وسلم، وبأنه ستفتح لهم الحيرة، أي بلاد الفرس، بلاد كسرى، وعلى أيدي المسلمين، وقد حدث أن خريم بن أوس راوي الحديث قد شهد بذلك.

وذاك كسرى هو الذي مزق رسالة خاتم النبيين وإمام المرسلين، وإذ كان يدعوه إلى خيره هو، ولا نفع من ورائه عائد إلى هذا النبي المطفي المجتبى المختار صلى الله عليه وسلم، واللهم إنه قد بلغ رسالة ربه، وحينها دعا صلى الله عليه وسلم عليه مولاه، أن يمزق ملكه، وكما قد مزق رسالته، ولما يستجب له ربه تعالى، فيمزق ملكه إربا إربا، وحتى صار حصيدا كأن لم يغن بالأمس، وفي رسالة أخرى إلى عتو جواظ متكبر، أن يحفظ عليه بعضا من ملكه، فلا يقربن وليا بشر، ولا يمسنه بسوء.

ولكن علم نبوة آخر متوالد عن هذا العلم النبوي، وحين أخبر خريم بن أوس راوي الحديث، وبأنه إذا كان هذا الفتح، وإنه سيكون، إن شاء الله تعالى، أهداه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشيماء، فدل على إمكان وقوع الفتح حياة هذا الرجل، وليكون علما آخر، ومشتقا من رحم العلم الأول، ولأنه قد حدث هذا، وحقا، ولما فتح خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه الحيرة، وطالبه هذا خريم بن أوس رضي الله تعالى

عنه بما طلب، وقد كانت المعجزة وحين أدلى إليه بالبينة! ومن أنها الشيماء، بنت نفيلة، الأزدية، على بغلة، شهباء، معتجرة، بخمار، أسود!

وأما العلم الثاني: فهي هذه الشيماء، وعلى صفتها، والتي بدت بها، ومن أنها الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود! وحين طالب بها هذا خريم بن أوس خالدا بن الوليد، ولما طالبه هو الآخر بالبينة، فقال له إنها: الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود! فوجدها خالد على وصف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فأعطاها إياه.

وإذ كان من بينته أيضا، وإذ كان كل من محمد بن مسلمة، ومحمد بن بشير الأنصاري حاضرين ذلكم المشهد.

وكما نذكر دائما، فإن هذه أعلام، ولكنها حقا، ولكنها كانت من علوم الغيب، وإنما يكشف الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم نبأ من ذلكم، وكما هو عهدنا بهذه السيرة النبوية المباركة، إثباتا لنبوته صلى الله عليه وسلم، وليبقى علم الغيب خاصا بالرحمن، ولتتبقى أعلام النبوة هبة من الديان، لهذا النبي المصطفى العدنان، صلى الله عليه وسلم، وحسبنا أن نقف بها إلى ههنا، ولا نتعدى!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البيهقي رحمه الله تعالى عن خريم بن أوس: هاجرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقدمت عليه مُنْصَرَفَهُ من تبوك، فأسلمت فسمعته يقول: هذه الحيرة البيضاء قد رفعت لي، وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغله شهباء معتجرة بخمار أسود

فقلت: يا رسول الله إن نحن دخلنا الحيرة فوجدناها كما تصف فهي لي؟ قال: هي لك قلت: ثم كانت الردة، فما ارتد أحد من طيء، فأقبلنا مع خالد بن الوليد نريد

الحيرة، فلما دخلناها كان أول من تلقانا الشيماء بنت نفيلة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود فتعلقت بها، فقلت: هذه وصفها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاني خالد بالبينة فأتيت بها، فكانت البينة محمد بن مسلمة ومحمد بن بشير الأنصاريان، فسلمها إليّ خالد، ونزل إليها أخوها عبدالمسيح بن نفيلة يريد الصلح، فقال: بعينها، فقلت: لا أنقصها والله من عشر مائة فأعطاني ألف درهم وسلمتها إليه، فقالوا لي: لو قلت مائة ألف لسلمها إليك، فقلت: ما كنت أحسب أن عدداً أكثر من عشر مائة [١].

إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو قوله في عروة بن مسعود الثقفي رضي الله تعالى عنه، وحين قدم على نبينا صلى الله عليه وسلم مقدمه من تبوك، في رمضان من سنة تسع من الهجرة النبوية الشريفة المكرمة المطهرة، وحين كان رجلا مطاعا في قومه ثقيف، ذرية ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام! وحين طمع أن رئاسته قومه، ومكانته فيهم، ولسوف يكون لها صداها وأثرها من إسلامهم! وحين يدعوهم إلى هذا الدين الحنيف الخالد، وحين توقع هذا النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قاتلوه! واستدعاء لما مر به في سني هذه الدعوة المباركة، واستدعاء أيضا لما قاله له ورقة بن نوفل أول مرة! وأنه لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عودي! [٢].

وفي إشارة ونبأ من ورقة، وأنه الله تعالى لم يبعث من عبيده امرأة إلى قوم ما، وعلى مدار التاريخ كله!

---

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج ٢ / ١١١

(٢) صحيح البخاري: ٣

ولكنه وهذه هي سنته تعالى في الذين خلو من قبل، وحين كان الشأن هو البذل والتضحية، ولله تعالى وحده أيضا، وصدق الله تعالى، وحين كان قوله في ذلكم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

وبه دل على صدق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكما دل على صدق ورقة أول مرة!

وحين أصر الرجل عروة بن مسعود هذا، وعلى أن يدعو قومه ثقيفا، وإذ كان رجلا فيهم مطاعا! ولأنه؛ وعلى حد قوله كان أحب إليهم من أبكارهم، وفي تعبير كان عند العرب ذا قيمة، ودلالة على محبة فطرية للبنات، وحين قض هذا الدين مضاجع الوأد الجاهلي المقيت، ولما جاء ذكره في قرآن ليس يبلى وكيما يبقى محفورا في ذاكرة هذا التاريخ، أن قوما وأدوا بناتهم، وإذ كانوا يحبون أحدا منهم، ومن لا كمثل محبتهم لأبكارهم، بل أعظم! وفي عوج عن الفطرة، كان مسلكهم فيه ذلك!

وإلا أنه وحين كان عروة بن مسعود، وعلى أجله، وقد انتهي، وحين كان على عدة من الشهادة في سبيل مولاه تعالى الحق المبين سبحانه، ولما كانت أمل، ورغبة، وهدف، ومرمى، ومقصد، وغاية المتقين الباذلين، ولما كانت تاج قوم مؤمنين بالله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

وقد كان من شأن عروة بن مسعود رضي الله تعالى عنه، أنه وحين دعا القوم رموه بنبالهم، ولم يمهلوه! وكأنه لم يكن سيد قومهم من قبل! وكأنه لم يكن مطاعا فيهم من قبل، وكأنه لم يكن أحب إليهم من أبكارهم من قبل! وهذا تسلية لدعاة

الحق، وحين ينقلب عليهم أهلوهم، وأن الحق هكذا له ثمنه، وحين ينتصب له الدعاة العاملون، ولما كان من ثمنه شهادة في سبيل الله تعالى الحق المبين.

ولكننا لسنا نبرح مكاننا هذا إلا بيان أن الحق لله تعالى، هو ذلكم التوحيد، وهو هذه العقيدة، والتي لايبدأ إلا بها، وحين دعوة الناس إلى دين ربهم العلي الأعلى سبحانه وتعالى، وأنه هو ذلكم الرب الله العزيز الحكيم، وحين لا أمر إلا أمره، ولما كان لا نهي إلا نهيه تعالى، بتحقيق عال، سام، سامق لهذه العقيدة، في الله تعالى، وألا يبدأ وإلا حيث بدأ بها الصادقون الباذلون، وإلا أن هذه مناهج آخر يبدأ بها الناس، ويدعون إليها، ليست من ذلكم الهدى من شيئ، ولأنه ليس قد أغنى، وإلا أن يبدأ بمثل ما بدأ به هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم أول مرة!

ولكن الرجل وحين قتلوه، وسألوه أصحابه، وكيف يجد نفسه؟! وحين أجاب، ومن رمقه الأخير، ما يشهد على أنه كان، وكمثل صاحب يس حقا، وعلى حكاية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم له بذلك، وأنه ليس بدعا من الأمر، وحين سبقه إخوانه الذين قضوا من قبل، باذلين أنفسهم وأرواحهم رخيصة لله تعالى الحق المبين سبحانه.

وهذه حيثية قمنة بالوقوف، والتأمل، والدرس، وإنها لرسالة إلى ذوي الهمم العالية، وإنها لرسالة إلى ذوي القمم السامية، وأن الثمن عظيم، ولأن سلعة الله تعالى لغالية، وإلا أن سلعة الله هي الجنة.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة [١].

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٤٥٠

ولكن الرجل أيضا، وحين قتلوه قومه، ثقيف، أحفاد ثمود قوم نبي صالح عليه السلام، وإذ استشرف هذا الإيلام، ويكأنه ليس من إيلام! والذي كانوا يعدونه، ومن مثل لسعة، أو وخزة، أو قرصة، وما بها من شيء، وحين كان هذا هو الفضل الكريم من الله تعالى العلي الكريم سبحانه أيضا. ولما لم يشعر هذا الشهيد الكريم وإلا كلسعة، أو وخزة، أو قرصة! وحين كان من شأن غيره من الأموات وحين يحضرهم أجل ربهم، ومن سكرات، ومن شأنها ما كان وصفه، وكما قال صلى الله عليه وسلم: فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء [(١)]. وأن العبد ولو أطلق عنانه لهرب وإلى أعالي الجبال، ومتسلقا، ومتعديا ونافذا ما أمامه من حجب! وهذا فرق بين موتة شهيد، وبين موتة من سواه.

فعن أبي قتادة: الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة [(٢)].

وإلا أن الكافر لا شأن له بهذا النعيم، وحتى عند الموت، وحين تخرج روحه فتتفرق في جسده، فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول [(٣)].

لكن استصحاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لعمل صاحب يس هذا كان عملا كريما، وحين كان في التاريخ ومن أمثال صاحب يس، ولما لم يدع فرصة سانحة إلا وفيها بيان الحق الذي كان يحمله، ولما كان كذلك لم يعبأ، وبما يمكن أن يكون ثمن دعوته، ولأن الحق لابد له من ثمن، ولما كان من ثمنه، هو شأن، وعمل، وفعل أولاء الباذلين، ولأن التوحيد والعقيدة ولابد من بيانهما للناس، وكما جاءت لا غبش فيها، ولا أنصاف حلول، ولا فتنة بقول الناس (المتاح)! وفي مصطلح لا من مصطلح، إلا والخيبة

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: [٥/٤٣٩]. خلاصة حكم المحدث: مشهور.

(٢) صحيح الجامع، الألباني: ٣٧٤٥

(٣) الفتاوى، ابن تيمية: ٥/٤٣٩. خلاصة حكم المحدث: مشهور.

بابه وشباكه معا، ولما كان غير ناهض، ومن أول مرة، وأمام عمل هذا عروة بن مسعود، وكذا بذل هذا صاحب يس! ولما كان من شأنهما بيع السؤدد، وشراء المكانة العالية في الجنة، ولو كان في بذل مهجهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى مولاهم الحق المبين سبحانه.

ويكأن هذا المتاح هو نفس الذي كان متاحا، وأمام نبي الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كان يمكنه أن يبدأها دعوة لإصلاح اجتماعي، وإذ كان سوف يجد له ولها أنصارا، وحين كان مجتمع مكة غارقا في شرب الخمر، ووأد البنات، وما سواهما، وهي أمراض ضارية، ناهشة، هادمة لأركان مجتمع ولو كان عتيا، ولما كان قابعا تحت سطوتها.

وغير ذلك من دعوات، ومن مثل دعوة اقتصادية، ولما كان المجتمع رازحا تحت سطوة الأغنياء المرابين، وعلى حساب الطبقات الكادحة، والتي سقطت، وأمام هذه السطوة الشريرة لأولاء المرابين.

ويكأن الله تعالى يعلم أن طريق الخير، والهدى، والصلاح، والفلاح، ولابد أن يبدأ من هنا، من نقطة البداية الصحيحة، الحقيقية، وهي تعبيد قلوب الناس لربهم الحق أولا، ومن ثم يتأتى، ومن بعدها من مراحل، ولربما أفضت إلى التسليم والانقياد أول مرة، وهذا هو الذي قالوا عنه يوما: انتهينا!

فعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: لما نزل تحريم الخمر اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء، فنزلت الآية التي في البقرة يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير الآية، قال: فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء ، فنزلت الآية التي في النساء يا **أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**

فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء، فنزلت هذه الآية فهل أنتم منتهون قال عمر: انتهينا [١].

ولما كان الطريق واضحا، ولأمثال هذين الرجلين- عروة وصاحب يس- والذَيْنِ يعدل كل واحد منهما أمة وحده!

ويكأننا نستحضر تاريخ هذا صاحب يس، وهو إذ يقول وعلى آخر رمق فيه، وكمثل ما قاله عروة بن مسعود، من معنى، وحين نقل لنا عنه القرآن الحكيم قوله تعالى ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٠-٢٧].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى وقال: وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد من ثقيف، وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام. فقال له رسول الله - كما يتحدث قومه -: «إنهم قاتلوك». وعرف رسول الله أن فيهم نخوة الامتناع للذي كان منهم. فقال عروة: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك محببا مطاعا، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه لمنزلته

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٦٧٠

فيهم، فلما أشرف على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله، فتزعم بنو مالك أنه قتله رجل منهم يقال له: أوس بن عوف - أخو بني سالم بن مالك - ويزعم الأحلاف أنه قتله رجل منهم من بني عتاب يقال له: وهب بن جابر. فقيل لعروة: ما ترى في دينك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، فدفنوه معهم. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: «إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه» [١].

لكم أن لا تحشروا، ولا تجبوا، ولا يستعمل عليكم غيركم، ولا خير في دين لا ركوع فيه

هذا عقد بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ووفد ثقيف، وحين جاؤوا طالبين صلحا بين الفريقين، وعلى أن يسلموا، ومن بعد ثلاث جولات كانت عليهم صاعقة! وحين علموا أن حرب هذا الدين ليست كحروب جاهلية كان أساسها الجاهلية أيضا، وكأن تكون على بئر ماء، أو أن تكون على لعاعة من الدنيا، ولذلك فكان يمكن لها أن تنتهي، وعلى شيئ من ذلكم أيضا، وأما هذا الدين فما يرضى ولا يقبل، وإلا أن رأوا بأعين رؤوسهم أنه لن يسكت، ولن يصمت، وإلا أن يسلموا، وإلا حربا ضروسا، رافعين وإلا سيوفا مصلتة، وإلا رماحا مشرعة، ولما يأتهم مثل الذين خلوا من قبلهم، وإذ لم يكونوا، ومن كمثل قريش من قبلهم، وحتى أذعنت لهذا الدين.

ونكرر وأن ذلكم كان لخير الفريقين، ونتفهم أنه ولما كانت رسالة هذا الدين- إي والله- رسالة رحمة لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، كرامة ورحمة معا، ولما أراد الله تعالى ألا يستعبد الإنسان أخاه الإنسان، وإذ ليس لدي أي من

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ٤/٩٦٤

الفريقين ما يجعله مزهوا عما سواه، ولذا كان الناس جميعهم أمام هذا الدين سواسية، كأسنان المشط، ولا فضل لأبيض على أسود، ولا لأحمر على أصفر، ولا غير ذلكم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

فعن جابر بن عبد الله: **يا أيُّها الناسُ إنَّ ربَّكمْ واحِدٌ ألا لا فضلَ لِعربِيٍّ على عجَمِيٍّ ولا لِعجَمِيٍّ على عربِيٍّ ولا لأحمرَ على أسْودَ ولا لأسودَ على أحمرَ إلَّا بالتَّقوَى إنَّ أكرَمكمْ عند اللهِ أتْقاكُمْ**[1].

ولأن هذا الميزان هو الذي تنتظم به أمور الناس في معاشهم، فلن يتكبر من أحد، وفي معادهم، فلا يدخلن الجنة جواظ عتل متكبر جبار.

وأقول: وهم أنفسهم قد تداركوا أمرهم، ومن بعد ثلاث جولات مضنيات مرهقات، وحين قتلوا، وسبوا، وغنموا، وإنما ولا يرجع هذا الدين عنهم، وإلا أن يسلموا لله تعالى الحق المبين، وكما أنف، ولصلاحهم هم، ونفعهم هم، ولا نفع لله تعالى من وراء ذلكم، ولا حتى هذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا معه! وهذا ما يجعل هذا الدين وبحق ذا وجهة عالية سامقة، ولما كان كل أمر فيه، وإنما يكون لله تعالى العلي الأعلى، ولما لا يكون لأحد سواه من الأمر من شئ، وحتى أولاء الذين يجاهدون، ولا يبتغون، وإن هم إلا يريدون إلا أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

ومما أنف كان أوبة ثقيف إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن مجيئهم كان مشروطا، وبشرط ما جاء هذا الإسلام الحنيف الخالد إلا لهدمه في القلوب والأبدان معا، ولما شرطوا أول شرطهم وألا يهدم عليهم الطاغية!

---

(١) غاية المرام، الألباني: ٣١٣. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

والطاغية هذه هي اللات! والتي بكتها القرآن الحكيم، وذمها، وأبطلها، وكما أبطل غيرها من قبل، وها هو حديث عهد بتكسير ثلاثمائة وستين صنما، كانت ماثلة لقريش في كعبة الله وحرمه الآمن!

وشرط كهذا هو والعدم سواء، وأمام هذا الدين! وإذ ولم حاربهم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ثلاث جولات متتابعات، وإلا لهدمه أول مرة، وثانية المرة، وآخر المرات؟!

وهذا الدين وعند العقيدة والتوحيد، ليس يقبل أنصاف الحلول، ولا ربعها، ولا خمسها، ولا سدسها، ولا شيئا من ذلك أبدا، ولأنه وكما أنف، وإنما جاء ليحطم الشرك، والأوثان، ومن القلوب، ومن الأبدان؛ وكيما يعود للناس شأنهم وكرامتهم، وعزتهم، وأنفتهم، وعلو رؤوسهم خفاقة عالية في السماء، وإذ كانت ولا تعبد إلا الله تعالى الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

وعلى مدار التاريخ ومن أول نبي، وإلى آخر نبي، وإذ كانت الدعوة واحدة، وهدفها واحدا، وهو كسر الأصنام، وازاحة الطواغيت من طريق الناس، وكيما يكون طريقهم معبدا، ومن بعد منحنيات ومطبات، أرهقت كاهل البشر، وجعلهم يخرجون من عبودية بعضهم بعضا، وإلى عبودية الله تعالى وحده بلا شريك.

وانظر سيدنا ونبي الله تعالى نوحا عليه السلام، وحين قال القرآن الكريم قوله الكريم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ

جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١- ١٢].

وانظر إلى نبي الله تعالى إبراهيم عليه السلام، وحين واجه قومه مواجهة، وإذ كان كل الناس مدعوون؛ للاستنان بها، ولدحض باطل مرير، ذاق الناس فيه ويلات هذا العدوان على منهجه الله تعالى، وحين قد تنزل القرآن الحكيم بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ *قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبيا:٥١-٧٠].

وانظر إلى قافلة الرسل والأنبياء الكرام، عليهم السلام، وحين كان هدفهم جميعا هدفا واحدا، ومسعى واحدا، وطلبا واحدا، أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره!

ولذا كان يجب على ثمود أن تفقه الدرس، وتعيه جيدا، ولكنها هكذا محاولات، وحين حاولتها قريش من قبل، ولما نزل فيهم وفي أمثالهم وإلى أن تقوم الساعة قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦].

وحين قالها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولئن وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره على أن يترك هذا الأمر ما تركه وإلا أن يظهره الله تعالى وبعز عزيز وبذل ذليل!

فعن يعقوب بن عتبة بن المغيرة: يا عمَّاهُ، واللهِ لَو وَضعوا الشَّمسَ في يميني والقمرَ في شمالِي علَى أن أتركَ هذا الأمرَ حتَّى يُظهرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركتُهُ [(١)].

وقلت: وأظهر الله تعالى دينه، مع الصمود والوقوف والتحدي والتصدي، وأمام هذه المنحنيات، والمصدات، والعوائق، والعوالق، والتي يضعها الفئام الظالمون، ومن أشواك، وشباك، وكمائن، في طريق المصلحين، وعلى مر الدهور، والأزمان، والأعوام.

ولهذا السبب، فقد كان موقفه صلى الله عليه وسلم، هو ذلكم الرفض التام التام، ولأن وضعا كهذا لا إسلام فيه بالمرة.

وهذا درس للدعاة، وألا يتزحزحوا شيئا، وأمام هذه الكمائن التي يضعونها الناس في وجوه دعوتهم، وألا يقبلوا إلا بما قبل به نبيهم صلى الله عليه وسلم، وأن يرفضوا ما رفضه كذلك نبيهم، ولأن مغبة غير ذلك وإنما تنال الجماعة كلها، وهذه التي يمكن أن يفتن بها المصلحون، حتى جعلهم يرجعون القهقرى، ومن تنازل إلى تنازل آخر مثله، وحتى وصلوا إلى قناعة بدراهم معدودة، وكلما تنازلوا شبرا، نازلهم الطاغوت

---

(١) فقه السيرة، الألباني: ١٠٩. خلاصة حكم المحدث: ضعيف.

بـأكثر مما تنـازلوا فيـه، وحتى أصبح هـو الـذي يقـدم لهـم فتاتـا أمـام مائـدة دعـوتهم، فيقبلونهـا، وهـذا لـيس حـلا، بـل ضـاعفنا المشـكلة، وحـين أبقينـا عـلى الـداء، ولما لـم يستحصل على دواء، وتعبيد الناسِ الناسَ بعضهم بعضا، وذلك كائن ولا محالة، ولما لم تكن كلمة الله تعالى هي العليا، وحين تكون كلمة الذين كفروا السفلى!

ولكـن هـذا النبي صلى الله عليـه وسـلم، وحـين أعلمهـم كلمـة التقـوى، وافقـوا، وأذعنوا، ورضوا، وإن لم يرضوا!

وفي سلسلة متتالية من الطلبات والمطبات، والمناوشـات، ويريـدون أن يفرضـوها فرضـا، ولما ينتقلـون مـن فـرض إلى فـرض آخـر أيضـا، وحـين طلبـوا وألا يصـلون! وهـذه لحقـت بأختهـا الأولى، رفضـا قاطعـا، ممهـورا بتوقيـع هـذا النبي صـلى الله عليـه وسـلم، والـذين آمنـوا معـه! ولأنـه لا خير في ديـن لا ركـوع فيـه! وهـذه رسـالة أخـرى وإلى غير المصلين، وأنه لا خير في دينهم، ولأنهم لا يركعون!

ولكن مساحة أخرى كانت متاحة! وهذا المتاح ومن بعد شـرط، وميثاق غليظ، ألا زحزحة، ولـو شـيئا، وأمام ثوابت هذا الدين، وحين كان ألا أمر إلا أمر ربهم، وألا نهي إلا نهيه تعالى.

وأما ما خلا ذلكم، ومن مساحة يكون القول فيها، وبالمتاح مقبولا، فهو مقبول أيضا، ولأن هذا الدين مرن، وفي غير مساحة أصوله، ولدى غير قواعده، وثوابته الأولى! ولما شـرطوا ألا يـولى علـيهم من غيرهم، ويـوافقهم نبيهم صلى الله عليـه وسـلم، بـل هـذه لهم، بل هذا ما كان سوف يفعله نبيهم صلى الله عليه وسلم، ولا تزايد! ولأنه قد مرت وقائع كثيرة، ومن هذه السيرة المباركة، وإذ كان يؤمر عليهم نبيهم واحدا منهم، وها نحن حديثو عهد بإسلام مالك بن عوف النصري رضي الله تعالى عنه، وحين جعله هذا النبي

العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم أميرا على قومه، وهم يعرفون ذلك على كل حال!

وحين كان من دائرة هذا المتاح أيضا، وألا يمكن أحدا من كسر أصنامهم، وحتى يقوموا هم بتكسيرها!

ولأن غاية هذا الدين هي تكسير الأصنام وحسب، ودونما نظر إلى فاعل ذلكم، وبه فقد كانت الحكمة أن يوافقهم هذا النبي صلى الله عليه وسلم على طلبهم هذا!

وإن شئت قل: بل كان أدعى أن يسمح لهم بذلك، وحين وصلنا إلى هذه الدرجة، وحين تجرأوا هم على تكسير أصنامهم بأيديهم- هم-!

ولكنه صلى الله عليه وسلم، وحين وافق، وعلى مثل هذه شروط، وكما قلت آنفا، ولأنها خارج نطاق الأصل، بل هي فرع، ولما يدخل الايمان في قلوبهم، وحينها هم أنفسهم لن يفعلوا، وإلا من هديه، ولن يتركوا، ولن ينتهوا إلا من نهيه.

وهذه دوائر المتاح، وحين تمكننا من تثبيت عقائد الناس، وإزالة الطاغوت الجاثم على رؤوسهم من قبل!

ودلك على صحة مذهبنا هذا أن ثقيفا ولما قدموا على رسول الله ﷺ ضربت عليهم قبة في المسجد، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله، فكان إذا جاءهم بطعام من عنده لم يأكلوا منه حتى يأكل خالد بن سعيد قبلهم، وهو الذي كتب لهم كتابهم.

قال: وكان مما اشترطوا على رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ثلاث سنين، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهرا واحدا بعد مقدمهم

ليتألفوا سفهاءهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى، إلا أن يبعث معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة ليهدماها، وسألوه مع ذلك أن لا يصلوا، وأن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم. فقال: «أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه». فقالوا: سنؤتيكها وإن كانت دناءة [١]. وعن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزلهم المسجد؛ ليكون أرق لقلوبهم، فاشترطوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يحشروا، ولا يعشروا ولا يجبوا ولا يستعمل عليهم من غيرهم، فقال: " لا تحشروا ولا تعشروا ولا تجبوا ولا يستعمل عليكم من غيركم، ولا خير في دين ليس فيه ركوع [٢].

وألا يحشروا أي: لا يُنْدَبُون إلى الْمغَازي، ولا تُضْرب عليهم البُعُوث. وألا يعشروا، والتعشير هو: جمع العشر من أموال الناس، وألا يجبوا أي: ألا يصلوا.

ويشبه أن يكون النبي صلَّى الله عليه وسلم إنما سمح لهم بالجهاد والصدقة لأنهما لم يكونا واجبين في العاجل، لأن الصدقة إنما تجب بحلول الحول، والجهاد إنما يجب لحضور العدو، فأما الصلاة فهي راهنةٌ في كل يوم وليلة في أوقاتها الموقوتة ولم يجز أن يشترطوا تركها، وقد سئل جابر بن عبد الله عن اشتراط ثقيف أن لا صدقة عليها ولا جهاد، فقال: عَلِمَ أنهم سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا. وفي هذا الحديث من العلم أن الكافر يجوز له دخول المسجد لحاجة له فيه أو للمسلم إليه [٣].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٣٦

(٢) ضعيف أبي داود الألباني: ٣٠٢٦

(٣) معالم السنن، شرح سنن أبي داود، الخطابي البستي: ج٢/٣٠

إذا أممت قوما فخفف بهم الصلاة

هذا حديث صحيح رواه الإمام مسلم، وغيره من أهل السنن، رحمهم الله تعالى أجمعين. والخطاب فيه للصحابي الجليل الكريم عثمان بن أبي العاص رضي الله تعالى عنه، وكان من أحدث ثقيف سنا، وإلا أنه كان محبا للعلم والفقه والمدارسة، وكثيرا ما كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليعلمه القرآن والفقه والدين، وكان إذا لم يجده انقلب إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وليعلمه الفقه والقرآن والدين أيضا، وهذا عنوان أن الرجل كان حريصا على تلقي العلم الشرعي، ومن فاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مباشرة، ليكون أدعى للتأويل الصحيح، بعيدا عن مذاهب شتى.

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان رؤوفا رحيما، وحين أمر عثمان بن أبي العاص هذا، أن يخفف بالناس صلاتهم، إذا هو أمهم، ولأن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة، وليكن أضعف الناس هو مقياس التخفيف عنده، وهذا عنوان سماحة ديننا ويسره ورفعه الحرج عن الناس.

وإلا أنه صلى الله عليه وسلم كان قد جعل من تخفيفٍ أن يقرأ على الناس صلاته بسورة العلق، وهذا مما يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم، ولقيمة الصلاة عموما، ولقيمة القرآن الكريم أيضا.

ولكن هذا عثمان بن أبي العاص كان قد طلب من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يجعله أمير قومه، وأن يؤم قومه أولاء في صلاتهم أيضا، وهذا برهان جواز طلب الإمامة والإمارة، وحال علم العبد من نفسه صبرا عليهما، وكذا الإمام الأعظم، وحين كان قد علم من أميره صدقا، وألا فتنة يمكن أن يفتن منها، أو أن يمتحن بها،

وعلى كل حال، وهذا الذي يمكن به الجمع بين حديث بابنا هذا، وبين الحديث الآخر: إنا لا نولي هذا الأمر من طلبه.

وموقف الإسلام من مسألة تولية من طلب حاسمة، وحين كان ثابتا من عدم تولية من طلبها، وهو منع مسبب؛ وهو كونه ولربما كان سبيل فتنة وجرح لإخلاصه لربه تعالى، ولربما كان ساعيا إلى تحقيق مآرب خاصة، أو حتى تقديمها على الصالح العام، أو خطا كان موازيا! وكل هذه الأمور مر مذاقها، علقم طعمها! ويبقى عمله صلى الله عليه وسلم ههنا محمولا على الاستثناء أيضا، ولست أريد الذهاب بعيدا أنه هذا كان عملا خاصا.

بل ولعله يمكن حمله على الوجوب أيضا، وحين تأكد أنه ليس صالحا في الوقت غيره! ولعل إسقاطا على الواقع هو فصل أيضا، ولما كانت ثقيف تشترط! وشروطا بعيدة عن هذا الدين وطبيعته، ولما كان دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا، وما كان من المسلمين، وإذ كان هذا هو شأنهم جهلة، وكان هذا الرجل عثمان بن أبن أبي العاص هو الأعلم؛ ومن حرصٍ، ومن ثم يكون مؤهلا، وكيما لا ينتصب غيره لهذا العمل.

ولعل حملا آخر، وإذ يمكن قصره على إمامة الصلاة، وهذا قد قيل، ولئن كان لفظ الحديث عاما؛ ليشمل الصلاة وغير الصلاة معا.

فعن أبي موسى الأشعري دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل،

وقال الآخر مثل ذلك، فقال: إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدا سأله، ولا أحدا حرص عليه [(١)].

وبالفعل جعله صلى الله عليه وسلم أمير قومه ثقيف، وبعد أن جاؤوا مسلمين مشترطين! وحين أقرهم على بعض شروطهم، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ولسوف يجاهدون، ولسوف يتصدقون، ولسوف يزكون، وهذا مما يحسب لهذا الدين، ومتمثلا في شخص الإمام الأعظم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين عَلِمَ وأَعْلَمَ وعَلَّمَ أن الإسلام له عمله في القلوب، وتفاعلا مع أحكامه، ولما يدخل الإيمان في قلوب القوم ثقيف، وغير ثقيف.

وإذ كان مما اشترطوا على رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ثلاث سنين، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهرا واحدا بعد مقدمهم ليتألفوا سفهاءهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى، إلا أن يبعث معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة ليهدماها، وسألوه مع ذلك أن لا يصلوا، وأن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم. فقال: «أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه». فقالوا: سنؤتيكها وإن كانت دناءة [(٢)]. وهذا هو قوله صلى الله عليه وسلم، ويوم أن طلب منه عثمان بن أبي العاص إمامته قومه: أنت إمامهم، فاقتد بأضعفهم، واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا».

فعن عثمان بن أبي العاص، قال: يا رسول الله اجعلني إمام قومي، قال: أنت إمامهم واقتد بأضعفهم واتخذ مؤذنا لا يأخذ على آذانه أجرا [(٣)].

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٣٣

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٣٦

(٣) الصحيح المسند، الوادعي: ٩٢٨

وفيه أن يكون مقياس طول الصلاة أو قصرها موقوفا على أضعف المصلين! وهذه بحق رحمة ديننا، وهذه رأفة إسلامنا، وهذه واقعيته، وهذه إيجابيته معا، وحين كان موائما بين كل حال ومقتضاه، وموافقا لكل آن وموازاة!

وفيه بيان اتخاذ مؤذن محتسب، ولكنه يجوز اتخاذ مؤذن بأجره، وكيما يكون موقوفا على هذه المهمة، بلا تقصير، ولعظم الصلاة أيضا، ولكنه إذا وجد المحتسب القائم على ذلك فهو أحرى؛ ولمقتضى نص الحديث، وحين كانت لديه مؤنة نفسه ومن يعول، أو أن يمنح من بيت المال ما يسد حاجته، وذلكم هو ديننا أيضا، وحين يكرم، ولما يمنح، وحين يعطي لكل ذي حق حقه.

ولكن التخفيف عن الناس في الصلاة، وحين كان تيسيرا مما أنف، وإلا أن العبد إذا صلى وحده، فليصل ما شاء طولا، ولأنه أعرف بحاله، وأدرى بأمره ومآله.

وهذا لقوله صلى الله عليه وسلم: من أم قوما فليخفف بهم، فإن فيهم الضعيف، والكبير، وذا الحاجة، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء.

فعن عثمان بن أبي العاص الثقفي أم قومك، ومن أم قوما فليخفف، فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإن فيهم ذا الحاجة، فإذا صلى أحدكم وحده فليصل كيف شاء[1].

ولكنه كان من شأن عثمان بن أبي العاص أنه شكى إلى رسول الله ﷺ وجعا يجده في جسده، وحين أمره ﷺ بالرقية، عملا مشروعا؛ ولبركتها قدرا وشرعا، وحين كانت سببا ربانيا عظيما، وفضلا إلهيا كريما، ولما أوتيت أكلها، وعلى كل مسلم بر كريم.

---

(١) صحيح مسلم: ٤٦٨

وليس معارضة بين هذا، وحديث السبعين ألفا، ولما كان من شأنهم أنهم يدخلون الجنة، وبغير حساب، ولما كان أقل ما يمكن بينهما جمعا، هو ألا تعارض بين صدق توكل وأخذ بالسبب علاجا من داء، ولأنه صلى الله عليه وسلم قد أمر بالتداوي أيضا، وهو أيضا أمرأ الرخصة والعزيمة معا، وأنه الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، وكما يحب أن تؤتى عزائمه، ويبقى الأجر على ذلك عملا ربانيا صرفا وبحتا قدرا وشرعا أيضا.

هذا وإنما جاء النهي عن الرقية فيمن يعتقد أن الشفاء يكون في ذات الرقية أو ذات الأدوية، ولم يجعلوه لله عز وجل، وأنها أسباب للشفاء فقط.

وقيل أيضا: إن ما ورد في النهي عن الرقية ما كان بغير أسماء الله عز وجل وصفاته وغير ذلك.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قال: يدخل الجنة من أمتي زمرة هي سبعون ألفا، تضيء وجوههم إضاءة القمر. فقام عكاشة بن محصن الأسدي، يرفع نمرة عليه، قال: ادع الله لي -يا رسول الله- أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم. ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله: سبقك عكاشة [١].

وإذ ثبت أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد رُقِي ورَقَي وأقر بالرقية.

وأما عن كونه رُقِي: فعن عن أبي سعيد الخدري أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم قال: باسم الله أرقيك،

---

(١) صحيح البخاري: ٥٨١١

من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك باسم الله أرقيك[1].

وأما عن كونه رَقّي: فعن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتى مريضا -أو أتي به- قال: أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما[2].

وأما عن كونه أقر بالرقية: فعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه: كنا نرقي في الجاهلية فقلنا يا رسول الله، كيف ترى في ذلك فقال: اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك[3].

وندب وحفز: فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: أرخص النبي صلى الله عليه وسلم في رقية الحية لبني عمرو. قال أبو الزبير: وسمعت جابر بن عبد الله يقول: لدغت رجلا منا عقرب، ونحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رجل: يا رسول الله، أرقي؟ قال: من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل[4].

وأمر بالرقية أيضا: فعن عثمان بن أبي العاص الثقفي، أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل باسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر[5].

---

(١) صحيح مسلم: ٢١٨٦
(٢) صحيح البخاري: ٥٦٧٥
(٣) صحيح مسلم: ٢٢٠٠
(٤) المرجع السابق: ٢١٩٩
(٥) المرجع السابق: ٢٢٠٢

وفي بعض الروايات ففعلت ذلك، فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم.

وهذا برهان عمل اللجأ إلى الله تعالى العلي الأعلى الرحمن الرحيم سبحانه، وأن بركة للدعاء، وأن فضلا منه تعالى على عبيده، وحين بارك في دعائهم، وجعله مستجابا، وعلى كل حال، فإن هذا شأن هذا الرب الكريم اللطيف الرحيم، وحين قال تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢]. وحين قال تعالى أيضا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وإذ إن رحمة الله لقريب من المحسنين، ولما كان من شأن عثمان بن أبى العاص هذا أنه وجد أثرا ايجابيا، ولما شفاه مولاه، ولما لم يعد يجد أثرا لشكواه.

ولكن هذا الخبر يدلنا أيضا على جواز إنباء من يحب أحدنا، ومما يجد، ولعله أن يجد عنده دواء، ولقد علمنا سننا حسنا، وهديا رشدا.

ولكن عثمان بن أبي العاص هذا كان مباركا، وحين أوقفنا على هكذا فقه جديد، وعلم سديد، وكيف أمكن مواجهة وساوس إبليس الشيطان الرجيم، ومما يعرض للعبد من صلاته، وأن هذا الخنزب وحين يعرض لأحدنا في الصلاة، وإنما يتفل عن يساره، ويستعيذ بالله تعالى، وليعيذنه الله.

وقال عثمان بن أبى العاص: لما استعملني رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطائف جعل يعرض لي شيئا في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي فلما رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن العاص قلت نعم يا رسول الله قال ما جاء بك قلت يا رسول الله عرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي قال ذاك

شيطان ادنه فدنوت منه فجلست على صدور قدمي قال فضرب صدري بيده وتفل في فمي وقال اخرج عدو الله ففعل ذلك ثلاث مرات ثم قال الحق بعملك.[1].

وأما عن أبي العلاء البياضي: أن عثمان بن أبي العاص، **أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثا قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني**[2].

والله لأضحكنكم من ثقيف!

وإنما جاء هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد ليدك عروش الكفر، وليحطم أصنامه، وليكسر أنصابه، ويهدم أزلامه، وما أشبه الليلة بالبارحة! وحين راحت قريش إلى عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تشكوه، ولأنه كان ومن قولهم يسبّ آلهتنا، ويعيب دينهم، ويسفه أحلامهم، ويضلّل آباءهم.

وها هو التاريخ يعيد نفسه، وإذ نحن الآن بين يدي عمل مشرق من أعمال أولاء الأصحاب الغر الميامين الأمجاد، وحين ساروا على الدرب، ولم يغيروا منه من شيء، وحين أرسل نبينا وفدا وبإمارة خالد بن الوليد رضي الله تعالى وليهدموا الطاغية الرَّبَّة اللات، آلهة ثقيف.

وأعالجه في ثلاث عشرة مسألة هي:

---

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٦/١٠٠١

(٢) صحيح مسلم: ٢٢٠٣

المسألة الأولى: حراسة الدين وعمارة الدنيا من أعمال الأمير الأمين

وهذا قول المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه، يوم ذهب صحبة أبي سفيان بن حرب؛ لهدم الطاغية الرَّبَّةِ اللات، والتي كانت تعبدها ثقيف من دون الله تعالى. ويوم أن كان ذلك بأمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبرهان أن هذه من أعمال الأمير، وأن ذلك حق الرحمن، وواجب أولياء الديان، ولأنه تعالى هو الذي يجازي العباد على أعمالهم، وحيثما كان الناس على أمر ربهم قائمين، فثمت كان أجر ربهم؛ وجزاء على أعمالهم.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه أنه: يحشر الله العباد أو قال يحشر الله الناس قال وأومى بيده إلى الشام عراة غرلا بهما قال قلت ما بهما قال ليس معهم شيء فينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطالبه بمظلمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطالبه بمظلمة قالوا وكيف وإنا نأتي عراة غرلا بهما قال بالحسنات والسيئات[١].

المسألة الثانية: صِدِّيقُ حقٍ ورِدُّ صِدْقٍ

وهذا فعل المغيرة بن شعبة، ويوم أن وقف أبو سفيان بن حرب حارسا له، ومؤيدا، ومعضدا، ونصيرا، ومرافقا، ولما كان وكمثل أبي بكر الصديق، ذلكم الشيخ الوفي الأبي، وحين لم يترك نبيه ونبينا محمدا صلى الله عليه وسلم يوما، ولما كان ذا الصديق وبكأنه أمامنا، ومن صدقه نلمحه، ومن بره نبصره، وحين كان ينظر طريقه يوم الهجرة، ومن يمنة، ومن يسرة، ومن أمامه، ومن خلفه، صلى الله عليه وسلم! وإذ

(١) تخريج كتاب السنة، الألباني: ٥١٤. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

كان هذا أبو سفيان بن حرب أيضا بمثابة هارون لنبي الله تعالى موسى عليه السلام، وحين قال تعالى ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه:٢٩-٣٥]. وهكذا فعل الحواريين، وكذلكم فعل الأوفياء والصادقين والباذلين والمخلصين.

وهو تمرس على أصول الديانة، ولما كان من شأن أبي سفيان عجبا، ولما رأيناه يوم حنين أيضا!

وهكذا نفيد أهمية وزير الصدق، ورفيق العون، وصاحب الردء، وشد الأزر، وفي كل أمرنا، وهذا سنن وهدي نبينا، ولأنه كان من أمره صلى الله عليه وسلم وتوجيهه.

ولكن قول المغيرة هذا كان سخرية من حجر يعبده الناس، وإذ كانت الجهالة قد أعمت بصائرهم، وكما كانت قد أعمت أبصارهم من قبل، وحين صاروا ليسوا يميزون بين ليل من نهار، ولا يفرقون بين شر وخير، وجزاء إعراض قلوبهم، وبكم ألسنتهم، وصم آذانهم، وعمى أبصارهم، وكما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. والله المستعان.

ولكن قول المغيرة هذا ذو دلالة، وإعجاز، وتحد، وتوفيق، وإلهام، وحين أراد أن يبين لهم سفه عقول تعبد غير الباري، ولما بين لهم، وكيف أنها حجارة لا تدفع عن نفسها، وحتى يمكنها أن تدفع عن غيرها ضرا. أو أن تجلب لنفسها نفعا، وحتى يتسنى لها أن تمنح منه ما سواها!

المسألة الثالثة: مرونة الاتصال وأثرها في القرار الإداري

وهذا تبرير لفعله، وقبل تنفيذه، عملا إداريا ممتازا، وحين يقدم الموظف تبريرا لفعله، وكيما يمتص بوادر اعتراض، أو مواجهة، أو مجابهة محتملة! ولأن جانبا عظيما هو قناعة متبادلة بين المرسل والمستقبل؛ لأداء العمل الإداري على أزكى عمل، وأقوم نفاذ، وأسمى تنفيذ، وأوجه صورة أيضا.

المسألة الرابعة: رقابة المشروعية والملاءمة في النظام الإداري الإسلامي

والقرار الإداري الصائب، هو ذلكم القرار الذي يستصحب بين جنباته أمرين، وحين كان منسجما مع ركيزتين اثنتين هما:

الجانب الأول: المشروعية: وحين كان مستندا إلى دليل قوي، لا وإنه من جانب الجهة الأعلى في الهرم الإداري وحسب، وإنما ولأنه قد اكتسب شرعيته مما يدين الناس، وإذ كان معروفا معهودا مثله، وليس بدعا من أمرهم أيضا.

الجانب الثاني: الملاءمــة: وحين كان القرار الإداري متكئا على سلم المواءمة بين الظروف المواتية، والأحوال ووقائع الحال الملازمة.

وقرار إداري ليس مبتناه على ذينك الجانبين، يعتبر في حكم الإلغاء، وإذ يحمل عوامل صده ورده معا؛ ولأنه ولهذين العوارين الذين أصاباه، ولأنه ولهذين البوارين الذين آلماه، وربما أفضى إلى فوضى، وبينما كان من أولى خصائصه علاج موقف، وضبط خلل، واجتهما الجهة الإدارية في منشأتها.

وهذا جانب مضيء في تاريخ هذا الدين، وحين أخذ الناس لا من شدة، أو ألزمهم من عنت، وإنما ليثبت أقدامهم على الطريق، فيرون بأمهات عيونهم ما ضرت

الطاغية الرَّبَّة اللات أحدا من شيء، وما نفعت الطاغية الرَّبَّة اللات أحدا من شيء أيضا.

المسألة الخامسة: بين طُرْفَةِ وليٍّ وتَسْفِيهِ صَنَمٍ

ولكن قول المغيرة السالف هذا كان محض طرفة، وكما أنه معلن غاية استهزاء بالكفر، وعيب الآلهة المدعاة، وتسفيه أحلام عابديها، وليروا بأنفسهم ما الله تعالى بفاعل بها، وحين تنقض حجرا حجرا، وما هي حجارة، وحسبها ذلك!

وهذه طرفةُ داعيةٍ، وحين يمتثل طرفته، وممزوجة بصدق الحديث، وممهورة بعذب الكلام، وعزم الدعوة الصادقة، وجد المواجهة، والقائمة على تسفيه ما هكذا يعبد من دونه تعالى؛ ولتوهينه في أعين عابديها وقلوبهم معا، ومنه لينهار هذا الزخم السراب لهذه الآلهة المدعاة. وكما أنه حامل لواء العزة والكرامة والإباء أيضا، ولهكذا داعية حق مخلص متجرد حليم أواه منيب.

ولكن المغيرة، وحين ضربها ضربة، ورجع القهقري، امتثالا لوضع قد رآه حسنا، وحين أصيب الناس بالذعر أول مرة، ولما يرجع ويقذفها حجرا حجرا، ومن أمامهم، وليروا من أنفسهم كيف كانوا هم الجاهلين الجاهليين، ولما عكفوا على هكذا حجر، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، وحتى يمكن أن يصدقوا أنه يمكنه دفع عن غيره من ضر، أو جلب لسواه من نفع، وما هو ينقض حجرا حجرا، وليسجل التاريخ أن قوما كانت هذه عقائدهم، وإذ يحسبون أنهم كانوا على شيء، وإذ ليسوا هم وما يعبدون من شيء! ألا إنهم هم الكاذبون، وليسجل التاريخ أيضا أن هكذا جاء هذا الدين؛ مخلصا للناس من رق عبودية مقيتة، وحين كانت هكذا تتلقف الناس ناهشة لعقولهم، ما صة لدمائهم، وسالبة لكرامتهم، ودكا لهيبتهم، وحين كانوا يعبدون حجرا، ليس ينفع شيئا،

وكما أنه لايضر شيئا أيضا! وهذا الذي أهلهم أن يكونوا عبادا للعباد أيضا، ولما كانت هذه عقولهم مغيبة، وحين كانت أفئدتهم مشمعة بشمع لا أبيض بل أسود! ليزداد هول التخييم، وليعم رين الاستعباد لغير رب الأرباب، وخالق العباد- سبحانه-!

المسألة السادسة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم:٤].

ولكن المغيرة هذا هو أبو عبد الله المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي!

ويكأننا أمام سفير للقوم، ومن لسان القوم، وقد مر بنا في هذه السيرة النبوية المباركة كثير من هذا، وحين كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يكلف سفيرا للقوم، ومن جنس القوم! وهذا براعة إدارية، وهذه حكمة نبوية؛ ولأنه ولا شك كان أيسر وأقرب إلى التفاهم، وأدنى للخروج بحلول إيجابية، وهو الأصل الذي من أجله كان بعث الرسل، وإيفاد السفراء.

وأن نعم، وإذ لسنا حديثي عهد بغزوة بني قريظة، وحين شرفت النفس إيناسا بها في العام الخامس من هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين حكم فيهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ابنا من أبنائهم، هو هذا سعد بن معاذ رضي الله تعالى، وحين قال لهم: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذاك إلى سعد بن معاذ [(١)]. وحتى به اطمأنوا، ومن قوله استكانوا.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٧٢٠

ونحن قريبو عهد، وما زال حبره لم يجف بعد، وحين جعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مالك بن عوف النصري أميرا على قومه ثقيف أيضا، ولما جاء مسلما.

ونحن أيضا قريبو عهد بهذا الصحابي عثمان بن أبي العاص، وحين طلب أن يكون أميرا على قومه.

فعن عثمان بن أبي العاص، قال: يا رسول الله اجعلني إمام قومي، قال: أنت إمامهم واقتد بأضعفهم واتخذ مؤذنا لا يأخذ على آذانه أجرا [(١)].

ومنه قول تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم:٤].

المسألة السابعة: نتائج تحطيم الطاغية الرَّبَّةِ اللات

ولكن الناس قد آمنوا، ومن بعد ما رأوا الآيات، وهذه إنما تشهد لهم، ومن بعد فعل الآيات أيضا، ولأنها هذه القوة الدافعة للقلوب، وحين تهزها هزا، ولما أضحت ترجها رجا؛ لتخرج أعمال الشياطين، ووساوس إبليس اللعين، ولأن قناعة قد تمخض عنها إلف القرار الإداري النبوي مشروعيةً، ومدى انسجامه مع هذه المشروعية، وحين كان ملائما أيضا، ومن بعد تمهيد، ومن إثر فعل هكذا، كان عملا حسنا، قام بهما هذا المغيرة بن شعبة، رضي الله تعالى عنه، عملا إداريا ممتازا، نسجله له، وقدوة عظمى، وسيرة فضلى.

وهكذا فلسنا نسرد تاريخا، وبقدر ما نتفهم من وراء الحدث دلالات وعبرا وعظات نافعات أيضا.

---

(١) الصحيح المسند، الوادعي: ٩٢٨. خلاصة حكم المحدث: صحيح على شرط مسلم.

المسألة الثامنة: إنما الرَّبَّةُ حجرا!

ويكأننا لسنا ننسى أيضا، ويوم أن عزم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على هدم الطاغية الرَّبَّةِ اللات، وحين خافوا، وأعلنوا أنها ستقتل أهلها! وليحضر الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى وزئيره معه، وزاجرا القوم، ولسفه كان قد عشش في رؤوسهم، وقر واستقر في أدمغتهم، وبل قد ران على قلوبهم، ورين كان قد اكتست به أفئدتهم أيضا، وحين قال لهم الفاروق عمر: ويحك يا بن عبد ياليل ما أجهلك، إنما الرَّبَّةُ حجرا! وحين قالوا له: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب! ثم قالوا يا رسول الله: تول أنت هدمها، أما نحن فإنا لن نهدمها أبدا [1].

ولكننا لسنا ننسى يوما كان يعبد فيه هذا الفاروق ربا غير خالقه، وإذ كان يتنسك لدرجة هي مساوية لفعل ثقيف هذا، ولكنها هذه القلوب، وحين تتشوف الهدى فتتبعه، ولكنها هذه الأبصار، وحين تستبصر الرشد، فتسلكه سبيله، ولا تضله طريقه، ومن ثم ها هي تعلو من صلاح، وإذ ها هي تسمق من فلاح.

المسألة التاسعة: إفطار الصائم بعد تحقق الغروب

ولكنهم الناس أيضا، وحين أسلموا فصاموا بقية رمضان مع نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ رأوا وكيف كان صلى الله تعالي عليه وآله وسلم يعجل فطوره، وقبل أن يغيب قرص الشمس كله، وعلى حد قولهم: وإنا لنقول: ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد. وإذ كان من مثله السحور تأخيرا أيضا، وعلى حد قولهم أيضا: إنا لنرى الفجر قد طلع! [2].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٤٠

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ /٣٩

هذا، وإن قولهم هذا محمول على الكناية عن التعجيل، وهذا أظهر، والله أعلم، أو لعله سهوا، أو لعله لعدم الضبط كثيرا؛ وها هم حديثو عهد بهذا الدين الحنيف الخالد، وإلا فإن الإفطار ليوم رمضان، أو غير رمضان، وإنما يكون بعد تحقق الغروب.

فعن عبد الله بن أبي أوفى: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر وهو صائم، فلما غربت الشمس قال لبعض القوم: يا فلان، قم فاجدح لنا، فقال: يا رسول الله، لو أمسيت، قال: انزل فاجدح لنا، قال: يا رسول الله، فلو أمسيت، قال: انزل فاجدح لنا، قال: إن عليك نهارا، قال: انزل فاجدح لنا، فنزل فجدح لهم، فشرب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: إذا رأيتم الليل قد أقبل من هاهنا، فقد أفطر الصائم.[1].

وشاهده قوله: فلما غربت الشمس. برهان الإفطار عن صيام بعد تحقق غروب الشمس.

وعن عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: إذا أقبل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم.[2].

وقال الإمام البخاري رحمه الله: باب متي يحل فطر الصائم، وأفطر أبو سعيد الخدري حين غاب قرص الشمس.[3].

---

(١) صحيح البخاري: ١٩٥٥
(٢) المرجع السابق: ١٩٥٤
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٤٦

وإلا أن هذا مصداق لحديث رواه سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر [1].

المسألة العاشرة: البيئة الملائمة: المفاوضات من أعمال المسجد

وغير أننا لا ننسى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان قد استقبل وفد ثقيف في المسجد؛ ليكون أهدأ لهم، وآمن، وأوقع أثرا في قلوبهم، ولأن المسجد من شأنه هذه المهابة، والسكينة، والطمأنينة، والخشوع، والخضوع، والإخبات، والقنوت؛ وكفى أنها هذه البيوت المضافة إلى الله تعالى.

ولعل هذا مما يؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم: من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه. غير أن حديث أبي أسامة ليس فيه ذكر التيسير على المعسر. [2].

ويكأننا نلمح فقه داعية الحق، أن يختار المكان الهادئ المظلل الآمن، ولا سيما بيوت الله الخير، الخيرة، النافعة، الهادئة، وليكون قد أظل الناس من ظلاله الوارفة، فيستجمعون من قوى الخير ودوافعه ما يحملهم عن رضا، وليس يأطرهم عن سخط!

---

(١) المرجع السابق: ١٩٥٧

(٢) صحيح مسلم: ٢٦٩٩

المسألة الحادية عشرة: تأهيل متوازن لإعادة الثقة في المدعو

وإلا أننا لسنا ننسى أيضا حرصه صلى الله عليه وسلم على تعليم الناس أمور دينهم، وقبل انصرافهم إلى قومهم، فليسوا يعودون وإلا بوجوه غير التي جاؤوا بها.

ولأن هذا الدين ذو جباه عالية، صافية، منيرة، مضيئة، وقورة، مهابة، سفرة، كرام، بررة، ولعل هذا أيضا من فأل تراه قادما، وعن قريب تلقاه، منيرا مضيئا، آخذا باللب والفؤاد معا، ومن قوله تعالى الله الرحمن الرحيم سبحانه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨و٣٩].

ولأن رجوعهم بذات وجوههم التي جاؤوا بها، أو كان حمالا لغبش بين إيمان تلحفوه، ومما كانوا منه من شين، وقد أنكروه، ولربما كان داعية فتنتهم، ولما لم يستقر الإيمان من قلوبهم، ولما لم يعمل يقينهم فيهم من عمله، ويكأنه ليس بعد قد آتى أكله، ومن إزالة للشبهات، ومن دفع للشهوات.

ولكن هذا هدي للدعاة العاملين، وأن يحرصوا على بلاغ أمر ربهم، وتذكير إخوانهم، وبحكمة نبيهم، ومن سنن رسولهم صلى الله عليه وسلم.

المسألة الثانية عشرة: الحزب القرآني زاد على الطريق

ولكنه صلى الله عليه وسلم كانوا قد استأخروه عنهم يوما، وحين سألوه أخبرهم أن حزبه القرآني قد كان سببا في انشغاله عنهم، وهذا بيان نبوي، وهذا شأنه القرآني، وحين كان له ورده صلى الله عليه وسلم من القرآن الحكيم يوميا، وسننا لنا متبعا، وهديا حسنا.

ولكن قراءة هذا الذكر الحميد، ولكن تلاوة هذا الكتاب المجيد، وإنما له عطاؤه، وإمداده، وحين كان زادا لأمة راشدة، وحين كان هذا الكتاب حاديها، ومنهجها، وسبيلها، وإمامها، ومُرَبِّيها ومُرْبِيها.

ولكن قرآنا يكتب له قارئه، وبكل حرف عشر حسنات، لقمن أن يتلوه عبد منيب أبدا، وإذ ليس يفارقه أبدا أيضا؛ ولأنه تعالى قد أثنى وأطرى قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولما كان من صفتهم، ونعتهم، ومناقبهم أن ﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩]. وقال تعالى أيضا ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١١٣-١١٥].

ولكنه سبق إداري، وحين برر ما استأخروه، وبما يزيل لبسا عند المستقبل، فيظل وجهه مشرقا راضيا، ومن فعل رئيسه في العمل!

وسياسة التبرير الواقعي مستأهلة مأمونة، وتكهنات التبرير الخيالي الخالي المعرى عن صدق وبرهان ودليل مهملة مخلاة متروكة.

المسألة الثالثة عشرة: حزب أم جزء، علاقة تآلف وانسجام

ولكن الناس قد قالوا قولهم في المقصود بالجزء، وعما إذا كان قد ورد الحزب من محله. وإذ ليس هذا يخرجنا عن تعلق بالكتاب قراءة، وتلاوة، وتدبرا، ولأنه كلية علمنا، وجامعة قلوبنا، وأفئدتنا، وطهارة أفواهنا، وصدق ألسنتنا، ومنه كان أمرنا، ونهينا، واعتبارنا، وقيمتنا، وسبيلنا، ومنهجنا، وعملنا، وتركنا، وإقبالنا، وإبقاؤنا،

وذكرنا، وشرفنا، وهادينا، وحادينا، وملهمنا، ومَعِيننا، ومُعِيننا، ورُشْدنا، ورَشَدنا، وإرشادنا، وصلاحنا، وفلاحنا، ونجاحنا، وسائر أمرنا؛ ولأن هذا هو مطلق التصديق، والإخبات، والمتابعة، والرضا بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أبوداود رحمه الله تعالى عن عثمان بن عبد الله بن أوس، عن جده - قال عبد الله بن سعيد في حديثه: أوس بن حذيفة - قال: قدمنا على رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف قال فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة وأنزل رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم بني مالك في قبة له قال مسدد وكان في الوفد الذين قدموا على رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم من ثقيف قال كان كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد - قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام وأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه من قريش ثم يقول لا سواء كنا مستضعفين مستذلين قال مسدد بمكة فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه فقلنا لقد أبطأت عنا الليلة قال إنه طرأ علي جزئي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه قال أوس سألت أصحاب رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم كيف يحزبون القرآن قالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل وحده [١].

---

(١) سنن أبي داود: ١٣٩٣. خلاصة حكم المحدث: سكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح.

إن صيدَ وَجٍّ وعِضَاهُهُ حرم محرم لله

تنازع الناس في هذا الحديث.

فقد ضعفه كثير من أهل الصناعة الحديثية. وأشار الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى إلى ذلك، فقال: وقد ضعف أحمد والبخاري وغيرهما هذا الحديث، وصححه الشافعي وقال بمقتضاه [(١)].

و(وجّ): واد بالطائف، وقيل هو الطائف، والعضاه: كل شجر له شوك، واحده عضة، كشفة وشفاه [(٢)].

وصيد وج وشجره مباح؛ وهو واد بالطائف. وقال أصحاب الشافعي: هو محرم؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «صيد وج وعضاهها محرم». رواه أحمد، في المسند. ولنا، أن الأصل الإباحة، والحديث ضعيف، ضعفه أحمد. ذكره أبو بكر الخلال، في كتاب (العلل)[(٣)].

ولم يتنازع المسلمون في حرم ثالث؛ إلا في " وج "، وهو واد بالطائف، وهو عند بعضهم حرم، وعند الجمهور ليس بحرم [(٤)].

وعن محمد بن عبد الله بن شيبان عن أبيه عن عروة بن الزبير عن الزبير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن صيد وج وعضاهه حرم محرم لله عز وجل. رواه أحمد وأبو داود والبخاري في تاريخه، ولفظه: إن صيد وج حرام قال البخاري: ولا يتابع عليه [(٥)].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٤٢

(٢) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ٣ / ٢٤٣

(٣) المغني، ابن قدامة :٣/ ٣٢٦، رقم: ٢٤٢٣

(٤) الفتاوى، ابن تيمية:٢٦/ ١١٨

(٥) نيل الأوطار، الشوكاني: ٤٢٦/٧

ومنه فلا يَحرُم صيده ولا شجره، وإنما يبقى التحريم لمكة والمدينة وحسب.

حرمة مكة: فعن عبد الله بن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم افتتح مكة: لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرم الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها. قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر؛ فإنه لقينهم ولبيوتهم، قال: قال: إلا الإذخر.[1]

حرمة المدينة: عن أبي سعيد مولى المهري: أنه أصابهم بالمدينة جهد وشدة، وأنه أتى أبا سعيد الخدري، فقال له: إني كثير العيال، وقد أصابتنا شدة، فأردت أن أنقل عيالي إلى بعض الريف، فقال أبو سعيد: لا تفعل، الزم المدينة؛ فإنا خرجنا مع نبي الله صلى الله عليه وسلم -أظن أنه قال:- حتى قدمنا عسفان، فأقام بها ليالي، فقال الناس: والله ما نحن هاهنا في شيء، وإن عيالنا لخلوف، ما نأمن عليهم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما هذا الذي بلغني من حديثكم؟! -ما أدري كيف قال: والذي أحلف به، أو والذي نفسي بيده- لقد هممت -أو إن شئتم، لا أدري أيتهما قال- لآمرن بناقتي ترحل، ثم لا أحل لها عقدة حتى أقدم المدينة، وقال: اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حرما، وإني حرمت المدينة حراما ما بين مأزميها، أن لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا تخبط فيها شجرة إلا لعلف، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين، والذي نفسي بيده، ما

---

(١) صحيح البخاري: ١٨٣٤

من المدينة شعب ولا نقب، إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا إليها، ثم قال للناس: ارتحلوا، فارتحلنا، فأقبلنا إلى المدينة، فوالذي نحلف به -أو يحلف به - ما وضعنا رحالنا حين دخلنا المدينة حتى أغار علينا بنو عبد الله بن غطفان، وما يهيجهم قبل ذلك شيء[١].

﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله﴾ [التوبة: ٨٤].

هذا نهي القرآن المجيد الحكيم الذكر المبين لرسول الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ألا يصل على أحد كان منافقا ومعلوم النفاق. والنفاق هنا هو النفاق الاعتقادي، والذي يخرج صاحبه عن الملة؛ ولأنه يعني إبطان الكفر وإظهار الإسلام. وهذا النوع هو الذي نزل بشأنه قول الله تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

وأما هذا النوع من النفاق العملي، وهو ذلك الذي ليس يخرج صاحبه من الملة، بل يظل مسلما، ولئن كان فيه شعبة من النفاق العملي، والذي منه قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: **آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**.[٢]

ونزل هذا النهي عن الصلاة على من مات منافقا، ومن بعد استغفاره صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبي بن سلول، وحين مات.

(١) صحيح مسلم: ١٣٧٤
(٢) صحيح البخاري: ٣٣

ونحن بحاجة إلى التذكير حينا، ومن بعد حين آخر، بعظمة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولما ينسى تاريخا مرا لهذا عبد الله بن أبي سلول، وإذ كانت مواقفه حادة، شاذة، صادة عن كل سبيل هدى، ولما كان قد رأى الآيات ترى، ومن يديه، ومن خلفه، ولكنك وماذا أنت قائل، وإلا أن تقف مشدوها، وأمام صنف كهذا، ولما رأى الآيات؟! ولكنك لست تذهل كثيرا، وحين تقرأ ما قاله ربك في كتابه العزيز ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم أيضا كان مدرسة في الحلم، وكان جامعة في الصلة، وكان ميدانا رحبا للصفح والعفو، وحين زار هذا ابن سلول في مرضه الأخير، ولما يذكره بالله تعالى مولاه الحق المبين، وحين قال له وهو يجود بنفسه: قد نهيتك عن حب يهود!

وليرد بصلف وهو على فراش موته على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبقوله: قد أبغضهم أسعد بن زرارة فما نفعه؟!

وهذا على كل حال هو صلف ابن سلول وهو على فراش الموت.

وهذا الذي يذكرنا بموقف مماثل لهذا أبي جهل، وحين قتل يوم بدر، وهو يقول لابن مسعود رضي الله تعالى عنه: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعبا. (١)

وهو الذي يذكرنا أيضا بقول دريد بن الصمة، وحين تكابر، وليس بكبير، بل صويغرا! ويوم تعاظم، وليس بعظيم، بل حويقرا! ويوم قتله ربيعة بن رفيع السلمي، وكان شيخا كبيرا، وكان أولى له توبة وأوبة ورجوع؛ ليجد ربا غفورا رحيما سبحانه:

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ٣٧/٢

وحين فاجأه ربيعة بن رفيع السلمي، ثم ضربه بسيفه، فلم يغن شيئا، فقال: بئس ما سلحتك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل، وكان الرحل في الشجار، ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ، فإني كنت كذلك أضرب الرجال [١].

ولكن النفس، وحين تكون بين يدي ربها في لحظات فراقها الدنيا، وإنما تكون من أضعف حال تراه عليها، كما رأت هي نفسها عليها أيضا، وحين سأل هذا ابن سلول رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعا:

١- أن يحضر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم غسله!

٢- أن يعطيه قميصه الذي يلي جلده ليكفن فيه!

٣- أن يصلِّيَ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عليه صلاة الجنازة!

٤- أن يستغفر له نبينا محمد صلى الله عليه وسلم!

وهذه طلبات لا شك جريئة! وإذ كان هذا أين من موجبات النجاة، ومن تصديق للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ونصرة له، لا أن يكذبه، ويخذله ويسلمه، وهكذا في تاريخ مليئة صفحاته من خزيه، وإذ تراه الآن ضعيفا طريحا، ويتمنى على هذا النبي كل ذلك؟!

وإنما كان نفاقه عزيزا مثله، ونادرا نظيره، ومن عداوة لهذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، ولما كان عليه أن ينصره، ولا سيما أن الناس يوم تبوك هذا قد راحوا هم بأنفسهم إلى هذا النبي مصالحين، ولما رأوا من قوة الإسلام وزحفه وفتحه المنير! ولكن هذا بن سلول ولما يجد تاريخا يحفر في ذاكرة التاريخ وإلا ألا ينصره، بل يخذله،

---

(١) كتاب سيرة ابن هشام:٢/٥٣

في كل موطن دعاه فيه الإسلام لنصرة هذا النبي، وإذ ها نحن حديثو عهد بيوم تبوك، يوم العسرة، ولما انقلب على عقبيه مدبرا، ومعه ثلاثون ألفا، وعلى ما قيل، وفي يوم ساعة العسرة، وعلى تسمية الله تعالى مولانا الحق المبين لها؟! وهو ذلك اليوم الذي كان فيه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأشد ما يكون من نصرة ولما كانت عسرة! ولما كانت شدة، من ماء وظهر وزاد وحرا! وإذا لم يكن هكذا معه في ساعة كهذه، وإذ ما هي الساعة التي تطمع نفس في استشرافها، وهي إذ تعلم أن مفترسا ليس يغيب عنه طبعه شيئا؟!

وإلا أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإذ كان رؤوفا غاية رأفة تعهد عن امريء، ولما كان رحيما، ومن رحمة يعرف بها بشر، فعل ما سأله إياه هذا ابن سلول! وحين تقدم للصلاة عليه، ويكأننا نرى قسمات الفاروق عمر بادية عجبا! وحين قام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك الله عنه؟!

وهذا هو جواب هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، ولما كان رؤوفا رحيما، ومرة أخرى، بل ومرات عديدات، بل لا تقبل حصرا، وتأبى عدا! وحين قال: إن ربي خيرني فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وسأزيد على السبعين!

ولتزداد نبرة تعجب عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه قائلا: إنه منافق أتصلي عليه؟!

ومن ثم لينزل قول رباني فصل في المسألة، وحين قال الله تعالى: **﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله﴾** [التوبة: ٨٤].

ويكأننا نشفق، وعلى هذا ابن سلول، وحين كان من بين يديه الهدى والتقى والعفاف والغنى، وإذ ها هو يستكبر، وإذ ها هو يتنفر، وإذ ها هو بين يدي هذا الرب، وإذ كان غفورا لمن تاب، وأن نعم، وإلا أنه شديد العقاب لمن أدبر واستكبر، ولما لم تواته نفسه الأمارة أن يتوب، ولو حتى وحين بلغت الحلقوم! ولما كان ربنا المتعال سبحانه ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر:٢٣].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه: لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما خيرني الله فقال: {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة} [التوبة: ٨٠]، وسأزيده على السبعين، قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: **{ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره}** [التوبة: ٨٤] [1]

أمير أو مأمور؟

هذا أدب جم، وخلق حسن نبيل، تحلى به هذا الصديق أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وهو تواضع جميل، ويكأنه منبئ عن هكذا معدن جليل أيضا، ولا سيما عند النظر إلى سني عمر هذا الشيخ الشميل، أبي بكر! الصديق! رضي الله تعالى عنه، وإذ كان شيخا طاعنا، ولكنها الطاعة لهذا النبي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم،

(١) صحيح البخاري: ٤٦٧٠

وبين عمر هذا الشاب الشميل أيضا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وحين النظر إلى هكذا جيل، ومن هذه الحيثية، فلربما دارت بنا البوصلة ثلاث مائة وستين درجة كاملة! اندهاشا! بل ليس كذلك، بل سكينة قلب، وطمأنينة لب، وأن هكذا من تربى على مائدة هذا الكتاب الحكيم، الذكر المبين، القرآن العظيم، بذلا وفناء في هذا الحق الذي كانوا به يعدلون، ومنه كان زادهم لمعادهم وآخرتهم معا، حتى كانوا بحق ذلك الجيل الذي يستوي فيه أن يكون أحدهم مأمورا، ولو كان شيخا طاعنا، أو أميرا ولو كان شابا راشدا!!

وهذا المعني عظيم القدر، كريم الشأن، وقد مر بنا منه كثير إبان تناولنا مثله، ومن هذه السيرة النبوية المباركة، وبكأنها جواهر ذُخَرُ، وبكأنها قناديل زُهَرُ!

وإذ ها هو حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحين أثنى على عبيد كان من شانه التجرد، ولما كان من فعله التفرد، وحينة كان لله تعالى فيه مخلصا.

وبكأنه عبد، ومن ثم فليس مهما أن يكون في المقدمة أو في الساقة، وحين قال صلى الله عليه وسلم: تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع[١].

وهو إذعان لهذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أرسل أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ليحج بالناس العام التاسع للهجرة. وهذا

(١) صحيح البخاري: ٢٨٨٧

برهان آخر على إعداد القادة، ولتولي مهامهم يوم أن تحتاج إليهم الأمة، وكيما يكونوا جنود ميدانهم، وفرسان جبهتهم، يوم لزمت جنديتهم، أو قيادتهم، أو غير ذلك من مصالح الأمة الإسلامية عامة.

ولكنني لست أسارع حدثا! ولكنني لست أسابق زمنا! بل أريد أن أستبطأه! وها أنذا وقد صحبت هذا النبي العربي الأمي الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم زمنا، كان في عمر الزمان اثنين وعشرين عاما، وإلى لحظة خطي هذا، ويكأنها كانت قرونا طويلة مديدة، ويكأنها كانت أزمنة عديدة، وإذ كان منها هذا الزخم المتطاول معنى، وإذ كان منها هذا العطاء المتنامي مغزى، وها أنا الآن لا أجرؤ، ولست أطيق، استحضار سورة العصر! ومن أمام مائدة تربيت عليها اثنين وعشرين عاما كاملة. لحظة! بلحظة! مع هذا النبي، الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ يمكنني أن أقول: ولولا أنها سنة الله تعالى، وأن يكون بشرا لقلت: بل هذا ملك كريم! بل تسامق بشرا! بل ترفع منزلة، وتاجا، ووساما، وحين ترك لهذه البشرية هذا التاريخ المجيد، بل هذا الإرث المجد كله، وخلال ثلاثة وعشرين عاما، هي مدة نبوته، ورسالته، وعطائه، وتربيته، وبذله، وحبه، وولائه، وبرائه، ورحمته، ورأفته، وسلمه، وحربه، وقعوده، وقيامه، وعقوده، وحقوقه، وواجباته، وأوامره، ونواهيه، وضحكه، وبسمه، وغضبه، وحزنه، وترحه، وفرحه، وصلاحه، وفلاحه، ونجاحه، ونصره، ووعده، ووعيده، وجبره، ولطفه، وتجازوه، وغضه، وعدله، وتقواه، ونجواه، وسناه، وهداه، ودمعه، وحنانه، وعفوه، ولطفه، وحلمه، وإذ ولولا أنها سنة ربي، لتمنيت بقاءه أبد الدهر؛ ليكون معينا غدقا، وكما هو ولو استحضرت سورة العصر! من تربية، وليضحى وساما سامقا من خلق حميد، حسن، رشيد، ويكأني أستغفر الله من قولي هذا، ولأن كل شيء هالك إلا وجه ربي تعالى الرحمن الرحيم الملك العزيز الجبار القهار الغفار التواب الرحيم سبحانه.

وهو في حس لأولاء الرهط الكريم سواسية، وبين أن يكون أحدهم أميرا أو مأمور مأجورا، وهذا النظام المتسق، ولما كانت أطْرافه متناسبة ومتَنَاسقة بعضها بعضا، وهو ذاك الذي به ترتقي الأمم سلالم المجد، وبه ترتفع درجات العلا والسؤدد.

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، أيضا وإذ كان مطواعا لأمر ربه تعالى، وأنه على الفور لا التراخي، ولأن أوامر الله تعالى، وإذ كان من شأنها ذلكم الفور لا التراخي، وكما أنف، وهذه هي الطاعة وصدقها، وهذا هو الانقياد وبره، ولأن هذا الدين وإنما جاء بأصول الطاعة ومفرداتها.

ويكأنها مناسبة أيضا للعمل على هذا الوتر قليلا، وإذ ولما كان الله تعالى هو الخالق، ومنه فهو الآمر الناهي، وإذ كان من شأن ذلكم أن تكون أوامره تعالى فورية، لا تقبل تراخيا، ولأنه هذا التراخي هو الذي أقعد الهمم، وهو ذاك الذي أبطأ القمم. ولأن هذا التراخي وحين النظر إليه بعمق قليل، ولربما أدى بالمكلف إلى التحلل من عهدة امتثاله، ولربما راح به إلى غيره من إخلال أو إحلال!

ولما كان الأمر هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء [1].

وبه دل على استعلاء من أمر، ومنه برهن على تفرد من زجر، وبالتالي فحق ذلك أن يكون الفور مناسبا، وأن يكون التنجيز ملائما.

ولكن القدر الموسع مما ينبغي نظره، ومنحه قدره، ولما كان الوقت متسعا لمثله، وكمثل شعائر الحج، وكالرمي مثلا، ولو كانت مأمورا بها، وإلا أن زمنها موسع، ومنه لا تعارض بين الواجب الموسع، والواجب على الفور، وهذا يسر ديننا، ورفعه الحرج.

---

(١) الأصول في شرح المحصول، القرافي: ج٢/١٨٤

ولكن الأمر المستغرق للوقت، فليس من مجال للقول فيه لا تراخيا، ولا زمنا موسعا، ولأنه يحمل الاستغراق الزمني للأداء، ومن كمثل الصيام فإنه يجب فورا، ومن طلوع الشمس إلى غروب الشمس.

وهذه مسألة جديرة بالنظر والعناية، ومجالها ليس بسطه ههنا على كل حال.

ولكن الله تعالى أنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم سورة براءة، ومن بعد ذهاب أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إلى الحج نائبا عنه صلى الله عليه وسلم، وبرهان جواز النيابة في الحج أولا، وبرهان جواز إنابة الإمام غيره فيه أيضا، بل وفي غيره، وهذا الذي يسمونه التفويض في الصلاحيات كلها أو بعضها، ولما كانت أعمال القائد متزاحمة، ومنه كان هذا التفويض؛ توسعة عليه، وتعليما لنوابه، وتدريبا وتمرينا أيضا، وإنه وبناء على ذلك، فإذا جازت النيابة في الحج، وهو من أعظم أعمال هذا الدين الحنيف الخالد، ولما كان ركنا من أركانه، ومنه فجواز الإنابة فيما هو دونه أحرى، وأجدى، وأولى.

وأقول: ولمجرد نزول سورة براءة، وإذ أرسل نبينا بها إلى الناس يوم الحج الأكبر، وحين كان من قوله: لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي.

وهذا هو المنهج، وعلى ما يبدو، وقد رأيناه كثيرا في هذه السيرة النبوية المباركة، وحين يختار الرجل، ومن بين أهله وزيرا أو نائبا أو متحدثا عنهم أو إليهم، وقد أنف علاج هذه المسألة، وفي مواطنها، وإذ كان لها الأساس من القرآن الحكيم، وحين قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم:٤].

وإذ كان منها مسألة يوم أن حكَّم نبينا سعدا بن معاذ رضي الله تعالى عنه في قومه بني قريظة، ولما كان منها أيضا تكليف المغيرة بن شعبة الثقفي لأداء مهمة هدم الطاغية الربة اللات؛ وتطبيقا لعقد كان قد أبرم بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبين ثقيف، وحين أتوه معلنين ولاء الطاعة والانقياد، وإن شرطوا! وعلى بيانه في محله آنفا أيضا.

ولكن هذا التواضع المتبادل، وحين رأى أبو بكر عليا قادما، وليبادره سائلا مستخبرا: آمر أو مأمور؟

وليرد عليه عليٌّ رضي الله تعالى عنهما: بل مأمور.

وهذه أمور عظيمة ينتظم بها عقد الأمة، ويكون نظامها مستقرا، وحين يعرف كل فرد فيها حدوده وصلاحياته، فلا تتقابل ولا تتعارض ولا تتشابك، بل مؤتلفة منسجمة ومتضامة بعضها إلى بعض.

ولكن رسالة أبي بكر كانت واضحة، وحين أرسل إلى الحج، ليكون أمير الحج عامه هذا.

وهذه أمور غاية في الأهمية، وإذ يكون القرار الإداري محلا للعمل والتطبيق، ولما كان معلوما واضحا مزيلا للجهالة، وحين عرف أبو بكر أنه آمر، ولما أدرك عليٌّ أنه مأمور.

وهكذا كانت رسالة عليٍّ واضحة أيضا، ولما كان البلاغ للناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وأن من كان له عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن عهده إلى مدته، وأن من كان لا عهد له فعهده أربعة أشهر، وأن من

كان دونها فاختلفوا فيه: عما إذا كان يلحق بمن عهدها أربعة أشهر، وقياسا على من لاعهد له، ومن باب الأولى، أو أن عهده إلى مدته، وبنص الكتاب المجيد؟

ولكن هذا المنهج الجديد، وهو الذي يتواءم مع حركة هذا الدين الجديد، وإذ تم نوره، وبسطت أضواؤه، واستقر منهجه، وبقيت هذا العلائق التي كانت تجعل من الحج خلطة حق مع باطل، ومزيج غث وسمين، ومما ليس يقبل، ومن بعد قرار سورة براءة أولا في الحج، وبرهان ميلاد عهد جديد لا مجال فيه ولمثل ذلكم من خلط، ولمثل ذلكم من لبس ثانيا؛ ولأن المفاصلة بالحق دين، ولأن الاستقلال به أوجب.

لا يدخله أحد قارف الليلة أهله

هذا جزء من حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، ويوم ماتت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، زوجة مجهز جيش العسرة، عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وهكذا كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم قائدا لأمة، ولكنه كان أبا وزوجا حانيا، وحين ذرفت عيناه، وإذ حان وقت دفن ابنته، ومن أمامه، والبنات والأولاد لهم هذا الشأن العظيم في مشاعر والديهم وأحاسيسهم، وهذا شيء طبعي، وهو شأن جبلي، ولا اختيار لآحاد الناس فيه، وبالغا ما بلغ حده، وكأننا ما كان صبره، ويكأننا قد عشنا يوم وفاة ابنه إبراهيم، ومرت بنا هذه العبرات، ورأينا هذه الدموع الذارفة، وكما أنف في حينه، فإن هذه رحمة أودعها الله تعالى قلوب الوالدين، ولو كانا محتسبين ولدا، أو كانا محتسبين بنتا، وهذا الشأن يذكرنا ولا شك ببركة الأبناء، ويوم كانوا بارين محسنين، ولأن هذا هو الأصل والفطرة والواجب أيضا، وبه يزداد ألم فراقهم، ومنه تئن القلوب وأوتارها، وله تقشعر الأبدان وأجزاؤها وأبعاضها.

ولكن أبناء النبي كانوا به بارين، ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم، كان بهم محتفيا مسرورا، ولكن فراقه لأحدهم كان احتسابا على الله تعالى، ولما كانت وديعته تعالى، فاختارها ذلكم الرب الرحيم الخالق العظيم.

ولكن قوله عن المقارفة محتمل وجوها، ولست أريد أن أروح بعيدا، ومع وضوح النص، وإذ ليس في الأمر من شيء، ولما كان محتملا مباشرته لأهله يوم وفاتها، لاحتمال أنها كانت في حال صحة سمحت بذلك، ولأن عثمان بن عفان هذا ذو قلب رحيم، وهو تربية هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، وليس من شك في مراعاته للآداب والأخلاق والقيم والمروءات.

وثمة شيء ملاحظ، وإذ إنه كثيرا ما تطرأ على المريض مرض الموت صحوة، يحسب أهله ومجاوروه أنه عاد صحيحا، والواقع أنه شيء مشاهد كثيرا، ولعل هذا من هذا، ومنه فالتماس الأعذار ههنا واجب وحسنى، وتلمس المخرجات الطيبة حق لأولاء، ولكل مسلم ومسلمة أيضا، وخاصة وأننا نتحدث عن بيت النبوة، وهم أدرك وأوعى وأحرص على أحكام الملة، وصيانة أمور الشريعة، وخاصة وأنهم كانوا يعلمون أن التاريخ يسجل عنهم كل صغير، وكما قد سجل عليهم كل كبير، ولسوف يتناقلونه الناس أبد الدهر، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، سنة واقتداء حسنا.

وإن قيل وكيف ذلك؟ قيل: ويجاب عنه باحتمال أن يكون مرض المرأة طال واحتاج عثمان إلى الوقاع، ولم يظن عثمان أنها تموت تلك الليلة، وليس في الخبر ما يقتضي أنه واقع بعد موتها، بل ولا حين احتضارها [١].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: ج٤/١٩٧

ولكن حمل قوله صلى الله عليه وسلم السابق على أنه من مقارفة الذنب أبعد! ولأن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان سترا يحب الستر، وكان يعرف أن هذا مما يكون من حاصله فضح أحد من رعيته، وعلى رؤوس الأشهاد! ولم يكن هذا دينه، ولا نظامه، ولا خلقه صلى الله عليه وسلم، وها هو ذلكم النبي الذي كان يستر المنافقين، وهم كفار بربه تعالى! وإذ كيف يستر هكذا منافقا خاصا، وها هو يظن به ألا يستر مؤمنا معلوم السريرة حسنها، ظاهر الحسنى وزينها؟!

ولكن حمله على أن من كان قريبا عهدا بجماع أهله أبعد أيضا؛ ولأن من كان أبعد كان أحري! ولأن في ذلك من الحرج ما الله تعالى به عليم، وهو كشف لمستور، ويكأن هذه الأمور وإذ شرعها الرحمن، ولكنها غاية الستر والحجب والمنعة!

ولكن توجيه الكلام للرجال دون النساء، ولأنه قد جرت العادة أن يتولى عمليات الدفن رجال الأمة؛ حصنا للنساء وأن نعم، حماية لجنابهن وأن نعم، حجابا لهن وأن نعم، درءا لفتنتهن وأن نعم أيضا.

وإن قيل وما يعني بالمقارفة وقد ورد النص بها؟

قلت: قد وردت في ذلك أقوال كثيرة في معناها، وحملها على واحدة منها يحتاج إلى مزيد تأمل، ولما كان من وجهها أنها المداواة، ولعل هذا يكون أقرب، والله أعلم، ولعله من تعب ونصب قد ألم بعثمان ليلته هذه، وقد مشغولا بأهله غاية الانشغال فرضي الله تعالى عنهما، وقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يريحه ولو شيئا مما أتعبه وأصابه، وإذ كان ذلكم تلميحا لا تصريحا، والله تعالى أعلم.

وقرف الشئ: خلطه. والمقارفة والقراف: المخالطة، والاسم القرف. وقارف فلان الخطيئة أي خالطها. وقارف الشئ: داناه، ولا تكون المقارفة إلا في الأشياء الدنية، قال طرفة:

وقراف من لا يستفيق دعارة يعدي، كما يعدي الصحيح الأجرب وقال النابغة:

وقارفت، وهي لم تجرب، وباع لها من الفصافص بالنمي سفسير أي قاربت أن تجرب. وفي حديث الإفك: إن كنت قارفت ذنبا فتوبي إلى الله، وهذا راجع إلى المقاربة والمداناة. وقارف الجرب البعير قرافا: داناه شئ منه. والقرف: العدوي. وأقرف الجرب الصحاح: أعداها. والقرف: مقارفة الوباء. أبو عمرو: القرف الوباء، يقال: احذر القرف في غنمك. وقد اقترف فلان من مرض آل فلان، وقد أقرفوه إقرافا: وهو أن يأتيهم وهم مرضى فيصيبه ذلك. وقارف فلان الغنم: رعى بالأرض الوبيئة. والقرف، بالتحريك: مداناة المرض. يقال: أخشى عليك القرف من ذلك، وقد قرف، بالكسر. وفي الحديث: أن قوما شكوا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وباء أرضهم، فقال، صلى الله عليه وسلم: تحولوا فإن من القرف التلف[١].

قال ابن الأثير: القرف ملابسة الداء ومداناة المرض، والتلف الهلاك، قال: وليس هذا من باب العدوي وإنما هو من باب الطب، فإن استصلاح الهواء من أعون الأشياء على صحة الأبدان، وفساد الهواء من أسرع الأشياء إلى الأسقام[٢].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٩ / ٢٨١

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٩ / ٢٨١

والمقارفة والقراف: الجماع. والقراف: الجماع. وقارف امرأته: جامعها. ومنه حديث عائشة، رضي الله عنها: إن كان النبي، صلى الله عليه وسلم، ليصبح جنبا من قراف غير احتلام ثم يصوم،

أي من جماع. وفي الحديث في دفن أم كلثوم: من كان منكم لم يقارف أهله الليلة فليدخل قبرها [١].

والقرف: وعاء من أدم، وقيل: يدبغ بالقرفة أي بقشور الرمان ويتخذ فيه الخلع. وهو لحم يتخذ بتوابل فيفرغ فيه، وجمعه قروف [٢].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك شهدنا بنتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على القبر، قال: فرأيت عينيه تدمعان، قال: فقال: هل منكم رجل لم يقارف الليلة؟ فقال أبو طلحة: أنا، قال: فانزل قال: فنزل في قبرها [٣].

(١) المرجع السابق: ج ٩ / ٢٨١
(٢) المرجع السابق: ج ٩ / ٢٨١
(٣) صحيح البخاري: ١٢٨٥

الباب الثاني : بقية أحداث السنة التاسعة للهجرة

الفصل الأول: استقبال الوفود

أولا: قدوم وفد بني تميم

البديع المستقيم في وفد بني تميم

يمثل العمل الإعلامي سلاحا بتارا، وسيفاء مضاء، في يد من يحسن استخدامه، ولعله يكون دارئا لمواجهة، ويكأنه يكون ردءا من مجابهة، وهذا الذي سلكه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين واجه حملة ضروسا، ولقوم من بني تميم، وحين تمثلت من جوانب عدة، سننا حسنا، وهديا متبعا، ولما كان منه صبره، ويكأن منه حلمه، وحين أفضى ذلك إلى إسلام القوم وإحسانهم، ومن بعد إيمانهم وإذعانهم، وحين كان منه عليهم ثناء، ومجدا حسنا، وإذ كان اختيارنا لثلاثة منها.

وأعالجه في عشر مسائل هي:

المسألة الأولى: أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم

هذا أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأربعمائة من مزينة، وقد جاؤوا مسلمين مهاجرين من مضر.

وهذا تصديق لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح المبين، فتح مكة البلد الأمي، وحين: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهجرة، فقال: لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا [(١)]. وهذا شأن عام.

---

(١) صحيح مسلم: ١٨٦٤

وقد أنف تناول ذلك على كل حال، وعرجنا على هذا الحديث، يوم الفتح المبين- فتح مكة البلد الأمين، العام الثامن من هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم- ؛ ولأن يوم الفتح هذا كان يوما فاصلا في تاريخ هذه الدعوة المباركة، وفي تاريخ هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وإذ يمثل هذا اليوم حدا فاصلا بين الإسلام الذي كان مطاردا أهله، وبين الإسلام يوم الفتح الأكبر، فتح مكة البلد الحرام، ومن بعد يوم الفتح الأعظم أيضا، وإذ أصبحت له الشوكة، وإذ دانت له العرب، وبالتالي فجاءت الهجرة من بعد يوم الفتح، وعلى نية صاحبها، ومن جانب آخر فإن هذه الهجرة باقية ما قام الزمان، وحين عدم قدرة مسلم على إقامة دينه، وهذا برهان آخر على كم هو عمل النية في حياة العبد المسلم، حد فاصلا أيضا، وسببا مؤهلا للفصل بين حالين هما:

حال المؤمن الصادق: ولما كانت نيته صادقة كافية.

وحال المنافق الكاذب: ولما كانت طويته كاذبة خاطئة.

ولكن الهجرة، وبنص هذا الحديث الذي بين أيدينا الآن، وإن قام سببها قبل يوم الفتح، ولاعتبارات الاستضعاف، وعدم القدرة على إقامة الدين، ولكنه ومن بعد أن أصبحت للإسلام كلمته، ومن إثر أن تأكدت له شوكته، وقد أضحت الهجرة إذن مما لا حاجة لمسلم يومه ذلك بها، وغير يومه ذلك، والحال هو ذلكم وصف نعتناه، وهو ذلكم بسط للدين وصفناه وبيناه، ولأن الأصل في الهجرة هو القدرة على إقامة الدين، أو عدم ذلك من جانب، وتكثير أعداد العصبة المؤمنة يومهم ذلك من جانب آخر، وها نحن رأينا كم كان للزحف يوم الفتح المبين فتح مكة البلد الأمين زخمه، ومطلوبه ودفعه معا، ويوم أن كان إرهاب الخصم ضرورة ملحة، ولتنفيذ هذا الفتح،

وبسلاح الردع، وكان منه تكثير العدد، ودون إطلاق سهم واحد، أو كذا رمح واحد، أو نبل واحد أيضا، ولأن هذا الدين وإنما جاء ليفتح قلوبا غلفا، وأعينا عميا، وآذانا صما. وبالتالي فلسنا بحاجة يومنا هذا إلى هجرة، وقد أقام الله تعالى دينه، وقد تعبدت سبله، ومهد بسطه كلمتَه، وفرض حجته، وسلطته، وهيبته، على أرجاء الجزيرة، وما بقي إلا أن يمتد امتداده الطبيعي خارجها.

وها نحن توا قد خرجنا من يوم تبوك، يوم العسرة، وحين كان حقا قد فرض سبيله، وقد أقر طريقه، وقد ألزم سنته، وقد أوجب حجته، وحين مهدت له الأجواء، وحين كان الطقس ملائما، وحين لم يجد القساوسة والرهبان إلا وأن يصالحوا هذا النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه جاءهم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله! وكما قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

ولكن الجهاد مع النية أمر سائغ، وكما أنه سبيل بالغ، وحين كان التواؤم بين الجهاد عملا ظاهرا، وبين نية وقصد وإرادة أصلا باهرا؛ ابتغاء وجه الله تعالى ربنا الرحمن الرحيم سبحانه، وفي كل شأن كانت النية مستصحبة لله! ولكن الجهاد أوقع، ولكن الجود أولى، ولكن العلم أدعى، ولإمكان تخرم النية من هؤلاء الثلاثة بوجه أخص، وبشأن أولي، ولحضور الشيطان في هذه الثلاثة عملا صارفا، وكيدا ملازما، وبكأنه أيضا كان ضعيفا؛ ولأن الله تعالى قال ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

ولكنه يتبقى أن هذا الدين إيجابي. ومنه فإنه رافع لواءه، ومشهر سلاحه، ولكن غمده على استعداد، وبكأن زنده على أهبة، ولما كان الأمر مطلوبا، وحين ألفينا جانبه مرهوبا، وحين دعا إليه داعية تمرد، من مشرك، أو تطاول من كافر معاند مناوئ مناوش. وهذا الذي أرتئيه من قوله صلى الله عليه وسلم: وإذا استنفرتم فانفروا.

ومن كل ما أنف نستطيع القول إذن: إن فقها كان لهذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، وحين قال قوله هذا لهؤلاء الأربعمائة من مزينة من مضر: أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم[1].

المسألة الثانية: شبهة وجوابها

ولهذا الذي أنف لست أقول ما سلف لقائل: فقد ردَّهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى بلادهم وهو أحْوَجُ ما يكون لهم؛ مِن أجْلِ الدفاع عن المدينة، وما ذاك إلا لأنه رأى عدم القدرة الاستيعابيَّة للمدينة على تقبُّل تلك الأعداد الكبيرة دفعةً واحدةً للظُّروف الاقتِصاديَّة القائمة[2].

ولأننا أمام دين يعني تماما خطته، ولكن الحامل على ردهم، وكما أنف.

ويبقى أن نقول في معرض ردنا على هذا: إن مدنا كثيرة، وفي عهدنا الآني، وإنما تعد كثافتها السكانية مرتفعة عالية، ولكنها من أغنى بقاع الأرض، وبالتالي فليس توصيف خوف الازدحام في المدينة مما نراه تبريرا لردهم، وقد كانوا أربعمائة! وهذا عدد ليس هو مما تقوم به الهمم، فيرد لأجل الازدحام، ومع اتساع المدينة، وحرمها الجغرافي، وها نحن نراها الآن، وقد كان التوسع العمراني فطرة وجبلة أيضا، ولما ورد

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٥٠.
(٢) أهل الصُّفَّة بعيدًا عن الوَهْم والخيال؛ صالح أحمد الشامي، دار القلم، دمشق ١٤١٢هـ، (ص: ٦٢).

في القرآن الكريم أن عمارة الأرض نظام فطري، ولا يسع أحد الخروج منه، وخاصة هذا الجيل الذي كان محبا للإعمار، وقد كان متقنا للاستثمار!

وقال الله تعالى ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:١١].

ولكن القول بأن الناس كانوا من عوز، ولئن سلمنا، ولسنا نسلم؛ ولأن أهل المدينة كانت سوقهم عامرة، وها هو عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه، وقد هاجر فقيرا، وحين تركوا الديار والأموال حسبة لربهم، وإذ أصبح مليا غنيا؛ برهان رواج سوقها، ودليل سعة رزقها، ولبركة دعاء نبيها، صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة [(١)].

وأنه: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه، قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر [(٢)].

ولكنه أيضا، وقد كان ظاهر الحديث أن الناس كانوا ذوي أموال، وكان منه صلى الله عليه وسلم أن يستقدمهم؛ ولاستثمار ما معهم من أموالهم تلك، وللصالح الاقتصادي العام في هذا الشأن.

---

(١) صحيح البخاري: ١٨٨٥

(٢) صحيح مسلم: ١٣٧٣

ومنه فدل على أن إرجاعهم كان لما قلنا، ولم يكن لعامل اقتصادي هش، عالجنا بعضا منه الآن، ومما أنف حالا.

المسألة الثالثة: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾

ولكننا أيضا، وقد أنف تناول هذا يوم الفتح المبين، فتح مكة البلد الأمين، وأنه ليس يستوي من أنفق من قبل الفتح وقاتل، فإن السابق بالفتح أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسنى، وبنص الذكر الحكيم، وحين قال تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وبه يبين الفرق بين أولاء وأولاء، ولفارق يوم واحد كان فاصلا في تاريخ هذه الدعوة المجيدة، هو يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى: حدثنا كثير بن عبد الله المزني عن أبيه، عن جده قال: كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة، وذاك في رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم وقال: «أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم». فرجعوا إلى بلادهم[(١)].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٥٠

المسألة الرابعة: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم

ولكن بني تميم أولاء قد كان لهم شأن مع هذا النبي محمد ﷺ، وإذ جاؤوه فأعلن لهم البشرى، وقد كان كافيا أن يبشر عبد بالجنة، ولما كانت هي مرغوب وأمل الطالبين، وحيث كانت محبوب ومقصود العارفين، وما بعدها إذن من مطلوب آخر! وليس من قبلها، ولا من بعدها من مرجو آخر أيضا، مساويا أو أكبر عدلا! ولكن القوم قد تعدوا على مقام نبوته ﷺ من جانب، ولم يقدروا البشرى حق قدرها، وحين تمالأوا عليه أن يعطيهم من لعاعة الدنيا! ومن جانب آخر، ولذلك فقد تغير وجه هذا النبي ﷺ، ومن إثر ما رأى، ومن هول ما سمع، وأن هكذا قوم كان همهم هذه اللعاعة من الدنيا!

وهذا شأن الناس، وإذ لا يخلو منهم من مثل هذا الجمع!

وقد كان من حسن التقدير الإلهي الكريم أن يسعف الله تعالى نبيه ﷺ بقوم يقبلون بشراه، ولما ردها هذا الرهط من بني تميم، وحين جاءه أهل اليمن الأشعريون، وحين قبلوا بشراه صلى الله عليه وسلم، ومن ثم سألوه، ومما كان قد بدأ الكلام به، وعن خلقه تعالى، وتدبيره، وحين أعلمهم النبي ﷺ أن الله كان قبل كل شيء، ولم يكن أي شيء غيره، ثم خلق الماء أولا، والعرش ثانيا، وخلق العرش في الجهة العليا، والماء في السفلى، ثم خلق القلم واللوح المحفوظ، ثم خلق السموات والأرض.

فعن عمران بن الحصين دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم. قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، مرتين. ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا: قد قبلنا يا رسول الله. قالوا: جئناك نسألك عن

هذا الأمر؟ قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض. فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت، فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها[1].

المسألة الخامسة: يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا.

وهذه فظاظة وفد بني تميم، وحين حلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كانوا أيضا هم بني تميم، ولما أبوا بشرى هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى ما أنف قبل، وحين قبلها أهل اليمن السعيد.

ولكن هؤلاء القوم وحين جاؤوا إليه صلى الله عليه وسلم، وإذ نادوه من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد!

ولينزل فيهم قرآن يتلى إلى يوم الدين، وحين قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:١-٥].

وليس يمنع هذا مما قد يشكل، وحين روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى حديثا، ومنه أن كلاما جرى بين الصحبين الكريمين العدلين، ومناسبة وفد وفد تميم هذا، ولعله مما كان من هذا الوفد، وكان ذلكم منه أيضا، ومن سببه.

---

(١) صحيح البخاري: ٣١٩١

فعن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه: أنه قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد بن زرارة، قال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا} [الحجرات: ١] حتى انقضت [١].

المسألة السادسة: مثابرة كهولة وعنفوان رجولة

ولكن هذا أو ذاك ليس يصرفنا عن هكذا مقام النبوة العالي، السامق، الرفيع، وحين قد تنزل قرآن يحفظ لهذا النبي هيبته، وقيمته، وكرامته، ومنزلته، وحتى ولو كان سيدا موقف هكذا هما وزيريه الأَوَّلَيْنِ الأَوْلَيَيْنِ! ذلكم الشيخ رفيق درب طويل، ومذ بعث هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وإلى وقت تنزل قوله تعالى هذا، ومن بعد، وإلى أن صار موكب الفتح المبين على يديه شيخا طاعنا، لم ترده شيخوخته عن عمل، وبذل، وكفاح، وجهاد، وعمل دؤوب، وكذا هذا الفاروق عمر، وحين كان بالوحي مؤيدا، ولما كان- من فضله تعالى- مسددا، وبكأن فتحا كان قد أمضاه، ومن بعد صاحبه الذي قال فيه يوما: لا أسبقه إلى شيء أبدا!!!!

فعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك عندي مالا فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما قال فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك قلت

(١) صحيح البخاري: ٤٣٦٧

مثله وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك فقال أبقيت لهم الله ورسوله قلت لا أسبقه إلى شيء أبدا [١].

المسألة السابعة: صنيع حلم نبي، مواجهة رديء خلاقٍ تميمي!

وهكذا كان هذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يواجه قوما أجلافا، وبلغ من هذه الجلافة ما قد رأينا، وفي ثلاث جولات متقاربات متتاليات مؤقتات:

١- فها هم يأبون بشرى نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم.

٢- وها هم ينادونه من وراء الحجرات، وكما قد رأينا فظاظة، وجلافة، وغلظة!

٣- وها هم قد جاؤوا لا ليسمعوا الهدى والخير والصلاح والفلاح والهدى والنور والسرور والحبور، بل ليقولوا قولهم: يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا!

٤- وها هم يطالبون عطاءه، ويكأنه أولى من بشراهم بالجنة!

وأنت ترى وضعا مخيما، يحمل من أسباب النفرة من القوم ما الله تعالى به عليم! لأن هذه جاهلية مقيتة، وقد تربعت على قلوب القوم حتى أضحت داء مزمنا فيهم، وها هم بحاجة إلى ذلكم الطبيب الماهر، والذي يمكنه استئصال هذا الداء الخبيث، المرض، الكئيب، ودونما ترك أثر جانبي سلبي، يعود ضرره على من ألم به، بل أثر إيجابي ينعكس نفعه على من شفي منه. وهذه مهمة الأنبياء!

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد كان رحمة للعالمين، ولكن هذا الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد كان رؤوفا رحيما بالناس أجمعين،

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٦٧٥. خلاصة حكم المحدث: حسن.

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد كان حليما لا يجهل، وقد كانت لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما.

المسألة الثامنة: مناظرة إعلامية

ومما سبق أعطاهم مساحة التعبير، وليعلم ما في جعبتهم، فيفرغونها، ولعل الله تعالى يحدث بعد ذلك أمرا، وحين قال لهم: قد أذنت لخطيبكم، فليقل! فقام عطارد بن حاجب فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو أهله، الذي جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق، وأكثره عددا، وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس، ألسنا برؤوس الناس، وأولي فضلهم، فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا. ثم جلس[(١)].

ومن ثم يأمر صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس؛ ليرد على خطبته بخطبة أبلغ، بل ليست أبلغ وحسب، بل هي البلاغة في حسنها، وفي ثوبها، ومن بهائها، وحسن الطلعة، وسناء الطلة! بل أصدق قيلا، وأهدى سبيلا، وحين أبلغ رسالة ربه تعالى، وأنه خلق السماوات، والأرض، والجن، والإنس، والظلام، والنور، والمشارق، والمغارب، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، والذواخر، والجواهر، والأوائل والأواخر، وأن ذلك من قدرته، وأنه من إرادته، وعظمته، وهيمنته، وسلطانه القديم، وهو تعالى البر، الرؤوف، الرحيم، وأنه خلق وأبدع، وصور فأحسن التقويم، وأقام البراهين، وأبان اللسان، وخلق البيان، وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأن قد بلغ سناه ما

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٥١، تاريخ المدينة، ابن شبة النميري: ج ٢ /٥٢٨

بلغ مشارق الأرض طولا، ومغاربها عرضا، وأن له أنصارا، وأنه أسند أمانة بلاغ دينه إلى قوم ناصروه، وإلى آخرين ولما هاجروا في سبيل الله تعالى ربهم وعاهدوه، أكرم الأنساب، وأفضل الأحساب، دينا، ودنيا، ولما كانوا جميعا على قلب رجل واحد، ومع هذا النبي ليلهم ونهارهم، عنه يذودون، وبه يحتمون، وعنه يدافعون ويدفعون، وليسوا يملون، ولا يضَّجرون، بل جنة عرضها السماوات والأرض تحدوهم، وإن بذلوا لذلك نفوسهم وأرواحهم.

وهذا قول ثابت بن قيس بن شماس بنصه، وهذا نثره بلفظه: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خيرته رسولا، أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، وذوي رحمه، أكرم الناس أحسابا، وأحسن الناس وجوها، وخير الناس فعالا، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله وزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.

وهكذا ينتهي دور النثر، وليأتي دور الشعر، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم يدير الحلقة بمثابة القبطان الماهر، وليضفي على الجو حلمه، وليبسط على القوم عفوه.

ويتولى الشعر واحد من بني تميم فينفث فخرا، وليرد عليه حسان بن ثابت ما يبطل فكرهم ومكرهم وسبتهم وعيبتهم، وأمام هذا الجيل الصاعد بدينه، وقد ركل جاهلية عمياء، تتقاطر منها الجاهلية، وتئن منها البشرية.

وهذا شعر الزبرقان، الناطق الشعري الرسمي باسم وفد بني تميم:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن يطعم عند القحط ... من الشواء إذا لم يؤنس
بما ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هويا ثم نصطنع
فننحر الكوم غبطا في أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فما ترانا إلى حي نفاخرهم ... إلا استفادوا وكانوا الرأس
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنا أبينا ولم يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وهذا رد شاعر نبينا حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

إن الذوائب من فهر وأخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم ... أو وازنوا أهل مجد بالندى منعوا

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم	لا يطمعون ولا يرديهم طمع
لا يبخلون على جار بفضلهم	ولا يمسهم من مطمع طبع
إذا نصبنا لحي لم ندب لهم	كما يدب إلى الوحشية الذرع
نسموا إذا الحرب نالتنا مخالبها	إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم	وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع	أسد بحلية في أرساغها فدع
خذ منهم ما أتوا عفوا إذا غضبوا	ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم فاترك عداوتهم	شرا يخاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم	إذا تفاوتت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتي قلب يؤازره	فيما أحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم	إن جد في الناس جد القول أو شمعوا

وأنت ترى كم فرقا بين شعرين! ولأن شعر الزبرقان هذا نافث جهلا، وناقع سما، وزاكم أُنُفًا. ولأن شعر حسان هذا يقطر مسكا، ويفوح عنبرا، ويسطر حكمة!

ولأن شعر حسان قد بلغ ضعفين من شعر الزبرقان! وإذ كان من بحره، ومن وزنه! وهذا ليس عفويا! بل مختارا ومقصودا! ولأنه من باب قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

وهذا سبيل قرآني، وهذا هدي فرقاني، نتطلع به تأسيا، ونهدف منه تضلعا!

المسألة التاسعة: الحكم في المناظرة الإعلامية

. «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا»

ولكن الذي نقف عنده، ومن كل ذلكم، وهذه خطورة الإعلام، والإعلام المضاد، وقد أدار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذه الجولة بفطنة، وحكمة، وذكاء، وروية، وهدوء بال، وسرعة بديهة، وتغاض عما بدر، وغض عما ظهر؛ لحكمة يعلمها الله تعالى ربنا الحق المبين، وحين أتى القوم آخر ما عندهم، وليقول المسلمون أول ما لديهم! فيبطل السحر، وينقلب على ساحره، وخسر هنالك المبطلون.

وهذا الإفحام تحتاجه الدعوة في مراحل عمرها، وبحاجة أيضا إلى حسن إدارة الموقف، والخروج منه بأكثر فائدة، وأقل خسارة ممكنة!

وهذا الذي حدث، وحين قال الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى: فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا.

وهكذا تنتهي المواجهة اللسانية بنصر مهيب، وكأنما نحن في إدارة معركة كان ملاحها الصاروخ الباليستي، وإذ وكأنما قبطانها الطيران العنقودي!

ولكني اسجل لأولاء القوم إذعانهم. ولأن كثيرا وحين يعرف الحق وحجته، فيلحن ميلا، ويميل حيودا، ويأفك كذبا، ويزايل صدقا، ويراوغ مكرا!

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وحين أسلم القوم أعطاهم وجوزهم ومنحهم فأحسن جوائزهم. عطاء من لا يخشى الفقر. بأبي هو وأمي ونفسي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا مما يحسب له أيضا.

المسألة العاشرة: موجب الإسلام وأثر الإيمان

ولكن أولاء بني تميم، وحين أسلموا وحسن إسلامهم، وهذا ثناء نبينا عليهم، وهذا إطراء رسولنا عنهم. ولأن هذا الدين، وحينما يتلقاه العبد طاعة، وصدقا، واحتسابا، وإذ سرعان ما يعمل فيه عمله، محبة، وصدقا، وطاعة، وانقيادا، وتسليما.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: ما زلت أحب بني تميم منذ ثلاث سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيهم؛ سمعته يقول: هم أشد أمتي على الدجال، قال: وجاءت صدقاتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه صدقات قومنا، وكانت سبية منهم عند عائشة، فقال: أعتقيها؛ فإنها من ولد إسماعيل[1].

وهذا حديث عظيم القدر، جليل الشأن، رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه، وإذ يعبر فيه عن مدى حبه لبني تميم، وإنما نشأ الحب عن محبته صلى الله عليه وسلم لهم، وهذا واقع هذا النبي صلى الله عليه وسلم أبدا، تأليفا للقلوب، وإلا فإن بني تميم أولاء يوما وهم الذين ردوا بشراه! ولكنه صلى الله عليه وسلم لا يتبع السيئة السيئة بل الحسنة، ولأنه أكمل الناس أخلاقا، ولأنه أوفاهم إعراضا عن السوء، وأهل السوء أيضا، بل خلق حسن حميد، لا يأخذ بالجريرة، ولأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ولأنه أوتي مجامع الخلق الحسن الحميد، وحين وصفه الله تعالى بذلك في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وهذا هو موجب الخلق الحسن الحميد، ألا يقف العبد على ما يوغر صدرا، بل يذكر حسنا أبدا، وليكون حسنا تجاوزه، عفوا خلقه، حميدا عفوه، ولما كان يغض

---

(١) صحيح البخاري: ٢٥٤٣

طرفا، وإذ ها هو يغمض عينا، فلا ترى إلا جميلا، وإذ ها هو يصم أذنا، فلا تسمع إلا ما يبهر ويسعد، وها هو وإذ يخطم نفسه، وألا ترى إلا حسنا بديعا.

لكن أولاء بني تميم، وسبحان من يقلب القلوب حيث يشاء، ولما كانوا قد ردوا بشراه يوما، وإلا أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولعلهم أسلموا فأحسنوا إسلامهم، وإلا فإن انتسابهم إلى جد نبينا نبي الله تعالى إسماعيل عليه السلام ليس يغني عنهم من الله شيئا أيضا، وإلا فإنهم قريبا هؤلاء كانوا هم أيضا من ذرية إسماعيل عليه السلام، وقد كانوا من الد أعداء دين أتى به إسماعيل وولده محمد صلى الله عليهما وسلم، فلا تقل لي من أبوك، بل قل لي من أنت!

وأقول: إن خلاصة هذا الذي سبق هو استدعاء الخير في مكامن النفوس، وإن طرأ عليها طارئ.

ولكن موجبات ثنائه على بني تميم أولاء كانت لثلاث موجبات:

الأولى: أنهم أشد أمته صلى الله عليه وسلم على الدجال، وهذا الدجال وإن سمي من الدجل، وهو التغطية، ولأنه يحمل شرا، ويظهر خيرا، ولأنه قد ابتلي به الناس؛ من الله تعالى فتنة واختبارا، والله تعالى له ملكه، وإنما لكل شيء فيه من حكمة، علمناها أو جهلناها.

قال ابن خالويه: ليس أحد فسر الدجال أحسن من تفسير أبي عمرو قال الدجال المموه يقال دجلت السيف موهته وطليته بماء الذهب قال وليس أحد جمعه إلا مالك بن أنس في قوله هؤلاء الدجاجلة ورأيت هنا حاشية قال صوابه أن يقول لم يجمعه على دجاجلة إلا مالك بن أنس إذ قد جمعه النبي صلى الله عليه و سلم في حديثه الصحيح فقال يكون في آخر الزمان دجالون أي كذابون مموهون وقال إن بين

يدي الساعة دجالين كذابين فاحذروهم وقد تكرر ذكر الدجال في الحديث وهو الذي يظهر في آخر الزمان يدعي الإلهية وفعال من أبنية المبالغة أي يكثر منه الكذب والتلبيس الأزهري كل كذاب فهو دجال وجمعه دجالون وقيل سمي بذلك لأنه يستر الحق بكذبه[1].

وعلى كل حال فإن هذا الدجال يظهر الله تعالى على يديه من خوارق وخوارج العادات ما يوجب فتنة حقا، ولما كان من ظهوره علامة فاصلة على انتهاء الكون، وأن ظهوره هذا ليمثل ابتداء العلامات الكبرى ليوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ولذلك ولما كانت خوارق هذا الدجال وهي من صميم خلقه تعالى وتفرده بها، ولكنها وحين تكون ويكون معها المؤمن لا يتزحزح شيئا، ولأنه يعلم أن الله تعالى مختص بكل ذلك، ومن ثم فإنه يدير ظهره لهكذا ابتلاء، ولما كان من شأن الدجال هذا أن يأمر بإحياء ميت، أو أن يأمر بإماتة حي. وكذا من ظهور الخصب والنماء على يديه، وله جنة وله نار وأنهار وكنوز الدنيا، وإذ يأمر السماء أن تمطر فتمطر! والأرض أن تنبت فتنبت! وأن كل ذلك بقدر منه تعالى كان قدرا مقدورا.

الثانية: وحين وصلته صلى الله عليه وسلم زكاة القوم بني تميم، وإذ أثنى عليهم بأنهم قومه، ولاجتماع نسبه معهم في سيدنا إسماعيل عليه السلام، وكما قلت آنفا، فإن هذا لا يحمل شيئا، قدر أنهم أسلموا، وعلى كل حال فإن هذه قريبا أمامنا، وكانوا هم حاملي لواء المناوأة، وكانوا هم حاملي راية المخاصمة، ولكنها القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء سبحانه، وكما أنف أيضا، فإن هذا استدعاء لما في النفوس من خير، وهو لا شك موجود.

(١) لسان العرب، ابن منظور: ١١/٢٣٦

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم وما كانت تطرأ أمامه طارئة ذكر خلق نبيل، أو مناسبة ذكر حسن جميل، إلا واستثمرها أيما استثمار؛ إشاعة للفضيلة، وبثا للشميلة، وألا يأخذ بجريرة، وهذه سفانة ابنة حاتم الطائي، وقد مر بنا يوم سبيها في سبايا طيء، وحين أطلقها؛ ولأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وهذه الشيماء بنت الحارث، أخته صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، ولما كانت كافرة، وإذ أمر بإطلاق سراحها؛ ولهذا السبب من خلق ولهذا الموجب من رحمة، ولهذا الأدب من صنيع معروف، ولهذا الأصل من فك رقاب، ولما أقاموا الدنيا، وأقعدوها منه، ورغم أنها كانت كافرة، وهذا أكثم بن صيفي، وحين قد وصله خبر هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم،، ليقول فيه قوله: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن مَلائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً.

وقلت: وهذا هو شأن الأخلاق الحميدة، الجميلة، النبيلة، الجليلة، الشميلة.

الثالثة: أنه صلى الله عليه وسلم أمر عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها بإعتاق سبية حرب، كانت لديها من بني تميم؛ ولأنها من ولد نبي الله تعالى إسماعيل عليه السلام، وبالعكس فإن هذا جوازا صريحا بسبي كائنا من كان، ولا شأن لنسبه! وإلا تعطلت أحكام الشريعة، وكما ذكرنا مرات عديدة. ولعل هذا ولأنها كانت في بيته، وليس يريد أن تكون في بيته سبية من قومه، ولو كانوا قد عادوه، ولو كانوا قد خاصموه في الله تعالى يوما بل أياما!

وفيه من جواز سبي كائنا من كان، وعلى ذكرنا آنفا، وفيه حلمه بقومه صلى الله عليه وسلم، ولو كانوا قد عادوه وخاصموه أيضا، ولأنه هو هذا النبي! والله المستعان.

ثانيا: وفد عبد القيس

مرحبا بالوفد، ليس خزايا ولا ندامى

هذا خلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ترحابه لوفد عبد القيس، وهذا إكرامه لمن وفد عليه، وهذا إنزال الناس منازلهم، وهذا إكرام عظماء القوم، وهذا حرص القوم على معرفة الحق وبيانه ودعوة أهليهم إليه، وهذا واجب الدعاة أن يبينوا أصول هذا الحق، وبعبارة موجزة منجزة غير محتملة، وكيما يعبدوا ربهم على بصيرة؛ ولأن الله تعالى قال ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم قد قال قوله هذا؛ مقدما فضلا لوفد عبد القيس هذا، وأنهم غير خزايا ولا ندامى، ولأنهم جاؤوا من طواعية، ولم يأتوا من جبر، ولا إكراه، ولا حرب، ولا غزو، ولم يصبهم ما أصاب غيرهم من خزي المجابهة، ومن حرب المواجهة، ومن كمثل ثقيف، أو من كدومة الجندل، أو هرقل الروم.

وإنه ولما أتى القوم في الأشهر الحرم، ولا سيما أنهم قالوا: وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر؛ وخشية فعل قريش بهم، ولما كانت العرب لا تقاتل في الأشهر الحرم! وهذا بيان أن بقايا الحنيفية في القوم لا يمنحهم وسام الإسلام العالي، ولا تاجه السامق، فيظلون كفارا، وإلى أن يسلموا لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، وإسلامهم إذعانهم، فلا يأتمرون إلا بأمره ولا ينتهون إلا عن نهيه، وكذا رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم.

وفيه اختيار الوقت الملائم، وأفضل، وأولى من التعرض للمواجهة، وحيثما كان السلم أوثق، وأدعى، وأوفق، فثم هو.

وحين سألوه النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم في الإسلام قولا فصلا، وليخبروا به قومهم، إذا رجعوا إليهم، وهذا برهان حرص الناس على الهدى في أنفسهم، ومن ثم يدعون إليه غيرهم، وفيه محبة الخير للغير، واتخاذ السبب الموجب للنجاة من النار، للعبد في نفسه، ولإخوانه معه.

ولهذا أوجز النبي صلى الله عليه وسلم عبارته، وأجمع كلمته، وحين أعلمهم أمرا بأربع، ولما أنبأهم نهيا عن أربع. وهذا إجمال يوجب تشويقا، وهذه بلاغة نبي.

وأما الأوامر فهي:

الأمر الأول: هو هاتان الشهادتان، ولما كانتا عنوانا على جواز السفر؛ للدخول إلى هذا الدين، وبما تحمله من عبودية لله تعالى وحده، وإفراده وحده بسائر العبادات، وألا يصرف شيء منها لغيره تعالى. وهذه خلاصة ديننا، وهذا موجز إسلامنا.

وفيه البدء بهما، وتأخير ما سواهما عنهما.

وأقول: ولعل حاجة ماسة للتذكير بهاتين الشهادتين كل حين من أمر الناس؛ وكيما لا تندرس موجباتهما من إذعان، وحتى لا تنخرم لوازمهما من تقادم الزمان.

الأمر الثاني: هو إقامة الصلاة على وقتها، مستوفاة لأركانها وشروطها. وكما قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

الأمر الثالث: هو أداء الزكاة، وكما قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣]. وإنما كانت الزكاة من الزكاء، وهما زكاء النفس، وزكاء المال معا، وهذا تنظير قرآني بالغ في

شحذ الهمم لأرباب الزكوات، أن يؤدوها، ومن هذا السلطان الداخلي، ومن هذا الوازع القلبي.

وعلى أن تصرف هذه الزكاة في مصارفها المبينة شرعا أيضا، وكما قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

وأنت ترى كيف كان العبد تابعا غير مبتدع، وهذا هو مطلق العبودية لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، وهذا إجمال النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا تفصيلنا، ولأن الأمر بحاجة إلى بيان فقه، وإلى مزيد بيان.

ولكن الزكاة لها أموالها، وحين كانت زكاة الزروع والثمار، وبهيمة الأنعام، وعروض التجارة، وزكاة النقدين، وزكاة الركاز. وإن كل ما يخرج منه لبالغ قليلا، وليس يكاد ينقصه شيئا، بل يزيده، بل يزيده، بل يزيده! وانظر: هذه ثلاثة أضعاف!

الأمر الرابع: هو صوم رمضان، وهو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس. وكذا الصيام عن غشيان النساء، وألا يلتبس بمفطر حسبه الناس طعاما أو شرابا وحسب.

وأما النواهي فهي: أنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن استعمال أربع من الأواني في أطعمتهم وأشربتهم:

الأول: الحنتم: وهي الجرة أو الجرار الخضر أو الحمر، أو هي ما طلي من الفخار بالحنتم المعمول بالزجاج وغيره مما يسد المسام.

الثاني: الـــدباء: وهو اليقطين «القرع»، والمقصود النهي عن الوعاء المتخذ منه بعد حفره وتفريغه من محتواه ليصبح مثل الوعاء.

الثالث: النقير: وهو ما ينقر في أصل النخلة ويجوف ليصبح مثل الوعاء.

الرابـــع: المزفـــت: وهو ما طلي بالزفت، وربما قال: المقير، وهو ما طلي بالقار، ويقال له: المقير، وهو نبت يحرق إذا يبس، تطلى به السفن وغيرها، كما تطلى بالزفت.

وإنما كان النهي عن استخدام مثل هذه الأوعية بخصوصها؛ ولأنه لما يسرع إليها من تأثير على ما فيها من طعام أو شراب، وإذ قد يشرب منها من لم يشعر بتغيرها، ولما هو معروف ضرره والحال كذلك.

ولكنه صلى الله عليه وسلم رخص بعد ذلك في استخدام كل وعاء، مع النهي عن شرب كل مسكر.

فعن بريدة بن الحصيب الأسلمي إني كنت نهيتكم عن ثلاث: زيارة القبور فزوروها ولتزدكم زيارتها خيرا، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث فكلوا منها ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أي وعاء شئتم، ولا تشربوا مسكرا[1]

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان قد أمرهم بحفظ ما أمرهم به، وما نهاهم عنه، ولأنه لذوات أنفسهم، وموجب إبلاغه قومهم، وعلى وجهه أيضا.

ولكن هذا النبي قد أفرح، وحين أثنى على أشج عبد القيس، وأخبره أن فيه خصلتين يحبهما الله ورسوله، وهما الحلم والأناة، وما أعظمهما من خلق! وأعظم بهما

(١) صحيح النسائي، الألباني ٥٦٦٩

من نبل! ولما كانتا جبلة لا اكتسابا؛ ولأن هذا من فيض عطاء المنان، ولأنه هذا من هبة وفضل الرحمن.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كنت أقعد مع ابن عباس يجلسني على سريره فقال: أقم عندي حتى أجعل لك سهما من مالي فأقمت معه شهرين، ثم قال: إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم قال: من القوم؟ - أو من الوفد؟ - قالوا: ربيعة. قال: مرحبا بالقوم، أو بالوفد، غير خزايا ولا ندامى، فقالوا: يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فمرنا بأمر فصل، نخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة: فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع، أمرهم: بالإيمان بالله وحده، قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس ونهاهم عن أربع: عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت، وربما قال: المقير وقال: احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم [١].

وكذا قوله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشج -أشج عبد القيس-: ((إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة.

(١) صحيح البخاري: ٥٣

ثالثا: وفد ثمامة بن أثال من نجد

أطلقوا ثمامة

هذا أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأصحابه الكرام بإطلاق سراح ثمامة بن أثال.

وذلك أنهم كانوا في شأن مجابهة إلى نجد، وقد أسروا هذا ثمامة بن أثال، وربطوه في سارية مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحين رآه النبي صلى الله عليه وسلم مربوطا في عمود المسجد وساءله عما وراءه، وعما يظن أنه فاعل به نبي الرحمة ورسول الملحمة صلى الله عليه وسلم. وفي استدعاء للشفقة منقطع النظير، وفي تحريك مكامن الخير في النفوس، وإذ لا تخلو نفس من خير، وإن غلب عليها شر يوما.

وهذا الذي حدث، وحين كان جواب ثمامة هذا مهذبا، غاية الأدب أيضا، وهو الذي نفيده أيضا وحين وضع العبد في مأزق حرج، أو منعطف ضيق ولما يحسن العبارة، ولما يجيد اللطف فيها أيضا. وحين طرح ثمامة بين يدي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خيارات، وبأيها أخذ!

وإما أن يقتله ولكفره طبيعة، وهذا ما عرفه الناس يومهم هذا، وأن الكفر مبيح للقتل، كفرا لاحدا. ولقوله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله [١].

---

(١) صحيح البخاري: ٢٥

وإما أن ينعم عليه بالعفو ولعلمه عن هذا النبي ذلكم العفو! وحين يعفو ليجدن ثمامة بن أثال هذا شاكرا عفوه، مشيدا بحلمه. وهذا لا شك يكتب لهذا ثمامة حسن خلق ومعدن طيب.

وإما أن يأخذ مالا بعوض إطلاقه؛ ولشرفه في قومه.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم تركه على هذا الحال ثلاثة أيام. وبيد أنه كان في كل يوم يحاوره، وليسمع منه نفس الجواب.

وبالتالي رأى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إطلاقه، رحمة، وعفوا، وجزاء حسنا ولطفا كريما، ولعله كان قد قرأ في محياه ميلا إلى الخير، أو أنه استدعى منه ذلك، ولما يطلقه، ولا سيما أن لطف عبارته كان موجب ذلكم الإحسان النبوي أيضا، وهذا أيضا ما نتعلمه في محاولات استدعاء أوجه الخير لدى النفوس، وخاصة هذه التي أحسنت عبارتها، وأجادت كلمتها.

ولكننا لسنا نغادر هذا المكان إلا بيان جواز الاعتقال والحبس والربط، ولعل ذلك يكون عاملا من عوامل التفكير الملي نحو الإسلام، ولأنه لو أطلق لأول مرة فربما رجع إلى قومه كافرا، ولما لم يسمع الذكر المبين، والقرآن والدين من في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخاصة أنه كان في المسجد يسمع ويرى.

وأمامنا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، ويمكن اعتباره أصلا في المسألة، ولما كان تباعد بين أهل السوء، ولعله أن يحمل ذلك على ألا يطال بعضهم بعضا شر بعضهم بعضا، ومن جانب آخر فإن إلحاقهم بأولاء أهل الخير والصلاح، ولربما عمل عمله فيهم.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه: مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد؛ لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحا خبيثة [١].

وكما أن فيه إسماع كلام الله تعالى لمثل ذلكم صنف، ولعل القرآن الحكيم يعمل فيه عمله، ومن بعد عمل إحسان هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم معه. ومنه قوله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦]

ولكنها الضرورة وتقدر بقدرها، ومع حفظ تام لكرامة ابن آدم، وكما أنف؛ ليسمع الذكر المبين، والقرآن الحكيم، ولعله أن تهتز أوتار فؤاده، قبولا وإذعانا وإسلاما لله تعالى رب العالمين. ولست أريد اجتزاء لهكذا كلام قلته وإنما كله معا.

وها نحن قد رأينا الإمام الأعظم صلى الله عليه وسلم بنفسه يشرف على هكذا ثمامة بن أثال، ولما كان مربوطا؛ رعاية، وحفظا، وإكلاء، وتحسسا لما يمكن أن يطرا عليه لحظة بلحظة.

وانظر! وهذه ثلاثة أيام! وأما الإيداع غير المبرر، والمخالف حتى للقوانين الصادرة في هذا الشأن، وإنه لعظيم، وإنه لحسن إيقافه.

وهذا هو الذي حدث وحين أسلم ثمامة بن أثال هذا، وحسن إسلامه، ومن إثر أمره صلى الله عليه وسلم له بالاغتسال من كفر، وشهادة شهادة الحق بين يديه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) صحيح البخاري: ٢١٠١

ولكن التاريخ سجل لهذا ثمامة قولا حقا وجه به إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قال: يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليَّ!

ولكن ثمامة هذا طلب منه صلى الله عليه وسلم أن يؤدي عمرة، وحين راح واجهته قريش فتنتها، وقد كان عنها ذلكم معهودا ومعروفا، وحين رموه بأنه صبأ، وليرد كيدهم بنبأ آخر جميل، وأنه أسلم وجهه لله تعالى، ومن ثم ليقسم قسما عظما بأنه لن يسمح لحبة قمح واحدة أن تأتيهم من اليمامة في نجد! وإلا أن يسمح بذلكم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفيه جواز المقاطعة الاقتصادية للخصم؛ ولمنعه من التعدي والظلم، ولحمله على العدل والحق.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: **بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد؛ إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تُنْعِمْ على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نجل قريب من المسجد، فاغتسل**

ثم دخل المسجد، فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نجل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت! قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم[1].

رابعا: الخطاب الخلاب في خبر مسيلمة الكذاب

هذا لطف النبي صلى الله عليه وسلم مع مسيلمة الكذاب، وحين ادعى أنه أُشْرِكَ في الأمر مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ودون دليل أو برهان، وبغير سند لا من واقع أو سنة أو قرآن، وقد غاب عن هذا الأحمق أنه الله تعالى جعله خاتم النبيين وإمام المرسلين، وفي قرآن كريم يتلى إلى يوم الدين، وحين قال الله تعالى رب العالمين ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤].

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان قد رأى تصديق ذلك من منامه، ولأن رؤيا الأنبياء حق، ولأنها تأتي كفلق الصباح، وبالتالي فادعاء هذا كذبا أنه أشرك معه في الأمر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بحد ذاته علم على نبوة هذا النبي

(١) صحيح البخاري: ٤٣٧٢

العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وكما قلنا أبدا فإن هذه الأعلام وقد كان بإمكانهم أن يجردوها من إعجاز صاحبها، ولما يفعلون نقيضها! ولكنه وأنى لهم ذلك؟! وها هو الإعجاز يحاصرهم في كل مخبأ، وها هو التحدي يحيطهم من كل منحى، وها هو الصرف يطاردهم ومن كل صعيد، وإن كل ذلك في يقظتهم، أو من منامهم؛ ليعكر عليهم صفوهم، وكيما يعيشوا أبدا في نكد وكدر، ومما سببوه من دخن وعكر.

ويكأن هذه الأعلام بمثابة برهان آخر، وكدليل آخر على نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فمقامها هكذا إثباتا وبلاغا؛ ولذا كان التحدي، ولست أقول صرفا؛ وكيما لا يقال صرف! ولكنه هكذا ماثل أمامنا؟ وعلى جاحد أن يبطله، أو أن يأتينا من برهان.

هذا وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد رأى في منامه ما أولهما صلى الله عليه وسلم أنهما خروج دعيي النبوة ذاك مسيلمة الكذاب في اليمامة، وذاك الأسود العنسي في اليمن!

فعن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود بلغنا أن مسيلمة الكذاب قدم المدينة فنزل في دار بنت الحارث، وكان تحته بنت الحارث بن كريز، وهي أم عبد الله بن عامر، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس -وهو الذي يقال له: خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم- وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيب، فوقف عليه فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خليت بيننا وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو سألتني هذا القضيب ما أعطيتكه، وإني لأراك الذي أريت فيه ما أريت، وهذا ثابت بن قيس، وسيجيبك عني. فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم. قال عبيد الله بن عبد الله: سألت عبد الله بن

عباس عن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ذكر، فقال ابن عباس: ذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينا أنا نائم أريت أنه وضع في يدي سواران من ذهب، ففظعتهما وكرهتهما، فأذن لي، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان. فقال عبيد الله: أحدهما العنسي، الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة الكذاب [١].

وهذا الذي حدث، وكما قلت آنفا، فقد كان من إمكانهما رده، أحدهما أو كلاهما على الأقل، وليبطلا هذا الدين من أساسه، ولكنه ليس ذلك من وسعهما، أحدهما أو كليهما أيضا، وحين كان قدرا ربانيا مقدورا.

وهذا وقوف منه صلى الله عليه وسلم على الرؤيا وتعبيرها، وحين كان ذلكم علما آخر منضافا أولا، وحين كان برهان جواز تعبير الرؤى لمن علم، ودل أيضا على تصدر ذي ملكات التعبير؛ ومن علم وبرهان، لا من تخرص وافتئات، أو وسواس شيطان، ولأن علم ذلكم له أهله، وما عيب ألا يعرف عبد، بل جريرة أن يقول على الله تعالى بلا علم؛ ولأنها الرؤى وتفسيرها، تعمل في صاحبها عملها؛ ولذا فحسن ألا يتعرض لها إلا من علم وفهم ثاقبين ممهورين بالدليل والعلم المتين. ولأنها بمثابة فتوى من فقه فيما يتعرض له، وإنها ومن ههنا تخضع خضوعا تاما تحت طائلة ما نص القرآن العظيم عنه وحين قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

ولكن الذي نقف عنده أيضا هو هذا الحزم من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين وقف تجاه هذا الأفاك الكذاب مسيلمة، وحين وألا يعطيه ولو قضيبا، أو

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٧٨

قطعة، أو عسيبا! وهذا إمعان في إذلال، وهذا التحدي ليس من قريبه، أو من مثله، بل هو التحدي عينه.

ولكن الذي نقف عنده أيضا، هو ذلكم التواضع من هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وإذ هو سيد الخطباء، وإذ هو زعيم النجباء، وحين أسند الخطابة، وإن لزم لهذا الصحابي الكريم، ثابت بن قيس رضي الله تعالى عنه، وإذ كان يدعى خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وها نحن حديثو عهد من كلامه، الذي أحاط بوفد عبد القيس إحاطة السوار بالمعصم، وكمثل أخيه حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنهما شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، وحين لم يجد وفد عبد القيس إلا الإذعان، وحين لم يجدا من الإذعان للحق مهربا.

ولكننا نشير أيضا إلى إسناد كل عمل لمن يستأهله ويجيده، وكيما تكون المخرجات متوافقة مع مدخلاتها، ولتأتي الأمو أكلها. وحين أسندت الخطابة إلى قيس ولما احيل الشعر إلى حسان.

وهذا عمل إداري ذو شأن، به تعلو الجهة الإدارية وترقى، ومنه ينتظر عطاؤها، وحين يقل خطؤها.

ولكننا نقف أيضا على هذه الأرضية الثابتة، والتي وقف عليها هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومواجهة أفاك أشر كذاك مسيلمة، ولأن الأمر جد؛ وكيما يجهضه، وإفكه معا، ولأول مرة، وكيما يكون عبرة من نفسه، وكيما يكون أسطورة الحكايات على الألسنة، فلا يحدثن أحد بذلك نفسه، استتبابا لأمن النبوة، وجانبها، وجنابها، ودرءا لخطر المرجفين والأدعياء، وما أكثرهم في كل مكان وزمان!

ولكن الذي نقف عليه أيضا هو ذلكم اليقين بالرب الكريم المتعال القهار الجبار، وحين كان من أمر هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أنه تحدث وبثقة النبي، ويقينه؛ ولأنه مبلغ عن الله تعالى، وإنما يكون قوله وسلطته مستمدة مما خوله ربه من قرار، أو ما أسداه إياه من تبيان. وهذا الذي منه جاء قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

ولكن الذي نقف عنده أيضا هو هذه المحطات التي مرت بها هذه الدعوة المباركة، وعلى طول سبيلها، ومن سني عمرها، وحين كان هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم مجاهدا في الله تعالى حق جهاده، ولربما جازلنا القول بأن طرف النعاس عينه كان آية، ومن هذا الذي يدخل فيه اليوم، وليدخل في غيره من غد، من أحداث متواليات، ومن أخطار متتابعات، كانت قد تعرضت لها هذه الدعوة المباركة في كل وقت وحين من أطوارها ومراحلها.

وهذا برهان عدة الصبر، والذي يتحلى به دعاة الخير؛ ومن نصب يواجهونه، وإنما كان ذلكم الصبر هو زادهم؛ ولأنه معه تكون العاقبة للمتقين؛ ولأن الله تعالى قال ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]. وكذا قوله تعالى ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]. وكذا قوله تعالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢].

ولكن الذي نقف عنده أيضا، هو ذهاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذا الأفاك، وإلى عقر داره، والحق أن هذا إفحام بالغ، وإذ ما تبقى لهذا الأفكاك الأشر من حجة، وإلا قد أدمغت، وحين راح هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم إليه، وفي عقر داره؛ ليحبطه، وليخذله، وليهزمه؛ وكيما يكون آية من نفسه، ولغيره أبدا أيضا.

وهذا سبيل للدعاة العاملين، وكما أنف، وأن يباغتوا خصومهم، وفي عقر ديارهم، ولا ينتظروهم؛ ليأتوهم، بل يأتي إليهم دعاة الحق؛ لإذلالهم، ومن عقر ديارهم، وهذا أمعن في التحدي، وهذا أنكى في الاحتجاج، والمبالغة فيه أيضا. وإنما ينضاف إلى إمعانات أخر أنفت!

ولكن الذي نستشرفه أيضا، هو ذلكم حرص هذا النبي صلى الله عليه وسلم على إسلام الناس- كل الناس- وجوههم لله تعالى ربهم الحق المبين، بل ويشمل ذلكم هذا الكذاب الأشر مسيلمة! وهذا هو الذي منه كان إرساله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين؛ وليخرجهم من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، صراط الله الذي له ملك السماوات والأرض، وما بينهما وإليه المرجع، والمصير، والنشور، والمآب. وكما قال الله تعالى ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم:١-٣].

ولكن الذي نقف عنده أيضا هو ذلك السفه في العرض، وحين زعم ذا الدعي مسيلمة شرط اتباعه للنبي صلى الله عليه وسلم، أن يمنحه صك اتباعه من بعده! ولكن هذا ليس من سلطة أحد، لا من سلطة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا من

صلاحيات غيره من البشر، ولأنه تعد على سلطان الله تعالى وأمره ونهيه وقوله تعالى آنف البيان، ومن الآية الرابعة من سورة الأحزاب. ومن بعد ذكر قرآن نزل، ومن بعد قوله صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم: أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي [١].

ولكن هذا مسيلمة الكذاب متناقض مع نفسه، وإذ أي شرط يشرطه؟! ولئن كان رسولا من صدقٍ، فما طلب من أحد هذا الصك! ولأن النبي يؤيَد ممن بعثه، وهو الله تعالى! وبالتالي فإن هذه دعوى ساقطة من مهدها ابتداء، وليست تحمل إلا هكذا سقطوها، وانهدامها، وبهتانها، وزورها، وكذبها، وافتراءها، وإفكها من أساس.

والغريب في الأمر أنه كافر بيّن كفره، وحين لم يأت ببينة على صدق كلامه، وسوى أن الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات يفعلون ما أمرهم به ربهم، ولسوف يؤيده ربه، وإذ لو كان نبيا جدلا! وكما أيد هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم من قبل، وبالتالي فإنه ليس بحاجة إلى شهادة حسن سير وسلوك من أحد، ولا حاجة له أيضا أن يمنح صك الخلافة، وحينها ليس سيكون خليفته في النبوة، ولكنه وكما أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم!

وبالتالي فإن دعواه ساقطة من ألفها، ومن بائها!

ولكن العجيب أنه قد أرسل قومه إلى هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وسبحان الله وتعالى، فيسلمون ويعطيهم النبي صلى الله عليه

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٢١٩

وسلم، ويمنحهم، ويفيض عليهم من عطائه، وإلا أنه أعطاهم ليعطوا مسيلمة الكذاب، وحين قال قوله: أما أنه ليس بشركم مكانا!

وهذا أساس عظيم قامت عليه أخلاق هذا النبي صلى الله عليه وسلم. ولأن الأفاك هذا كان قد قعد راعيا لمتاع القوم، وكما أنه ومن باب قوله صلى الله عليه وسلم: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

ولكن هذا مسيلمة الكذاب كان قد تطاول، وحين ادعى أنه يوحى إليه. ومن كذبه قوله: مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا، وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة!

وليته ادعى كلاما فيه رائحة الصدق والفطرة، وكيما يمكنه التلبيس على قومه، ولكنه وهيهات، وحين حكم عليه هذا النبي بالكذب، ومن قبله، وحين حكم القرآن الحكيم، وبأنه لا نبي بعد هذا النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن من إحنه وتخرصه، وإن من حمقه وكذبه، وحين جاء باطلا ظلما مناقضا لما أطبقت عليه ديانات السماء، ولما عليه الحنفاء الأنقياء، من تحريم للخمر، والزنا، ومن ترك للصلاة.

وسبحان الله وتعالى، وحين تحمل دعاوى الشر أسباب بطلانها، ومن قولها ابتداء، ومن زعمها انتهاء، ودونما كثير إعمال لفكر أو عقل ماهرين!

ولكن هذا مسيلمة الكذاب؛ ولأنه كذاب فقد شرط على الرسول صلى الله عليه وسلم، وكما أنف، أن يوصي له بالنبوة ومن بعده! وليرد الرسول صلى الله عليه وسلم عليه بقوله: لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه. وذلك تحقيرا وذما، وإذ ليس يملك النبي نفسه من ذلكم من شيء.

ولكن هذا الذي سبق ليس يصرفنا عن بيان الخلاف حول إسلامه من عدمه، وأنه حال إسلامه فقد ارتد ومن بعد، والمسألة طويل كلام أهل العلم فيها.

وإنما يطمئن القلب إلى أنه لم يسلم: برهان مجيئه أول مرة مشترطا، ولم يعلن أنه بايع النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسهم ذلك، وعلاوة على إفكه وكذبه وشرطه، وليت شرطا مما يمكن قبوله، وكما قد شرطت ثقيف لها على النبي صلى الله عليه وسلم، ولأن شرطها وإن كان لا معقولا هو الآخر، وإنما كان معقولا رجوعهم عنه، واستشرافا منه صلى الله عليه وسلم أيضا، إلا شرطا كهذا لمسيلمة، وإنما معه تسقط النبوة من أساس، ويسقط الدين من أصل، ويسقط معه القرآن الكريم من تبع، وحين أنف ذكر قوله تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

ولكن هذا الاطمئنان نابع ومما أنف استدلالا، وكذا ولدى عقد مواجهة بين شرط كهذا الذي شرطه مسيلمة الكذاب، وشرط شرطته قريش يوما ما، وحين تقاسموا الزمان، فعاما يعبدون الله تعالى مع النبي صلى الله عليه وسلم، وعاما يعبد النبي معهم آلهتهم التي يدعونها من دون الله تعالى! وحين نزل فيه القرآن مزلزلا عروشهم، ومسفها أحلامهم، ومعيبا دينهم، وحين قال الله تعالى مولانا الحق المبين سبحانه ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

وعلى كل حال، ولئن كانت رواية الإمام البخاري رحمه الله تعالى أوضح في الدلالة على أن ذاك مسيلمة الأفاك الأشر لم يسلم ابتداء؛ ولأنه أتى مشترطا مقاسمة النبي في الرسالة، وكما أنف، فإن هذا إسقاط للديانة من أساس. وهذا ما تطمئن له

النفس، وإلا أنه فليس يمنع ذلك من ذكر طرف مما قيل إن: تواتر ردة مسيلمة، وقتال الصديق له، أظهر عند الناس من قتال الجمل وصفين، ومن كون طلحة والزبير قاتلا عليا، ومن كون سعد وغيره تخلفوا عن بيعة علي [١] .

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن ابن عباس قال: قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته، وقدم في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال له: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي رأيت فيه ما أريت، وهذا ثابت يجيبك عني» ثم انصرف عنه.

خامسا: شذور البيان من خبر وفد نصارى نجران

تمهيد وتقديم

حين كان فتح الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأن نور الإسلام قد انفتحت قلوب قوم به، ولما كان صداه قد وسع الأرجاء، ولما كان ضياه قد عم الأنحاء، وإذ لا مفر من فتح مبين، أو صلح وإلى حين، ومنه كان توارد الوفود، وتوافد البعوث، وإذ كان منهم هذا وفد نجران، وحين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يبعث معهم رجلا أمينا، ولما كان رده ٩

صلى الله عليه وسلم، وأن نعم: لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين.

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية:٨ /١٧٠

وهذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لوفد نصارى نجران، وإذ كان يمثلهم العاقب والسيد، وإذ كان معهم الأسقف أبو الحارث، وكانوا أصحاب نجران، وأكابر النصارى فيهم، وحين وفدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذ كانوا يحملون رسالتهم عنهم، ولما كانوا من أهل مشورتهم، ومن ذوي رئاستهم أيضا.

ولكن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان قد أماط عن سؤالهم لثاما، ولما قد انبلج من بين أيديهم معا صلح، والصلح خير، وإذ كان خيرا لكلا الطرفين معا.

وأعالجه في تسع عشرة مسألة هي:

المسألة الأولى: ابعث معنا رجلا يعلمنا السنة والإسلام

وإنما كان قوله صلى الله عليه وسلم: لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين. وإنما هو تلبية لندائهم، وهو أيضا برهان تلبية الخصوم، وفيما يطلبون، ومن حيث كانت طلباتهم مشروعة، ولأن الناس كانوا قد طلبوا خيرا، وحين استأنسوا خيرا من هذا الطلب، ولا سيما وما عندهم عن هذا النبي من نبأ خير، وإذ كان ليس يرد سائلا! وأنه ولا شك قيم على عقد المصالحة، وأنهم لا شك سوف يسمعون القرآن والدين. من هذا الأمين الذي طلبوه، بل وطلبهم ذلك أيضا، وحيث: وقع في حديث أنس عند مسلم: (أن أهل اليمن قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ابعث معنا رجلا يعلمنا السنة والإسلام فأخذ بيد أبي عبيدة وقال: ((هذا أمين هذه الأمة)) فإن كان الراوي تجوز عن أهل نجران بقوله: (أهل اليمن) لقرب نجران من اليمن وإلا فهما واقعتان والأول أرجح[1].

(١) فتح الباري، ابن حجر: ٩٣/٧-٩٤

ولأن القوم كانوا حديثي عهد بهذا الصلح الذي أبرموه مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو ما يحتاج إلى معالجة ومتابعة ولا شك؛ لإجرائه وإمضائه على وجهه.

المسألة الثانية: هذا فن إداري

وهذا الذي نفيده، متابعة الأعمال؛ ولإنجازها على وقتها ووجهها الذين رسما لها، ومن كفؤ أمين، عملا إداريا ممتازا. وهذا الذي قال الله تعالى عنه ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

ولكن هذا الطلب، وإنما جاء تلبية لرغبة هذا الوفد، وهذه ولا شك مندوحة لهم وفضل ورضاء، ولما كانت بوادر صدق التزامهم بعقدهم مع هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا الذي حكى القرآن العظيم عنهم، وحين كانوا وكما أنهم للمسلمين أقرب مودة، وكما قال الله تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢].

وحين كانت رغبتهم في إسناد أعمال المتابعة لرجل يتميز بالكفاءة والأمانة، وهما عاملان حاسمان هامان في العمل الإداري، ومنهما ترتقي المنشأة وتعلو، وبهما تسمق وتسمو. وكما قلت آنفا، ولسوف يسمعون منه الشرع والفقه والدين.

المسألة الثالثة: عظم شأن الأمانة

ولكن الناس وحين قد طلبوا أمينا، ولا يرسلن معهم النبي صلى الله عليه وسلم إلا أمينا!

وهذا من علو شأن هذه الصفة في الوجود، ولأهميتها وتفردها، ولما كانت علامة فارقة على علامات الساعة الصغرى، وحين عزت يوما! وإذ لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، وحتى يقال: إن في بني فلان رجلا أمينا! ومن دليل تأكيده الطلب غير مرة! وحين قالوا: وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا.

وهذا من إيجاب تحصيلها ومن دليل تفعيلها، ولما كانت موجودة وبحق، ولدى كل عبد أواه حليم، وإنما كان حريا إعمالها، وتطويرها، وتهذيبها، وجعلها شارة على كل عبد منيب.

فعن حذيفة بن اليمان حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين، رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا: أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة. وحدثنا عن رفعها قال: ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض، فيبقى أثرها مثل المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبرا وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان. ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت؛ لئن كان مسلما رده علي الإسلام، وإن كان نصرانيا رده على ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانا وفلانا [١].

ويكأنه صلى الله عليه وسلم عرف وأراد أن يرد عليهم مطمئنا، وأليس لدينا إلا الأمناء! وهذه من سطور الإسلام الأولى، وأن يكون أتباعه أمناء، أنقياء، أوفياء، أقوياء، وحين أكد صلى الله عليه وسلم ذلك وبقوله: لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين.

---

(١) صحيح البخاري: ٦٤٩٧

وإن تمايز بها قوم، ولئن اختص بها فرد، وإنما هذا لأمر طبعي، جبلي، فطري، وفي كل قوم، ولا سيما ولما كانت قلوبهم مشرئبة ومتشوفة إلى الجنة، وحين كانت أعينهم مبصرة مستشرفة للمروءات، ومكارم الأخلاق.

ولما كان تطلعهم رضي الله عنهم إلى الولاية، ورغبتهم فيها؛ حرصا منهم على أن يكون أحدهم هو الأمين الموعود في الحديث، لا حرصا على الولاية من حيث هي [١].

وهذا الذي يحسب لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لينا مرنا سهلا، وإذ يجيب طلب القوم، وإذ يلبي حاجات الناس المشروعة.

وأنت ترى مؤكدات عديدة في النص آنفا، ومن لام القسم أولا، ومن موجبها، وهو تأكيد الفعل المضارع بعدها بالنون المشددة ثانيا، ومن تكرار مفردة الأمين مرتين ثالثا، وإذ فصل بينهما كلمة(حق) رابعا، وهو ما يزيد التوكيد توكيدا مرة أخرى، وفي سياق بلاغي مهيب، كان تفرده صلى الله عليه وسلم به، وحين قال: لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين.

ولكن هذا الدين وإنما خرَّج أمناء كثرا، لا أمينا واحدا!!

وبالتالي ليطمئن قلبا فريق وفد نصارى نجران، فما كان أحد في دين الإسلام إلا أمينا، أو هكذا ينبغي أن يكون، وسوف يبعث النبي العربي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم هكذا صنفا، ولأن كل أصحابه أمناء.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر: ٧/ ٩٤

ولكنه وفي كل مجتمع تجد الناس ليسوا سواء، وتجد الناس متباينين في هذه المنقبة، أو ما سواها، وعلى وجود كل من أساس، ولذلك أكد النبي صلى الله عليه وسلم أمره، وأنه لسوف يبعث معهم أمينا، وهذا الذي حدث، ويوم أن أرسل إليهم من كان مشهورا بينهم بأمانته، ومن كانت هي سليقته، ومن كان عليها أحرص، وبها أدوم، سمتا شميلا، وخلقا نبيلا، ولما كان اختياره صلى الله عليه وسلم لأبي عبيدة بن الجراح، ولما كان نعته بأنه أمين هذه الأمة.

المسألة الخامسة: ما الأمين؟

والأمين هو الثقة المرضي، وهذه الصفة وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره، لكن السياق يشعر بأن له مزيدا في ذلك، لكن النبي صلى الله عليه وسلم خص كل واحد من الكبار بفضيلة، ووصفه بها، فأشعر بقدر زائد فيها على غيره، كالحياء لعثمان، والقضاء لعلي ونحو ذلك [١].

ومؤتمن القوم: الذي يثقون إليه، ويتخذونه أمينا حافظا [٢].

ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان:٥١]. أي قد أَمِنُوا فيه الغِيَرَ.[٣]

وأقول: وإنما كان الأمين على وزن فعيل، وهو من المفعول أي: الذي كانت الأمانة فعله. وإنما جاءت على صيغة المبالغة؛ لكثرة معرفة صاحبها بها، ولاشتهار عمله لها. والأمين من فعيل؛ ولكثرة تميزه بها عن غيره.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٥/ ١٩١ – ١٩٢
(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٢٢/١٣
(٣) المرجع السابق: ج ٢١/١٣

ألم تركيف كانت إحداهما بالعربية أوعى، ولأسرارها أدرى؟ وحين قال الذكر الحكيم قولها، ولما خلد القرآن المبين لسانها، إذ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

المسألة السادسة: سبحان مقلب القلوب!

ولكننا لا ننسى أنهم جاؤوا أول ما جاؤوا للملاعنة، وحين ناصح أحدهما أخاه ألا يفعل؛ ولأنهما وإن فعلا، وكان نبيا حقا ليصيبنهم الخسار أبدا، وليس يعمهم الفلاح يوما!

ولكنهما وحين عدلا عن ذلك؛ ولأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء سبحانه، وهذا برهان أن القوم كانوا يعلمون، وكم هو عون الله تعالى لنبي قد اصطفاه للبشرية، هاديا، وداعيا إلى الله بإذنه، وسراجا منيرا، وأنه تعالى لا يخذله، ولا يسلمه؛ ولأنه تعالى قال ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧].

المسألة السابعة: عِظَمُ شأنِ النبوةِ

ودل أيضا على كم هو زخم النبوة في قلوب القوم، اتبعوا نبيهم صلى الله عليه وسلم، أو لم يتبعوه، فهذا شأن آخر! وإنما جاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن الهدى والحق والصراط المستقيم.

وهذا أمر مشاهد! ولأن الناس يعبرون عن مدى حبهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم، وها أنت إذ تراهم ليسوا يمتون إلى هديه بكثير صلة! بل وهذا الذي تراه إخلالا، وتصرما، وانحلالا!

ويكـأن هـذه العاطفـة الجياشـة، وهي لا شـك عاطفـة صـدق، وإنمـا حسـنٌ توجيههم، وجميلٌ تعليمهم، وهذا واجب دعاة الصدق العاملين، وهذا عمل المؤسسات الدعوية بكافة توجهاتها ومنابعها.

والملاعنة هي المباهلة، وهي أن يدعو كل واحد من المتلاعنين على نفسه بالعذاب على الكاذب والمبطل.

المسألة الثامنة: فادعهم إلى إحدى ثلاث

ولكن مجيء هؤلاء النصارى وفدا رسميا عن قومهم، وإنما كانت المصالحة، وأن هذه المصالحة هي دفع الجزية، وكبديل عن إسلامهم، أو حربهم، ولكن هذا الذي نفيد أيضا من حسن تصالحهم، وفيما يحسب لهم أولا، وفيما كان شأنا إسلاميا صرفا، ولا تنازل عنه شيئا، ولأن هذا هو إعمال لوجوب ثانيا، وهو ذلك الذي قال الله تعالى عنه﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

وعن بريدة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم **إذا بعث أميرا على سرية أو جيش أوصاه بتقوى الله في خاصة نفسه وبمن معه من المسلمين خيرا، وقال إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال، فأيتها أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم أنهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون**

لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله تعالى وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله تعالى فلا تنزلهم، فإنكم لا تدرون ما يحكم الله فيهم، ولكن أنزلوهم على حكمكم ثم اقضوا فيهم بعد ما شئتم (١).

المسألة التاسعة: ولاية الرجال وسمو مكانة الشقائق النساء

لكننا رأينا وكيف كان طلبهم رجلا، وكيف كان رده صلى الله عليه وسلم عليهم بكونه رجلا؛ برهان معهود ولاية الرجال، ودون شقائقهن النساء، ودلالة عظم المسؤولية، وأنه كان كفيلا بها الرجال دون النساء، ولا سيما حديثنا الآنف ذكرا، وكيف كان تمايز الرجال بها؛ ولأنهم أعظم تحملا لأثقال المهمات الصعاب، والتي ربما أَنَّتْ منها شقائقهن النساء القوارير، ومنه فإن الولاية، وبهذا المستوى كان جديرا بها جنس الرجال الأكفاء، الأنقياء، الأتقياء، الأوفياء، وساما عن شقائقهن من النساء، فإن لهن أعمالا، ولربما كانت أعظم، ولعلها أضحت أقوم، ولما كانت مناسبة لعواطفهن، ومشاعرهن، وأحاسيسهن، وما به ليست تكون من عدلها عند معاشر الرجال! ومن تربيتهن نشأهن، ومن تخريجهن أجيالا كانت، وعلى مثل أو قريبا من مستوى هذا الأمين أمين هذه الأمة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه.

وإنه ولئن قامت قوارير أمتنا بهكذا مهنة، وهن أولاء النساء الفضليات الكريمات الأبيات العزيزات، فإنهن بذلك يكن قد قدمن لأمتهن عونا، وزادا، وركائز عليها يكون عماد الأمة، ومن بسط كلمتها، ومن كونها أمة طيرا مسخرات في جو السماء

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٦١٢

صافات ويقبضن، شارة عزة، وعلامة أنفة، وبرهان إباء، ودليل رفعة، وسمو، وعلو، ومن سببهن أولاء القوارير، ومن سبب أم قامت بما هي أهله، وعلى وجهه، حسبة للرحمن، وطاعة لربها العظيم الديان، المنان سبحانه.

المسألة العاشرة: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

لكننا رأينا كم تسابق الأصحاب يومهم ذلك إلى هذا الفضل، وحرصا منهم عليه، ولربما ثقة في أنفسهم بالأمانة أيضا، وهذه مناقب هذا الجيل الكريم، ولقد كان حقا، ولما ينزل فيهم قرآن كريم يتلى إلى يوم الدين، وماذا أنت قائل، وحين رضي الله عنهم ورضوا عنه؟ وحين قال الله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

فعن حذيفة بن اليمان جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل؛ فوالله لئن كان نبيا فلاعنا، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا، فقال: لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أمين هذه الأمة [١].

المسألة الحادية عشرة: والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم

وهذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين راح إليه وفد نصارى نجران وحكامهم، وحين اجتمع قول أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٨٠

الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي، وجبار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ.

ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا قد خلعوا عن أنفسهم لباس سفرهم، وارتَدَوا حللا من ذهب، ومن ثم دخلوا على هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، وبهذه الهيئة، ولكنه وإن كان قد قبل منهم ذلكم المنظر، فما تقوم لدين هكذا قائمة يوما، وأهله على هذا النعيم الدنيوي، بل وحكامهم، ولذلك وحين دخلوا، وألقوا السلام، فلم يرد عليهم ثلاث مرات متتالية!

المسألة الثانية عشرة: فطنة وليٍّ وحكمة عليٍّ

ولكن هذا عليا بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قد كان فطنا، وحين أشار عليهم بخلع هذه الحلل، ولبس رداء سفرهم، ومن ثم يدخلون على هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وحينها ويرد عليهم السلام، وحين قال قوله هذا: والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم. ثم وعظهم، وأبدى لهم الإسلام، الذي هو: لا أمر إلا أمره تعالى، ولا نهي إلا نهيه تعالى، وكذا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. وحتى انتهوا إلى عدم إصدار رأيهم فيه، ولما يرجعوا إلى أسقفهم، فيفتونهم!

وهذا الذي يحذر الإسلام منه أبدا، ولما كان الشيطان قد أقسم بعزة الجبار القهار، وأنه ليأتينهم من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين! وكما قال تعالى ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

المسألة الثالثة عشرة: النعيم لا يدرك بالنعيم!

لكن ارتداء حلل الذهب، وإنما هو لباس يبغضه الله تعالى، ولأنه خارج مألوفات الناس، ولأنه مكلف، ولأنه خارج عن أصول الخلق الحميد، ولأنه داع كبرا، وصلفا وأبهة، ولأنه تنعم مبالغ فيه، وإذ وماذا بقي من نعيم ينتظره الناس ومن بعد ذلك، وحتى تهفو نفوسهم إلى الجنة؟! ولأن هذا الإغراق في النعيم صارف عن هدى، وصاد عن صلاح، ومميل عن فلاح، ولأن الناس وحين يدعونهم هؤلاء إلى البر والتقوى، فلسوف يوصدون ما بينهم وبينهم بالضبة والمفتاح! وإذ لأي شيء يدعونهم، وهم أولئك في عليين من سقف دنياهم، وما الناس إلا رعاع مساكين؟!

المسألة الرابعة عشرة: تواضع في غير ابتذال

وهذا الذي تنبغي مراعاته، وعند التعرض للناس بالدعوة من زي متواضع، وليس يكاد يخرج العبد عن مألوفات الناس، وإلا أعرضوا، وتنكبوا، وردوا، ويكون وبال أمرهم على أولئك الذين دعوهم، وهم في منزلتهم تلك!

ولكن الناس فطرة وجبلة يهدأون، ويركنون إلى هكذا نفر كان رداؤه التواضع والصوف، لا من بذل، وإنما من غير كلفة، ووسط، ولأن خير الأمور أوسطها، وشر الأمور أبعدها عن هذه الوسطية، ومن كل شيء، وليس هذا من خروج على حديث: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده [1]. بل بون شاسع، بل خرق واسع، بل فرق مترامية أطرافه، وليس يكاد يلملمه إلا رجوع إلى الجادة، من تواضع في ملبس، ومن هنة في خطو!

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٨١٩. خلاصة حكم المحدث: حسن صحيح.

ولهذا السبب؛ كان قوله صلى الله عليه وسلم الآنف الذكر: والذي بعثني بالحق، لقد أتوني المرة الأولى، وإن إبليس لمعهم [١]. فدل على أن هيئة كهذه، وإنما هي من عمل الشيطان. وإنما جاء عمل الدعاة للإرشاد إلى سبل الفلاح وانتهاجها، وللتحذير عن طرق الشيطان ونبذها.

المسألة الخامسة عشرة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ولكن هذا الوفد، وحين أدخلهم النبي صلى الله عليه وسلم على مجلسه المتواضع، وحين كان همهم سؤاله، وعما يقوله في نبي الله عيسى عليه السلام، وحين سألوا: ما تقول في عيسى؟ فإنا نرجع إلى قومنا، ونحن نصارى، ليسرنا إن كنت نبيا أن نسمع ما تقول فيه. ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ولأنه ليس يعمل إلا بالوحي، ولهذا فقد فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى» [٢].

فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل قوله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦١].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي: ٢١٢٦

(٢) المرجع السابق: ٢١٢٦

المسألة السادسة عشرة: ما المباهلة؟

وهذه هي المباهلة التي خشوها، وهذه هي الملاعنة التي أبوها، وقد كان هذا برهان قوة حق يؤمن به أهل الحق، مواجهة أعوان الشيطان، من مردة الجن والإنسان!

والمباهلة هي استفتاح صريح، وحين جاءت من طرفين، وكما معنا الآن من سورة آل عمران، وإذ يدعو كل طرف فيها باللعنة على المبطل منهما، وهي المباهلة الصريحة، ويمكن تأديتها بأي لفظ يؤدّي هذا المعنى.

والاستفتاح نوع مباهلة، وصورته أن يأتي من طرف واحد، ومن مثل الذي ورد أن أبا جهل قال حين التقى القوم- يوم بدر-: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحنه الغداة، فكان المستفتح.[1].

والمباهلة: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لَعْنَةُ الله على الظالم منا[2].

المسألة السابعة عشرة: اتباع لا ابتداع

ولكن إسناد هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم عمل دعوته، وفيما لا يعلم، وحين أرجعه إلى مولاه تعالى الخالق العظيم الحق المبين سبحانه. وإنما هو سبيل لغيره تبعا، ومن باب أولى، وألا يقول على الله تعالى بغير علم، بل يرجع في كل خطو إلى شرعة الرحمن، ويخلع عن ذات نفسه استحسانات العقول، والتي تورد صاحبها المهالك، فهذا هو نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولما سكت عن قول،

---

(١) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٢٣٦٦١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.
(٢) لسان العرب: ١١/ ٧١

ولربما لو كان أحد آخر لانتصب له إفتاء، وقضاء غير قابل للنقض!، ولأن الأمر متعلق بدينه تعالى، فكان لزاما عود إلى السلطة العليا، ولتقول كلمتها، والسلطة العليا ههنا هو الله تعالى، ذو السلطان القديم، وذو الوجه الكريم، وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، وله خلقه، وله أمره، تعالى عن كل شبيه، وتسامى على كل نظير، وند، ومثيل، وشريك، سبحانه.

وقال الله تعالى ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف:٨٥].

المسألة الثامنة عشرة: هذا فن إداري عبقري

وكما أنه عمل إداري ممتاز، وحين الرجوع إلى السلطة الأعلى، ليستقيم عمل المنشأة، وصحيح أن صلاحيات ممنوحة سلفا؛ وكيما لا تراوح المنشأة مكانها، ولكنه أيضا وجب ألا يترك حبل على غاربه، وفيما يستجد من أعمال، ولما لم يستطع الموظف إمهارها، من حسن موقف، ومن جميل تصرف، ولربما لو كان قد فعل نقيضه لأدى ذلك إلى انفراط عقد منشأته، وليكون وبال هذا على سلمها الإداري كله! ومن قمته وإلى قاعدته وليأخذ الجميع سيلها الجارف!

المسألة التاسعة عشرة: وثيقة العزة والإكرام

ولكن هذه المباهلة، وهي التي فعلت في الناس فعلها، وقد كان هذا من توفيقه تعالى أولا وآخرا؛ ولأن كلمة الحق تحمل من سلطانه، ما تلوى به أعناق خصومها، ولما يسلموا لها، فينقلبوا فالحين.

وهذا الذي حدث، وحين أجمعوا رأيهم أن يحكموا أمرهم، ولما بلغوا أن يضبطوا شأنهم، ولأنهم رأوا رجلا لا يحكم شططا أبدا!!

وبهذا فقد نزلوا على حكمه، وبدلا عن مباراته ومباهلته، أو ملاعنته، والله وحده هو العليم، وماذا سوف كانت، أو تكون نهاية هذه الملاعنة، وإلا خذلانهم، وإلا أنه ولربما استئصالهم عن بكرتهم.

وإذ كانت نهاية هذا التفاوض، هو نص هذه الوثيقة التاريخية، والتي نضعها تحت تصرف قومنا، لينهلوا منها العزة، وليستعيدوا منها الكرامة والإباء، ولا يخشين! كِتَابِيٌّ! ولأنه في كنف ورعاية دين ليس يظلمهم، ولا غيرهم، بل يعدل فيهم وغيرهم، ويكرمهم وغيرهم، وجوه العدل، وأسماها، وأعلاها، وأسناها، وأبهاها؛ ولأنه من وضع الرحمن الرحيم، سبحانه، وحين أملى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي للأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران، وكهنتهم، ورهبانهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوار الله ورسوله لا يغير أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يُغَيَّرُ حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا ما كانوا عليه من ذلك، جوار الله ورسوله أبدا، ما أصلحوا ونصحوا، عليهم غير مبتلين بظلم ولا ظالمين» [١].

وأنت ترى كم هو خلق نبيك صلى الله عليه وسلم حميدا حسنا شميلا نبيلا جليلا كريما، وحين خاطب الناس بعبارات الإلف والتواضع والأناة والحلم، وإذ هو المنتصر! وإنما لا يمنعن أحد نصره من خلقه، ولا يخرجن أحد فوزه عن حلمه.

وها أنت ترى كيف أنزل نبيك صلى الله عليه وسلم الناس منازلهم، ولو كانوا كفارا مشركين!

وهذا أدب ديننا الأجم الأفخم الأكرم، وهذا خلق إسلامنا الأعم الأهم الأعظم.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي: (٥/٤٨٥)، حديث رقم: ٢١٢٦

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم [1].

سادسا: وفد بني عامر وقصة عامر بن الطفيل وأربد بن مقيس

اللهم اكفني عامرا، واهد قومه

هذا دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على عامر بن الطفيل وحين جاء متوعدا بقتله، ولكن الله تعالى مانع رسوله صلى الله عليه؛ ولأنه تعالى قال ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧]. ولكن عامرا هذا ومن سلك سبيله معوجا هكذا، وقد طمست قلوبهم؛ ولأن القتل في سبيل الله شهادة، وهذه قناديل خير، وتكون مشاعل هدى للناس ومن بعدهم.

ولكن عامرا هذا كان قد بينت النية على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحين تواعد وصاحبه أربد بن مقيس على أن يغافله عامر، ومن ثم يطبق عليه أربد قتلا!

وحين جاءا، وأخذ عامر هذا يشغل وجه نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا أن شغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومهنته كانت هي دعوته، وما كان شيء في الوجود ليصرفه عن ذلك، وكائنا ما كان الثمن، ولأنه مأمور من أمر ربه تعالى وكذا أتباعه معه أو من بعده صلى الله عليه وسلم، وحين قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

---

(١) معرفة علوم الحديث، الحاكم: ٩٦. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وإذ يقول له عامر خالني يا محمد، ورسول الله لا يعبأ به، بل وحتى يسلم ويؤمن بالله وحده، ومن ثم يمنح الأمان؛ ولأنه قال الله تعالى ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٣].

وحتى انتهى اللقاء بهما ودون أن يحرك أربد هذا ساكنا! وحين اختليا لامه عامر على عدم إقدامه على قتل نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم! وحين أغلظ له قولا، وحين قال عامر بن الطفيل لأربد: أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوف على نفسي منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبدا.

ولكن الله تعالى له سننه، وعنده حكمته ولطفه بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أعمى الله تعالى الأبصار عنه؛ وكما أغلقوا هم بصائرهم دون هداه تعالى، ولما كان من أمر أربد هذا، وأنه كلما هم بقتل نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ بمقاديره تعالى التي لا تخطيء، يكون عامر هذا هو واجهة تلقي الضربة الحاسمة القاتلة! وهذا ليس تخييلا بل حقيقة!

وحين يفجأه أربد قائلا: لا أبالك، لا تعجل عليَّ، والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا دَخَلْتَ بيني وبين الرجل، حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان قد دعا بدعائه سالف الذكر هذا: اللهم اكفني عامرا، واهد قومه. ومن ثم ليبتليه الله تعالى بالطاعون فيقتله، وعلى ظهر فرسه، وحين خرج حتى إذا كان بظهر المدينة صادف امرأة من قومه يقال لها: سلولية فنزل عن فرسه ونام في بيتها، فأخذته غدة في حلقه، فوثب على فرسه، وأخذ رمحه،

وأقبل يجول وهو يقول: غدة كغدة البكر، وموت في بيت سلولية، فلم تزل تلك حاله حتى سقط عن فرسه ميتا.

وهذه الآيات ورغم وجودها كل حين من أمر الناس، ويجريها الله تعالى في كونه، وإلا أن الاستكبار يعمي، وإلا أن الجهالة تغمي، وحين يغط فيها آحادهم، فتكفه عن الحق كفا، وتوقعه في غيه غيا، وهلاكا، ودمارا، وقال الله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

ولكن موئلة بن جميل روى حديثه في قصة عامر بن الطفيل هذا مع نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أمره نبينا محمد صلى الله عليه أن يسلم، وفي عزة المسلم، ومنقطع نظيرها، ولأنه ولئن كان حرصه صلى الله عليه وسلم على الناس أن يسلموا، وإلا أنه على عزة، وأنفة، وإباء، ومصحوب كل هذا بتواضع ليس يعتريه كبر أو ما شابهه ولا ما قاربه، ولأنه يقدم لهم خيرهم، ولما دلهم على خيرهم وصلاحهم، وحين يخلع عنهم ربقات الجاهلية التي أعمتهم، وأكبتهم على وجوههم، ولما كانت ظلمات، وكان مجيئه صلى الله عليه وسلم؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. وكما قال الله تعالى ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

ولكن عامرا هذا، ولن يبلغ به غيه أن يسلم، بل زاد الطين بلة! وحين شرط اتباعه للنبي صلى الله عليه وسلم، وعلى أن يكون له الوبر، وعلى أن يكون للنبي المدر! و ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم:٢٢].

وليس الشأن أن يكون المدر أو الوبر! ولكن الشأن هو رفض الاشتراطات على الله تعالى! وهذا هو مربط الفرس، وحين كان أي شرط موضوع تحت أقدام هذا الدين، إلا شرطا أحل حلالا، وشرطا آخر حرم حراما، وهنا يكون على العين وعلى الرأس، أما شرط يبقي سلطانا في قلوب الناس دون سلطان الله تعالى وشرعه ودينه ومنهجه، فهذا هو الشرط الذي يحل حراما أو يحرم حلالا، وكلاهما موضوع تحت قدمي هذا النبي ﷺ، وهذا هو الذي أعلنه يوم قوله: الصلح جائز بين المسلم+ين، إلا صلحا أحل حراما، أو حرم حلالا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المسلمون على شروطهم. [١]

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البيهقي رحمه الله تعالى من طريق الزبير بن بكار حدثتني فاطمة بنت عبد العزيز بن موءلة عن أبيها، عن جدها موءلة بن جميل قال: أتى عامر بن الطفيل رسول الله ﷺ فقال له: «يا عامر أسلم». فقال: أسلم على أن لي الوبر ولك المدر. قال: «لا». ثم قال: «أسلم». فقال: أسلم على أن لي الوبر، ولك المدر. قال: «لا». فولى وهو يقول: والله يا محمد لأملأنها عليك خيلا جردا، ورجالا مردا، ولأربطن بكل نخلة فرسا. فقال رسول الله ﷺ: اللهم اكفني عامرا، واهد قومه. فخرج حتى إذا كان بظهر المدينة صادف امرأة من قومه يقال لها: سلولية فنزل عن فرسه ونام في بيتها، فأخذته غدة في حلقه، فوثب على فرسه، وأخذ رمحه، وأقبل يجول وهو يقول: غدة كغدة البكر، وموت في بيت سلولية. فلم تزل تلك حاله حتى سقط عن فرسه ميتا [٢].

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٥٩٤

(٢) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٤ / ١٠٩

قال الله تعالى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

هذه هي الآية الحادية عشرة من سورة الرعد. وهي آية تضمنت الفضل من الله تعالى، وحين كان الله تعالى ولم يزل مسخرا ملائكة كراما بررة يحفظون العباد من أمره تعالى، وعلى نظم القرآن الحكيم.

وليس يمنع هذا من عمومها الناس أجمعين، وحين سخر الله تعالى للعبد الواحد عددا من الملائكة يحفظونه من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح. وهكذا ليكون العبد حينه كله مسيجا بسياج الرحمة والحفظ والإكلاء والرعاية من الله تعالى مولاه الحق المبين سبحانه.

وهذا هو الذي جاء به الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. الذي نصه: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون [(١)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: إياكم والتعري فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم [(٢)].

وهذا الذي جاء به حديث آخر عن كنانة العدوي بلفظ: **دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أخبرني عن العبد كم معه من**

---

(١) صحيح البخاري: ٥٥٥

(٢) ضعيف الترمذي، الألباني: ٢٨٠٠

ملك؟ فقال: ملك على يمينك على حسناتك، وهو آمر على الذي على الشمال، إذا عملت حسنة كتبت عشرا، فإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكتب؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب. فإذا قال ثلاثا قال نعم: اكتب، أراحنا الله منه، فبئس القرين، ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا، يقول الله: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله: له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك، ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وملك قائم على فيك لا يدع الحية تدخل في فيك، وملكان على عينيك، فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار، لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي، وإبليس بالنهار وولده بالليل [1].

ولعل عموم الأحاديث السالفة الذكر هو الذي حمل نفرا من أهل العلم في انطباقها على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين تهجم عليه عامر بن الطفيل بشر، وتوعده بسوء، ويوم أن عزم أمره وصاحبه وأربد بن ربيعة على أن يقتلاه، وكما مر معنا آنفا. وحين كان يقين هذا النبي صلى الله عليه وسلم بربه تعالى، وأنه تعالى مانعه من عامر ومن أربد ومن غيرهما.

وهذا هو الذي ذهب بجمع من أهل العلم بتفسير كلامه تعالى، وعلى حمل قوله تعالى ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/٣٦١. خلاصة حكم المحدث: غريب جدا.

يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣]. على ما حل بعامر بن الطفيل من طاعون، وعلى ماحل بأربد من قرحة!

وبنفس هذا العموم في شأن الحفظة، وحين كان حفظه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم من وعيد عامر، وهو الذي ينطبق أيضا على عامر وأربد بن ربيعة مما جاء من نظم آية الصواعق، وحين كان كل ذلك من آيات ربنا الرحمن الرحيم، وكذا من آيات جبروته وسلطانه القديم سبحانه.

وحين: ذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة لما قدما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له عامر بن الطفيل، لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا. فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة. يعني: الأنصار، ثم إنهما هما بالفتك بالنبي- صلى الله عليه وسلم- وجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله منهما وعصمه، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب، يجمعان الناس لحربه، عليه السلام فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته. وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر، غدة كغدة البكر، وموت في بيت سلولية؟ حتى ماتا لعنهما الله، وأنزل الله في مثل ذلك قوله تعالى: ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء.

ولكننا مدعوون لحذر، ولكننا منادون لتلبية نداء ربنا، والثبات على أمره ولأن الأمر جد مخيف، وجد مرعب وإلا من حفظه مولاه، وحين قام على أمره، ولحديث:

قال ربكم عز وجل: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوت الرعد[١] .

وأما عن التعري وقت الجماع والخلاء والغسل، فالجمهور على جوازه؛ ولصحة ما ورد، ولعدم صريح نهي في ذلك، ولضعف حديث الترمذي الذي أنف.

فعن عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر قال احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك قال قلت يا رسول الله إذا كان القوم بعضهم في بعض قال إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها قال قلت يا رسول الله إذا كان أحدنا خاليا قال الله أحق أن يستحيا منه من الناس [٢] .

قال: وأما السؤال عن دخول الكاتبين الخلاء، فجوابه أنا لانعلم، ولا يقدح عدم علمنا بذلك في ديننا، وجملة القول فيه أنهما إن كانا مأمورين بالدخول دخلا، وإن أكرمهما الله عن ذلك وأطلعهما على ما يكون من الداخل مما سبيلهما أن يكتبا فهما على ما يؤمران به والله أعلم [٣] .

---

(١) ضعيف الجامع، الألباني: ٤٠٦٢

(٢) تهذيب السنن، ابن القيم: ٥٦/١١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٣) الحبائك في أخبار الملائك: جلال الدين السيوطي: ٩٠/١

سابعا: قدوم ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر

إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين دخل عليه ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر، وكان زعيم قومه، وحين جاء راغبا في الإسلام ولا شك، ولكن الرجل كان قد أخل بمروءات، وقد خالف عادات، وحين أدخل بعيره المسجد، وأناخه فيه، وحين لم يلق تحية على الجالسين، وحين ساءلهم أيهم محمد، وبهذه الفظاظة، وحين ساءل النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، آأنت ابن عبد المطلب؟! وحين قدم بين يديه صلى الله عليه وسلم أنه مغلظ له قولا، وأنه يصبر عليه صبرا! ونبينا صلى الله عليه وسلم وإذ ها هو المتواضع جلسة، والحليم عبارة، والحني كلمة، وحين كان قد أجابه بلطف الكلام، ولما كان قد رد عليه بحسن البيان، وحلم النبي، ولين الولي، صلى الله عليه وسلم. وأن نعم كل ما ذكرا!

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا هو التاريخ يسجل له أن رجلا كضمام بن ثعلبه قد دخل مسجدا ومجلسا فيه نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم ولم يعرفه! وإذ كانوا يعرفون غيره من قادة عصرهم، ومن زعماء يومهم. ومن جلستهم، ومن صولجانهم، ومن مواكبهم، ومن لباسهم، ومن تاجهم، وغيره من هالة يصنعونها، وإذ تصنع لهم أيضا!

ولكن الذي نقف عنده أيضا وإنصافا، هو قطع هذه المسافات للتأكد من صدق النبوة، ومن خبر الرسالة، ومن شرائع الديانة، ولما كان حاصله إسلام ضمام بن ثعلبه هذا، وحين عزم على تعليم قومه الإسلام، ولما يرجع إليهم.

ولكن الذي نقف عنده أيضا، هو ذلكم الحرص على تعلم شرائع الدين مفصلة مبينة، وهذا هدي نهتديه، وأن يبحث العبد عما يصلح به دينه، من معرفة شرائعه، وعما يقوم به صلاحه، من إدراك أركانه، ومن ثم ليعمل بها، وداعيا إليها قومه، وإنما لهم حق في ذلكم عظيم، وإنما له أجر في ذلك عظيم أيضا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: **بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي صلى الله عليه وسلم متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: يا ابن عبد المطلب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: قد أجبتك. فقال الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك. فقال: سل عما بدا لك فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم نعم. فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر**[1].

---

(١) صحيح البخاري: ٦٣

ثامنا: قدوم زيد بن مهلل بن زيد بن منهب

إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ الذي فيه!

هذا ثناء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على زيد الخيل، زعيم وفد طيء إليه صلى الله عليه وسلم، وليسلموا بين يديه، وقد كان هذا من مما سمعه عنه صلى الله عليه وسلم، من حسن خلق، ومما عرف عنه من أدب حميد، وقد أخبره عن أناس آخرين من طيء وغيرها، ومن ذوي خلق دمث، ومن أرباب الشمائل والفضائل.

وإلا أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، ولما قد رأى هذا زيد بن مهلل بن زيد بن منهب وعلى أكثر مما أُخبِرَ به عنه من خلق، بل زاد فضلا وخلقا ونبلا حسنا.

وهذا الذي يقف عنده العبد، ومستوحيا مثل هذا خلق حميد، ومسترشدا كهذا أدب فريد، قد تحلى به الناس، ورغم كفرهم، وإذ لم يكن هذا زيد قد أسلم بعد، وبه دل على أن مكارم الأخلاق هي مكارم الأخلاق، وهذا شأنها أمر فطري جبلي طبعي، خلق الله تعالى الناس عليها، وإنه ولما جاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، ومنه فلا يستغرب أن تخليهم من أخلاقهم، وإلا نفرا، ومن مثل هذا زيد بن مهلل بن زيد بن منهب.

ولعل هذا أيضا كان من أثره أنه أسلم، ولم يتلعثم، وكغيره من أولئك الذين جادلوا من قبل وساءلوا، وكمثل الذي مر بنا معنا آنفا، ومن شأن هذا ضمام بن ثعلبة أخي بني سعد بن بكر، وكلا على خير على كل حال. وإذ فلما انتهوا إليه صلى الله عليه وسلم كلموه، وعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلموا فحسن إسلامهم.

ولكن هذا الذي اشتهر به زيد الخيل سابقا، وها هو زيد الخير تاليا، وهو ما أخبر عنه النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كانت معادن الناس في الجاهلية من خير، هي معادنهم في الإسلام، ومن هذا الخير أيضا.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا، وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية. وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، ويأتي هؤلاء بوجه [١].

ولكنه قد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قد أخبر زيدا أن فيه خصلتين يحبهما الله ورسوله، وهما الحلم والأناة، ولئن كان قد قالهما لأشج عبد القيس، وقد كان جاهليا أيضا، وقبل إسلامه، وإذ قال صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: (إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)، فقال: أخلقين تخلقت بهما؟ أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال: بل خلقين جبلت عليهما، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله[٢].

وليس يمنع من تكرار القول، وكلما تكررت مناسبته، وإن كنت لم أقف على مصدر صحيح لرواية ذلك لزيد الخير.

والعرب تسمي الخيل خيراً. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لزيد الخيل: أنت زيد الخير. وكان رضي الله عنه، إذا ركب الخيل، خطت رجلاه الأرض واسمه زيد بن مهلهل بن زيد الطائي، وكان كثير الخيل، لم يكن لأحد من قومه، ولا لكثير من العرب إلا الفرس أو الفرسان، وكان له الخيل الكثيرة منها الهطال والكميت والورد والكامل

(١) صحيح البخاري: ٣٤٩٣
(٢) تخريج شرح الطحاوية، شعيب الأرناؤوط: ٦٥١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

ولاحق ودموك قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد طيء سنة تسع فأسلم وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " ما وصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته بدون تلك الصفة إلا أنت، فإنك فوق ما قيل لي إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الأناة والحلم [١].

طرفة: وحكى صاحب ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار، أنه عرض على أبي مسلم الخراساني، صاحب الدعوة جواد لم ير مثله، فقال لقواده: لماذا يصلح هذا الجواد. قالوا: للغزو في سبيل الله. قال: لا. قالوا: فيطلب عليه العدو. قال: لا. قالوا: فلماذا يصلح أصلح الله الأمير؟ قال: ليركبه الرجل، ويفر به من المرأة السوء، والجار السوء [٢].

وقال صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة، فقال: أخلقين تخلقت بهما؟ أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال: بل خلقين جبلت عليهما، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله [٣].

وعلى كل حال، فإن هذا مما يشعر بصدق هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن ذلكم من أعلام نبوته، ولأن هذين الرجلين وحين أسلما، فقد كان لكل منهما شأن كريم، ولصالح هذا الدين، ومن بعد صالحه لكلا الرجلين نفسيهما.

ولأن كلا من أشج عبد القيس، وكذا زيد الخير هذين، وحين أسلما، وقد أسلم معهما من قومهما النفر الكثير، فتحا من الله تعالى ورضوانا.

---

(١) حياة الحيوان الكبرى، الدميري: ٢١٨/١

(٢) حياة الحيوان الكبرى، الدميري: ٢١٨/١

(٣) تخريج شرح الطحاوية، شعيب الأرناؤوط: ٦٥١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

ولكن الملفت قدرا أن وفد طيء هذا، وحين جاؤوا إلى هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بعد سماع خبره، وإذ كانت قد انتشرت دعوته في الآفاق، وإلا أنهم كان مجيئهم هذا يوم الجمعة، وإذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب، ومنه فقد راعهم ما سمعوه، وقد أخذ عليهم قلوبهم ما علموه، وكما أنهم قد أدهشهم التفاف الناس حوله، ومن محبتهم وطاعتهم معا. ولا سيما أن زيد الخيل هذا قد كان زعيم قومه، ويعرف ما للزعماء من هالة، ولكن هالة نبينا صلى الله عليه وسلم كانت أعظم، وهذا الذي وقف عليه زيد بنفسه لا خبرا منقولا، ولربما كان قد أصابه التشويش الإعلامي. وإن كل ذلكم إلا من اختيار الله تعالى الرحمن الرحيم؛ وكيما يسمعوا الهدى، فتميل إليهم قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، وسبحان مقدر هذا، وتبارك وتعالى من قضاه.

ولكن هذا زيدا، وإذ كان يدعى زيد الخيل في جاهليته؛ ولأنه كان يمتلك ستا أو خمسا من الخيل!

وهذا برهان أهمية هذا المُلْكِ من الخيل، وهذا العدد منه، وإذ كان يشار إلى صاحبه بالبنان، وعلى ما أنف توا.

ولكن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان قد غير اسمه إلى زيد الخير، وتيمنا بما أطلق العرب على صاحب خيل أنه زيد الخير، وأيضا ولعل هذا تيمنا بما كان منه قوله صلى الله عليه وسلم: الخيل معقود في نواصيها الخير والنيل إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، فامسحوا بنواصيها، وادعوا لها بالبركة، وقلدوها، ولا تقلدوها الأوتار [١]

(١) صحيح الترغيب، الألباني: ١٢٤٩

وهذا الذي ورد عن غير واحد من رواة هذه السيرة النبوية المباركة، ولحديث عبدالله بن مسعود: كنا عند النبي عليه السلام إذ أقبل راكب حتى أناخ بالنبي عليه السلام، فقال: يا رسول الله، إني أتيتك أسألك عن علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد، فقال له النبي عليه السلام: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحب الخير وأهله ومن يعمل به، وإن عملت به أيقنت بثوابه، وإن فاتني منه شيء حزنت ، فقال له النبي عليه السلام: هيه هيه علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد، ولو أرادك للآخرة هيأك لها، ثم لم يبال في أي واد سلكت [(١)].

وعلى كل حال، فإن محبة فعل الخير علامة فارقة على أولي الخير والعزم منه، ولا سيما وحين تكون عقيدة الناس سليمة من عيب شرك أو من مذمة كفر به تعالى، وحين اتخذ من دونه شفعاء، أو أولياء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا. فضلا عن غيرهم. أو قد اتخذ من دونه أمرا آخر غير أمره، أو نهيا دون نهيه تعالى.

ولكن هذا زيدا، وحين انصرف، وقد قال صلى الله عليه وسلم: إن ينج زيد من حمى المدينة فإنه قال، أو غالب. وإذ كانت تسمى حمي المدينة أم ملدم. وأم كلبة.

وهذا إشعار نبوي، وأنه ولربما أحس هذا النبي بعَرَضٍ، وهذا إخبار بأنه ولربما قد أوتي إليه من شأن زيد الخير هذا وحي! ولأنه ولما فارق المدينة، وانتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له: فردة أصابته الحمى فمات بها، ولما أحس بالموت قال:

أمرتحل قومي المشارق غدوة   وأترك في بيت بفردة منجد

ألا رب يوم لو مرضت لعادني   عوائد من لم يبر منهن يجهد.

---

(١) الضعفاء الكبير، العقيلي: ١/١٤٦

ولكن هذا أيضا علم آخر ضاف من أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما قاله الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزيد الخيل: «ما وصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك» وسماه زيد الخير، وأقطعه فيدا، وكتب له بذلك، فخرج راجعا، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن ينج زيد من حمى المدينة فإنه غالب» فأصابته الحمى بماء يقال له قردة، فمات به [١].

ولكن امرأة زيد الخير هذه، ولما مات زوجها، فراحت إلى كتبه فأحرقتها! وهذا عمل قالوا عنه وبأنه من جهلها، وقلة عقلها، ودينها، وحين عمدت إلى كتبه فأحرقتها!

وإلا أن عليا بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه كان قد بعث إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهبية في تربتها، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة، زيد الخيل، وعلقمة بن علاثة، والأقرع بن حابس، وعتبة بن بدر، وذلك تأليفا لقلوبهم، ولكن قريشا وكعادتها أرغدت وأزبدت، وإذ كيف يمنح صناديد كهؤلاء ويدعنا؟!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أبي سعيد الخدري: بعث عليٌّ رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهيبة، فقسمها بين الأربعة: الأقرع بن حابس الحنظلي ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري ثم أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار، قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا! قال: إنما أتألفهم. فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية، محلوق، فقال: اتق الله يا

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني: ٢/٥١٤

محمد، فقال: من يطع الله إذا عصيت؟! أيأمنني الله على أهل الأرض فلا تأمنوني! فسأله رجل قتله -أحسبه خالد بن الوليد- فمنعه، فلما ولى قال: إن من ضئضئ هذا -أو: في عقب هذا- قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد[1].

تاسعا: القول السَّنِي في خبر عدي بن حاتم الطائي

يمثل إسلام عدي بن حاتم الطائي حجة بالغة على كل أحد، وبرهانا دامغا يعلو كل ناصية، ولأن الناس يومهم هذا كانوا إلى دين سيدنا النبي عيسى عليه السلام أقرب، وإلى تعاليمه أفهم، وحتى ولو لم يكن العهد الجديد قد كتب إلا من بعد مائتين وخمسين عاما، أو ثلاث مائة عام من بعثته، ومن ثم من نزول آيات الإنجيل عليه- عليه السلام- وإذ لا يزال نورها لم يحجب، وإذ لا يزال برهانها لم يطم، ومن كثرة ما توارد عليها الأغيار تبديلا وتغييرا وتعديلا!

ومن طرف: نحن نريد أن نسأل: هذا كتاب كتبه الناس بعد رحيل صاحبه بثلاث مائة سنة! وليس يوجد من تابعيه أحد! وها هم قد ماتوا أيضا، وها هم يحال عدم نسيانهم حال طول عمر أحدهم! ومنه أيعقل أن يكون هذا الكتاب هو هو كما أنزل؟!

ومنه فإن إسلام عدي وغيره من أهل الكتاب، وقد كان من الشهرة وسط قومه بمكان، ليعد برهانا على صدق رسالتنا، ويحسب دليلا على بطلان محاجتنا، ومناصبتنا، ومعاداتنا، وإذ نحن أصحاب الحق الأصيل في دعوة الناس بالحسنى

---

(١) صحيح البخاري: ٣٣٤٤

والبرهان، وكيما نعبد الله تعالى الكريم ذي العظمة والملكوت والجبروت والسلطان. وهذا الذي قال الله تعالى عنه ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

وأعالجه في عشرين مسألة:

المسألة الأولى: أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذ أنكروا.

هذا قول عمر الفاروق لعدي بن حاتم الطائي رضي الله تعالى عنهما. وهو قول مفسر نفسه بنفسه، وزيادة قول لي ربما ألحقت به فسادا، ولربما أيس منه كلام من مثلنا!

ولكن هذا عديا بن حاتم الطائي، وكان نصرانيا، وإذ كان من شأنه أنه هرب، لما سمع بجيش نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد زحفوا قربا منه، ولما كان قد اتخذ أهبة من عيره فأخذها، واستل نفسه هاربا إلى الشام، وعند أهل منعته من النصارى هناك! وإذ ليس يدري المسكين أن الله ربه سيسوقه سوقا إلى الهدى والنور والسلام والسرور والصلاح والفلاح والحبور!

ويكأن الله تعالى يقدر بلطفه أقدارا، ولو وقف العبد عندها متأملا قليل تأمل، ولربما أخذته رعدة من إعجاز ما خلق الله تعالى وقدر وقضى بلطفه وبقدرته ومن إرادته. بل تملكه إخبات، وبأن ما قضى الله تعالى، إن هو إلا لحكمة، وما قدره تعالى، إن هو إلا بلطف. ويكأننا لا نقف كثيرا عند تعليل ما نرى، ولأن ما نراه كثيرا ما يكون فوق إدراكنا، فلسنا نسبر غوره، وإذ إنه أعلى من طاقاتنا، وإذ نحن لا نطيق حمله!

وهـذا مناسـبة أنـه راح وتـرك أختـه سـفانة بنـت حـاتم الطـائي! وهـذا مـربض الفرس، إذ ولما كان أبوهما مشتهرا هكذا بمكارم الأخلاق، وقد عرف هذا قبائل العرب وغيرهم، وصغيرهم قبل كبير، ونساؤهم قبل رجالهم، وحين يترك أخته سفانة الحازمة الجزلة، ومهما يكن من أمر فإنها امرأة! وليهرب هو، فإن هذا الذي لا يمكن تصوره، ومن ذرية حاتم الطائي، ذاك الأشم الكريم كثير الرماد!

ولكنه وعند التأمل قليلا، وكما أنف، كانت سببا في هدايته، وكانت موجب مراجعته، وحين قد استفتاها رأيها الجزل في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن هذه سفانة، ولما وقعت في الأسر مع الأسارى، وكانت من طبيعتها أنفتها، إلا أن تأبى ذلكم موقفا حرجا! ويمر عليها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ تكلمه بأدب امرأة خلوق، وبنت رجل كان خلوقا، وهذا الذي يقف العبد عنده، وإذ ينبغي على الذرية أن تحفظ لوالدها حقه، فلايبدون إلا بمظهر الكاشف للب كان نقيا نظيفا، وألا يظهرون إلا بهدي كان ناصعا رقيقا.

وإذ تناديه صلى الله عليه وسلم، بصفته الرسول النبي صلى الله عليه وسلم، لا باسمه، وكما قد فعل أشج عبد القيس من قبل، وحين ناداه أن: يا محمد!

قالت سفانة: يا رسول الله هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ مَنَّ الله عليك.

وهكذا ثلاثة أيام متتالية، ونفس كلامها الآنف، ونفس جوابه صلى الله عليه وسلم أيضا، وحين قال: ومن وافدك؟ وحين تخبره أنه عدي بن حاتم الطائي، ذلك الفار من الله ورسوله! وإذ من يفر من الله تعالى إلا إليه؟! ولكنها هكذا نفوس، وجد صنفها، ويكأنها قرائح، وكان في الوجود مثلها!

ولكن الله تعالى له سننه، وحين قد فر كعب بن مالك وصاحباه، وحين نزل فيهم قرآن كريم يتلى إلى يوم الدين، وحين قال الله تعالى ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

وهذا في عقد المؤمن أبدا، وهذا الذي فات فريقا من الناس، ولو من وجه، وإذ كان مثله كعب وصاحباه معه، وهذا الذي معنا الآن عدي بن حاتم أيضا.

وليعلم الناس أن الكل في قبضة الله تعالى وقدره وقضائه ومشيئته، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩]. ولكن لطف هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، وحين أعتقها؛ ولرصيد والدها الجميل، ولإرثه النبيل، وحين قال صلى الله عليه وسلم: أطلقوا سراحها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق!

ولكن الذي نقف عنده تأملا، هو ذلكم المشهد الإسلامي الناصع بياضا، وحين يكتب سجل الفارين، وليس ينظر من كونهم مسلمين، أو غير مسلمين، بل ولعله يكون في مسلم أعلى رتبة؛ ولتأديب الصف المسلم، وتمحيصه، وتنقيته، وتربيته.

المسألة الثانية: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء:٩].

وهذا الذي نقف عنده أيضا، وحين يعمل العبد، وأن كان سويا مستقيما؛ ليكون ذا ذكر حسن، وينفع نفسه وأهله من بعده أيضا، وهذا الذي رأيناه الآن، وكيف كان موجب إطلاق سراح سفانة هو أبوها، وكيف كان ذلك سببا لعتقها هو والدها، وهذا الجانب الأهم في المسألة.

وقرآننا كان أسبق في تسجيل هذه الحيثية، وكيما تكون جوهرة فريدة، وقلادة تليدة، وحين قال الله تعالى ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء:٩].

المسألة الثالثة: من صلاحيات الإمام

وكما أن فيه صلاحيات الإمام الأعلى للأمة، وأن يعفو من محله، وأن يعتق من سلطانه، وأن يمنح من عفوه، وأن يمن من جوده، وأن يبذل من فضله.

وهذا الذي حدث، ويوم أن أطلقها النبي صلى الله عليه وسلم، وحين قال ﷺ لها: قد فعلت، فلا تعجلي بخروج، حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني.

ومن ثم وهي تقول: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ، قالت: فكساني وحملني وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

المسألة الرابعة: من ثمرات عفو الإمام

ولتأتي مرحلة حاسمة فاصلة، وحين لامت أخاها؛ وأن تركها، وبما لم يجد إلا طأطأة رأسه؛ خجلا منها وحياء، وأن نعم فعل عدي هذا!!

ولكننا لسنا نغادر مكاننا هذا، وإلا أن نشير إلى إحسان هذا النبي هكذا، وهو مما يحمل بين جنبات نفسه من عطاء، ومنح، وفضل، ولا مَنَّ به ولا أذى، خلقا وهديا حسنا.

المسألة الخامسة: الاعتذار من شيم النبلاء

وسبق وأن وقفنا على حكمة، وها قد حل أوانها، وحين قدم بين يديها اعتذارا لتقبله، وهما ابنا حاتم الطائي، ذي مكارم الأخلاق! وحين قال: قلت: أي أخية لا تقولي إلا خيرا، فوالله مالي من عذر، لقد صنعتٌ ما ذكرتِ.

قال: ثم نزلت فأقامت عندي. فقلت لها وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعا، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكا فلن تزل في عز اليمن وأنت أنت. قال: قلت: والله إن هذا الرأي.

وهذا الذي نفيده من صبر على الحدث ومتابعته، ولعله يحمل من بين نبضاته ما كان ذا حكمة، علمها الله تعالى، ولما تتبدى واضحة ظاهرة من أمامنا يوما ما.

المسألة السادسة: والله ما هذا بِمَلِكٍ

هذا قسم أقسمه عدي بن حاتم الطائي، وحين قد أقنعته أخته الذهاب إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن أسلم فهذا خير، وإن كان ملكا فعله أن ينال من حظوته شيئا!

ولكنه وحين راح مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته، وقد قابلته امرأة بالطريق فوقف إليها ليقضي لها حاجتها، وهنا قال عدي قوله هذا: والله ما هذا بِمَلِكٍ.

ثم راحا إلى بيته صلى الله عليه وسلم، وقد جلس على الأرض مفترشها، وحين أعطى عديا وسادة محشوة ليفا، ومن بعد محاولات ليصر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس عليها عدي، وأما هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم فيفترش الأرض! وحينها قال قوله أيضا: والله ما هذا بملك.

المسألة السابعة: يا عدي: ألم تك نصرانيا ركوسيا مرباعا؟!

وكأنه صلى الله عليه وسلم كان عالما بتاريخ هذا عدي، وحين قرره بتاريخه الذي كان فيه نصرانيا مرباعا ركوسيا.

وأما النصرانية فمعروفة، وحين قد كانت هي الحنيفية قبل التبديل، ولما كانت هي الإسلام قبل التغيير!

ولكن الله تعالى لم يرسل وجهين: وجها يوحد، وآخر يثلث، وهذا في حق ربنا ليس يجوز!

ولكن الناس يعرفون الحق، وكما يعرفون أبناءهم، ولأن الله تعالى قال ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

وأما المرباع فهو ذاك الذي كان يأخذ ربع الغنيمة من غنائم الحرب، وهذا المرباع وقد كان حراما في دين عدي، وبنص قوله صلى الله عليه وسلم، وحين وافقه عدي على ذلك.

وأما الرَّكُوسِيَّةُ فهم قوم لهم دين بين النصارى والصابئين.[١].

وفي كل مرة يقر عدي كلام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم!

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا: ٢/ ٤٣٤

المسألة الثامنة: أسباب صد ودلالات فتح

ثم أخذ يعدد له النبي صلى الله عليه وسلم أسباب منعه من الدخول في الإسلام:

أولا: الفقر والحاجة والعوز: وهذه حلها أنه المال سيفيض يوما على هذه الأمة، وليأتين عليها يوم لا تجد من يأخذ هذا المال، من كثرته!

وأما متى هذا اليوم؟ فالله تعالى به أعلم، وإن قيل إنه عند نزول هذا النبي عيسى عليه السلام، آخر الزمان.

ثانيا: قلة أعداد العصبة المؤمنة: وكثرة أعداد عدوهم، وهذه جوابها أن سيحل الأمن، وحتى تخرج الظعينة، وهي المرأة من بيتها من القادسية، وحتى تطوف بالبيت لا يتعرض لها من أحد!

ثالثا: وإنه يرى الملك والسلطان في غيرهم: وهذه مآلها وأنه سيسمع يوما أن قصور بابل قد فتحت أمام المسلمين!

ومن إثرها أسلم عديٌّ.

ثم أقسم أنه رأى اثنتين، ومن خروج الظعينة من القادسية إلى البيت، ولا تخشى إلا الله تعالى، وأما الثانية فقد رأى قصور بابل، وقد فتحها المسلمون، وإن هو إلا منتظر الثالثة يقينا يقينا.

وأقول: وسائر الذي سبق أعلام نبوة كاملة الأركان، وموجب إسلام لرائيها، وتحسم إسلاما لمن سمع!

وأقول أيضا: وسبحان مقلب القلوب، وحين كان هذا النبي أبغض من سمعت أذنا عدي هذا له ذكرا، وإذ هو الآن أحب من سمعت بالآفاق له سمعا وذكرا!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى عن عدي بن حاتم كان يقول ما رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به مني أما أنا فكنت امرؤا شريفا وكنت نصرانيا وكنت أسير في قومي بالمرباع وكنت في نفسي على دين وكنت ملكا في قومي لما كان يصنع بي فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم كرهته فقلت لغلام كان لي عربي وكان راعيا لإبلي لا أبا لك أعدد لي من إبلي أجمالا ذللا سمانا فاحتبسها قريبا مني فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذني ففعل ثم أنه أتاني ذات غداة فقال يا عدي ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن فإني قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا هذه جيوش محمد قال قلت فقرب إلي أجمالي فقربها فاحتملت بأهلي وولدي ثم قلت ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام فسلكت الحوشية وخلفت بنتا لحاتم في الحاضر فلما قدمت الشام أقمت بها فتخالفتني خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتصيبت ابنة حاتم فيمن أصابت فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبايا من طيء وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هربي إلى الشام قال فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس بها فمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامت إليه وكانت امرأة جزلة فقالت يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن علي من الله عليك قال ومن وافدك قالت عدي بن حاتم قال الفار من الله ورسوله قالت ثم مضى وتركني حتى إذا كان الغد مر بي فقلت له مثل ذلك وقال لي مثل ما قال بالأمس قالت حتى إذا كان بعد الغد مر بي وقد يئست فأشار إلي رجل خلفه أن قومي فكلميه قالت فقمت إليه فقلت يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن علي من

الله عليك فقال صلى الله عليه وسلم قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني فسألت عن الرجل الذي أشار إلي أن كلميه فقيل لي علي بن أبي طالب قالت فقمت حتى قدم من بلى أو قضاعة قالت وإنما أريد أن آتي أخي بالشام فجئت فقلت يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ قالت فكساني وحملني وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام قال عدي فوالله إني لقاعد في أهلي فنظرت إلى ظعينة تصوب إلى قومنا قال فقلت ابنة حاتم قال فإذا هي هي فلما وقفت علي استحلت تقول القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك عورتك قال قلت أي أخية لا تقولي إلا خيرا فوالله مالي من عذر لقد صنعت ما ذكرت قال ثم نزلت فأقامت عندي فقلت لها وكانت امرأة حازمة ماذا ترين في أمر هذا الرجل قالت أرى والله أن تلحق به سريعا فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله وإن يكن ملكا فلن تزل في عز اليمن وأنت أنت قال قلت والله إن هذا الرأي قال فخرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده فسلمت عليه فقال من الرجل فقلت عدي بن حاتم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وانطلق بي إلى بيته فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها قال قلت في نفسي والله ما هذا بملك قال ثم مضى بي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها إلي فقال اجلس على هذه قال قلت بل أنت فاجلس عليها قال بل أنت فجلست وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض قال قلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك ثم قال إيه يا عدي بن حاتم ألم تك ركوسيا قال قلت بلى قال أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع قال قلت بلى قال فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك قال قلت أجل والله قال وعرفت أنه نبي مرسل

يعلم ما يجهل ثم قال لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم قال فأسلمت قال فكان عدي يقول مضت اثنتان وبقيت الثالثة والله لتكونن وقد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت وأيم الله لتكونن الثالثة ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه.[١]

المسألة التاسعة: يا عدي بن حاتم ما أفرك؟ أفرك أن يقال: لا إله إلا الله فهل من إله إلا الله، ما أفرك؟ أفرك أن يقال: الله أكبر فهل شيء هو أكبر من الله عزوجل؟

هذان سؤالان وجهها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه، ومن قبل إسلامه، وحين راح إليه صلى الله عليه وسلم، ويوم أن أعانته على ذلك أخته أو عمته، وعلى قولين في ذلك، وإذ كانت محصلة القول أنْ يذهب إلى هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، إن راغبا، وإن راهبا، ولأنه قد راح إليه الناس، وليكن عدي من أولاء الذين راحوا، وهو على أي من الوجهين رابح، إن شاء الله تعالى.

وعلى كل حال، فهذا رأي تمثلت به المرأة الحكمة، وإن المرأة لتنطق صوابا، ولتقول حقا.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٥/٥٧. خلاصة حكم المحدث: له شواهد من وجوه أخر.

وقد مر بنا في هذه السيرة النبوية المباركة الكثير من رأي صائب للنساء، وإذ ليس يوم الحديبية عنا بغائب، ويم هاج الناس وماجوا من سبب بنود صلح، كان به أوثق، ومن معية مولاه، ومن رعايته وهداه، وحين كان موقف أم سلمة فيه حاسما، وإذ أخذ به هذا النبي صلى الله عليه وسلم أيضا موافقا وجازما.

وإذ كان من قبله ذاك موقف خديجة زوج نبينا صلى الله عليه وسلم، ويوم وحيه أول مرة لاختبار أأنه ملك فيغض بصرا؟ أو أنه شيطان فيلمح طرفا!

ولعل هذا أيضا من أسباب الخير وأعوانه، لهذا عدي بن حاتم، وحين يريد الله تعالى لعبد من عبيده الخير، وإنما يسوق إليه من يدفعه إليه دفعا، ولحكمة يعلمها الله تعالى. ولعل ذلك من أثر ما تركه فيهم أبوهم من مكارم الأخلاق، وإذ كان هو حاتم الطائي، مضرب مثل العرب والعجم في يومه، كرما، وبذلا، وجودا، وهذا الذي كان دعامة حجتها أيضا، ولأن والده ولو كان حيا ما كان منه إلا أن راح إلى هذا الدين الحنيف الخالد الإسلام، ومعلنا إسلامه، ومن بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعلى كل حال أيضا، فإن هذا عديا كان عونا بأخته أو بعمته، -ولا يمنع كلتاهما- أن تسوقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وحين يسمع الخير بأذنيه، لا نقلا عن أحد، وحين رأى هذا النبي بعينيه، وحينها تتغير الملامح، وتتبدل القناعات، ويراجع العبد نفسه، وحين يرى أمارات الهدى والنور، ومتبدية على وجنتيه وأساريره، داعية الخير والهدى والصلاح.

وهذا أيضا ما نفيده أن يكون عليه أصحاب الدعوات من حجة، وما يجب أن يكونوا عليه من برهان. وإنما حجتهم الأولى هو بدو أمارات الصلاح عليهم، وإنما كان برهانهم هو ظهور دلالات العلم أعلاهم.

المسألة العاشرة: الجليس الصالح وأثره الإيجابي والجليس السوء وعمله السلبي

ولسنا نغادر مكاننا هذا إلا بيان فارق قد كان عظيما بين هذه عمة عدي هذا، أو أخته، فإن ذلك ليس مهما ههنا، وبقدر أهمية عمل جليس الصالح في العبد، وإما أن يحذيه، وإما أن يبتاع منه، وإما أن يجد منه ريحا طيبة، والعكس بالعكس أيضا، ولأن نافخ الكير، وإما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة.

فعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد؛ لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحا خبيثة. [١].

المسالة الحادية عشرة: مفارقة بين امرأتين عمة أو أخت عدى وهند بنت عتبة

ويكأننا في خضم كلام حول رفيقات الخير من النساء، ومناسبة أخت عدي أو عمته، وإنما نستصحب هذه هند بنت عتبة بن ربيعة، وقبل إسلامها، وكيف كان فعلها يوم أحد، وهي إذ تتولى زعامة التعبئة، وهي إذ تتولى داعية الت جمهر والتأليب! وحين كان قولها:

---

(١) صحيح البخاري: ٢١٠١

نحـــن بنـــات طـــارق نمشــي علــى النمــارق
والــــدر فـــي المخانـــق والمســـك فـــي المناطـــق
إن تقبلـــــوا نعــــانق ونفـــــرش النمـــــارق
أو تـــــدبروا نفــــارق فـــراق غيــــر وامــــق

ويـوم كان حنقها على سـيد الشـهداء حمـزة عـم نبينـا محمـد صلى الله عليـه وسلم، وحين قد مر تسجيل سيرتها هذه الزاكمة، قبل إسلامها أيضا، وكما قد سجلها التاريخ عنها، مثل سـوء، وعملا غير صالح. ويوم أن كان شأنها تأليبا، وحين كان عملها كيـدا، ويـوم وبـدل أن تشـاركهم الـذود عـن الإسـلام الحنيـف، أو على الأقل ألا يكونـوا رؤسـاء فتنة، أو زعمـاء ضلال، وفي الحـالين سيفيض الله علـيهم من فضلـه، ومن مثل عمل عمة أو أخت عدي، ولكنه وهكذا كان وجود هذا الصنف في النـاس ابتلاء، وقد كـان مـن حاصـل أمـره امتحانـا واختبـارا، وتسـليما بأقـدار الله تعـالى، ولنتشـوف فيهـا الحكمة والعلة والسبب، وإن كنا لسنا ندرك حكمة، ولا علة، ولا سببا، أحايين كثيرة، وإنما تعويلنا على ذلكم تسليم، وحين كان علامة الإسلام، ولما أضحى شـارة الإذعـان لله تعالى ربا وخالقا ورازقا ومحييا ومقدرا سبحانه.

المسألة الثانية عشرة: بدار عدي

ولكـن هـذا عـديا، وحـين راح إلى النبي صلى الله عليـه وسـلم، ومنشـرحا صـدرا، وإلى نصح أخته أو عمته أو كلتيهما وقد وجد خيرا.

وهـذا ما يحسـب لعـدي أيضا، وقـد كـان مطيعـا، وللنصـح مجيبـا، وحـين أضحـى مثالا للانقياد.

المسألة الثالثة عشرة: بساطة عقيدة وسلاسة دين

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان الحكيم الخبير، وكان الداعية الرؤوف الرحيم، وكان منه أن داخل خلجات هذا عدي، وحين أوجز له العبارة، ولما اختصر له الإشارة، وأنه الله تعالى، وألا إله إلا الله، وأنه ليس إله يستحق أن يعبد معه أو من دونه تعالى، وهذه هي خلاصة عقيدة المسلمين مبسطة موجزة، ولا تراكيب فيها ولا تداخلات، وإنما هي هذا النوع من البساطة والإيجاز، ويكأنها وبهذا الشكل العالي قيمة، والبسيط تركيبا، هكذا وإذ تختصر بطلان عقائد الكفر قاطبة، وحين جعل من الإله العلي الأعلى ثلاثة! ولا يستقيم. ولسنا نريد أن تغيب عقولنا، فإن هذا القرآن الذي بين أيدينا، وقد شهد بصحته خصومه، ولما قال إنهم يثلثون، فإنهم يثلثون! وبالتالي فإن دفع هذه الشبهة، بل التهمة، بل الحقيقة عنهم غير سديد؛ ولأن القوم فيها غارقون، وقد كانت لنا مع القوم مساجلات في هذا، وكانت لصالح الحق ولله الحمد.

وإذ قد سبق قرآننا ذكر مسلمة يطبق على صحتها العقلاء، ويوم أن قال الله تعالى

ولكن كونا هكذا محكما نراه، ويكأن نظاما متقنا هكذا نعيشه أبدا لشاهد على الوحدانية، وإذ لرأينا ارتطاما لطائرات، وتطاحنا لسفن وأفلاك، وتناصبا لشرق مع غرب، وحين كان الأمر شركاء! ومن يغلب يا ترى؟! وفي تسلسل كان هذا الدين أحكم، ولما أن أقض مضاجعه من مهدها.

ولا تقل لي: إن هناك تناغما بين الشركاء؛ وإذ يحيل العقل الصحيح هذا!!

ولهذا الذي سبق، وما كان لعدي إلا أن يسلم. وأمام هذه البساطة، التي لم يعهد مثلها قبل، وبعيدا عن تعقيدات وتبريرات، هي أقرب أن تزيد التعقيد تعقيدا آخر

مضاعفا، وحتى يصار إلى غياهب ظلمات، وإذ ليس يمكن أن ينالها النور المبين، والقسطاس المستقيم، ولما أن هكذا أظلموها، وعقدوها، وداخلوها، وتداخلوها، وحتى أصبحت ركاما، ومن فوقه ركام آخر، وأليس يزيله إلا هكذا برهان البساطة الذي فرشه هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولما أن كانت أذنا عدي إليه صاغية! وإذ كان منه يسر وسهولة عملية الاتصال ولتؤتي أكلها: مرسل جيد، يحسن البلاغ، ومستقبل جيد، يجيد الاستقبال.

وكذا وحين ضرب هذا النبي على وتر التكبير، ولأنه لا أكبر إلا الله تعالى الحكيم المجيد، ومنه بطلان كل كبير أمام هذا الجبروت والقهر، واللذين هما صفتان لصيقتان بالربوبية الحانية الرحيمة أيضا.

المسألة الرابعة عشرة: انهيار الباطل أمام زخم الحق

ولهذا السبب فتفرغ عقيدة عدي، وتبطل، وتنهار، وأمام هاتين القاعدتين، وأنه لا إله إلا الله، وأنه لا أكبر إلا الله تعالى أيضا. ومنه كانت تخليته عن باطله، وبه كانت تحليته بإسلامه. ولأنه وكما أثبتوه فإن التخلية قبل التحلية.

المسألة الخامسة عشرة: اتقوا النار ولو بشق تمرة

وغير أنه صلى الله عليه وسلم كان قد ترك لنا إرثا مجيدا، وفي متناول كل عبد بصير، وحين جعل النبي صلى الله عليه وسلم أن من أسباب اتقاء النار تمرة أو شق تمرة. أو كلمة حسنى، وخلقا حميدا.

وأن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، قد قال أعلاما من أعلام نبوته، وقد سبق ذكر جانب منها في هذا المبحث، وأنه صلى الله عليه وسلم ليس يخاف على أمته فقرا، وبقدر أنه يخاف أن تفتح عليهم الدنيا، فتهلكهم كما أهلكت من كان قبلهم.

فعن عمرو بن عوف المزني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم، ثم قال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء قالوا: أجل يا رسول الله، قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم.[(١)]

المسألة السادسة عشرة: من هم المغضوب عليهم؟ ومن هم الضالون؟

ولكن هذا الحديث الذي بين أيدينا قد أبان أن المغضوب عليهم هم اليهود؛ ولأنهم علموا الكتاب، ولم يعملوا بمقتضى هذا العلم الذي علموه.

ولكن هذا الحديث قد أفصح عن معنى الضالين، ألا وهم النصارى؛ ولأنهم عبدوا ربهم بلا علم، بل عن جهل.

وكلا الأمرين مخالف للصراط المستقيم، وهو ذلك الذي يجمع بين نقيضي هذين الفريقين، ولأنه الصراط المستقيم إذن هو ذلكم عبادة الله تعالى، وعن علم شرعي، وعن عمل بمقتضى هذا العلم.

والعلم الشرعي هو ذلكم المستمد من الكتاب والسنة، وعلى منهج السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٠١٥

وقال الله تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَا أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال: إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم، فاحذروا، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، كتاب الله، وسنة نبيه.[١]

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن عدي بن حاتم قال: عن سماك بن حرب، قال: سمعت عباد بن حبيش، يقول: سمعت عدي بن حاتم قال: جاءت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعقرب فأخذوا عمتي وناسا فلما أتوا بهم النبي صلى الله عليه وسلم صفوا له فقالت: يا رسول الله، نأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبير وما بي من خدمة، فمن علي من الله عز وجل عليك، قال: ومن وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم قال: أي الذي فر من الله ورسوله، قالت: فمن علي فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه علي فقال: سليه حملانا، قالت: فسألته فأمر بأتان فقلت: لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها، فقالت: ائته راغبا أو راهبا، فقد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته، فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي فذكر قربهم من النبي صلى الله عليه وسلم فعرفت أنه ليس ملك كسرى وقيصر فقال: يا عدي، ما أفرك أن يقال: لا إله إلا الله فهل من إله إلا الله؟ ما أفرك أن يقال: الله أكبر فهل من شيء أكبر من الله؟ فأسلمت فرأيت وجهه استبشر وقال: إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى

(١) صحيح الترغيب، الألباني: ٤٠

ثم جاءه ناس فسألوه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فلكم أيها الناس أن ترضخوا من الفضل، ارتضخ امرؤ بصاع ببعض صاع بقبضة قال شعبة: وأكثر علمي أنه قال: بتمرة بشق تمرة، إن أحدكم لاقي الله فقائل: ألم أجعلك سميعا بصيرا، ألم أجعل لك مالا وولدا فماذا قدمت؟ فينظر من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فلا يجد شيئا فلا يتقي النار إلا بوجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة، إني لا أخشى عليكم الفاقة، لينصرنكم الله، وليعطينكم أو ليفتحن لكم حتى تسير الظعينة بين الحيرة ويثرب أخوف ما تخاف على ظعينتها السرق.(١).

المسألة السابعة عشرة: لئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز

هذا علم من أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا خطاب لعدي بن حاتم، موجب مؤانسة، وخلقا حسنا، وكم دل على سعة صدر هذا النبي، وقربه من الناس.

وقد قررنا هذا من قبل، ولكنه ولأهميته وكعلم من أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولأثر ذلك في إسلام الكافرين، وزيادة إيمان المؤمنين، ولأن عديا ذكر أنه حضر هذا الفتح، وقد ذكره التاريخ له. وعلاوة على رواية الإمام البخاري رحمه الله تعالى لذلك، وما لها من زخم.

وكما قلنا فإن هذا دال بطبيعة الحال على كم هو انبساط الدعاة العاملين وسط أقوامهم، ليعلموهم طرق الخير فيتبعوها، ويبينوا لهم طرق الشر فيجتنبوها.

(١) صحيح ابن حبان: باب ذكر البيان بأن أهل الكتاب هم الذين ضلوا وغضب عليهم، حديث رقم ٦٣٥٢

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومن انبساطه أيضا ذلكم ذكر صاحب فاقة ألمت به، فجاءه ليقضيها، ولأن إعانة ذي الحاجة الملهوف خلق نبيل، ولأن الأخذ بيد الضعفة عمل جليل.

وهكذا فنحن أمام دين يروح بالأخلاق الحسان، وحيث أمكن لها أن تحط رحالها، وحتى كان ذلكم واجبا، ويكأن ذلكم على كل مسلم، ولن يعدمه، وحين كان كفه عن الشر صدقة، وما يحمل ذلكم من تهذيب للنفوس، وحملها ذات نفسها على نفسها، خلقا رشيدا، حميدا حسنا مجيدا؛ ليتنشأ مجتمع هذا الذي تعلوه شارات المودة، وتسمق به دلالات الإحسان، وترتفع به هالات الأدب الجم الحسن الرفيع، وإلى حيث آفاق لا حدود لها!

فعن أبي موسى الأشعري عن النبي: **على كل مسلم صدقة. قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فيأمر بالخير -أو قال: بالمعروف- قال: فإن لم يفعل؟ قال: فيمسك عن الشر؛ فإنه له صدقة** [1].

لا، بل ليس على كل مسلم صدقة، بل على عضو منه صدقة! وليأتلف الكل مع الجزء، وبحيث لا تبقى نافذة، بل ثقب، إلا والمسلم فيها محفوظ بأمر ربه، ومن سبب هذه الصدقات، ولو كان إمساكا عن الشر، وهذا ليس يكاد يخرج منه أحد! بل يدخل فيه كل أحد! وهذا استدعاء نبوي حان لطيف لمكنونات النفوس الطيبة، وما قد جبلت عليه فطرة من الله تعالى الخالق العظيم سبحانه، وجبلة قد أركزها فيها الرحمن الرحيم اللطيف الغفور التواب سبحانه أيضا.

---

(١) صحيح البخاري: ٦٠٢٢

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قال: **كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة** [١].

وكذا وقد جاءه صاحب قطع طريق ليطمئنه. وليربط على قلبه.

المسألة الثامنة عشرة: أهمية المال وتزكية النفوس أهم

وهذا علم نبوة آخر، وحين يأتي على الناس زمان فيملا الرجل كفا من ذهب وآخر من فضة، ثم لا يجد من يأخذه، ولكثرة المال ووفرته، ودلالة على أن المال ليس يسد رمقا، ومواجهة حاجات الأرواح وتربية النفوس، والأخذ بزمامها نحو آفاق الفضل والعفة والعزة والكرامة والإباء، وإن كل ذلك ولئن وضع في كفة، ووضعت خزائن الأرض في كفة، لرجحت كفة العفة والقناعة والرضا بقسمة الله تعالى الحق المبين سبحانه.

المسألة التاسعة عشرة: من مشاهد يوم القيامة

ولكن هذا الحديث قد بين مشهدا من مشاهد يوم القيامة، وهذه المشاهد لا تقال إلا بوحي، ولا تعلم إلا من تنزيل، ولأنها من علوم الغيب، والتي أمرنا شريعة وديانة وملة أن نصدقها، وأن نجريها، وحيث جاءت، ولا نعمل فيها عقولنا كثيرا، ولأن إعمال العقول فيما هو خارج عملها إرهاق وتعب وإضناء، وطحن بلا طحين، وعجن بلا

---

(١) صحيح البخاري: ٢٩٨٩

عجين، وهي أمور كان من الإيمان تصديقها، ولأن هذا ركن ركين من أركان الإيمان بالله تعالى الستة، وكما جاء من حديث جبريل الملك عليه السلام المشهور.

ولكن هذا المشهد صورته، وعلى بيانه صلى الله عليه وسلم أنه: وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم.

وهذه هي طلاقة القدرة لهذا الرب الكريم المتعال القهار الجبار سبحانه، وحين كانت من آياته اختلاف الألسن واللغات، وهو سبحانه عالم بها، ولأنه تعالى هو خالقها. وكما قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

المسألة العشرون: العلاج بالصدمة

هذا، وقد رأينا كل الذي سبق، وإنما جاء في أسلوب ماهر باهر، عن طريق المساءلة، وليقر المستقبل برسالة المرسل في أدق معاني الاتباع، والمتلبس بزي الرضا، ورداء المتابعة، وهذان هما ركنا الإذعان والتسليم لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، وبحيث يكون العبد مسلما لا عن إجبار بل اختيار، وهذه مرة أخرى طلاقة النبي، وعمل الولي، وحين يجعل المستقبل مقرا للديانة وأحكامها، ولما يضحى المكلف راضيا عن اختيار بشرائع الملة ونظامها أيضا.

ولكنه ليس يخلو عن تحد وإعجاز! وحين جاءت كل هذا المساءلات، ومما يسمونه العلاج بالصدمة، وبحيث ليس يجد المستقبل إلا التسليم؛ ومن هول ما يسمع أو يرى!

ودلك على عن صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة، لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحدا إلا الله -قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد؟!- ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة، لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحدا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فليقولن له: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم. قال عدي: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اتقوا النار ولو بشقة تمرة، فمن لم يجد شقة تمرة فبكلمة طيبة. قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة، لترون ما قال النبي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: يخرج ملء كفه [١].

---

(١) صحيح البخاري: ٣٥٩٥

عاشرا: تذكير العباد بأخبار كندة والبحرين وبني مراد

هذه متفرقات متنوعات نافعات من سيرة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأفردتها ببيان متسق، ولجامع الخير بينها، ولعامل القرب فيها، وكما هو العهد في هذه السيرة النبوية المباركة، فإن فيها سننا حسنا، وأسوة وقدوة وهديا، ويكأننا نعايش الحدث، وإذ نحن ندارسه وكما لو كنا جزءا من هذا الحدث أيضا.

وأعالجه في خمس مسائل هي:

المسألة الأولى: أتاكم أهل اليمن أضعف قلوبا، وأرق أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانية

هذا ثناء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على أهل اليمن، وهو خبر عنه صلى الله عليه وسلم، وهو علم منه عنهم أولاء أهل اليمن، وهذا علم اجتماعي بأحوال الناس، وإذ تختلف الأخلاق أو تنطبع بطبيعة أهل كل محلة، ولأنه قد جاء في الحديث الآخر أن أهل اليمن هؤلاء، وإنما هم أصحاب غنم؛ ولهذا السبب قد كان لذلكم أثره في تطبع طباعهم من الغنم سكينة ووقارا، وعلى حد قوله صلى الله عليه وسلم: أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوبا، الإيمان يمان والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم.[1] .

وهذا مدخل علم الاجتماع الإسلاي وهذه لبنة الاولى علي يدي هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم! وسبقا إسلاميا فريدا نعتز به أيضا!

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٨٨

وهذه فصاحة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم وزحين قد تضلع يوما في بادية بني سعد ومن عربيته ومن سليقته التي زادته عربية فوق عربيته، ولما كان منه هو هذا السجع الغير متكلف فيبين كلامه بينا وليسحر بيانانه بلاغة!

وأنت إذ رأيت كيف كان الكلام مترادفا؛ ولينضاف ومن معانيه معاني أخر، ولما كان منه هو هذه المقابلة من بين أصحاب الإبل وأهل الغنم أيضا، بيانا اجتماعيا وإرثا بيئيا نعتز بميراثه وعن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا بيان آخر أن أصحاب الفخر والخيلاء هم أولاء الذين يتتبعون الإبل، وذكر أن مثلهم في ذلكم هو ربيعة ومضر.

وهذا شأن عام، وإنما ليس يؤخذ هذا على عمومه، وإنما ليس يدرس هذا على إطلاقه.

وهذا إرث اجتماعي خالد، حسن علم الدعاة العاملين به؛ وكيما يكونوا على أهبة استعدادهم لملاقاة الناس، وكيف مدخل لهؤلاء، وكيف سبيل إلى هؤلاء، وهذا فن دعوي باهر على كل حال، وحين إعطائه حقه ومدارسته، ولربما رجع الداعية غنيا بإخوانه، وإذ كان من دونه، ولربما عاد خلو اليدين لا يد واحدة!

غير أنه صلى الله عليه وسلم كان قد أثنى على أهل اليمن، وحين قبلوا بشراه صلى الله عليه وسلم، وفي مقابلة إعراض بني تميم عن قبول البشرى. وقد أنفت الإشارة إلى ذلك في حينه من هذه السيرة النبوية المباركة.

وحين روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى: عن عمران بن حصين قال: **دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم. قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، مرتين. ثم دخل عليه ناس من**

أهل اليمن، فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا: قد قبلنا يا رسول الله. قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر؟ قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض. فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت، فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها [(١)].

المسألة الثانية: لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا، وهكذا ثلاثا

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لجابر بن عبد الله بن حرام رضي الله تعالى عنه، صاحب الجمل، ويوم اشتراه منه نبينا صلى الله عليه وسلم ومن ثم ليرده عليه منحة وهدية وفضلا! وصاحب يوم الأحزاب، ويوم أن قدم عناقا صغيرة وصاعا من شعير لأهل الخندق، وإذ كانوا ألفا، ومن فضله تعالى، ثم ببركة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ يكفي هذا الذي نكتبه ألفا! وإذ كانوا جياعا طاوين، ومن ثلاثة أيام، وها هم حَفَرَةُ الخندقِ! وهو صاحب الأخوات السبع، وحين أوصاه والده بهن، ويوم استشعر شرف الشهادة يوم أحد، ويوم أن أوفى رضي الله تعالى، وحين تزوج ثيبا هي سهيلة بنت مسعود الأنصارية رضي الله تعالى عنهما، وقد كان شابا يافعا، وحرصا على أخواته، وحين قامت عليهن رضي الله تعالى عنها، وحتى ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم، وحين ساءله وهلا بكرا تداعبها وتداعبك يا جابر؟ فكان جوابه أجل أخواته! وها هي تفليهم يا رسول الله!

وعلى كل حال، فهذا يعد وعدا منه صلى الله عليه وسلم لجابر، وحين تأتي جزية البحرين، ليكون له منه نصيب قدره الثلاثة الكفوف ملئ اليدين.

---

(١) صحيح البخاري: ٣١٩١

ولعل هذا الوعد؛ ولعلمه صلى الله عليه وسلم حاجة جابر رضي الله تعالى عنه، وعونا له، وليقوم على أسرته، وخاصة ومعه أخواته السبع. وبرا به وكما قد بر بوالده يوما! وإذ كان البر دينا له ثمنه وجزاؤه وفضله وعقباه الخير في الدنيا وفي الآخرة.

وهذا مثال لتحسس الراعي أمور رعيته، ويقوم على مؤنة الضعاف منهم.

وإلا أن هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، كان قد اختاره ربه سبحانه، وقبل مجيء مال البحرين هذا.

ولكن المال كان قد جاء إبان خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وحين أوفى بوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذ أصبح هذا دينا على بيت مال المسلمين، فيؤدى عن الأمير حال وفاته، وحال سماحية بيت المال بذلك؛ أي توافر المال عنده.

وفيه ايفاء أبي بكر، وقد أوفى بما هو أعظم، ويوم أرسل جيش أسامة بن زيد؛ إلى بلاد الشام، وإنفاذا لأمره صلى الله عليه وسلم بذلك قبل وفاته.

ولكن جابرا وحين كان قد راح إلى بكر طالبا ما وعد به النبي صلى الله عليه وسلم، وإذ أعرض عنه ثلاثا، ولعله لشغل شغله وقته هذا، ولكثرة أشغال الأمير الأمين، وكما هو معروف، وكان أن قال له جابر: فإما أن تعطيني، وإما أن تبخل عني!

وفيه جواز المطالبة بما وعد به الإمام، ويظل دينا على بيت المال، وكما أنف وإلا ما طالب به جابر، وإلا لما أقره أبو بكر، ولما أعطاه.

وهذا من عقود التبرعات النافعة نفعا محضا، وللولي إبرامها إيجابا، وللولاة مقابلتها قبولها. ولا تتوقف على كثير توافر شروط الرضا، ومن حيث كان تكييفها على ما أنف، وهذا ليس بابه ههنا.

وهي من سلطة ولي الأمر، وكما أنف غير مرة في موضعه من هذه السيرة النبوية المباركة أيضا. وما يوم حنين منا ببعيد.

ولكن مطالبة جابر لأبي بكر، ولكن قيام أبي بكر بالوفاء، وكلاهما إذن دال على ثبات الخط العام للدولة الإسلامية، فما يقره ولي، يصير ملزما لمن أتى بعده، وسواء كان هذا على المستوي المحلي للدولة أو على نطاق علاقاتها الدولية الأخرى.

وهذا عرف قانوني إقليمي، وهو عهد دولي قائم. وبه تستقر الأحوال، وتستقيم الأمور.

ولكن يهود أيست من هكذا عهد، ولكن بني صهيون نكصت من هكذا وعد، وحين قال الله تعالى عنهم ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:١٠٠].

والبخل: هو أن يمنع المرء ما يجب عليه فلا يؤديه، وهذا الذي دعا جابرا أن يطالب به. وهذا وجه.

وهو الإمساك عما في أيدي الشخص، وهذا وجه آخر.

وهو عكس الشح، وهو الإمساك عما ليس من ذات يد العبد، بل من غيره!

فعن جابر بن عبدالله: **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قد جاءني مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا، فلم يجئ حتى قبض النبي صلى الله عليه**

وسلم، فلما جاء مال البحرين، أمر أبو بكر مناديا فنادى: من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دين أو عدة فليأتنا، فأتيته فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي كذا وكذا، فحثا لي ثلاثا، - وجعل سفيان يحثو بكفيه جميعا، ثم قال لنا: هكذا قال لنا ابن المنكدر-، وقال مرة فأتيت أبا بكر، فسألت، فلم يعطني، ثم أتيته فلم يعطني، ثم أتيته الثالثة فقلت: سألتك فلم تعطني، ثم سألتك فلم تعطني، ثم سألتك فلم تعطني، فإما أن تعطيني، وإما أن تبخل عني قال: قلت: تبخل عني؟ ما منعتك من مرة إلا وأنا أريد أن أعطيك، قال سفيان، وحدثنا عمرو، عن محمد بن علي، عن جابر، فحثا لي حثية وقال: عدها فوجدتها خمس مئة، قال: فخذ مثلها مرتين، وقال يعني ابن المنكدر: وأي داء أدوأ من البخل. (١) .

المسألة الثالثة: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرا»

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لفروة بن مسيك المرادي، وحين قدم إليه، ويوم أبت همدان، وقد كانت بينهما وقعة قبل، ويوم أثخنت قبيلة همدان قبيلة مراد. وفي يوم كان دعيه "يوم الردم".

وهذا تطييب لخاطر فروة، وحين جاء مسلما. وعلى كل حال، فهذا هو خلق هذا النبي، الذي تعودناه أبدا، يمسح دمعا، ويزيل غما، ويفرج كربا، ويربت صدرا، وحين سأله، وعما إذا كان يوم الردم مازال مؤثرا، ومما أصاب مرادا يومها ذلك، وإذ وأن نعم، وحين سأل النبي صلى الله عليه وسلم فروة: يا فروة هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم». وعلى حد قول فروة مجيبا: يا رسول الله من ذا الذي يصيب قومه ما أصاب قومي يوم الردم لا يسوءه ذلك؟ ومنه كان تلطف نبينا محمد صلى الله عليه

(١) صحيح البخاري: ٣١٣٧

وسلم معه تضميدا لجراحه، وحين قال: أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرا».

وهذا قول الصدق؛ ولأن المرء يكلمه ما يكلم قومه، ولأنك ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى.[1]

وهذا قول الصدق، ولأن الإسلام نعمة عظيمة، ومعه تنجبر الخواطر الكواسر، وبه تندمل الجروح الغوائر. وما من مصيبة من بعد الكفر، وليس معه من نعمة، وإن كبرت، وما من نعمة خير من الإسلام، وليس معه من مصيبة، وإن عظمت، ولأن الله تعالى يهب صبرا، وينعم جبرا، ويمن كسبا، ويزيل غما، ويكشف حزنا، ويجبر كسرا، وإن المسلم وحين يسترجع، وليجدن الفلاح أمامه ومن خلفه؛ ولأن الله تعالى قال ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ولا سيما أن وجود هذا النبي كرم من الله وفضل، وترياق رباني لأمته. وكان منه يوم غنائم حنين، وحين لاطف الأنصار بقوله: يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا، فهداكم الله بي؟ وعالة، فأغناكم الله بي؟ ومتفرقين، فجمعكم الله بي؟ ويقولون: الله ورسوله أمن، فقال: ألا تجيبوني؟ فقالوا: الله ورسوله أمن، فقال: أما إنكم لو شئتم أن تقولوا كذا وكذا، وكان من الأمر كذا وكذا لأشياء عددها، زعم عمرو أن لا يحفظها، فقال: ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ الأنصار شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس

(١) صحيح البخاري: ٦٠١١

واديا وشعبا، لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض[1].

وهذا حق للأمة، أن يقوم أميرها على أمرها، وإراحتها، وليس يغمض طرفا، وإلا وهم مطمئنون!

وهذا نبينا صلى الله عليه وسلم، يستشعر عظم المسؤولية، وهو إذ يقوم على حاجات أهل الصفة، وهذا هو موقفه مع أهل بيته، وحين ذكر التاريخ أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم تسأله خادما، وقد كان أهل الصفة وعلى حالهم من عوز وحاجة، وما كان منه إلا أن حزم أمره، وسوى أنه حسم قراره.

فعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجه فاطمة بعث معه بخميلة، ووسادة من أدم حشوها ليف، ورحيين وسقاء وجرتين، فقال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوت حتى لقد اشتكيت صدري، قال: وقد جاء الله أباك بسبي، فاذهبي فاستخدميه، فقالت: وأنا والله قد طحنت حتى مجلت يداي، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما جاء بك أي بنية؟ قالت: جئت لأسلم عليك، واستحيت أن تسأله ورجعت، فقال: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله، فأتيناه جميعا، فقال علي: يا رسول الله، والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبي وسعة، فأخدمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم، فرجعا، فأتاهما النبي صلى الله عليه وسلم وقد دخلا في قطيفتهما، إذا غطت رؤوسهما

---

(١) صحيح مسلم: ١٠٦١

تكشفت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: مكانكما، ثم قال: ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟ قالا: بلى. فقال: كلمات علمنيهن جبريل، فقال: تسبحان في دبر كل صلاة عشرا، وتحمدان عشرا، وتكبران عشرا، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، وكبرا أربعا وثلاثين، قال: فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فقال له ابن الكواء: ولا ليلة صفين؟ فقال: قاتلكم الله يا أهل العراق، نعم، ولا ليلة صفين [١].

وأرأيت يوم أن وقف عمر الفاروق على حاجة امرأة صاح أبناؤها من طوي جوعهم، وحتى وقف بنفسه يعجن عجينا، ويشعل نارا ويخبز خبزا، وحتى ما انصرف إلا وهم آكلون؟!

وهذا هو الفاروق رضى الله عنه نفسه وحين خطب الناس فقال: والذي بعث محمدا بالحق لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب. قال أبو زيد: آل الخطاب: يعني نفسه، ما يعني غيرها! [٢].

المسألة الرابعة: التخلية قبل التحلية

وهذا عمرو بن معدي كرب، وحين عرض على قيس بن مكشوح المرادي الذهاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليسمع منه، وحين راح إليه خبره. وهذا عمل مبرور، وإذ كان الحق والعدل أن يسمع من صاحب الشأن، لا أن يسمع مما قيل عنه، فإن هذا أدعى لوصول الدعوة صافية من عكر، ولعلها توافق قلبا صافيا

---

(١) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٨٣٨. خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن.
(٢) تاريخ الطبري: ج ٣ / ٢٧٢

فيسلم. وما جل ما يصيب الدعاة العاملين، وإلا ممن ليسوا يحسنون عنهم خبرا، وممن لا يتقنون عنهم نقلا!

وهذا أمر جد مشاهد!

وهذا أمر جد مهم، وإذ يتوافر على أمور هامة منها:

الأمر الأول: هو ذلكم الاستعداد الذاتي للذهاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وللسماع منه مباشرة، وهذا عمل حسن، ولأن التشويش الإعلامي والصخب الإعلاني يعملان عملهما في النفوس، فدل على كم تجرد هذا عمرو بن معدي كرب.

الأمر الثاني: هو ذلكم الرفض التام من حليفه قيس بن مكشوف المرادي، وهذا عمل الصاحب السوء، وهذا قرين الشر، وحين يدفع باتجاه الصد، وهذا أمر له رد فعله السلبي في كلا الصاحبين، ولعل هذا ما عوفي منه عمرو هذا يومه هذا.

الأمر الثالث: هو الذهاب لسماع الحق الذي لاريب فيه، والذي هو مخلى من تراطم ركام جاهلية لصيقة! وهذا ما سجله التاريخ، وأنا أسجله لهذا عمرو بن معدي كرب! ولأن الذهاب ومن خلال ركام خيم ليس يجعل الذهن صافيا، لسماع حق جديد، ولكن الرجل قال قوله هذا: يا قيس إنك سيد قومك، وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له: محمد قد خرج بالحجاز يقال: إنه نبي، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبيا كما يقول، فإنه لن يخفى علينا إذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه[1].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٨٤

ويكأن هذا القول ممهور برضا العقلاء عنه، وحين سجل التاريخ هذا الميراث الصادق في خلع ما يؤمن به المرء وراء ظهره، وتجريد النفس لسماع الجديد مجردا أيضا، ومن ثم لتلقي الحق، وهذا أمر فصل، ولأنك تجد الناس يذهبون، وما يحملون في جعبتهم من خلالها وصفاتها ونعوتها، وإذ هم لا مستعدون للتنازل، ومثل هذه الحيثية، وحين يجلس بها في مجلس التفاوض والنقاش والأخذ والرد، فإنها ليست تؤتي أكلها غالبا أو دائما!

ولهذا السبب، وحين راح عمرو بن معدي كرب، وبهذا التجرد فينعم الله تعالى عليه بالحق، فيسلم ومن توه. وأما قيس بن مكشوح المرادي، فبقي في وحل الطين، وبله الجاهلية وعفنها وعيبتها وركامها، وحين لم يستطع التخلية بينه وبين ما عاثت به جاهليته.

وهذا أمر جد هام، وكما قد رأيت: الذهاب إلى غرفة الاجتماع مخلى؛ وليخرج منها محلى!

ولكن عمرا هذا كان قد ارتد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وكما نفر غيره يومه هذا، ولكنه عاد وأسلم وحسن إسلامه، وشهد الفتوحات في عهد كل من أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله تعالى عنهما.

وليس مهما تاريخ ذلك، وعلى ما قيل في السنة التاسعة أو العاشرة من هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. والثبات منه تعالى.

ومرة أخرى: الذهابَ الذهابَ إلى غرفة الاجتماع مُخَلًّى؛ وليخرج منها مُحَلًّى!

المسألة الخامسة: فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه لوفد الأشعث بن قيس، وحين جاؤوا إليه مسلمين. وهو استفهام إنكاري، فيه معنى الإنكار على من لبس الحرير من رجال هذه الأمة، ولأن هذا الحرير لباس تنعم ورقيق، والأصل في رجال الأمة هو الاخشوشان، والأخذ على يد ذات نفس العبد، أن يكون متصرفا على نسق التواضع والجلد، لا على لبس الأعاجم.

ولكن اللافت هو قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم آنف الذكر، ويكأنه ينكر على من أسلم أن يكون هذا لباسه، وليس هذا فحسب، بل هناك معنى ألطف، وهو ذاك الذي تنبغي المعونة فيه، والديانة به، وحين يكون هناك ذلكم الانسجام التام بين الهدي الظاهر لهذا الدين، وبين ما اعتقد العبد من أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأن مطلق التوحيد هو ذلكم الالتزام بشعائر الله تعالى قلبا وقالبا، ظاهرا وباطنا، قولا وعملا، وأنه هذا هو المتبادر من قوله صلى الله عليه وسلم: ألم تسلموا؟ وحين كان جوابهم، وأن نعم، فكان استفهامه الإنكاري هذا: فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟

ودلالة على أن الإسلام له تبعة هكذا التزام، وليس يحل التحلل من ربقة هذه الالتزامات، ولأن القول بغير ذلك هو مطية التحلل من الشعائر، والانفكاك من الهدي الظاهر، وأنت خبير بمدى ما لهذا الهدي من قيمة، في الأخذ بأسباب التثبيت، وما له من تمايز في موجبات المفاصلة.

ولكن القوم كانوا قد شقوا هذا لباس الحرير عنهم، وفي لمحة على مدى الانقياد، وعن لفتة صادقة تنم عن إسلاس. وهذا الذي يكون عليه المسلم كل حين

من أمره، ولأنه الله تعالى قال ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]. وكذا قوله تعالى ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

ولكن هذا الأشعث بن قيس رضي الله تعالى عنه، كان قد أثار مسألة النسب من جديد، وحين نسب نفسه، وهذا النبي إلى قبيلة كندة من اليمن. ومعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم ينتسب إلى قبيلة قريش، والفارق من جهة النسب لا غير. وإلا فإن أكرم الناس عند الله أتقاهم، وأنه لا فضل لأحد على احد إلا بالتقوى والعمل الصالح، وكما قال تعالى﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولهذا السبب أراد صلى الله عليه وسلم أن يصحح هذا، وبقوله: لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا، ولا ننتفي من أبينا». فأرجع النسب إلى وضعه الصحيح، وكما قلت فإن هذا هو الموافق لطبائع الأمور، وغير النسب إلى الأبوين مخالف، وفيه ما فيه من اختلاط الأنساب، وهو ما وقف له النبي صلى الله عليه وسلم، وحين قال له الأشعث بن قيس: يا رسول الله نحن بنو آكل المرار، وأنت ابن آكل المرار. في نسبة إلى كندة إحدى قبائل اليمن.

وبه علم حفظ النبي صلى الله عليه وسلم للشريعة، ومن أمرين:

الأمـــــر الأول: حفظها بالهَدْيِ الظاهر؛ وكيما يحافظ المسلم على نفسه من الذوبان في معركة التحلل من الالتزامات، وحين ليس يكون العبد قابضا على دينه، ولا

سيما أوقات الفتن والمحدثات والأزمات، وهذا الذي قال عنه هذا النبي صلى الله عليه وسلم يوما: إن من ورائكم زمان صبر، للمتمسك فيه أجر خمسين شهيدا منكم [١].

وكذا قوله صلى الله عليه وسلم: يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر. [٢].

الأمر الثـــاني: وحفاظا على الأنساب، وألا تختلط، ولما في هذا الاختلاط مما هو غني عن بيانه، من زواج محرمات. أو استبعاد لمن حل أو حلت.

وكما أنه أمكن به فوات مستحقي الإرث من أنصبائهم، أو إدخال من ليسوا من ذوي حقوقهم، وغير ذلك.

وإن لم يكن فيه غير الحق والصدق لكفاه ذلك، ولأن ديننا هو دين الصدق والعدل والقسطاس المستقيم.

وهذا الذي جاء الإسلام لتصحيحه، ومن جملة ما أتى لاستقامة الناس على أمر الله تعالى، وألا تختلط عليهم أمورهم؛ وألا تلتبس أحوالهم؛ ومن تقادم الأزمان، ومن موجب النسيان.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام بن ماجه رحمه الله تعالى عن الأشعث بن قيس: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد كندة، ولا يروني إلا أفضلهم، فقلت: يا رسول الله، ألستم منا؟ فقال: نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفو

---

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٢٢٣٤

(٢) العلل الكبير، البخاري: ٣٢٩. خلاصة حكم المحدث: فيه عمر بن شاكر، قال البخاري: هو مقارب الحديث.

أمنا، ولا ننتفي من أبينا قال: فكان الأشعث بن قيس يقول: لا أوتي برجل نفى رجلا من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد [1].

حادي عشر: وهن شر غالب لمن غلب!

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه للأعشى عبد الله الأعور، وحين غرر بامرأته شيطانها، فلحقت عنه بأحدهم، وكان يسمى مطرف بن نهشل.

وعلى كل حال فهذا الذي حدث، وأي مجتمع يمكن أن يحدث فيه من مثل هذه الوقائع والأحداث، والتي نأخذ منها العبرة والعظة والإفادة.

وعلى كل حال أيضا فهذا هو وصف خرجنا به للنساء، ومن في نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم. وحين كانت المرأة غالبة في أحوالها، وإن تزيت بزي المسكنة، وحين ارتدت رداء الضعفة والمساكين والمغلوبين!

وهذا الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث آخر، وحين قال: ما رأيت من ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل الحازم منكن، قلن: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: أليس إحداكن تمكث الليالي لا تصلي ولا تصوم؟ فذلك من نقصان دينها، وشهادة إحداكن على النصف من شهادة الرجل، فذلك من نقصان عقلها [2].

ولكن هذا النبي كان قد أعان صاحبه الأعشى على صاحبه مطرف، ولِحَقِّ الأعشى، وحين طلب منه امرأته، ولكنه أبى ورفض!

ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم أرسل له خطابا، وبناء على طلب الزوج الأعشى!

---

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢١٣٢

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي: ١/٥٣١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وحين راح إليه برسالته صلى الله عليه وسلم، وأرسل أن تذهب معه شرط شفاعة مطرف، وألا ينال منها زوجها الأعشى عقابا على فعلها هذا!

وكان هذا رد الأعشى:

لعمرك ما حبي معاذة بالذي يغيره الواشي ولا قدم العهد

ولا سوء ما جاءت به إذ أزالها غواة الرجال إذ يناجونها بعدي!

ولكننا نشير أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لم يتعرض لما حدث بين الأعشى وزوجته معاذة، ولعل ما بينهما لا يفتضح! وكذا لم يرد في السياق أنها ونهشل لم يتعرضا لشيء من ذلك، ولذات السبب! ولا حتى رأينا مؤاخذة لمطرف من النبي، ولا من زوجها، وإن كان قد طالب بزوجته منه، ولعل ذلك من باب الإجارة، والذي جاء القرآن الكريم بإعماله، وحين قال الله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦].

وهذا في حق المشركين، وهو من باب المسلمين أولى.

ولعل هذا أيضا من باب عدم الاطلاع على عورات المسلمين، وهو من باب الستر، ومن باب ألا يتدخل العبد فيما لا يعنيه. وإذ كان ذلك من حسن إسلام العبد، وبنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لكن هذا الحدث، ولما جاء بهذه الدقة في الذكر، وهذا عدم الاحتمال والتفريع، ولأنه حدث قد وقع استثناء من قاعدة، وألا تخرج المرأة دون إذن زوجها، ولو كان ذلك حين غضبها!

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى طرفا من ذلك عن الأعشى المازني، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فأنشدته:

يا مالك الناس وديان العرب　　إني لقيت ذربةً من الذرب

خرجت أبغيها الطعام في رجب　　أخلفت العهد ولطت بالذنب

وهن شر غالب لمن غلب

قال: فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يتمثلها وهو يقول: «وهن شر غالب لمن غلب»[1].

ثاني عشر: علم نبوة ضاف! إن بدن الله لتنحر عنده الآن!

هذا علم آخر ضاف من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين جاءه صرد بن عبد الله الأزدي مسلما، وقد أمره على قومه، وجعله أمير قتال من أبي، وهذا الدرس مر علينا كثيرا في هذه السيرة النبوية المباركة، ولما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يؤمر على الناس رجلا منهم، وكما قلنا فإن هذا أدعى، ولعلم مثل ذلكم قائد بحاجات قومه ولسانهم وعاداتهم، فيكون مألوفا لديهم، ومن ثم تكون موجبات موافقته أكثر وأدعى، وتضحى عوامل معارضته أقل وأدنى، وفي أقل صورها، وإن وجدت، ولأنه يتكلم بلسانهم، ويقول من عاداتهم.

ولكن اثنين قد جاءا من جرش، ولما علما بقدوم جيش المسلمين حواليهم، وحين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم: ممن أنتم؟ قالوا: من جرش. وأخبروه بأن حواليهم جبلا يقال له كَشَرَ! فبدل اسمه إلى شَكَرَ، وهذا أيضا من سننه صلى الله عليه وسلم، ومن تغيير الأسماء من السيء إلى الحسن، ومن الشين إلى الزين.

---

(١) التاريخ الكبير للبخاري: ١/٧٧٨

وإذ سألا النبي عن سر تسميته بشكر، وحين قالا: فما شأنه يا رسول الله؟

فقال: «إن بدن الله لتنحر عنده الآن».

وهذا كما قلت علم نبوي؛ ولأنهما وحين انصرفا الى هناك وجدا جيش المسلمين، وإذ يدكهم دكا هناك! وبقيادة صرد بن عبد الله الأزدي.

لكن هذا صرد كان قائدا عسكريا ماهرا، وحين استعصى أهل هذا الجبل، وكانت منه حيلة عسكرية باهرة، وإذ تظاهر بالانسحاب، ليوهمهم، ويبعث الدعة فيهم! وحين رجعوا فانكفأ عليهم مرة أخرى، فقتلهم شر قتلة، وهذا الذي كان منه قوله صلى الله عليه وسلم: إن بدن الله لتنحر عنده الآن! وحين رجع القوم وجدوا ما قاله هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم واقعا!

ولكن الرجلين وحين راحا إلى أبي بكر وعمر يومهم هذا، فأمراهما أن يذهبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ليدعو الله تعالى أن يرفع عن قومهم. وحين سألوه ذلك فقال: «اللهم ارفع عنهم».

وإلا أن القوم كانوا قد أسلموا، وحسن لله تعالى اسلامهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم [1].

---

(١) يراجع في ذلك: سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٦ / ٢٦٢

ثالث عشر: ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين.

هذا جزء من عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى ملوك حمير، ويوم جاؤوا إليه مسلمين.

والواقع أن هذا الجزء جد حد فاصل، ولأنه يبين الهوية الإسلامية للدولة، وبلا أنصاف الحلول أو أرباعها أو أخماسها!

وهذا الجزء يبين منه هذه المفاصلة في العقيدة، وأنها الأساس الذي ينبني عليه كل أساس آخر، ودون هذا الأساس، فإن البيت يكون على شفا جرف هار.

وهذه أسس ثلاث تقوم عليها ديانة العبد، ومن ثم ينظر في بقية الأمور والأركان:

الأمر الأول: هو إقامة الشهادتين، وتعلمهما، والقيام بهما، وعليهما، من نبذ الشرك، والمشركين، وإعلان السلطان الأعلى لله تعالى، وبحيث تكون كلمة الله تعالى هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وهذا معناه ألا يعلو أمر لأحد على أمر لله تعالى أو أمر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وأن هذا هو معنى أن الدين لله تعالى، فإن معناه ألا يتلقى الأمر والنهي إلا من الله تعالى ورسوله، ولأن هذه حيثيات بدهية، فإن الذي خلق، وهو الله تعالى، وهو اللطيف الخبير، وهو الذي يعلم ما يصلح من خلق، أو يفسد من برأ، وعلى هذا الأساس يكون الله تعالى وحده هو الذي يملك سلطة الأمر والنهي، لإصلاح العبيد، وتوجيهم نحو سعادتهم وأسبابها، وإلى نجاتهم وموجباتها.

وقول بغير ذلك هو مصادرة للحق، ويذوق ويلاته من فعله أو تابعه.

الأمر الثاني: هو ذلكم الإشهاد على هذا الحق، ولأنه هذا عقد بين العبد ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وكل عقد يلزمه شهوده، وحتى إذا أفلت العبد من ربقته، يكونون عليه شهودا، فينصحوه الرجوع والتوبة، ويعاودوه الإجابة والأوبة، والتي أسماها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

الأمر الثالث: هو مظاهرة المسلمين على المشركين، وهذا جد فصل في المسألة، وأنه هذا هو مربط الفرس، ولأنه عمود الولاء والبراء في هذا الدين القائم على مودة الله ورسوله، ومودة أولياء الله ورسوله والمؤمنين، وهذا الذي فتح القرآن له أبوابا عديدة في القرآن الحكيم، ولعلمه تعالى أنه منعطف زلل، ومنحدر خطر، يكاد يسقط منه كل مار، إلا من عصمه مولاه تعالى الحق المبين، وحين قال الله تعالى حصرا وقصرا، وبحيث لا يدخل فيه إلا أهله ولا يخرج منه أهله ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة:٥٥].

وهذا الذي قاله القرآن الكريم، وإذ كان خاتمة لمنهج الولاء والبراء، وعلى مدى طويل من سورة المائدة، إعلانا عاما، وأن هذا أمر فصل، وليس يقوم دين خال عن ولائه، وليس يكون دين من أساسه مفرغ من برائه.

وأسوق الآيات عبرة، وتذكرة، وأنسخها بيانا وتعبيرا، ولأني رأيت الناس فيها خبط عشواء، فقال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۞

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٥١-٥٧]. وهذا بيان ربنا سقناه، والله غالب على أمره.

لكن الذي أشير إليه أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وحين وضع نظام الدين يوم ملوك حمير هذا، وقد بدأ بما بدأ الله تعالى به، وهو أمر التوحيد والعقيدة، وقد حده هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أيضا، ومن ثم تأتي بعده الشرائع الأخر، وتكون تالية له.

وغير هذا المنهج ينتج فصاما نكدا بين شرعة الرحمن واستحسان الإنسان.

والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل.

رابع عشر: علم نبوة ضاف! يدخل عليكم من هذا الباب رجل على وجهه مسحة ملك

هذا علم آخر ضاف من أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين جاء جرير بن عبد الله البجلي، كيما يسلم على يدي هذا الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلا أن جريرا هذا كان له شأن من أبهة، وإذ كانت عليه أمارات النعمة والرفاه، وهذا الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم ينعته من حديث

آخر وبقوله: يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفج من خير ذي يمن إلا أن على وجهه مسحة ملك.[1]

وبه دل على أنه يمكن أن يكون في القوم من هو ذو خلق، ولو كان كافرا، وقد شاهدنا من ذلك كثيرا، وها نحن مررنا بابني حاتم الطائي سفانة وأخيها عدي، وكذا زيد الخيل، وحين رآه النبي صلى الله عليه وسلم أكثر مما وصف له من خلق، وأربى مما نعت له من أدب، وهذا الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول أيضا: الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.[2]

وعود على بدء، وحين جاء هذا جرير بن عبد الله البجلي حقا، وبينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب، ويكأن قلبه حدثه، حتى سأل الصحابة، وعما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكره أم لا، وقد كان من قوله: فقلت لجليسي: يا عبد الله هل ذكرني رسول الله ﷺ، قال: نعم! ذكرك بأحسن الذكر، بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: «يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفج من خير ذي يمن إلا أن على وجهه مسحة ملك»

وهذا خلق نبينا دأبا وهديا وقدوة، وحين نعته جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه بقوله: ما حجبني النبي صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي. ولقد شكوت إليه إني لا أثبت على الخيل، فضرب بيده في صدري، وقال: اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا[3].

---

(١) كتاب الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، الساعاتي، أحمد بن عبد الرحمن: ٢١/٢١٦

(٢) صحيح البخاري: ٣٣٨٣

(٣) المرجع السابق: ٣٠٣٥

وإذ كان من شأنه أنه ليس يثبت على جمله، وحين عدوه، وعلى أبهته وسمته، ولكنه وحين شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أمره، وليدعو له النبي وليثبت على جمله من بعدها!

ولكن هدي هذا النبي العربي الأمي الكريم كان أحسن الهدي، وحين أمر أصحابه إكرام من كان في قومه كريما عزيزا، وحين قال: أتاكم كريم قوم فأكرموه [١].

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان قد بايع جريرا هذا على الإسلام، الذي هو عبادة الله تعالى وحده بلا شريك، ونبذ الأضداد والنظراء، وهذا معناه خلع كل ربقة من جاهلية، وإثبات كل صفة للإسلام الحنيف الخالد، من كونه جاء لتحرير العباد من ربقة العبودية المقيتة لغيره تعالى، وتحويل دفة هذه العبودية، وإلى كونها لله تعالى وحده، في الذي دق، وفي الذي جل، وحين قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبايع، فقلت: يا رسول الله، ابسط يدك حتى أبايعك، واشترط علي، فأنت أعلم. قال: أبايعك على أن تعبد الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتناصح المسلمين، وتفارق المشركين [٢]. : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والسمع والطاعة، والنصح لكل مسلم.[٣].

وحاصل الحديثين؛ ومن داعية الجمع بينهما الأمور الآتية:

---

(١) العراقي تخريج الإحياء، العراقي: ١/٣٠٨. خلاصة حكم المحدث: مرسل بإسناد صحيح.
(٢) صحيح النسائي، الألباني: ٤١٨٨. ورواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه بلفظ
(٣) صحيح البخاري: ٢١٥٧

الأمر الأول: الإتيان بالشهادتين، وكمدخل لهذا الدين، ومن موجب ذلك الاعتقاد بمعناهما، والإتيان بمقتضاهما من عبادة الله تعالى وحده، ونبذ الشركاء والنظراء، والكفر بما يعبد من دونه تعالى.

الأمر الثاني: مفارقة المشركين، وهذا هو التطبيق العملي لمقتضى الشهادتين.

الأمر الثالث: إقامة الصلاة على وقتها.

الأمر الرابع: إتياء الزكاة.

الأمر الخامس: السمع والطاعة لله ورسوله. وأنت مطلع على نظم الحديث الكريم وحين جعل الطاعة لما سمع، ولان السمع مفرغ عن طاعة يصبح الامر به مجرد ثقافة ذهنية وحسب!

الأمر السادس: النصح لكل مسلم، ولحديث الباب ولحديث: الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم [١].

ولكن هذا جريرا كان له تاريخ مجيد، وحين حثه النبي صلى الله عليه وسلم على هدم صنم ذي الخلصة باليمن، وإذ كانوا يطلقون عليها الكعبة اليمانية، مواجهة بالكعبة المشرفة، وحين كانوا يسمونها الكعبة الشامية.

وقد أنف تناول هذا الحدث العظيم إبان حديثنا يوم تبوك يوم العسرة.

ولكن هذا جريرا أيضا وقد ترك لنا سنن المسح على الخفين، تيسيرا ورفعا للحرج عن الأمة وحين كان يوما وليلة للمقيم، ولما كان ثلاثة أيام بلياليهن للمسافر.

---

(١) صحيح مسلم: ٥٥

ولكن صفة هذا المسح، أن يضع باطن أصابع يده اليمنى فوق أطراف أصابع قدمه اليمنى، ويضع يده اليسرى تحت أصابعها ويمر بيده على خف رجله اليمنى إلى الكعبين، ويفعل في خف رجل اليسرى عكس ذلك بحيث يضع يده اليسرى فوق أطراف أصابع رجله اليسرى وأصابع اليد اليمنى من تحتها ويمر بهما إلى الكعبين.

وحين روى الإمام أبو داود رحمه الله تعالى: أن جريرا بال ثم توضأ فمسح على الخفين وقال ما يمنعني أن أمسح وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح قالوا إنما كان ذلك قبل نزول المائدة قال ما أسلمت إلا بعد نزول المائدة [١].

ومنه ثبوت المسح، وعلى مدته التي سلفت، وعلى صفته التي مضت، وعدم تعارضه مع آية غسل أعضاء الوضوء، وكما ورد في سورة المائدة، وكما قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة:٦].

وهذا جرير بن عبد الله، وحين كان أمر الإسلام يهمه، وإذ كانت شرائع الإسلام هاجسه، ومن سؤاله النبي صلى الله عليه وسلم، وحين قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري [٢].

وقلت: وهذا سؤاله عن نظرة الفجأة! وما بل غير ونظرات غير الفجأة؟!

---

(١) صحيح أبي داود الألباني: ١٥٤

(٢) صحيح مسلم: ٢١٥٩

وقالَ جريرٌ لمَّا دنوتُ منَ المدينةِ أنختُ راحلتي ثمَّ حللتُ عَيْبتي ثمَّ لبستُ حُلَّتي ثمَّ دخلتُ فإذا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ يخطبُ فرماني النَّاسُ بالحدقِ فقلتُ لجليسي يا عبدَ اللَّهِ ذَكرني رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ قالَ نعم ذَكرَكَ آنِفًا بأحسنِ ذِكرٍ فبينما هوَ يخطبُ إذ عرضَ لهُ في خطبتِهِ وقالَ يدخلُ عليكم من هذا البابِ أو من هذا الفجِّ من خيرِ ذي يمنٍ ألا إنَّ على وجهِهِ مِسحةَ ملَكٍ قالَ جريرٌ فحمدتُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ على ما أبلاني وقالَ أبو قطنٍ سمعتَهُ منهُ أو سمعتَهُ منَ المغيرةِ بنِ شبلٍ قالَ نعم ثنا أبو نعيمٍ ثنا يونسُ عنِ المغيرةِ بنِ شُبيلِ بنِ عوفٍ عن جريرِ بنِ عبدِ اللَّهِ قالَ لمَّا دنوتُ منَ المدينةِ أنختُ راحلتي ثمَّ حللتُ عيبتي ثمَّ لبِستُ حُلَّتي قالَ فدخلتُ ورسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ يخطبُ فسلَّمتُ على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ فرماني القومُ بالحدقِ فقلتُ لجليسي هل ذَكرَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ مِن أمري شيئًا فذَكرَ مثلَه.[1].

خامس عشر: علم نبوة ضاف! يأتيكم بقية أبناء الملوك.

وهذا علم آخر ضاف من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال هذا مناسبة قرب قدوم وائل بن حجر بن ربيعة، أحد ملوك اليمن، لإعلان الإسلام الحنيف الخالد، من بين يدي هذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

وحين جاء هذا وائل بن حجر بن ربيعة، ودعا له نبينا محمد صلى الله عليه أن يبارك له في ولده وولد ولده.

وعلى كل حال فإن هذا الدعاء موجب انسا وقربا ولطفا، وإذ يجعل من المدعو له طاقة خلابة نحو الاطمئنان والدعة إلى هذا الدين الجديد. وهذا خلق نبوي كريم،

(١) الصحيح المسند الوادعي: ٢٧١

وسنن محمدي يحتذى، وأن يربت على صدور الناس رحمة ومودة، وحين يأتون مسلمين وجوههم لله تعالى رب العالمين.

ولكن الفظاظة ليست من ديننا، بل ديننا خلق حسن، وقول حميد، وصلة وقربى، وقول الحق الذي به يعدلون.

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكرم وائل بن حجر بن ربيعة هذا فيقطعه أرضا، وكل حال أيضا فإن هذا من صلاحيات الإمام الأعظم، وأن يهب من يتألف قلوبهم، ولا سيما وحين يكون وراءه قوم يكون بإسلامهم رحمة واسعة، عمت الآفاق وطالت الأرجاء، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم.

وكان أن أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معاوية بن سفيان رضي الله تعالى عنه ليذهب معه، ليمنحه عطية هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن الطقس قد كان حارا، والسفر بعيدا، وحينها رأينا هذا وائل بن حجر بن ربيعة لم يطلب من معاوية أن يكون رديفه على ناقته! وحتى اضطر معاوية أن يطلب منه أن يردفه فأبى!!! وقال قولا سجله عليه التاريخ.

وهذا حديث دار بينهما أثناء الطريق، وحين شكَى إليه معاوية الحر والرمضاء، فقال له انتعل ظل الناقة! فقال: وما يغني عني ذلك؟ لو جعلتني ردفا. فقال له وائل: اسكت فلست من أرادف الملوك!

وأنت قد وقفت على هكذا ما تقشعر منه أبدان الحنفاء!

ولكنه وعلى كل حال فهذا أمر قد حدث، ويمكن أن يحدث في أي تجمع بشرى! ولكنه وحين يحدث، فقد بان أنه قليل، وقد بان أن الإسلام يقف منه موقف الرفض التام. وحين كان الفيصل بين الناس جميعهم هو ذلكم التقوى والعمل الصالح، ولأن الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]. ولأن نبينا صلى الله عليه ولما قال: لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض -: إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب. (١).

ولكن الذي نريد الوقوف عليه أن وائل بن حجر بن ربيعة كان بين أمرين ساعداه على اتخاذ موقفه هذا:

الأمر الأول: هو حداثة عهده بالإسلام، ولما لم يكن قد بلغ شغاف قلبه بعد، ولما لم يكن قد تفاعل مع هذا الدين وآدابه وأخلاقه بعد أيضا، وهذا الذي ينبغي على الدعاة العاملين مراعاته، وحين يجعلون لهذا الصنف حديث العهد بالإسلام برامج تصقله، ومجالس ذكر تمكنه من الحق، وتمكن الحق منه، بحيث يكون عبدا ربانيا خلوقا، وإذ لا يبدر منه إلا كل حسن من القول، وطيب الكلام وزينة اللسان.

الأمر الثاني: إن وائل بن حجر بن ربيعة هذا كان قد خرج من بيت الملك، ولا شك أن هذا عامل فيه عمله، وها هم الملوك يرون أن الناس لديهم مملوكون! وبالتالي فحين يقع من وائل بن حجر هذا، فإن هذا هو المتبادر منه، ولا ينتظر منه غيره، وحاله أنه قد كان ملكا! وأنه قد كان ملكا غير مسلم!

---

(١) شرح الطحاوية، الألباني: ٣٦١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وقولنا هذا هو مجرد محاولة تفسيرية لما يحدث، لا أنه يعد تبريرا لما يقع؛ ولأن الإسلام يعلو، ولا يعلى عليه.

ولكن الإسلام الحنيف الخالد شيء، وما يقع من رعيته شيء آخر على كل حال. ولا سيما حين يكون مخالفا لروحه ونصوصه أبدا.

ولكنه وتمر الأيام والسنون، ويكون معاوية هو خليفة المسلمين يوما، ويدخل عليه هذا وائل بن حجر بن ربيعة، فيكرمه معاوية، ويجلس بجواره، وحين عرفه معاوية، فرحب به، وقربه وأدناه، وأذكره الحديث، وعرض عليه جائزة سنية، فأبى أن يأخذها، وقال: أعطها من هو أحوج إليها مني! [١].

وسبحان الله وتعالى! فإن هذا صنفا، ولازالت به جاهليته! والإسلام وعلى كل حيال دين يسع العالمين، ولأنه دين عالمي، ولكنه يعمل على تصحيح المسار، وتمحيص الأتباع، ومن خلال ورش عمل دؤوبة أبدا.

وهذا هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين واجه أبا ذر رضي الله تعالى عنه، وما أدراك ما أبو ذر، وحين قال له: إنك امرؤ فيك جاهلية.

فعن المعرور بن سويد: **رأيت أبا ذر وعليه حلة، وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك، قال: فذكر أنه ساب رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعيره بأمه، قال: فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان**

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٩٣

أخوه تحت يديه، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه. [(١)].

ولكنه الإسلام، وحين ليس يدع موقفا يخالف إلا وصرامته قد سبقت، وإلا وحزمه قد استقام.

وماذا أنت قائل سوى دعاء الملك العلام أن يعافيك وكاتبه وقارئه من فعل وائل بن حجر هذا!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن وائل بن حجر، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أقطَعَهُ أرضًا، قال: فأرسَلَ معي معاويةَ أن أعطِها إيَّاه -أو قال: أعلِمْها إيَّاه- قال: فقال لي معاويةُ: أردِفْني خلفَكَ، فقلتُ: لا تكونُ من أردافِ الملوكِ، قال: فقال: أعطِني نَعلَكَ، فقلتُ: انتَعِلْ ظِلَّ الناقةِ، قال: فلمَّا استُخلِفَ معاويةُ أتَيتُهُ، فأقعَدَني معه على السَّريرِ، فذكَّرَني الحديثَ، فقال سِماكٌ، فقال: وَدِدتُ أنِّي كنتُ حَمَلتُه بين يديَّ. [(٢)].

سادس عشر: السراج المنير في الحكمة والتقدير والتعليل والتدبير

ضن ربك عزوجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله.

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين وفادة لقيط بن عامر المنتفق أبي رزين العقيلي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما سأله لقيط هذا عن شيء من علم الغيب. ليقابل قومه، وليسلم هو ومن وراءه وقومه تبعا.

والواقع أن الرجل كان حصيفا من مسألتين:

---

(١) صحيح مسلم: ١٦٦١

(٢) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط:٢٧٢٣٩. حكم المحدث: إسناده حسن.

وأما أولاهما: ولأن العلم الغيبي يعمل عمله في النفوس، وحين يرغمها على الانقياد والتسليم والإذعان. ولما كان داعية إلى الوجل والقصور، وأن قوة أخرى من وراء التدبير، وأليس للإنسان من أمامها إلا ذلكم الإخبات.

وأما ثانيهما: ولأنه يعتبر اختبارا لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ذي الدعوى! وألو كان نبيا حقا، لدفع بشيء من علوم الغيب التي اختص بها الله تعالى نفسه، ولعل هذا لقيطا بن عامر المنتفق، قد كان على بعض علم من أهل الكتاب، وبما حوته كتبهم عن شيء من ذلك، أو أنه كان على علم مستوحى من بقايا ملة إبراهيم حنيفا مسلما، وما كان من المشركين، وهذا أمر قد كان مشهورا لديهم أيضا، وأراد اختبار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم به، وليفيض عليه هذا النبي علما، ويكيله منه كيلا، مما قد علمه لقيط هذا، ومما قد غاب عنه معا، وهذا قدر كاف لإسلام من أراد، وهو قدر كاف لإيمان من آمن، وعن تجرد غير مشوب بهوى!

ولعل أمرا آخر بالغا، وحين يجيب الداعية عما يجول بخاطر خصمه فيطمئن، وأن يزيده علما عما لا يعلم، علما آخر ضافيا، فيسكته، ويقحمه، ويفحمه، ويدمغه، وهذا الذي يسمونه تضافر الأدلة لإفحام الخصم!

والواقع أن علم الغيب هذا ليعد برهانا على مطلق الألوهية والربوبية لله تعالى العلي الأعلى سبحانه. وهو برهان تسليم العبد لربه تعالى أيضا؛ ولأنه هذا اختبار لمدى قدرة العبد على التفويض لله تعالى، والتسليم له تعالى أيضا. ولأن كل شيء ولو ظهر، ما كان منه عبد قد انبهر! فدل على بقاء شيء، بل أشياء تعد غيبا؛ دليلا على طلاقة القدرة الربانية، وبرهانا على عظم السلطان لله تعالى أيضا.

لكن بابا آخر عظيما، هو ذاك الذي يرهق القوم فيه أنفسهم، داسِّين أنوفهم فيما ليس لهم به علم، وقد خولهم ربهم فيما لهم به علم، فلم يحاجون فيما ليس لهم به علم؟! وقد كانت مساحة ما لهم به علم واسعة، ولا يكادون يغبرونها سبرا، وحتى يروحوا مزاحمين ربهم فيما اختص به، وفيما لا يزيدهم من العلم علما نافعا، لا لمعاشهم ولا لمعادهم، وإلا كان قد بينه ربهم لهم، وقد أمكنهم كونا واسعا فسيحا، وليعملوا فيه طاقات علمهم المأهول بما من به الله وأتاحه، وجعل مكنة كل فيما يخصه قادرا على استدعاء علم علمه الله تعالى وأودعه كونه، وأمكنهم منه بحثا ودراسة، وسبرا غورا.

لكن دائرة الغيب هذه، وحين اختص بها الله تعالى ربنا الرحمن فهي دائرة بين أمور منها:

الأمر الأول: هو بيان مدي القدرة الربانية، التي لا يحدها حد، ولا يرد عليها قيد، وفي مواجهة عباد فقراء، كانت قدراتهم محدودة، ومقصورة بما فتح به الله، وأراده أن يقع في ملكوته، وليس يقع منه شيء إلا بحكمته وقدرته وحكمه أيضا. وإذ ليس يقع إلا بعلمه، وعلى قدر ما تسعه طاقاتهم المحدودة.

وأنت خبير بما قد يفتح الله تعالى به على قوم من علم كان مقدورا لهم، وإذ بهم ومن فجأتهم ولربما أصابتهم مصيبة الفجأة، وما بالهم ولو كشف عنهم ربهم حجب ما لم يقدروا عليه ابتداء وانتهاء معا؟!

وهذا حجابه تعالى النور، وهو علم غيب قطعا، ولا ريب، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه تعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه! وهو سبحانه لا نهاية لبصره! لكنها الكناية عن الهيمنة والإحاطة والقيومية لله تعالى سبحانه، ومحدود هو أمد الخلق،

ونطاقهم، ومكانهم! وسبحان من وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، وهو العلي العظيم.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات، فقال: إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، وفي رواية أبي بكر: النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه [1].

وأنت خبير أيضا بهذا المولى العبد النبي، وهذا الرسول التقي الولي، سيدنا ومولانا موسى أخي هارون عليهما السلام، وحين طلب من ربه تعالى أن يراه، وقد كان الرد الإلهي أن هذا ليس من مقدور هذا العبد النقي التقي، ولكنه تعالى وجبرا لخاطر عبده، وألا يكسره، بل وليريه من آياته الكبرى! وقد أمره أن ينظر إلى الجبل، فإن استقر هذا الجبل مكانه، فسوف يرى موسى الكليم ربه تعالى أيضا، ولكنه تعالى ولما تجلى للجبل جعله دكا سائخا رملا غبارا! وهذا الجبل أمامنا، وانظر كيف صار غبارا رملا! وحين قد رأى هذا العبد التقي النقي الولي موسى عليه السلام خر صعقا، فلما أفاق قال سبحانك! وكما قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٩

وهذا قياس بما هو من مرئيات العباد الضعاف المساكين، ولربما كان داخلا من مقدورهم إدراكه، ومنه جاء النظم هكذا، ومن كمثل وتقريبا، وإلا فإن قدرته تعالى وسلطانه وقهره وقيوميته، وإن كل ذلك وليس مما يقاس!

وقلت: إن مسألة الرؤية غيب لنا، وإذ كان الإيمان بها من أصولنا، ولكنها يوم يتخذ كل مقعده، من مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهذا هو المزيد، وكما من قوله تعالى ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

الأمر الثاني: هو ذلكم العلم الذي ليس يضيف للعبد علما، ولولاه لكان الكون عاجزا عن متطلبات العيش والرغد السعيد فيه، وبالتالي يمكن ومن خلال ذلكم ادعاء ضَنٍّ بما هو لولاه لكان الكون أيسر تعاملا معه، واستكناه أسراره، ولولا هذا الغيب الذي غاب علمه عنا! وهذا أصل عظيم في المسألة.

الأمر الثالث: أن علم الغيب هذا يظل دليلا وبرهانا على الإعجاز أيضا، وبرهانا على مطلق التحدي، وهما أمران سائغان عقلا أن تظل أمور طي علم مبدعها وحسب، وليكون الله تعالى على كل شيء قدير، ولأنك ترى قوما، وحين يعلمون من علمه الذي أودعه، ولم يعجزوه، ولكنه سمح به، وأجازه، ويوم أن فتح عليهم نافذة واحدة منه، أو نوافذ عديدة، وإذ هم يكفرون بالرحمن، وبدل أن يكون هذا سائقهم إلى الركون، وبرهانهم إلى الخضوع، ودليلهم إلى الخشوع، وسبيلهم إلى الإخبات لله تعالى العلي الأعلى سبحانه وتعالى. وإذ بك تراه وحشا ضاريا ضاربا، وكأنما أعطي من قليل علم، وإذ تراه وحشا كاسرا سيء الأدب والقريحة والمروءة! وها هو قد سوغ له الزعم بالإفلات من عجلة الهيمنة والقدرة والسلطان القديم لله تعالى العلي الأعلى سبحانه!

وما بالهم ولو فتح الله تعالى عليهم من مفاتيح غيبه؟! ومن مقاليد سماواته وأرضه، وهي أمور ولا شك عالية سامقة برهنت على مطلق الربوبية والألوهية والسلطان القويم القديم لله تعالى، وها هم يقحمون أنفسهم فيما ليس لهم به علم، وما بالنا، ولو فتحت لهم طاقة واحدة مما كان غيبا، ولتجدنهم يخوضون، ويحاولون، ويجادلون، ويتعمقون، ويتقعرون، ويراوغون، ويهلكون أنفسهم، وما هم بواصلين برا، ولا هم بقاطعين أرضا، ولا هم بمبقين ظهرا!

وهذا شأن القوم وإلا من رحم، ولعلهم حينها ينسون أن عملهم هو التعبد، وأن سبيلهم هو التسليم والتجرد، وأليس هذا الذي نراه من الاستكبار والعتو والتمرد.

ولست أريد أن أفصل كثيرا في مفاتح الغيب، ولأنها معلومة عند الناس، ولكن الذي أريد بيانه أنها برهان عزة وسلطان، ولأن علمها ليس يزيد العبد علما نافعا، وكما أن جهلها ليس ينقصه علما يافعا، وعليه وحسبه ذلك أن يجول في حكمة الله تعالى وتدبيره فيما أظهر، وكذا أن يجعل ما أخفي عنه، ولولا أنه لن يفيده، ما ضن به مولاه تعالى عليه، ويوم أن كان لذلكم قد قدر، ولأنه تعالى الرؤوف الرحيم بعباده، وما كان ليكتمهم شيئا مما هو نافع لهم في معاشهم ومعادهم. وهذا أصل عظيم آخر في المسألة.

وانما أسميت مفاتح الغيب، ولأنه ليس يغلق إلا على ثمين غال نفيس، ويكأنه أغلق عليه بالمفتاح لنفاسته. وهذا أمر مشاهد.

ويكأن علوم الغيب كثيرة، وقد كان من طلاقة القدرة أن ننبأ عنها بعضها، وللتسليم له تعالى والإذعان، وجعلها مادة لعلم عن الله تعالى أنه المهيمن العزيز الجبار المتكبر، والا فما وجدنا سائغا عظيما لإعمال هذه الأسماء الحسنى، وأمامنا هذا الكم

الواسع المهيب من علم قد غاب عنا، ومنضافا إلى علم قد انكشفت حجبه عنا؛ لنراه رؤيا أعيننا، مخبتين، متذللين، طائعين، راضين، مسبحين، حامدين، قانتين!

ولكن الإشارة إليه وحدها، ومع حجبه عنا كان ابتلاء عظيما، ولاختبار داعية التسليم عند العباد، وكما أنف. وكما أنه لبيان مدى السلطان والهيمنة والقدرة لله تعالى، مواجهة ما لا قدرة له، وإلا ما قد منحه، ومَنَّ به، وتفضل به، على عبد من عبيده.

وبقي أن ما يقع موافقا وأحيانا لغيب لله تعالى قد استأثر به، إن هو إلا ظنا، وليس يقع على كمال صفته التي جاءت غيبا، وإنما هي تخرصات وحسبها ذلك، وكثير منها ليس يقع، وهذا أمر مشاهد حسا، ولدينا علم الأرصاد، وكثيرا ما لا يقع ما يقولون، ولأنه ظن وحدس، وليس على تفصيل مما أخبر الله تعالى، وإن وقع منه شيء!

ولكن وقوع جانب منه، وعلى غير تمام وصفه، كان ابتلاء أيضا؛ وكيما لا يشمخ أحد بأنفه، وها هو قد وقع! وإذ لا يدري المسكين أنه تخرص أولا، وليس على تمام صفته تاليا! وبالتالي فقد كان حريا ألا يزعق أحد، وقد كان مليا أن يتريث أخوه الأحد الآخر!

وكذا مسألة معرفة الأجنة، وقد سبق علمه تعالى بها، وقبل التخليق، وهذا الذي أعجز المتخرصين، ومن بعد التخليق أيضا! وهذا الذي أبهر العالمين، ويكأن هذا خلقا من نطفة من ماء! وقد قدر لها هذا التكوين الرباني الكريم المعجز المبهر المستقيم.

ولكن سعادة المرء وشقاءه تبقيان طيا غيبا!

وهذا الذي نقف عنده تأملا، وحين قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون

مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة.[1].

ولكن مسألة الأرزاق وقد تكفل بها مولانا الله المنان ذو الفضل والإنعام، وإلا أنها تبقي غيبا مطلقا، وليس لآحاد الناس لها من مدخل، وليس يكون أمامهم حيالها من مخرج، وإذ ليس يدري أحدنا ما قد يكسبه الآن ولا غدا ولا بعدهما! وكذا على صفته، وقدره، ومقداره، وبركته، ومن أين؟ وإلى فين؟ وممن؟ وعمن؟ وهكذا في سلسلة غير متناهية من الاحتمالات والتوقعات التي تبقى غيبا صرفا، وما كان لأحدنا إلا أن يخر هاويا لأذقانه ساجدا لمن قدر، ولطف، وتكفل، سبحانه.

وقد كان حريا بعبيد لله أن ينكفئ على ذات نفسه، وحملها على الإخبات لمن كفاه ربه مؤنة نفسه التي بين جنبيه، ولينم قرير العين، لا أن يعمق في بحر متلاطم، لا ساحل له، وإذ كان هو أول الغارقين بين أمواجه العاتية!

ولكن مسألة الموت ووقته، وقد كان عنا غيبا أيضا؛ ورحمة بالعباد، واستجاشة للطاقات، والعمل الدائب، والكسب الإيجابي، والتنافس العملي، أمام القدرة التي منحها الله تعالى للعبد، وكيما يجد من نشاط، وكيما يكتسب من طاعات، وإلا أن يهرب من مخالفات، وخطيئات، وملذات، وإذ ولو كانت حجب غيب يومه مفتوحة أمامه لَغَطَّ، ونعس، ونام، واستغرق، وتنفس الصعداء، وإلى قبيل يوم أو

---

(١) صحيح البخاري: ٣٢٠٨

يومين من موته، وإن فعل! ولو كشف حجابه، وحينها ليس يشعر بقيمة ما أتحف من جنان، أو شدة ما يخافه من سعير ونيران! ولأن الكسب الإيجابي يشعر بقيمة الأجر والثواب، ولأنه أيضا موعز جارا وخوفا من الملامة والحساب والعقاب، وهذا عكس ما قد منح من لا عمل، أو كوفئ من لا بذل، وتراه ليس يشعر بلقمة سائغة، بل يلوك كما يلاك ممن حرم اللذة، وأبعد النجعة، والله المستعان.

وهذا قدر كاف لحمد ربنا أن طوى عنا يوم موتنا، ومقابلتنا لوجه كريم، كان بنا رؤوفا، رحيما، غفورا، قابل التوب، عظيم المن، كريم الصفح، والغفران وحسن التجاوز.

والقدر نفسه وحين النظر إلى يوم الساعة، ولأنها والموت قرينان، ولأن من مات فقد قامت قيامته، وهذا قدر بالغ. وقد كان كافيا اشتراكهما، ومن معنى الفجأة والبغتة!

وهذا أصل بالغ في المسألة.

وقس عليه علوم الغيب أجمعها، وليبين لك سر العظمة، وسبب الهيمنة والكبرياء لله تعالى، وأن الله تعالى على كل شيء قدير، وأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما.

ولكن ما تنبغي إليه الإشارة هو ذلكم الكم الهائل من علوم الغيب، والتي وإذا ما انكشفت فلا يحملنها أحد، ولا طاقة له بها، ومن ثم كان حجبه تعالى لها عنا رحمة بنا، والحال وكما أنف أنها ليست مما ضن به الله تعالى على العباد، وإذ كان منه نفعهم!

ولكن الذي لا يفوت أيضا، هو ذلكم عدم الاحتياج، ولمثل هذا من غيب، وبه فقد كان حجبه رحمة، ولربما كان كشفه عنتا أيضا. وربنا الرحمن الرحيم منزه عن شيء من ذلكم ابتداء وانتهاء أيضا.

ولكن حصر علوم الغيب في خمس، وكما يبدو من ظاهر الحديث الصحيح، ولعله بجامع أن غيرها داخل تحتها أو أحدها، أو أنه على سبيل ليس قصرا، وهو المتبادر من ظاهر النص أيضا، وإلا فكل ما لم يقع فإنه غيب، دق أو جل، وكما قال الله تعالى ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

ولكن ما علمه أحدنا، ولربما كان غيبا في حق الآخر، والعكس بالعكس أيضا، ويكأن الله العليم القدير يعلم هذا ويعلم هذا، وإذ ما وقع هذا ولا هذا إلا بتقديره وتدبيره وعلمه وإحاطته سبحانه وتعالى.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه أن: مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غد، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر [١].

---

(١) صحيح البخاري: ١٠٣٩

سابع عشر: لا خير في الإمارة لرجل مؤمن

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لزياد بن الحارث الصُّدائي رضي الله عنه، وحين جاء معلنا إسلامه بين يديه صلى الله عليه وسلم، وإذ كان خبره أنه وحين أسلم وعرض عليه النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمره على قومه، فلبى نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه جواز عرض الإمارة وقبولها.

ولكن الرجل وحين أسلم يومه هذا، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث إليهم جيشا، فطلب منه زياد بن الحارث الصُّدائي رضي الله عنه أن يكف عنهم، وهو كفيل بإقناعهم، وحين طلب منه النبي صلى الله عليه وسلم أن يذهب فيرد الجيش، فاعتذر، ولأن راحلته قد كلت. وهذا ظاهر قوله، ولربما كان خشية مواجهة محتملة، أو ألا يرجع الجيش، والرجل لديه حرص، وكما نبينا صلى الله عليه وسلم ألا تراق قطرة دم واحدة، ومنه فقد كلف رجلا آخر بالمهمة.

وهذا بيان الإسلام عن الرفق بالحيوان، بل وبيان الفطرة السوية، وحين تشتمل معاني الرحمة بحيوان مذلل، نركبه ونأكل لحمه ونشرب لبنه ونرتدي صوفه ووبره، ونتغذى عليه، وعليه أزوادنا، تسخيرا من الله تعالى العلي الأعلى سبحانه. وكما قال الله تعالى ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٥-٩].

وإلا أن زيادا هذا قد شكوه قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنه أعان قومه أو بطنه من قبيلته، وعلى ما يبدو على بطن آخر، ولشيء قد كان بينهم في

الجاهلية! وحينها قال الرسول صلى الله عليه وسلم قوله هذا: لا خير في الإمارة لرجل مؤمن.

وهذا الذي حذر منه الإسلام أبدا، ورغم أن الإمارة بها صلاح الناس، وإقامة الدنيا، وحراسة الدين وسياسة الدنيا، وإلا أن المهرب منها دين وحكمة. ودون حاجة الآن إلى الدخول في النقاش الفقهي المتعلق بالوجوب، وحين وجوب التصدر لها، ومن أجل إقامة الدين، وهذا باب ليس بسطه ههنا على كل حال، ولكننا نقف أمام قول نبينا صلى الله عليه وسلم هذا بإمعان وحسبنا، وهذا الذي حدث لزياد بن الحارث الصُّدائي رضي الله عنه، وحين وقع في قلبه قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا.

وكان من خبره أن طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيه! ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يريد أن ينشِّئ أمة عفيفة عزيزة أنفة، ولأن المسألة وعن غير حاجة مذلة، وإذ كان التعفف عنها دينا وقربة لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم حينها: من سأل الناس عن ظهر غنى فصداع في الرأس وداء في البطن.

وهذا شأن عظيم على كل حال، وفيه تنبيه وألا يسأل أحد أحدا إلا عن حاجة، ولا أصيب بدائي الصداع والبطن.

وهذه أسباب للأمراض، وقل من يلتفت إليها.

وهذا سبب علاجها، وألا يسأل العبد الناس شيئا، وأن سقط سوطه.

وهذا أمر ليس هينا، ولأنه كان أحد بنود البيعة وشروطها، ومن بين يدي هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فعن عوف بن مالك الأشجعي: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، تسعة، أو ثمانية، أو سبعة، فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟ فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟ قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا، (وأسر كلمة خفية)، ولا تسألوا الناس شيئا. فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدا يناوله إياه [1].

ثم التفت إليه آخر، وطلب منه أن يعطيه من أموال الصدقات، واعتبرها حقا للمستحق، وحين كان من مستأهليها ومصارفها الشرعية المحددة، ولهذا بين له النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وبقوله: إن الله لم يرض في الصدقات بحكم نبي ولا غيره حتى حكم هو فيها، فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك. وحين ذلك وقع في نفس زياد بن الحارث الصدائي ما وقع في المرة الأولى.

وكان من خبره أن الفجر قد لاح، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤذن للصلاة.

ثم طلب النبي صلى الله عليه وسلم ماء؛ كيما يتوضأ، وإذ كان الماء قليلا، فوضع يده الكريمة المباركة فيها، فانفجر الماء عينا، حتى كفى الناس أجمعهم! وهذا علم آخر ضاف من أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم. آية وعبرة وعظة.

ثم جاء بلال وأراد أن يقيم للصلاة، فاستأخره النبي صلى الله عليه وسلم، وليقيم زياد وبقوله: إن أخا صداء أذن، ومن أذن فهو يقيم.

---

(١) صحيح مسلم: ١٠٤٣

وهذا برهان جواز الأذان لغير المؤذن، وبإذن الإمام، ولعل ذلك لغياب بلال، وباعتباره عذرا، ما لم يترتب على ذلك من شحناء، وقد يفهم أنه تعد على صلاحيات الأخ المؤذن.

ثم جاء زياد معتذرا عن إمامته قومه، ولقوله صلى الله عليه وسلم آنف الذكر: لا خير في الإمارة لرجل مؤمن. واستشهد الرجل بقوله: وأنا أومن بالله وبرسوله. وكناية عن أن هذا الإيمان بالله تعالى ورسوله مانعان من التصدر للإمارة.

وعلى كل حال فهذا أمر سبق تناوله على قدر، وهو متعلق بطاقات العبد، ومدى علمه عن نفسه، ومن قلبه وقوته.

وهذا باب عظيم على كل حال، وقل من ينجو منه، والله المستعان.

ولكن زيادا هذا قد قدم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ومن أسباب استقالته أنه سأله عن غنى، وقد جاء مسببا لاستقالته من وجه كهذا أيضا.

ولكن الذي نقف عنده، هو جواز تقديم طلب الاستقالة بين يدي مصدر قرار التعيين الوظيفي نفسه أو من ينيبه.

ونفيد أيضا أن تكون الاستقالة مسببة واضحة، ومن ثم مشروعية قبولها.

ولكن هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد طلب من زياد بن الحارث الصدائي رضي الله تعالى عنه أن يختار آخر ليوليه محله، وقد كان ذلك.

وهذا فقه نبوي كريم آخر، ولعله تطييبا لخاطر من استقال، ولئن كان هو الذي قدم استقالته، وهذا فقه إسلامي معتبر؛ رفعا لمعنويات الأعضاء الممارسين في

الجهة الإدارية، وهو أيضا ومن بابٍ، ولعله أدرى من غيره بمن هو أهل للإحلال محله، وهذا فقه نبوي آخر ضافٍ، وللتفويض فيما يقدر عليه المفوَضُ، وفيما لا يقدر على عليه المفوِضُ، وهذا عمل إداري ممتاز.

وإلا أن الناس شكوا إلى نبيهم قلة ماء بئرهم، وحين يكفيهم صيفا، وينِد عن ذلك شتاء، فأعطاهم حصيات، وأمرهم أن يلقوها واحدا بعد الآخر، ومع ذكر الله تعالى، ففعلوا فما استطاعوا بعد ذلك أن ينظروا إلى قعرها - يعني: البئر-. من كثرة مائها. وهذا علم نبوي آخر ضاف.

وهذان برهانان على بركة هذا النبي حين وضوئه ويوم البئر هذا.

ثامن عشر: وما وافد عاد؟

هذا سؤال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل يسمى الحارث بن يزيد البكري، وقد جاء إليه صلى الله عليه وسلم الحارث بن يزيد البكري رضي الله عنه هذا، وقد طلبت منه امرأة من تميم، وإذ وجدها في طريقه، أن يصل بها إليه صلى الله عليه وسلم؛ ولحاجة لها عنده صلى الله عليه وسلم، واذ كان في طريقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الرجل كان أمينا، وإذ وداها إلى النبي صلى الله عليه وسلم كريمة مكرمة، وهذا من شيم الناس يومهم هذا، وإذ كانوا يحمون الذمار، ويكرمون الوافد، وهذه من قيم الإسلام النبيلة، الشميلة، الفضيلة، الجميلة، الجليلة أيضا.

وكان حين دخل الحارث بن يزيد البكري رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم، وألقى عليه السلام، ورد عليه الصلاة والسلام عليه سلامه، وبرهان جواز رد السلام على من ألقاه، وبقطع النظر عن كونه مسلما أو غير ذلك.

ورغم أن هذه المرأة التي أوصلها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت من بني تميم، وإذ كانت بينهم معارك ومجابهات، وإلا أن الرجل الحارث بن يزيد البكري رضي الله عنه هذا كان منصفا، وإذ لا يأخذ بالجريرة، ولأنه المرأة هذه لم تشارك في معارك ضده، والحال كذلك فإنه واذا مسها بسوء فيكون مثل وافد عاد! ولذلك فاستعاذ بالله تعالى أن يكون كوافد عاد هذا!

وهذا الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم يسأله: وما وافد عاد؟

ومن ثم أخبره أنه رجل كان يقال له قيل، وقد بعثته عاد قوم هود عليه السلام إلى الكعبة المشرفة، ليستقي لهم هناك، وحين كانوا قد أجدبوا.

ولكن الرجل، وحين دخل مكة فتن! وحين دخل ضيفا على معاوية بن بكر، وكان أن ضافه شهرا كاملا، يقدم له الخمور، وتغني له الجرادتان، وهما امرأتان كانتا معروفتين في مكة بالغناء وحسن الصوت!

وهذا يعد خروجا وعما أرسل من أجله هذا قيل، وهو في عرف المبعوثين والبعوث مخالف لما أرسل من شأنه.

ولكن إرسال قيل هذا إلى مكة ليستقي لقومه عاد، ومن مكة، فدل على قيمة مكة، وكعبتها في تصورات الناس يومهم هذا، وإذ ها هم وتفصلها عنهم مسافات طويلات، وإلا أنهم يقطعون الفيافي ليدعوا الله تعالى عندها، وهم مشركون!

وبه دل على واقعية قوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

ولكن هذا الرجل قيلا وكما أنف، وحين قد خالف، واعتصر قلبه خمرا وقينة! وما كان الله تعالى ليذر حرماته تنتهك، ثم يجيبهم! وبه دل على أن ما عند الله تعالى لا يأتي بمعصيته، وإنما وحين يقدم العبد بين يدي مولاه طاعة، ولا سيما في هذه الأماكن ولشرف المكان، وحين ضوعفت السيئات في مكة، وكما قد تضاعفت الحسنات.

ولكن الرجل قيلا هذا، وحين انقضى شهر كامل، ويغط فيه من ضلاله، ويغرق فيه من معصية الباري المتعال، الله تعالى، وإذ إنه تعالى يغار، ولا يغار إلا إذا انتهكت حرماته.

فعن أبي هريرة إن الله تعالى يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله [١].

وكان منه أن خرج قيل هذا داعيا ربه قائلا: اللهم إنك تعلم لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه!

وإذ كيف يجيب ربنا عبدا هكذا ملطخا بذنبه، وحين جاء ليدعو الله تعالى وقد كان غارقا في شهواته شهرا كاملا، ثم ليخرج رافعا يديه إلى مولاه؟!

ولا سيما أنه لم يرد في النص أنه تاب أو رفع يديه إلى مولاه بتوبته، وتقدمة بين يدي دعائه السقيا أولا، وخاصة أنه والحال هذه يعد مستهزئا بربه تعالى، وحين غرق في معاصيه، وتحديه، وتعديه حرمات الله تعالى، بهذا الكيد كله، ثم ليخرج طالبا السقيا! ودون أن يطهر نفسه من رجسه وخبثه!

(١) صحيح البخاري:٥٢٢٣

ومنه وكان من الأمر أن مرت سحابات سود، وأن نودي من بينها أن اختر منهن واحدة! فاختار واحدة منها سوداء، فنودي منها وأن خذها رمادا رمددا، لا تبقي من عاد أحدا!

وهذا إعجاز رباني آخر، وإذ يخرج من بين السحاب من يتكلم ويرد على هذا قيل: ردا موجعا، ناسب استهزاءه، وكافأ هذا اعتداءه، وماثل إجرامه.

وكان أن كانت إجابته أن أرسل الله تعالى عليهم الريح العقيم، ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم! وكما قال الله تعالى ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤٢].

وهذه ريح لا رياح! وهذا أولا، وأما ثانيا فقد حملت من بينها عقما وإهلاكا؛ فلا يلقح شجرا، ولا ينتج ثمرا! وهذا نكال آخر، وحين يرى الناس ريحا، وإذ يحسبونها ملجأهم، وإذ رأوا فيها هلكتهم، والله المستعان.

وهذا جزاء المستهزئين، وهذا نكال الخارجين عن سواء السبيل!

ولا سيما أن الله تعالى وكما حكى الحارث بن حسان البكري هذا فقال: فلما بلغني أنه أرسل عليهم الريح إلا بقدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا!

وإنه ليست توزن ريح أرسلها الله تعالى بقدر خاتم! أو فلك ضارية في البحار! فإن عذابه تعالى وإذا وقع فلا تسل عن كمه، ولكن سل وانظر إلى كيفه!

ومنه فقد كانوا إذا أرسلوا رسولهم قالوا له: لا يكن كوافد عاد!

لكنه وليس يقال: وما ذنب عاد، وإذ وقع الظلم من رسولهم، وليس منهم هم؟!

والجواب أننا لا ننسى أن عادا كفروا ربهم أولا، وقبل إرسال رسولهم، وهذا أولا.

وأما ثانيا فقد كان عليهم إرسال الخلص منهم دينا، وليس صعلوكا كهذا.

وفيه وجوب البحث والتأني في إرسال الرسل والبعوث، واستخلاص المتأنين منهم ومن أولي الشهامة وألا تشترى ذممهم، أو أديانهم. وأيا ما كانت مهمتهم، وهذا في العمل السياسي له آثاره المدمرة، وحين تشترى ذمم المبعوثين، فيكونون وبالا على أمتهم، ويخص من ذلك، وحين يكلف من يدعو السماء، فلا يكون إلا على دين وتقوى، ممهورين بالوجل والاستقامة على المنهج.

وأنت خبير بقوله تعالى ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

والله الهادي إلى سواء السبيل.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى عن رجل من ربيعة: قدمت المدينة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده وافد عاد فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما وافد عاد؟ قال: فقلت: على الخبير سقطت، إن عادا لما أقحطت بعثت قيلا فنزل على بكر بن معاوية بن وائل فسقاه الخمر وغنته الجرادتان، ثم خرج يريد جبال مهرة فقال: اللهم إني لم آتك لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه فاسق عبدك ما كنت مسقيه، واسق معه بكر بن معاوية، يشكر له الخمر التيسقاه، فرفع له سحابات، فقيل له: اختر إحداهن، فاختار السوداء منهن، فقيل له: خذها رمادا رمددا، لا تذر من عاد أحدا، وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة - يعني حلقة الخاتم

ثم قرأ: إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم [١]

.

تاسع عشر: فلعل صاحبك عند الله أفضل من ملك سليمان!

هـذا قـول النبي العربي الأمي الكـريم نبينـا محمـد صلـى الله عليـه وسـلم لعبـد الـرحمن بـن أبي عقيـل رضـي الله تعـالى عنـه، وحـين جـاء إليـه صلـى الله عليـه وسـلم، ليسلم من بين يديه، وإذ كان أبغض الناس على وجه الأرض إليه، وإذ ولما رآه كان أحب وجه على وجه الأرض إليه، وهذا من قوله هو وليس نقلا عن أحد أو تفسيرا لقول، وحين قال عبد الرحمن بن أبي عقيل رضي الله تعالى عنه: انطلقت في وفد إلى رسول الله ﷺ فأتيناه فأنخنا بالباب، فما في الناس رجل أبغض إلينا من رجل نلج عليه، فلما دخلنا وخرجنا فما في الناس رجل أحب إلينا من رجل دخلنا عليه.

وهذا الـذي نقـف عنـده، وإذ كثيرا مـا نسـمع قـول النـاس هـذا: اسـمعوا منـا ولا تسمعوا عنا، ولأن الرسالة الإعلامية السلبية تعمل في النفوس عملها، ولربما لـو جلس المتخاصمان وجها إلى وجه، لنصهر ما بينهما، وكانصهار الجليد ليصبح ماء عذبا فراتا، يسقى به البلاد والعباد محبة وإلفا ورحمة.

وهـذا جانـب جـد هـام، وإذ كثيرا مـا مـر بنـا في هـذه السـيرة المباركـة، ومـن مثـل هـذا، وكان برهانـا على صحة قولنا هـذا، وإذ بضـرورة أن يتجـالس النـاس قربـا قربـا؛ ولعل الله تعالى أن يصلح بينهم صلحا صلحا.

وهذا ثمامة بن أثال رضي الله تعالى عنه، وإذ ما زلنا به حدثاء عهد، ويوم أن جاء في وفد من بني حنيفة، ويوم مسيلمة الكذاب ذاك! وإذ قال لنبينا محمد ﷺ: يا

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٢٧٣

محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: **بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد؛ إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نجل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت! قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم**[1].

وهذا أدب النبي صلى الله عليه وسلم، وحين كان مدرسة الأدب وتعليمه، ولما كان حاضرة الخلق الحسن المجيد وترنيمه.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٧٢

وهذا الذي لمسناه من أدبه مع أخيه نبي الله تعالى سليمان عليهما السلام، وحين طلب اجتباء الله تعالى له، وأن منحه أفضل مما منح به أخاه سليمان عليه السلام، وليس هو أفضل من سليمان نفسه! عليهما السلام معا.

وهذان تعبيران متغايران تماما، والموفق من صلحت سريرته؛ ليفتح الله عليه باختيار اللفظ المناسب لمقتضى الحال المواتي.

وهذا هو الذكر الحسن المجيد لأمة تعرف لأصحاب الفضل فضلهم، ولا يتعالون ولا يتكبرون ولا يمايزون أنفسهم عما سواهم، ولا سيما وحين يكونون جميعا أنبياء، دينهم واحد، وخلقهم واحد. وإنما هم جميعا أبناء علات، وأمهات شتى.

وهذا من باب الكنايات؛ ولأنه الأصل أن دين الأنبياء واحد، وهو الإسلام الحنيف الخالد، والذي هو خلع الأنداد والشركاء، وإثبات الحق القديم لله تعالى، ربا خالقا، وإلها أمرا وناهيا، وأسماء حسنى، وصفات علا، وإذ كان ولا يزال متفردا بكل، وعلى ما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه سبحانه. ولأن هذا الحق القديم، ولأنه قديم قدم ما قامت عليه السماوات والأرض منذ خلقهما الله بالحق وعلى الحق. وعليه فلا ثمة من يسعه الخروج عنه أو تغييره أو تبديله أو طمسه؛ ولأن الحق أبدا يعلو، وليس يعلى عليه، ولأن الأصل أيضا أن أمهاتهم- الأنبياء- مختلفة، أي أن شرائعهم تناسب كل زمان جاء فيه هذا النبي الكريم أو أخوه البر النبي الرسول أيضا، عليهم الصلوات والتسليمات والتبريكات أبدا أبدا.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: الأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم ؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه

يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمنة على الأرض، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون [١].

العشرون: أقسام النبيين من هدي خاتم المرسلين

ولكنه، وإذا كان هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبهذا الخلق الذي رأيناه موسوما به، ومن شهادة كلٍ، وليس بعض ممن دخل عليه، وإنما زاده تواضعا، وحين قسم إخوانه الأنبياء ثلاثة أقسام هي:

القسم الأول: فمنهم من اتخذها دنيا فأعطيها، وهذا مثاله سيدنا نبي الله تعالى سليمان عليه السلام، وحين قد تنزل القرآن الكريم وأن ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥].

ولكنك رأيت كم هو التضرع، وكم هو الإخبات، اللذين خيما على النص، ومن تضافر دلالات الخشوع والخضوع والعبودية لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، ومن هذا النبي سليمان عليه السلام، وحين قدم بين يدي دعائه هذه المأدبة الرحمانية، ومن اعتراف بالعبودية، ومن تذلل للربوبية، والتقديم لها، ومن بين يدي ربه العظيم سبحانه، ومنه ذلكم الاسم الوهاب الأعظم لله تعالى، ولأنه هو الله تعالى الواهب المعطي المانح الوهاب.

---

(١) عمدة التفسير: ١/٦٠١. خلاصة حكم المحدث: أسانيده صحاح.

ولكن الذي نلفت إليه ابتداء، هو هذا الزخم في الدعاء، وإذ كان لمصلحة الدعوة لا أكثر ولا أقل، وإذ ليس معقولا وأن يطلب أحد فوق مقام النبوة من مقام! ولعل قوما بعث فيهم هذا النبي سليمان عليه السلام، وقد كانوا ملوكا، أو أغنياء، أو كلاهما، وأراد أن يمنحه الله تعالى من آيات العطاء والمنح، ما به ينزلون من علٍ! وحين رأوا الآيات من بين يديه تسعى، ومن خلفه تترى. وإذ إن كثيرا ما لا تخر جباه من نواصيها الشمخة؛ من فراغ، وإلا وحين يصعقها من أكبر مما هي فيه غارقة، ولكنه ذلكم الزاد الرباني الخالي عن هوى، ويكأنه ذلكم العطاء الإلهي النام عن هدى. والضد يظهر حسنه الضد.

وأنت خبير بأن كل رسول، وإنما قد كان موهوبا بما صار في قومه ميزة، وليكون من بينهم أكثر عطاء في هذا الجانب، والتحدي والإعجاز، وإذ كان منه ما دعا به سيدنا النبي سليمان عليه السلام.

وأنت خبير أيضا بأن سيدنا النبي عيسى عليه السلام، كان قد برع بما أعطاه الله تعالى، ومنحه فيما برع فيه قومه، وزيادة إعجاز من الطب وعلومه. بل فاقهم إعجازا، بل تحداهم، وبما منحه ربه، بل وأصعقهم، وبما ليس في وسع أحدهم له من طرف.

وانظر قول ربك الرحمن لتقف على هذ الحقيقة، وحين قال الله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠].

ومنه ما تواتر عن القرآن ذكرا مجيدا، وحين أخذ مسحا منه عريضا، وبخصوص سيدنا موسى عليه السلام مع قومه، وقد كانوا يضحكون على الناس بسحرهم، وحين خيل للناس من سحرهم أنها تسعى! وها هم يخرون لله تعالى سجدا وحين ألقى عصاه الحقيقة لتنقلب حية حقيقية لا من سحر ولا من تخيلات ولا من أباطيل ولا من أساطير! بل هو الحق الدامغ؛ ولأنهم هم الذين يعرفون التخييلات، ولأنهم هم الذين يفهمون الحقيقات!

وقال الله تعالى ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُواۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠].

ومنه ما رأينا من نزول القرآن الكريم عربيا معجزا، ومن بين أيدي قوم، كانوا في هذا الجانب بارعين متضلعين، وأيما براعة! وأيما تضلع! وكان لزاما أن يتنزل كتاب بذات حروف كلامهم، ولكنهم هم الذين رأوا فيه الآيات والإعجاز المبهورين بالتحدي وصنوفه معا، وحين أعجزهم أن يأتوا بآية أو سورة من مثله. وإذ لست بواجد قولا وصفا، وبأدق وبأمهر مما قالت عنه الجن، وحين تنزل التنزيل من قولهم المجيد الحميد ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ

﴿فَآمَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن:١و٢]. وهذا القرن له عمل خاص في النفوس ومن حق!

وقد تحصل مما وقفنا عليه في غير موضع أن هذا القرآن يظل قرآنا بعطائه وزخمه وبرهانه وإعجازه ومنحه وفيوضاته، ولو سمعه غير عربي!

وإن قيل: وهل من برهان؟!

وأقول: بل هلم نعم.

فإنه قد أجريت تجربة على مدى تأثير هذا القرآن على مريض بالضغط، وإذ ولما قرئ عليه القرآن العظيم، استقر ضغطه، وحين عاد منتظما!

ولكن الإعجاز أن المريض كان غير مسلم!

ويراجع هذا الكلام في كتاب موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ولأنني سها عليَّ موضعها الآن منه، ومن قديم تم إنهاؤه.

ولماذا نروح بعيدا؟ وأمامنا هذا القرآن نفسه، وإذ تنزل فيه أنه هو نفسه شفاء! وقد قال الله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

وإن قيل: إن آية الإسراء خاصة بالمؤمنين.

وأقول: إن آية سورة يونس عليه السلام عامة للناس أجمعين! وقال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

ومعنا قصة اللديغ المعروفة المشهورة في هذا المنحى. وقد كان هذا اللديغ كافرا!

فعن أبي سعيد الخدري: انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا؛ لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء، لا ينفعه؛ فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: (الحمد لله رب العالمين)، فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبة، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له، فقال: وما يدريك أنها رقية؟ ثم قال: قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهما. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم [١].

وأنت خبير بما شافه به مسيلمة الكذاب نفسه، وزيادة خرق، وحين أزبد كلاما، لا ينهض أن يسمى كلاما، وإلا من حرفه وحسب، وحين خلا عن حق، ولما غط من باطل زهوق! وحين قال: لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريش قوم يعتدون. وإذ نسي هذا أو غفل أو صد او استغلق عليه وحين قال الله تعالى ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦوَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

---

(١) صحيح البخاري: ٢٢٧٦

القسم الثاني: ومنهم من دعا بها على قومه؛ وإذ عصوه، فأهلكوا، وهذا الذي حدث من سيدنا نبي الله تعالى نوح عليه السلام، ولسنا هنا إلا ناقلين خبرا عن الله تعالى، ولما نشرح أن هذا النبي نوحا عليه السلام، كان قد مكث في قومه أولئك ألف سنة إلا خمسين عاما! ويحاول معهم، ويرجوهم، ويدعوهم، وإلا أنهم وقد كان منهم ما يعجز قول عن وصفه، وإلا وصف القرآن الحكيم، وحين أضعه مسطورا بين يدي قارئ كريم؛ ليقف بنفسه عن عذر، بل أعذار لهذا النبي نوح عليه السلام، وحين قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا

كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْلِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح:٥-٢٨].

وأنت خبير بما عليه أمر الناس، وحين يدعون غيرهم إلى مذهبهم، وإذ سرعان ما يضيقون بهم ذرعا، وإذ يخرجون كابرا عن كابر، ولقلب أنظمة رأوها فاسدة، ولربما لم تستغرق دعوتهم شيئا من الوقت! وقياسا على هذا النبي نوح عليه السلام، وحين لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما!

القسم الثالث: وهذا تاج الأقسام، وإذ إنه وسم لهذا النبي المجتبى ووسام، ومن حق، وإذ ليس عجبا، وأن يكون صاحب هذا التفرد الخلقي العالي السامق الرفيع، هو هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين ادخر دعوته لا على قومه، بل لقومه يوم القيامة، وأن يكون شفيعا للناس عند ربهم الأعلى سبحانه.

وهذا التفرد في الواقع، هو المتناغم مع سيرة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قال: وإن الله أعطاني دعوة فاختبأتها عند ربي شفاعة لأمتي يوم القيامة! وإذ تناسى يوم الطائف، ويوم حنين، ويوم أحد، وأيامهم معه، وتاريخهم معه، وإذ ها هو عفو رحيم رؤف، وزد عليها وإذ ها هو شفيع الناس يوم لقاء رب الناس!

وهذا تصديق لقول الله تعالى عنه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى عن عن عبد الرحمن بن علقمة الثقفي، عن عبد الرحمن ابن أبي عقيل قال: انطلقت في وفد إلى رسول الله ﷺ فأتيناه فأنخنا بالباب، فما في الناس رجل أبغض إلينا من رجل نلج

عليه، فلما دخلنا وخرجنا فما في الناس رجل أحب إلينا من رجل دخلنا عليه. قال: فقال قائل منا: يا رسول الله ألا سألت ربك ملكا كملك سليمان؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «فلعل صاحبك عند الله أفضل من ملك سليمان، إن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا أعطاه دعوة، فمنهم من اتخذها دنيا فأعطيها، ومنهم من دعا بها على قومه إذ عصوه فأهلكوا، وإن الله أعطاني دعوة فاختبأتها عند ربي شفاعة لأمتي يوم القيامة» [1].

الواحد والعشرون: القول الجلي في خبر طارق بن عبد الله المحاربي

كل يوم يمر علينا من هذه السيرة النبوية المباركة، وإذ يتحفنا هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم زادا، وإذ يهدينا سواء، وإذ يحدونا صوابا، وإذ يمنحنا رشدا، وإذ يحذينا نسيما وطيبا، وإذ نزداد منه علما، وهدى، وخيرا وذكرا حسنا.

وإن هذه لطاقات استزدناها، ومن خبر هذا الصحابي الكريم طارق بن عبد الله المحاربي، وصحبه الكرام البررة، ومع هذا النبي المجتبى، ومن فيض هذا الرسول المرتضى. نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وأعالجه في ثلاث عشرة مسألة:

المسألة الأولى: علم نبوة ضاف! لا تلاوموا فلقد رأيت وجه رجل لا يغدر ما رأيت شيئا أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه

هذا قول امرأة ظعينة مسافرة مع قومها، وها هي توجز لنا وصفا دقيقا صريحا صحيحا بليغا لهذا النبي العربي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه كالقمر

(١) صحيح سنن الترمذي، الألباني: ٢١٢٨

ليلة بدره، وأنه ليس يغدر من وعده وعهده، وهذان وصفان كافيان أن يسجلا في تاريخ هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وإذ كانت هذه الشهادة، ومن نظر امرأة، ولا سابقة معاملة كانت بينهما!

وإذ كان من خبرهم أن رجلا منهم كان يدعى طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله تعالى، وإذ حدث أنه كان قائما يتسوق في سوق ذي المجاز، وإذ سمع متجولا في السوق، ويقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة وهو يقول: يا أيها الناس إنه كذاب.

المسألة الثانية: الشهادة قول وفعل واعتقاد

وإذ كان من قوله صلى الله عليه وسلم، وحين بيان شأن، وحقيقة الإسلام الحنيف. وإذ إن شأنه العزة والكرامة والأنفة والشجاعة والحسم والحزم والعزم والعفو والمروءة والسداد والحرب والرؤيا والمكيدة والشورى والخير والهدى والفلاح والصلاح والهدى والنور والسرور والحبور.

ويكأنه هذه الشهادة، وما تقتضيه من قول لازم، واقتضاء عمل واجب، واستلهام عقد بها فريد أيضا، وهذه الثلاثة الأركان هي موجبات هذه الشهادة، وإذ ليس يعقل أن يشهد شاهد على شيء، وإلا أنه يعلم على ماذا يشهد؟ ولا يتسنى له ذلك، إلا وحين تحقق هذه الثلاثة الأركان في حق شهادته، وإلا كانت مردودة.

ولكن العرب؛ ولأنهم كانوا أهل اللغة العربية، ويفهمون هذا جيدا ويعقلونه، ولهذا السبب، وحين دعاهم إلى هذه الشهادة، وبلفظها، عارضوه وعادوه وكذبوه؛ ولأنهم يعلمون عقدها الفريد، وجوهرها الثمين الغني الرشيد، وعملها ومقتضاها العتيق التليد.

وهذا الذي حدث، وكما رأينا من هذا عمه أبي لهب عبد العزى، ولا عزى له، وحين كان يمشي من ورائه، ويدعوهم إلى عدم تصديقه واتهمه بأنه كذاب!

المسألة الثالثة: عمل الليل والنهار

ولكن الذي أقف عليه ههنا كثيرا وأحققه وأقرره، هو ذلكم الجهد الذي كان يبذله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، في إبلاغ رسالة ربه، ويكأنه ليس يهدأ له بال، وإلا ببلاغ رسالة ربه تعالى الرحمن الرحيم المتعال سبحانه.

وهذه رسالة إلى الدعاة العاملين، وألا يقر لهم قرار، وكمثل نبيهم صلى الله عليه وسلم، وإلا أن يدعوا الناس، جاهلهم فيعلموه، وعالمهم فيذكروه، ولأن هذه الشهادة عظيمة عظم ما تتضمنه من توحيد ربنا، ومن نبذ النظراء والشركاء والأمثال والأنداد، وبأي اسم أو مسمى يؤدي هذا المعنى. ولما كانت خلاصة هذه الشهادة، وأنه لا أمر إلا أمره تعالى، ولا نهي إلا نهيه تعالى، وهذا هو التحقيق العملي لهذه الشهادة، والذي بدونه ليس يكون الأمر كافيا، وليس يصبح الأمر شافيا.

وأكرر: وهذا رسولنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كان يمشي في الأسواق؛ داعية إلى ربه، خالعا ثوب الدعة والسكون والركون، ورافعا كل يد وراحة، وأن يهدي الله تعالى به قلوبا غلفا، وأعينا عميا، وآذانا صما، متوشحا رداء الجهاد في الله تعالى حق جهاده، ويوم لازم ذلك؛ ولأنه تعالى قد اجتباه لأداء هذه الرسالة، وعلى وجهها الذي أنف.

المسألة الرابعة: عمل الجهاز الإعلام السلبي ومجابهته

ولكن المشار إليه حتما هو ذلكم العمل الإعلامي السلبي، والذي يتخذ شارة التنديد والجهر والزعيق المتواصل، وخلف هذا الداعية الحق إلى الحق، ولا يكاد يفارقه بل من ورائه!

وهذا الذي نحسب له حسابه، وهذا الذي لا يمكن أن ينتظر خلافه، ولكن سلاح الداعية في مواجهته، هو صبره، واحتسابه، وإصراره، وجلده. وألا يلين له جانب، وألا يغمض له جفن، وألا ينما له طرف، وإلا ببيان رسالة ربه، وما تقتضيه شهادة الحق هذه من قول وعمل واعتقاد.

وعليه تبعا أن يدير ظهره لهكذا باطل؛ ولأنه وحين مواجهة هكذا باطل، فإنك تراه متسلحا بأسلحة الصبر، والاحتساب، والعلم اللازمة؛ لبيان مقتضى حق يدعو إليه، وألا يتزحزح عنه شيئا.

ولكن الذي نكرره دائما هو ذلكم الإصرار على بيان الحق الأول، وهو هذه الشهادة، وها قد رأينا كيف كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم يمشي في الأسواق، ويتتبع أماكن تواجد القوم ومظان اجتماعهم، ليدعوهم إلى شهادة الحق، شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وكيما لا يقال ناصره آله!

ولكن الذي نقف عنده تأملا، هو ذاك العداء المستحكم للدعوة الجديدة، وإذ كان يمثل ذراعها ذلكم الإلواء على هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ذوي قرابته! بل ومن أقرب الأقربين إليه! وإذ ها هو عمه أبو لهب عبد العزى، ولا عزى له، وحين انتصب هكذا عداء لابن أخيه، وإذ كان على الأحق ولو حمية، وقد كانت عالية

الدرجة حارة ملتهبة لديهم! أن يقف في وجه من أراده بسوء! وإذ ها هو يحمل لواء المناصبة والعداء والمخاصمة!

وهذه حكمة ربانية جديرة على كل حال، وحين كان ذلكم تسلية للدعاة العاملين، ولما كان هذا أسوة لأرباب الدعوات الصالحات، وحين انتصبوا أيضا لتحمل لواء الحق، والدعوة إليه، صافيا من عكر، نقيا من كدر.

المسألة الخامسة: قناديل مضيئة

ويكأن هذه الدعوة دعوة الحق، وإن هي إلا تمتلك أسباب قوتها ومنعتها ومن داخلها، وهذا الذي نراه، وحين رأينا فردا أعزل، يواجه مجتمعا بأسره، رافعا لواء الحق وحده، وإذ ليس معه أول أمره إلا حر وعبد! ولكن أسباب هذه القوة والمنعة الذاتية لهذه الدعوة الجديدة، هي قناديلها المضيئة، وإن هو إلا قمرها المنير. وحين كانت تستوحي قوتها ومنعتها من ذلكم الرب الكبير القهار الجبار سبحانه، والذي يؤيد بنصره هذه الفئة المؤمنة الواعية من دين، والقائمة عليه من عز ويقين.

المسألة السادسة: إن الله مانع أباك

ولكنه ويتقدم هذه الأسباب الذاتية لهذه الدعوة، ولأنها دعوة إلى الله تعالى ربنا الحق المبين سبحانه، وهو الله تعالى في الحقيقة، وفي الواقع، وإنما استمدت هذه الدعوة قيمتها وقوتها وأسباب منعتها، وإلا من قوة ربانية، وإلا من حصانة إلهية، هي التي سكبت عليها ذلكم الإصرار والمواجهة، وبكل سبيل شرعي ممكن لإحقاق حق هم به يؤمنون، وإزهاق باطل هم به يكفرون.

وكم من مشهد رأيناه حسنا سننا مضيئا، وحين تشرفنا مرورا ودراسة وبحثا وتأملا في أحداث هذه السيرة النبوية المباركة، وها هو نبينا صلى الله عليه وسلم يربت

على صدر إحدى بناته رضي الله تعالى عنهن، وإبان اقشعرارها يوم اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابا؛ وشفقة مما أصاب القوم والدها النبي العربي الأمي الأبي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قامت باكية وهي إذ تغسل عن والدها الأذى والتراب، ولكنه وبصيره واحتسابه وجلده يقول لها: لا تبك بنية فإن الله مانع أباك! [(١)].

وهذه أم جميل زوج أبي لهب، وحين راحت لتؤذيه صلى الله عليه وسلم، وحين نزلت سورة المسد؛ ولأنه في نظرها يهجوها، وإذ رآها صلى الله عليه وسلم قادمة، ومن قول أبي بكر لها، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يهجها! والواقع أنه صدق القول والحديث والبيان، ولأن الذي قصم ظهرها وسيرتها، وإن هو إلا هذا القرآن العظيم؛ ولأن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، وحين طمأنه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه الله تعالى مانعه منها، وحين قرأ القرآن العظيم الكريم المبارك، وإذ يجعل الله تعالى من بينها ومن بينه حجابا مستورا، وكان هذا من معتمد تأويل الناس لقوله تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥].

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إبراهيم بن سعيد وأحمد بن إسحاق قالا حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد السلام بن حرب عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت " تبت يدا أبي لهب " جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر فقال له أبو بكر لو تنحيت لا تؤذيك بشئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنه سيحال بيني وبينها " فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت يا أبا بكر هجانا صاحبك فقال أبو بكر لا ورب هذه البيت ما ينطق

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٢٨٣

بالشعر ولا يتفوه به فقالت إنك لمصدق فلما ولت قال أبو بكر ما رأتك؟ قال " لا ما زال ملك يسترني حتى ولت " ثم قال البزار لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الاسناد عن أبي بكر رضي الله عنه [١].

المسألة السابعة: موجبات النصر وأسباب التمكين

ومنه فلينفض الناس عن أنفسهم الدعة، وإلا أن ينفروا بالحق الذي به يؤمنون، وإليه يدعون، ولا يخشون العاقبة، ولأن العاقبة خير أبدا، وإنهم لمساقون إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ولئن فعلوا فلهم الأجر والمثوبة، وإنهم ولئن نكصوا أو تعبوا أو زهقوا، فلسوف يستبدلهم الله تعالى بقوم، وإذ من وصفهم ذلكم الذي تشرئب إليه الأعناق، وتتشوفه النفوس الزكية، وحين كان من نعتهم أنهم:

١- يحبهم الله ويحبونه.

٢- وأنهم أذلة على المؤمنين.

٣- وأنهم أعزة على الكافرين.

٤- وأنهم يجاهدون في سبيل الله.

٥- وأنهم لا يخافون لومة لائم.

٦- وأنهم يعلمون أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا

---

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ٤/٦٠٤

يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤-٥٧].

ولكن الذي نقف عنده هو ربط تحقيق الفلاح بتحقيق هذه الشهادة! وتحقيق المشروط موقوف عليه تحقيق الشرط.

وبه دل على أن الفلاح الذي نرجوه جميعا متوقف على مدى علمنا وتطبيقاتنا لمقتضى هذه الشهادة، ومنه ومتوقف على مدى دعوتنا الناس إليها لا إلى غيرها.

المسألة الثامنة: إذا رجل في طمرين فسلم علينا

وهذا هو وصف طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله تعالى عنه لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان من عقده أن المظهر الخارجي، وإن لايقيم صلبا، وليس يقيم دولة، وإنما تقام الدول، ومن بين مشاعر التواضع، ومن بين أحاسيس الخضوع، ومن بين نبضات الخشوع، ومن بين خلجات الإخبات، وليس من بين أضراس الأبهة، ولا من بين أنياب الافتراس!

والطِمْرُ: والطمر: الثوب الخلق، وخص ابن الأعرابي به الكساء البالي من غير الصوف، والجمع أطمار [(١)]. وقد كان هذا، وإبان عصر كانت فيه ملوك كسرى وتيجانها، وأباطرة قيصر وعروشها.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٤ / ٥٠٣

وقد بان يوما أن هذا هو الحق لاريب، وحين حل الإسلام محل هذه الامبراطوريات كلها، وحين اكتسحها جميعها، وتحت لواء رجل ذي طمرين!

لكن هذا الرجل ذا الطمرين شارة التواضع والإخبات، ولكنه أسد في ساحات الوغى والثبات، وحين وإذ تراه شعلة حماس وشجاعة وإقدام، وحين نادى داعي الجهاد، والفتح المبين، وحتى ولو كان وصفه، وكما قال عنه يوما هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: رب أشعث أغبر ذي طمرين، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره [1].

ولأنه وبهكذا يكون طائرا ذا جناحين أحدهما الإخبات، وثانيهما القوة والإقدام!

ولكننا نقف أيضا على مدى ذلكم الترحاب والبشرى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين استقبل القوم بالسلام! ولسنا نقف كثيرا على طبيعة هذا السلام، ومن حيث لم يرد به نص، وعلى كل حال. وإلا أنه يمكن حمله على تأكده صلى الله عليه وسلم من إسلام القوم، ومنه كان هذا السلام المعروف عنه، والمعهود به.

المسألة التاسعة: أركان عقد البيع

ولكن القوم قد كان معهم جملهم، وحين عرض عليهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيعوه جملهم هذا، وفيه جواز عرض الشراء من صاحب السلعة أو المتاع. وهذا هو الايجاب، وحين عرض القوم قبولهم بالبيع، وهذا هو الركن الأول من أركان عقد البيع، وهو الذي يسمونه العاقدين، ومن شرطهما، وكما هو بين في محله، من تراض وأهلية، وحين كان المبيع أو المحل أو المثمن، ممثلا بالركن الثاني من أركان عقد البيع هذا، ومنضافا إليه الثمن وهو ركنه الثالث أيضا، وأما المحل فهو هذا الجمل

(١) جامع العلوم والحكم: ١/٢٦٩. خلاصة حكم المحدث: مشهور.

الأحمر، وكناية عن ضرورة تحديد المبيع نوعا ووصفا، ونفيا للجهالة، ومن بينة؛ وكيما لا يقع غرر أو استغلال أو تدليس. وحين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم عرض الثمن، وحين عرض صلى الله عليه وسلم كم صاعا من تمر. وبيانا أنه يصلح كل متقوم بمال أن يكون عوضا وثمنا. وأما الصيغة وهي الركن الرابع لعقد البيع فهي كل ما يصلح أداء لواقعة التسليم للمعقود عليه وهو المحل، ومن كل قول أو فعل، وهذه الصيغة هنا هي المعاطاة، دلالة تسليمهم الجمل للنبي صلى الله عليه وسلم.

المسألة العاشرة: البراعة في ابتكار مواقف لصالح الدعوة

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أمره أنه سلك طريقه بالجمل! ولما لم يعطهم ثمنه! وفيه جواز تأجيل دفع الثمن.

ولكننا لا نقف عنده هذا الجانب الفقهي كثيرا، ولعله للعلم به لدى أهله ولا ريب، وإنما هو الوقوف على الاختبار الذي حكم الموقف، وكيف يسلك النبي صلى الله عليه وسلم سبيله، وآخذا الجمل، ولما لم يكن هناك سابقة معرفة بينه وبين هؤلاء القوم أصحاب الجمل، والذين ما باعوه، وإذ كان ركوبهم، والا لحاجتهم إلى ذلكم الثمن، وقد كانوا على ما يبدو جياعا، ويريدون سد رمقهم، ومن ثمن جملهم تمرا! وحين قدر هذا الثمن بكم صاع من التمر!

وهذا من لوازم صنع المواقف على كل حال، ولعمل بين القوم، ولسبر الغور، وبهذه المواقف، وبين هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ويدخلون منه، وعلى ذلكم خلقه، ويعرفون عنه، وذلكم وفاؤه، ويدركون عنه، وذلكم ايفاؤه، بمقتضى عقود أبرمت، وحين كان هذا النبي صلى الله عليه يعلم، ويقف عند قوله ربه الرحمن

سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١].

وهذا وصف حال القوم، وحين سيطر عليهم خوفهم، وحين قال هذا طارق بن عبيد الله: فما استوضعنا مما قلنا شيئا، وأخذ بخطام الجمل وانطلق، فلما توارى عنا بحيطان المدينة ونخلها. قلنا: ما صنعنا والله ما بعنا جملنا ممن يعرف، ولا أخذنا له ثمنا!

المسألة الحادية عشرة: فراسة امرأة

ولكن هذه المرأة الظعينة، وحين خرجت بقول الصدق الذي به قد توشحت، ومن قول الحق الذي به توسمت، وحين رأت بحسها النسوي الرقيق الحاني اللطيف، أمارات الهدى والوفاء، وعلى قسمات هذا الذي الرجل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ قالوا إنهم لا يعرفونه، ولم يسبق لهم سابقة معرفة أو تعامل أو ممارسة.

وعلى كل حال، فإن هذه هي نظرة الإسلام الحنيف الخالد إلى المرأة تكريما، واعترافا بدورها وقيمتها ورأيها، ولما كان صوابا، ومن قولها، وحين كان حقا وعدلا وقسطا، ومن حديثها. وحين أبرقت قولا سجله لها التاريخ، ولما كان فريدا ممهورا بالحق والعدل والصدق والنصفة، وذلكم التوسم الذي أقف أمامه منبهرا، ومن فراسة هذه امرأة، ووسط فريق من الرجال، ولما لم ينظروا نظرها، ولما لم يتفرسوا فراستها.

وحين قالت قولها هذا: لا تلاوموا فلقد رأيت وجه رجل لا يغدر، ما رأيت شيئا أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه! [١].

المسألة الثانية عشرة: الرجال قوامون على النساء

ويكأني لست أنقص من حق الرجال شيئا، ويكأني لست أغمض عن قوامتهم طرفا، ولكن هذا شيء، وشهادة التاريخ على هكذا فراسة بامرأة لرجل لم تكن بينهم سابقة عهد ولا معرفة شيء آخر، وهو الذي تنبغي الإشارة إليه، والوقوف عنده، توجيه الشكر لها، ونيابة عن أمة خالدة، كان من شأنها هو ذلكم الاتحاف بالشهادة، على حق المرأة وكرامتها وعطائها، وتسجيل مواقفها الخالدة التليدة!

المسألة الثالثة عشرة: أثر المظهر الخارجي على باطن العبد الداخلي

لكن قول المرأة الظعينة هذا، وحين كان قول الحق، وإذ كان موافقا لطبائع هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وما قد جبله عليه ربه تعالى، وهذه امرأة لم يكن لها سابقة عهد بهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر التاريخ لها مواقف تشهد بأنها خرجت بهكذا الانطباع، ومن خلال الممارسة والمخالطة، وحينها يكون هذا شيئا معقولا، ولهذا الشهادة التي أدلت بها! ولكن الذي حدث، ومن شهادتها هذه الشهادة، وأن ذلكم كان خارج نطاق المخالطة، وإذ كان دون لقاء سبقت فيه مبايعة أو شراء، أو مناكحة أو معاقدة، أو مما سواه، مما يكون عامل سبر للأخلاق، وموجب كشف للطبائع.

وحين كان الأمر كذلك، فلا شك أن هناك عاملا داخليا خالج هذه المرأة، وإذ أدت بها فراستها أن تشهد على هذا الرسول النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ١٠١

رؤيتها له أول مرة! وهذا عامل نفسي حسن أن يعقد معمل للبحث والدراسة حول علاقة المظهر العام الخارجي، وبما يمكن أن يكون دليلا وبرهانا على صلاح الباطن الداخلي.

ولربما كان زيادة إيضاح لهذا، وما كان قد وقع من أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه، وحين قال: إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا، أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءا، لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة [(١)].

ولأن قوما، ولربما كان لسبب أو لآخر، وإنما يظهرون خلاف ما يبطنون، وهو إذ يعاملهم تأسيسا على ما يظهر منهم. لكن هذا شيء، ومبحثنا شيء آخر على كل حال. ولكنما علاقة أخرى بينهما، ومن خلال الاتفاق على أثر الهدي الظاهر، وما له من علاقة بينة بينه وبين الاعتقاد الباطن.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام الدارقطني رحمه الله تعالى عن طارق بن عبد الله المحاربي قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين: مرة بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي -هكذا قال- أبيعها، فمر وعليه حلة حمراء وهو ينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا، ورجل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوه؛ فإنه كذاب، قلت: من هذا؟ فقالوا: هذا غلام بني عبد المطلب، قلت: من هذا الذي يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى، وهو أبو لهب لعنه الله، فلما ظهر الإسلام وقدم المدينة أقبلنا في ركب

---

(١) صحيح البخاري: ٢٦٤١

من الربذة وجنوب الربذة حتى نزلنا قريبا من المدينة ومعنا ظعينة لنا، فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلم فرددنا عليه، فقال: من أين أقبل القوم؟ قلنا: من الربذة وجنوب الربذة، قال: ومعنا جمل أحمر، قال: تبيعوني جملكم هذا؟ قلنا: نعم، قال: بكم؟ قلنا: بكذا وكذا صاعا من تمر، قال: فما استوضعنا شيئا، وقال: قد أخذته، ثم أخذ برأس الجمل حتى دخل المدينة فتوارى عنا، فتلاومنا بيننا، وقلنا: أعطيتم جملكم من لا تعرفونه، فقالت الظعينة: لا تلاوموا؛ فقد رأيت وجه رجل ما كان ليحقركم، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه، فلما كان العشي أتانا رجل فقال: السلام عليكم، رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم: وإنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا، وتكتالوا حتى تستوفوا، قال: فأكلنا حتى شبعنا، واكتلنا حتى استوفينا، فلما كان من الغد دخلنا المدينة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول، أمك وأباك، وأختك وأخاك، وأدناك أدناك، فقام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين قتلوا فلانا في الجاهلية، فخذ لنا بثأرنا، فرفع يديه حتى رأينا بياض إبطيه وقال: ألا لا يجني والد على ولده [١].

(١) تخريج سنن الدارقطني، شعيب الأرناؤوط:٢٩٧٦. حكم المحدث: صحيح.

الثاني والعشرون:

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي أعظمي ومقامي.

هذا آخر ما أشعره فروة بن عمرو الجذامي، صاحب بلاد معان، ووالي بلاد الروم من العرب، وحين أرسل رسوله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بإسلام وجهه لله تعالى رب العالمين، وقد كان من خبره أن الروم وحين علمت بإسلامه هذا الرجل حبسوه؛ نكاية؛ ولعله أن يكفر مرة أخرى! وكما هم كفار أيضا.

ولكن الرجل صبر واحتسب، وحتى يئسوا من يوم كفره ثانية، فهموا بقتله على ماء لهم، وكان من قبله قوله شعره هذا الذي أنف، ثم قتلوه، فرحمه الله تعالى رحمته الواسعة ورضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وهذا الذي يحدث في كل زمان وفي كل مكان.

ولكنك تقف على حقائق ههنا:

الحقيقة الأولى: هو ذلكم الإصرار على الحق، ويوم كان الثمن هو النفس، وإذ يجود بها العبد لله تعالى العلي الأعلى سبحانه وتعالى، وهذا سنن رباني كريم، وإذ كان هؤلاء الشهداء هم وقود عدة الصابرين، وزاد وعون المحتسبين، على طول الزمان وعرضه.

والواقع أن الخصوم يعلمون هذا جيدا، ويوقنون به، ولكنه الطبع على القلوب، وحين يكونون هم بمثابة هيئة الإمداد المعنوي لهذه الأجيال، وأن تصبر، وأن تجاهد، وأن تصقل قلوبها وعقائدها بذلكم الحق، ولو كان في ذلك ذهاب نفوسهم طاهرة إلى بارئها، والذي خلقها، وأن تموت نفس في شرف الجهاد والصبر والاحتساب

خير لها من أن تبوء ولو بلفظة يراها المشركون والخصوم نصرا لهم ومن باطلهم على هذه العصبة المؤمنة الصابرة المحتسبة.

الحقيقة الثانية: إن أولئك نصارى الروم، وإذ كان من تاريخهم، ومن مثل تاريخنا تماما بتمام، وهو هذا العناء وهذا العنت اللذان طالا أسلافهم من قبل، وحين قتلوا وأوذوا، ولكنهم صبروا واحتسبوا، وحتى كانت لهم النصرة الربانية على عدو الله تعالى وعدوهم، ويوم أن كانت النصرانية هي الدين الحنيف الخالد الإسلام، وعلى عهد سيدنا ونبي الله تعالى عيسى عليه السلام، وحين جأر هذا العبد الرباني الكريم، ومما سجله له التاريخ في قرآن كريم يتلى إلى يوم الدين، ممهورا بذلكم الزكاء، وموقعا بذلكم العطاء، وهذا البذل والصبر والاحتساب، وهو الذي قال الله تعالى عنه﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢].

الحقيقة الثالثة: أن مسالة القتل والنيل من أهل الحق هذه شارة على ضعف الباطل وانهزامه، وهذه حقيقة دامغة، وإلا فقد كان يمكنهم جميعا أن يلجأوا إلى المباهلة، وحل مكين لما بينهم، وكما كانوا أسلافهم من قبل، أو يرجعوا إلى المبارزة والملاسنة والمخاطبة، وأمام الناس في جلسة علنية، وليدلي كل فريق بما حمل من جعبته، ولو كان حقا لشهد به الأشهاد.

ولكن القوم لا يجرؤون على فعل ذلك؛ ولأن لهم سننا مخزيا في أسلافهم الذين خلوا من قبل، وحين خر آل فرعون، وأمام حق لم يستطيعوا أمامه صبرا، وإذ كان من خبر الغلام والملك، وما هو مشهور ومعروف، وحين قال الناس: آمنا برب هذا الغلام!

وهذا الذي يخشون، ومن أسف.

ولكن الناس غارقون في ضلالهم، وحتى ختم الله تعالى على قلوبهم، وحتى أصبحوا به، فلا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا.

ولكنه، وعلى كل حال، فإن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وإذ كان عالما بما أصاب الذين خلوا من قبلهم في الله تعالى، وخاصة أخيه نبي الله تعالى عيسى عليه السلام، وحين قال: خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين، فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه، يمنعكم الفقر والحاجة، ألا إن رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، فإذا عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم". قالوا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: "كما صنع أصحاب عيسى بن مريم، نشروا بالمناشير، وحملوا على الخشب، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله " [(١)].

الثالث والعشرون: علم نبوة ضاف! هذه طيبة، وذاك الدجال

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم أن خرج تميم الداري ليسلم على يديه صلى الله عليه وسلم، ولكن سفينته قد ضلت طريقها، حتى وصلوا إلى جزيرة، وإذ تخرج منها امرأة شعثاء تجر شعرها، وهذه رواية الإمام مسلم رحمه الله تعالى. وعلى رواية الإمام أحمد رحمه الله تعالى فإنه رجل، وحين جاء السؤال بالتذكير من قوله: قال: من أنتم؟

---

(١) إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري:٨/٩٨. حكم المحدث: فيه سويد بن عبد العزيز المديني، وهو ضعيف.

ولكنها وحين سألتهم من أنتم؟ فأخبروها أنهم ناس من العرب، قد ضلوا الطريق، ويريدون الماء، وحين سألوها عن نفسها، فقالت: أنا الجساسة، أي التي تتحسس الأخبار لهذا الرجل الذي يسكن الدير!

ثم أرشدتهم إلى هذا الدير الذي يسكنه رجل، ولما راحوا إليه سألهم فأخبروه أنهم من العرب، فاستخبرهم عن النبي الذي بعث فيهم! وأخبروه بأنه قد خرج، وقد ظهر على العرب، ثم سألهم عن عين ذعر بالشام! فأخبروه أنها ملآى بالماء، ويزرعون منها ريا لزراعاتهم، وأخبرهم أنها ستجف يوما! ثم سألهم عن بحيرة طبرية، فأجابوه أنها كذلك ملآى بالماء، وأخبرهم أنها ستجف يوما! وسألهم عن نخل بيسان، فأخبروه أنه مازال يعطي ثمره، وأخبرهم أنه يوشك أن ينقطع تمره! ثم أخبرهم عنه، وبأنه هو المسيح الدجال! وأنه يوشك أن يخرج فيقطع الأرض في أربعين يوما! ويجوب البلاد طولها وعرضها، وإلا مكة والمدينة، فإنهما عليه محرمتان.

وحين أخبروا الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم بخبرهم، وأخبرهم أن هذا هو الدجال وهذه طيبة.

وهذا علم آخر ضاف من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، وإذ أخبر خبر الصدق، وتصديقا لقول هذا المسيح الدجال.

وهذا إعلام من الدجال بنبوة هذا النبي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا المسبح الدجال، ومقابلة لسيدنا ومولانا النبي عيسى عليه السلام، وإنما سمي النبي عيسى عليه السلام بذلك الاسم، ولأن الله تعالى يمسح به الهدى، فيبرئ الأكمه والأبرص، ويحي الموتى بإذن الله. وأما المسيح الدجال فقيل لأنه مسيح الضلالة.

يفتن الناس بما يعطاه من الآيات، كإنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات وغير ذلك من الخوارق.

وقيل لأنه ممسوح إحدى العينين، وهذا هو الموافق لرواية الإمام مسلم رحمه الله تعالى، وحين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الدجال ممسوح العين مكتوب بين عينيه كافر، ثم تهجاها (ك ف ر) يقرؤه كل مسلم "[1].

ولكنه ذكر أنه الإمام الحبر الترجمان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه لم يسمع هذا من النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى كل حال فإن عدم سماعه رضي الله تعالى عنه لا ينفي وقوعه.

وهذه رواية الإمام البخاري رحمه الله تعالى: كنا عند ابن عباس رضي الله عنهما، فذكروا الدجال، فقال: إنه مكتوب بين عينيه: كافر، وقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذاك، ولكنه قال: أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فرجل آدم جعد، على جمل أحمر، مخطوم بخلبة، كأني أنظر إليه إذ انحدر في الوادي يلبي[2].

وقيل لأنه يمسح الأرض في أربعين ليلة، ولعل الأول أظهر، ولموافقته لصحيح الحديث، وإذ ليس يمنع من اتصافه بكل، وعلى كل حال، وأن كان يعوز هذا دليلا صريحا.

لكن هذا الدجال، وإنما سمي بذلك؛ لدجله وكذبه.

---

(١) صحيح مسلم: ٢٩٣٣

(٢) صحيح البخاري: ٥٩١٣

ولكن له صفات عليها أدلتها، ومن حيث إنه رجل شاب أحمر، قصير، أفحج جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة منتفخة، وبارزة ولا جحراء غائرة، كأنها عنبة طافئة.

فعن عبد الله بن عمر: بينا أنا نائم رأيتني أطوف بالكعبة، فإذا رجل آدم، سبط الشعر، بين رجلين، ينطف رأسه ماء، فقلت: من هذا؟ قالوا: ابن مريم، فذهبت ألتفت فإذا رجل أحمر جسيم، جعد الرأس، أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا الدجال، أقرب الناس به شبها ابن قطن [١].

وأما عن خروجه فإن الدجال سيخرج من جهة المشرق من خراسان، من يهودية أصبهان، ويقطع الأرض في أربعين يوما، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة، وسائر أيامه من بعد كأيام الناس وعلى حد وصفه صلى الله عليه وسلم لذلك. وإلا أنه حرم عليه مكة والمدينة والمسجد الأقصى والطور.

ولكن فتنته من أعظم الفتن؛ ولأنها مبهرة، ولما ورد أن معه جنة وناراً، جنته ناره وناره جنته، وأن معه أنهار الماء وجبال الخبز، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض، ويقطع الأرض بسرعة عظيمة كسرعة الغيث استدبرته الريح!

فعن النواس بن سمعان الأنصاري:

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل،

---

(١) صحيح البخاري: ٧٠٢٦

فقال: غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط، عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم، فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشأم والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا، يا عباد الله فاثبتوا. قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوما؛ يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره، قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا، وأسبغه ضروعا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم، فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه، يضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة. فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادا لي، لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها،

ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله. ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة. [وفي رواية]: لقد كان بهذه مرة ماء، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر -وهو جبل بيت المقدس- فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دما. وفي رواية: فإني قد أنزلت عبادا لي، لا يدي لأحد بقتالهم.(١).

لكنه وكما أنف مكتوب بين عينيه كافر، والصحيح الذي عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقية جعلها الله آية وعلامة من جملة

(١) صحيح مسلم: ٢٩٣٧

العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله يظهرها الله لكل مسلم كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك.[١]

وذلك أن الإدراك في البصر يخلقه الله للعبد كيف شاء ومتى شاء، فهذا يراه المؤمن بعين بصره، وإن كان لا يعرف الكتابة، ولا يراه الكافر ولو كان يعرف الكتابة، كما يرى المؤمن الأدلة بعين بصيرته ولا يراه الكافر فيخلق الله للمؤمن الإدراك دون تعلّم، لأن ذلك الزمن تنخرق فيه العادات.[٢]

وأكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والترك، وأخلاط من الناس غالبهم الأعراب والنساء. وذلك لغلبة الجهل عند البعض، ولفرط العاطفة عند النساء.

والعصمة منه بالاتباع لهدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والتعوذ بالله تعالى من شر فتنته وهذا الذي ورد به الدليل وبعد التشهد الأخير وكذا قراءة العشر الآيات الأولى أو الأخيرة من سورة الكهف.

والله الهادي والموفق والعاصم سبحانه.

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم: ١٨ / ٦٠

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ١٣ / ١٠٠

الرابع والعشرون: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

بعض النفوس، وحين تقدم المعروف، وإذ تظن أنها وبه أصبحت ذا فضل، وهذا الشعور في الواقع داعية لإحباط العمل من أساس.

ولذلك كان أجدر بالنفوس أن تكون أديبة مع الله تعالى، وألا يقع منها مما يؤذن بهذا الحبوط لعملها، بل تقشعر أبدانها، وأن سخرها الله تعالى لهكذا عمل طيب، يكون لها زادا على الطريق، وبحمده تعالى أن وفقها، وبهكذا صنع خير، ولأن الأجر والمثوبة منه تعالى، وعلاوة على أن هذا لفضل اجتباها به ربها، وإن هو إلا اجتباء رباني لهذه النفس أو تلك، وحين كانت له تعالى محلا لأن يقع منها، هكذا فعل الخير، ولتعلم نفس أنها وبهذا الذي من الله تعالى به عليها، وذلك وحده هو موجب الشكر، وهو محل الفضل، وبكأن العبد وحين يجتبيه ربه، وأن هداه للإيمان، فهذا انتشال له من براثن السقوط والسفل والدنو، وإلى معالي الرفعة والعلو والسمو .

ولذلك وحين جاء وفد بني أسد، وإذ كان يتزعمهم رئيسهم حضرمي بن عامر، وقال: يا رسول الله أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثا، وبكأنه يشير إلى فضل له، وأن جاء ليلا، ودون أن يبعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليه بعثا! ولا يعلم المسكين إلا أن الله تعالى قاده ليخرجه من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديه إلى صراط مستقيم، ولهذا السبب فإن العبد، وحين يدعو إلى الله تعالى، وإذ هو يشعر بهذه الشفقة على قوم يدعوهم إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، وكيما يكون هو الآخر وقد أتى ما هو خير له من الدنيا وما فيها، وحين كان اجتباء الله تعالى له أن يكون لهذا محلا.

وبنفس الشعور، وحين تتملك العبد شفقة، وهو إذ يرى من حوله هبوطا سفليا إلى الهوي، وهو إذ يشفق، ومن احتساب على هكذا نوع من الناس، وإذ أخذه خطب الفتنة، فلا هو ذاك المؤمن الذي وقد تعلق بحبال مولاه تعالى الحق المبين، ولا هو ذاك الذي قد أنف يسمع دعوة الحق، ولعل الله تعالى أن يقذف في قلبه الهدى والنور، وليكون بهذا قد نال الحسنين من الحق، وقد آمن، وهذه واحدة، وقد أرجع الأمر كله لله تعالى. وهذا ثانيا.

ولكن هذا رئيسهم حضرمي بن عامر قد غابت عنه هذه الحقيقة، وهو إذ ظن أنه صاحب فضل، ولكن الفضل كله لله تعالى، ولتعلم نفس أنها، وإذ آمنت فإن ذلك لها ابتداء، وحين انتشلتها قدرة باريها، وجعلها جندا من جنده، لا جند إبليس اللعين.

ولهذا السبب يتنزل القرآن الحكيم، وفي مثل موقف كهذا، ولا يكاد يتأخر بل يسارع وليعالج أمرا حاضرا واقعا؛ وكيما لا يسترب إلى مجتمع الإسلام فيأتي عليه كله! وليزيح الستار، ويكشف أن الناس أجمعين ولو كانوا في صعيد واحد، واجتمعوا على أن يضروه تعالى بضر، فلن يبلغوا ضره، ولو أنهم اجتمعوا في صعيد واحد، وعلى أن يبلغوا نفعه، ما بلغ أحدهم نفعه من شيء، وهذا هو مطلق الأدب مع الله تبارك وتعالى، وأن يشكر العبد ربه، وأن هداه للإيمان، وأن هكذا يرى ويسمع هو غيره في براثن هواه غارقا، وإذ كان يمكن أن يكون واحدا من أولئك، وبالتالي فكان هذا حضرمي بن عامر قد أبعد النجعة، وحين رأى أن مجيئه ليلا، ودون أن يبعث إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعثا، فهذا بحد ذاته يمنحه تاج الفضل! ولكن الله تعالى ينزل قرآنا مأدبة أدب، ومدرسة تربية، لهكذا نفوس، ولما يرجعها إلى صوابها، وحين قال الله تعالى ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

ولكن الذي نقف عنده أيضا أن القوم كان فيه نفر من قبيلة يقال لها بنو الرتبة، فغير النبيُّ صلى الله عليه وسلم اسمها إلى بني الرشدة، وهذا سبيله صلى الله عليه وسلم، وحين كان يغير الأسماء من أدنى وإلى الأعلى، ومن عسر إلى يسر، ومن حزن إلى سهل، ومن مشأمة وإلى ميمنة، تفاؤلا وذكرا حسنا.

ويبدو أن أولاء الناس، ومن هذه القبيلة، كانوا وقد أصيبوا بهكذا وكسة جاهلية وعيبتها في القاع! وحين كانوا يتعالون من رتبة، أو أن يتزينوا من زينة، وحين جاء وفد منهم آخر، وكان يتزعمهم هذا نفسه الحضرمي بن عامر إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وليخبروه، وحين سألهم من أنتم؟ أنهم من بني الزينة!

وكما أخرج ابن الضريس عن أبي وائل: " أن وفد بني أسد أتوا النبي ﷺ فقال: من أنتم؟ فقالوا: نحن بنو الزينة أحلاس الخيل فقال النبي ﷺ: أنتم بنو رشدة فقال الحضرمي بن عامر: والله لا نكون كبني المحوسلة وهم بنو عبد الله بن غطفان كان يقال لهم بنو عبد العزى بن غطفان فقال النبي ﷺ للحضرمي: هل تقرأ من القرآن شيئا؟ قال: نعم فقال: اقرأه فقرأ من عبس وتولى ما شاء الله أن يقرأ ثم قال: وهو الذي من على الحبلى فأخرج منها نسمة تسعى بين شراسيف وحشا فقال النبي ﷺ لا تزد فيها فإنها كافية ". [(١)]

وهذا الذي جاء الإسلام بوضعه؛ وكيما يتواضع الناس، ولا يتعالى بعضهم على بعض.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي: ٨ / ٤١٥

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان قد استهدى من نفاذة بن عبد الله بن خلف ناقة، تكون صالحة للركوب والحلب، وقد فعل، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم بارك فيها وفيمن منحها.

ويبدو أن نفاذة بن عبد الله هذا كان قد استهداه هو الآخر، ولهذا طلب منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لمن جاء بها فدعا له.

وعلى كل حال فإن فيه جواز الاستهداء وعلى حذر وقدر!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام العماد الحافظ ابن كثير عن الإمام الواقدي رحمهما الله تعالى: أنه قدم على رسول الله ﷺ في أول سنة تسع وفد بني أسد وكانوا عشرة؛ منهم: ضرار بن الأزور، ووابصة بن معبد، وطليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة بعد ذلك، ثم أسلم وحسن إسلامه، ونفادة بن عبد الله بن خلف، فقال له رئيسهم حضرمي بن عامر: يا رسول الله أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثا، فنزل فيهم: **{ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين }** [الحجرات: ١٧] . وكان فيهم قبيلة يقال لهم: بنو الرتبة، فغير اسمهم فقال: «أنتم بنو الرشدة» وقد استهدى رسول الله ﷺ من نفادة بن عبد الله بن خلف ناقة تكون جيدة للركوب وللحلب من غير أن يكون لها ولد معها، فطلبها فلم يجدها إلا عند ابن عم له فجاء بها، فأمره رسول الله ﷺ بحلبها فشرب منها وسقاه سؤره، ثم قال: «اللهم بارك فيها وفيمن منحها». فقال: يا رسول الله وفيمن جاء بها. فقال: «وفيمن جاء بها». [(١)] .

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ١٠٢

الخامس والعشرون: يا رسول الله: أسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جناتنا، وغرث عيالنا، فادع الله لنا.

هذا طلب بني فزارة، وحين جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، معلنين إسلامهم، وحين سألهم عن بلادهم فأجابوه بقولهم: أسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جناتنا، وغرث عيالنا. فادع الله لنا.

وكان أن صعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر ودعا الله تعالى بقوله: اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثا مغيثا، مريا مريعا، طبقا واسعا، عاجلا غير آجل، نافعا غير ضار، اللهم اسقنا سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، ولا هدم ولا غرق، ولا محق، اللهم اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء.

ويكأنها السماء، وقد تنزلت بمطر، وحين نزل استجابة منه تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذه إجابة الرب العليم القادر الرحمن الرحيم لعبده ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ومن موجب عهده، وهذا من سبب وعده تعالى الصدق المبين، وحين قال الله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

ولكن الملفت هو هذا دعاؤه صلى الله عليه وسلم، أن ينصره الله تعالى على الأعداء، والعجب أننا هنا مناسبة الاستسقاء! ولكن هكذا يكون الدعاء، وحين يكون العبد حال انكساره بين يدي ربه تعالى، فيلتمس كل حاجة من حاجاته الملحة وغير الملحة، وأن يطرق باب من ليس يرد سائلا سبحانه، ويقف عند عتبته تعالى، وإذ ليس يوصد أمام دعاء من دعاه، وليس يغلق في وجه من رجاه تعالى. وأن ينصره على أعداء

ملته تعالى ودينه، وحين يكون سبحانه هو سند عبيده وملجأهم وركنهم الركين، وحين يعجزهم عدوهم، ولكن الله تعالى ليس يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

وهنا وقفات:

الوقفة الأولى: أَسْنَتَ القومُ: أَصابَتْهُم سنةٌ مُجْدِبةٌ.[١] .

وغَرِثَ: الغرث: أيسر الجوع، وقيل: شدته، وقيل: هو الجوع عامة. غرث، بالكسر، يغرث غرثا، فهو غرث وغرثان، والأنثى غرثى وغرثانة.[٢] .

وانجاب أي: انكشف، ومنه الحديث: فانجاب السحاب عن المدينة حتى صار كالإكليل. أي انجمع وتقبض بعضه إلى بعض وانكشف عنها.[٣] .

الوقفة الثانية: هي هذه أهمية الدعاء في حياة العبد المسلم، وبكأنه سلاحه وسببه في مواجهة الأزمات والابتلاءات، والتي لا تنفك عنها هذه الدنيا. وإنما يكون ذلك والعبد في حالة اضطرار إلى عونه تعالى، ويقابل قلبا خاشعا منكسرا إليه تعالى.

الوقفة الثالثة: هي هذه الاستجابة التي ما فتئ القوم وإلا تنزلت عليهم غمائم الرحمة بالأمطار سحا غدقا، وهذا فضله تعالى وجوده ومنه وكرمه وعطاؤه، وأنه تعالى أصدق مجيب، وحين قال تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]. وكذا قوله تعالى ﴿أَمَّن

---

(١) المعجم الوسيط المؤلف، مجموعة من المؤلفين: ٤٥٣/١

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٢ / ١٧٢

(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج ١ / ٣١٠. و[لسان العرب، ابن منظور: ج ١ / ٢٨٧].

﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

الوقفة الرابعة: هو جواز الاستسقاء بالدعاء، ودون صلاة الاستسقاء، دلالة فعله صلى الله عليه وسلم، وحين صعد المنبر، ودعا الله تعالى، ودون صلاة الاستسقاء.

الوقفة الخامسة: أهمية صعود المنبر، وفي مثل هذه الحالات؛ ولعله للإعلام بأهمية الاستسقاء، وتعليم الناس، وتذكيرهم به، وذلك عكس ما كان ولو دعا النبي صلى الله عليه وسلم ربه تعالى، ومكان ما دعوه الناس فيه، وقضي الأمر، ولكنه والحال كذلك، فدل على رغبته صلى الله عليه وسلم في اجتماع الناس فيؤمنون، ويدعون، ويتعلمون، ويتذكرون، ولعله في الاجتماع على الطاعة خير وبركة أيضا.

الوقفة السادسة: فيه جواز الاستسقاء بالفاضل، مع وجود المفضول، والفاضل هنا هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. والمفضول هنا هم أولاء الصحب الكرام، وبعد أن أسلموا.

الوقفة السابعة: مشروعية الدعاء؛ للاستسقاء، إذا عم الجدب، ومشروعيته لانحباس المطر، وإذا خشي السيل الجارف، وخشية على البشر والأنعام والمزروعات وما خلا ذلك.

الوقفة الثامنة: لكنه يجوز دعاؤه تعالى بإنزال الغيث كل وقت وحين، وسواء كان ذلك بعد صلاة الاستسقاء، أو الدعاء على المنبر، أو من دونهما، وهذا الذي حدث يوم مجيء بني مرة، وحين شكوا إليه صلى الله عليه وسلم أن بلادهم مجدبة، فدعا لهم فقال: «اللهم اسقهم الغيث». ولما ذكروا أنهم وحين رجعوا وجدوا أن الله تعالى قد أنزل المطر على بلادهم ويوم أن دعا لهم.

الوقفة التاسعة: ليس هناك دعاء بعينه يقال توقيفا، وحين الاستسقاء، أو حين نزوله سيلا، وتخشى عواقبه، دلالة اختلاف الدعاء يوم بني فزارة، وقد كان طويلا، وكما مر آنفا، وعنه يوم بني مرة، وقد كان قصيرا كما مر الآن معنا.

الوقفة العاشرة: بيان رحمة هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ورأفته وحلمه ووجله على الأمة، وألا ينالها مكروه، بل يسارع صلى الله عليه وسلم بدعاء ربه تعالى، لكشف ضر قد حل، أو جفاف قد عم.

الوقفة الحادية عشرة: هي هذه رحمته تعالى بالعباد، وحين إجابته تعالى دعاء نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، كشفا لضر قد أصاب الناس من جدب وقحط.

الوقفة الثانية عشرة: هي هذا الأخذ بالسبب، ومنه الدعاء، وبدفع قدر الله تعالى وهو الجدب أو القحط، وبقدره تعالى أيضا، وهو الدعاء لاستنزال المطر أو لا نحباسه.

الوقفة الثالثة عشرة: هي إظهار هذه العبودية بين يدي الله تعالى، والتسليم له والإذعان والإخبات والوجل، وحين تقديم ذلك بين يديه تعالى، ولنيل ماعنده من رحمة، ولاستنزال ما قدره من مطر، ولدفع ما قدره من جدب وقحط.

الوقفة الرابعة عشرة: هو ذلكم العطاء الواسع، والذي كان قد امتن به هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم على بني مرة، وحين أعطاهم عشر أواق من فضة، ولما منح زعيمهم الحارث بن عوف اثنتي عشرة أوقية من فضة أيضا.

وإن كل ذلك وإلا تأليفا، وإن كل ذلك إلا دفعا لاحتمال زيغهم أو فتنتهم، وهم أولاء حدثاء عهد بكفرهم الذي كان، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم.

الوقفة الخامسة عشرة: وهي هذه النقلة النوعية في تاريخ هذه الدعوة الإسلامية المباركة، وحين كانت أول أمرها فقيرة، ولما صارت في عهدها الذي بين أيدينا الآن أكثر عطاء، وأعظم فضلا، وأيسر إمدادا.

وليس يمكننا فصل ذلكم الفضل الرباني عن مدى تحلى الناس بالعبودية لله تعالى، وحين يبدل الله تعالى خوفهم أمنا، وفقرهم غنى، وذلهم عزا.

السادس والعشرون: إن هذه القلوب بيد الله عزوجل

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومناسبة مجيء وفد بني محارب للإسلام، ومن بين يديه صلى الله عليه وسلم، وحين كانوا من أغلظ الناس وأشدهم عليه صلى الله عليه وسلم.

ولكن القوم قد جاؤوا وتزعمهم في ذلك سواء بن الحارث هذا الذي كان الأغلظ فيهم.

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم قد أكرمهم أيما إكرام، وحين أنزلهم دار رملة بنت الحارث، وعلى ما يبدو ولربما كان من أصل نسب بينها وبينهم، وكيما لا يغتربوا ويستأنسوا.

ولكنها كانت تستقبل وفودا أخر، وكوفد بني فزارة وإذ: لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أتاه وفد بني فزارة فيهم بضعة عشر رجلا فيهم خارجة بن الحصين، والحر بن قيس - وهو أصغرهم - ابن أخي عيينة بن حصن، فنزلوا في دار

رملة بنت الحارث من الأنصار، وقدموا على إبل ضعاف عجاف وهم مسنتون، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرين بالإسلام.[١]

وهذا بيان قيمة المرأة المسلمة في هذا الدين، وحين تكون معروفة بدثامة أخلاقها وعزة دينها وكرمها ونبلها.

وإذ كان يأتيهم بلال غداءهم وعشاءهم، وهذا من كرم الوفادة، ومن جميل الإجارة، وهذا سنن حسن، وهدي رشد.

ولكن هؤلاء القوم، وحين أعلنوا إسلامهم، وأخبروا أنهم على من وراءهم، كناية عن إسلام من وراءهم وتبعا لهم.

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان قد مسح على خزيمة ولد سواء ابن الحارث، ولعلها إشارة إلى رحمة هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم وحنوه على من أسلم.

ولكنه وحين مسح على وجه خزيمة بن سواء بن الحارث هذا، وقد انبلج عن نور وضياء، وبكأنه غرة بيضاء. وهذه مرة أخرى من بركات هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه من دلالات الولاية لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، ولعلها أن تكون عاملا حاسما في رشاد القوم وثباتهم. وهذه أيضا من أمارات حنوه صلى الله عليه وسلم، وحلمه بالقوم، وأن مسحة كهذه لتعمل عملها في الناس، وحين يربت الدعاة العاملون على قلوب وصدور ورؤوس الناس، فينالوا منهم كسبا، ويظفرون منهم دينهم وإسلامهم.

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٦ /١٠٠

ولكن رجلا كان في القوم، وقد كان الأغلظ مع نبينا صلى الله عليه وسلم فعرفه رسول الله ﷺ فقال: الحمد لله الذي أبقاني حتى صدقت بك.

وهذا فرح نبينا محمد بإسلام القوم، وهذا الذي ينبغي حرص الدعاة العاملين عليه، وهو إسلام الناس وجوههم لله تعالى، وهذا هو الذي منه الفرح، وهذا الذي تكون من الغبطة والفرح والسرور. وهذا الذي يعمل فيه عمله، وكما قد فعل بابنه!

وهذا الذي جعله صلى الله عليه وسلم يقول قوله هذا: إن هذه القلوب بيد الله عز وجل. وهذا اعتراف بمدى السلطان القديم لله تعالى سبحانه، وأن كل شيء من قبضته، وأن سائر الأمور من قضائه تعالى وحكمته وقدرته تعالى. وسبحان مصرفها ومقلبها.

فعن محمد بن صالح عن أبي وجزة السعدي قال: قدم وفد محارب سنة عشر في حجة الوداع، وهم عشرة نفر؛ فيهم: سواء بن الحارث، وابنه خزيمة بن سواء، فأنزلوا دار رملة بنت الحارث، وكان بلال يأتيهم بغداء، وعشاء، فأسلموا وقالوا: نحن على من وراءنا، ولم يكن أحد في تلك المواسم أفظ ولا أغلظ على رسول الله منهم، وكان في الوفد رجل منهم فعرفه رسول الله ﷺ فقال: الحمد لله الذي أبقاني حتى صدقت بك. فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب بيد الله عز وجل». ومسح رسول الله وجه خزيمة بن سواء فصارت غرة بيضاء، وأجازهم كما يجيز الوفد، وانصرفوا إلى بلادهم.[(١)]

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ١ / ٢٩٩

السابع والعشرون: لئن أتاني لأضرب ما فوق الغل من يده.

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حق عمرو بن مالك بن قيس بن بجيد بن رؤاس بن كلاب، وحين جاءه عمرو هذا مسلما ثم راح إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام الحنيف الخالد، وإلا أنهم أبوا، وإلى حين أن يقتصوا من بني عقيل، لحرب كانت بينهم، ومن ثم راح معهم عمرو بن مالك الكلابي هذا، وضرب رجلا من بني عقيل فقتله!

وحين وصل خبر فعله هذا النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي ما أنف: لئن أتاني لأضرب ما فوق الغل من يده!

وموضع العجب هنا أن المسلم ويوم أن يسلم وجهه لله تعالى فإنه يدير ظهره لهكذا جاهلية مقيتة معيبة، وبكأنه يزايلها، وبكأنه يقاطعها، وكأن لم يكن يوما فردا منتسبا إليها، ولأنها وعلى حد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم عيبة وفتنة ونتنة، ولأنه وحين يسلم وجهه لله تعالى وهو محسن، وإنما ينتقل من الجاهلية بكليته وبكليتها وإلى الإسلام بكليته وكليته أيضا. وليس يقال بأن هذا عمل مثالي وإنما هو الأصل والقاعدة الثابتة التي يقوم عليها هذا الدين. وهذا هو الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقسم قسمه هذا ويبرم عهده هذا في حق عمرو بن مالك بن كلاب هذا.

ولكن مالك بن عمرو بن كلاب هذا، وإذ ما زال حديث عهد بكفر وإسلام معا، وبالتالي فظهور هذه العيبة الجاهلية منه، ولئن كان مفسرا، وإلا أنه لا مبررا! فإن إسلام العبد وجهه لله تعالى معناه مزايلة هذه الحمية الوطنية، والقائمة على علاقات الدم والحمية لا أكثر، وحين كان هذا الدين الحنيف الخالد الإسلام يقوم أول ما يقوم على مزايلة هذه الجاهلية، ومفاصلتها، ومن ثم لإعداد جيل فريد قائم على أصل واحد

هو ذلكم الولاء في الله تعالى وحده، والقائم أيضا على ذلكم البراء في الله تعالى وحده أيضا. وبالتالي إحداث نقلة نوعية نابعة من قوله تعالي ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٥-٥٧].

وأنت ترى كم هو موقف هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم من هكذا عيبة، ولأن الوقوف في وجهها هكذا وقفة هو ذلكم الذي نعده صمام الأمان لحماية عقيدة العبد، وهو ذلكم الذي نحسبه إعلان التبرؤ العام ومن هكذا لوثة كانت بمثابة سوس ناخر في عقيدة العبد، وحال السكوت عليها، ولو لحظة واحدة، وهذا الذي شهدناه وعلمناه من هذا النبي صلى الله عليه وسلم أبدا.

وهذا هو الموقف الحازم، والذي نهجه القرآن الحكيم مع هذه الجاهلية، وحين كانت في نظره لوثة، ليس يقوم عليها إلا ذلكم المجتمع الهش، والذي لا مكنة له من مواجهة، وحين كانت حروب تقام من بينهم، ومن عصورهم المختلفة، ولمجرد كلمة يمكن أن تخرج من في هذا أو ذاك، ومثل هذه اللوثة، وبهذا الوضع، وإذ لا يمكن أن يقوم عليها مجتمع فريد أبي سعيد، ولهذا؛ فقد وقف ضدها هذا الدين موقفه هذا، وحين قال الله تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

ولهذا السبب، وحين جاء عمرو بن مالك بن كلاب هذا إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد مشاركته في هكذا لوثة، ومن بعد إسلامه، ولكنه هذا النبي

محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أعرض عنه، ولم يرد عليه سلامه، وحين جاءه يمنة ويسرة ومن أمامه، وحين قال: يا رسول الله إن الرب عز وجل ليرتضي فيرضى، فارض عني، رضي الله عنك.

ولكن هذا موقف عمرو بن مالك بن كلاب هذا قد كان وعلى ما يبدو من ظاهره إعلان توبة صادقة، ومما فعل، وهذا الذي يتبدى من قوله الذي أنف.

ولذلك فنبينا صلى الله عليه وسلم، وإذ كان سننه قبول من جاء تائبا؛ تحفيزا وألا يرتد، وهذا هو المنهج الوسط، وفي شحذ الهمم والطاقات نحو آفاق التوبة والأوبة. وألا يقف القائد موقف الحزم الذي يمكن تحوله إلى موقف الصد والمنع والفتنة!

وهذا الذي سارع بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى قوله: رضيت.

وهذا الذي يعد خلقا نبويا حميدا، وحين كان سبيلا قرآنيا فريدا، وحين قبوله تعالى توبة من تاب، ورجعة من رجع، وحين قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨].

الثامن والعشرون: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله ربيعا ومطرفا، وأنسا، أعطاهم العقيق ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وسمعوا وأطاعوا، ولم يعطهم حقا لمسلم.

هذا عقد بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبين بني عقيل، وحين جاءه القوم مسلمين بين يديه صلى الله عليه وسلم، وإذ كان من سننه أن يعطي من يرى أن في عطائه تأليفا، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم من بعد.

ولكن هذا العقد المبرم قد بينت حدوده، وما تضمنته بنوده، وبحيث أصبح نافيا للجهالة، وهذا هو الأصل أن تبين في العقود الحقوق والالتزامات، بما لا يدع مجالا لجهالة أو احتمالات، ينشأ من سببها النزاع من بعد.

ولكن ذكر الحقوق أولا كان هديا نبويا حسنا، وإذ منه تطمئن النفوس، ومن ثم تقبل على تنفيذ التزاماتها المذكورة بعد راضية مرضية، وهذا عامل نفسي هام تجدر الإشارة إليه.

ولكن هذه الحقوق المذكورة في العقد كانت هي العقيق، وهي أرض كان بها نخل وعيون.

وأما الالتزامات فإنها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله.

ولكنك رأيت كيف كان ذكر الصلاة والزكاة من قبل ذكر طاعة الله ورسوله، وهما من طاعة الله ورسوله، ويكأن ذلك ومن أهمية الركنين؛ ولأن من جحدهما فإنه يصبح والحال كذلك لا خير فيه، بل ومن تركهما أيضا، ولو لم يكن جحودا، وهذا بسط آخر على كل حال.

ولكن هذا الذي يسمونه باب ذكر الخاص قبل العام، أو ذكر العام بعد الخاص، دلالة على الاهتمام به، ومن سر وسبب تقديمه.

ولكنك رأيت كم هي طاعة الله ورسوله، وإذ نص عليها نصا في العقد وهذا شأن عام، وكيما تمكن منه المحاسبة، حال عدم التزام بني عقيل ببنوده. ولكنك أيضا رأيت عموم هذه الطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ليدخل فيها كل ما جاء عن الله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هو موجب البيعة، وهذا هو عقد الالتزام بين الناس وبين نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكنك قد رأيت أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أقطعهم ما ليس حقا لمسلم، وهذا بيان عظيم، وبالتالي يكون تكييف محل العقد بأن هذه إقطاع من عموم المال العام للدولة الإسلامية، وهذا الذي يسمونه أملاك الدولة، ولا ريب أن لولي الأمر بعض السلطات في هذا الجانب، ولربما كانت عينا نعم، ولكنها لم تكن مأهولة بمن يقيمها، وكيما يعود نفعها على المسلمين عامة.

ولكن هذا العقد قد توافرت أركانه: وهي:

الركن الأول: العاقدان: وهما الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنه الإيجاب وبنو تميم، ويمثلهم ربيع ومطرف، وأنس. ومنهم القبول.

لكن هذين العاقدين الطرفين هما في الواقع نائبان عن الشخصية الاعتبارية، في كل من الأمة الإسلامية كلها، وإذ ينوب عنها هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأما الشخص الاعتباري الآخر فهو بنو عقيل هؤلاء، وإذ يمثلهم الثلاثة الرجال عنهم، ربيع، ومطرف، وأنس. وحين كان الكتاب في يد مطرف هذا، وعلى ما يبدو كأمير لأولاء الثلاثة الرجال يومهم هذا.

وعلى حال فهذا سبق إسلامي فريد، في اعتبار الشخصية الاعتبارية في العقود، وإذ ينوب عنها في إبرام عقودها من يمثلها تمثيلا صحيحا. وحال كونه متمتعا بأهلية التعاقد، وتوافر الرضاء.

وإذ كان الركن الثاني هو المحل: والمحل هنا هو العقيق، وهي أرض بها ماء ونخيل.

وهي وكما نرى محددة تحديدا نافيا للجهالة عنها، مما جعلها صالحة لأن تكون محلا للتعاقد عليها. وكيما لا يقع غرر أو استغلال أو تدليس أو غبن.

الركن الثالث: الثمن: ولكن هذا العقد من عقود التبرعات النافعة نفعا محضا، وبالتالي لا حديث هنا عن الثمن، ومن موجب أنه عقد تبرع لا معاوضة.

الركن الرابع: الصيغة: وهي هنا هو ذلكم النص المكتوب، والذي نصه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله ربيعا ومطرفا، وأنسا، أعطاهم العقيق ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وسمعوا وأطاعوا، ولم يعطهم حقا لمسلم.

وقد أنف منذ قليل بيان التزامات كل من العاقدين تجاه الآخر.

ولكن ما تجدر إليه الإشارة هو هذا البيان النبوي الهام العام، وحين بين صلى الله عليه وسلم أنه لم يأخذ حق مسلم؛ وليمنحه غيره، وكما أنه لم يعطهم حقا لمسلم، وإنما هذه أرض، ولربما كان من وصفها، وأنها معطلة، وكان في هذا القرار الإداري الصائب نفع على الأمة بأسرها، وحينما يتداول رأس المال تداولا، يعود نفعه على الاقتصاد القومي للدولة الإسلامية.

النظرية الاقتصادية الإسلامية في إدارة أملاك الدولة

وهذه نظرية اقتصادية باهرة، وبحيث توزع إقطاعات الدولة على الناس، والماهرين منهم بوجه أخص؛ ليعملوا، وبه قضاء على البطالة، ويستصلحوا الأراضي، ومن ثم يعود نفع زراعتها على الاقتصاد الوطني للدولة الإسلامية. وما يعنيه ذلك من تداول لرأس المال؛ وكيما لا يترك ساكنا لا حراك له، وما يترتب على ذلك من بطالة، وعدم إتاحة الفرصة أمام خلق فرص عمل لقاطني هذه الدولة الإسلامية المجيدة، فتنشئ أفرادا لا معوزين، بل أغنياء لا يتكففون الناس.

وهذه نظرية جد مهمة على مستوى الاقتصاد القومي للدولة الإسلامية، وبحيث تكون يدها هي اليد العليا دائما.

التاسع والعشرون: قدوم وفد بني البكاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع

قدم وفد بني البكاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع، وكانوا ثلاثين رجلا، وكان يتزعمهم معاوية بن ثور بن معاوية بن عبادة بن البكاء، وهو يومئذ ابن مائة سنة، وإذ كان معه ابن له باربه، وإذ طلب معاوية بن ثور بن معاوية بن عبادة بن البكاء هذا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يمسح على ولده؛ ولبره، ولأن الرجل يتبرك بمس رسول الله صلى الله عليه.

وكان أن مسح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عليه وأعطاه أعنزا عفرا، وبرك عليهن فكانوا لا يصيبهم بعد ذلك قحط ولا سنة. واذ كانت هذه المنحة وكما ذكرنا غير مرة تأليفا للناس وأن يثبتوا، وإلا أنه وقد مسح على وجه ابن معاوية هذا وبرك على ما منحه من أعنز عفر فكان لا يصيبه قحط ولا سنة.

وهذه من بركات هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وعلى كل حال، وقد مر بنا إبان حديثنا وتشرفنا بهذه السيرة النبوية المباركة الخبر الكثير المتضافر الوافر عن ذلك.

وسبحان الله وتعالى! فإن هذا رجل ابن مائة سنة، وهذا فعله، وهذا توفيق ربه تعالى له، وحين فاز من أواخر عمره بهذا الفضل الكريم، مسلما تائبا آيبا، وقد تحصل أيضا من تبريكات هذا النبي صلى الله عليه وسلم لولده وذريته من بعده، وحين أصبحوا لا يصيبهم سنة ولا قحط.

ودلك على صحة مذهبنا هذا أنه: وفد من بني البكاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع ثلاثة نفر معاوية بن ثور بن عبادة بن البكاء وهو يومئذ بن مائة سنة ومعه بن له يقال له بشر والفجيع بن عبد الله بن جندح بن البكاء ومعهم عبد عمرو البكائي وهو الأصم فأمر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزل وضيافة وأجازهم ورجعوا إلى قومهم وقال معاوية للنبي صلى الله عليه وسلم إني أتبرك بمسك وقد كبرت وابني هذا بر بي فامسح وجهه فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه بشر بن معاوية وأعطاه أعنزا عفرا وبرك عليهن قال الجعد فالسنة ربما أصابت بني البكاء ولا تصيبهم.[١]

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ١ / ٣٠٤

الثلاثون: قدوم وفد كنانة

وهذا وفد كنانة، وإذ كان يمثلهم واثلة بن الأسقع الليثي، وحين قدم مسلما بين يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين رجع إلى قومه يستحثهم اللحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكونون يده اليمنى في غزوة تبوك، وإذ يقف أبوه حجر عثرة ويتأبى على أن يحمله ويعطيه!

وهذه من مفارقات بني البشر، وعلى كل حال، فإن هذا وفد معاوية بن ثور بن عبادة بن البكاء، وحين كان صاحب المائة من عمره، وحين فاز بخيرين: خير إسلامه، وخير بركة ولده من بعده، ومن بعد منح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لهما أعنزا عفرا، وهذا واثلة بن الأسقع الليثي وإذ يأبى والده أن يعاونه على الخير!

وإلا أنه وحين يتولى قوم فيستبدلهم الله تعالى بخير منهم، وحين أعانته أخته، وجهزته، وحين راح على بعير لكعب بن عجرة، ولكن هذا وائلة قد كان بارا بكعب وبعيره، وحين راح يعطيه أجرة مقابل بعيره، وإلا أن كعبا هذا أخبره أنه وما فعل ذلك إلا لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، وهذا مثال ضاف من أمثلة الإخلاص لله تعالى، وحين يعلم العبد، وأنه وحين يبذل، وإنما يبذل لله تعالى، وأن الخلف منه تعالى، وأن ما عند الرب الكريم المنان خير وأبقى للذين آمنوا بالله ورسله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم سبحانه. وأنه وحين يستعمل الله تعالى العبد للخير، فإن هذا هو الخير، وحين يصطفي الرب الكريم المتعال أحدا من خلقه لذلكم بذل، وإذ كان مثله ههنا كعب بن عجرة هذا، وليسجل له التاريخ موقفه هذا، سننا وهديا حسنا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا أن واثلة بن الأسقع الليثي قدم على رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فصلى معه الصبح، ثم رجع إلى قومه فدعاهم وأخبرهم عن رسول الله ﷺ، فقال أبوه: والله لا أحملك أبدا، وسمعت أخته كلامه فأسلمت، وجهزته حتى سار مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، وهو راكب على بعير لكعب بن عجرة، وبعثه رسول الله ﷺ مع خالد إلى أكيدر دومة، فلما رجعوا عرض واثلة على كعب بن عجرة ما كان شارطه عليه من سهم الغنيمة. فقال له كعب: إنما حملتك لله عز وجل. [1]

الواحد والثلاثون:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد زل من بالت عليه الثعالب

هذا قول راشد بن عبد ربه السلمي، وحين سبقه قيس بن نشبة من بني سليم، وحين أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه الكلام، كلام الله تعالى القرآن الحكيم والذكر المبين، وحين أخذه من لبه، واستحكم عليه، ولأنه الناس في يومهم هذا قد كانت لهم دربة بالعربية وسليقتها ووجوهها وبلاغتها، وبالتالي فقد كانوا يعرفون فرقا عظيما بينها وبين كلام عربي آخر، هو هذا القرآن الحكيم، ولما كان من وصف قيس بن نشبة لهذا القرآن، وحين أسلم ورجع إلى قومه، وقال لهم: سمعت ترجمة الروم، وهيمنة فارس، وأشعار العرب، وكهانة الكهان، وكلام مقاول حمير، فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم فأطيعوني، وخذوا بنصيبكم منه. [2]

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ١٠٦

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ١٠٧

ومنه فقد أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح المبين، فتح مكة البلد الأمين، وحين قدموا بين يدي إسلامهم الطاعة والمبايعة عليها منشطهم ومكرههم.

ولكن القوم قد كانت لهم حاجة، وحين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعلنا في مقدمتك، واجعل لواءنا أحمر، وشعارنا مقدما، ففعل ذلك بهم، فشهدوا معه الفتح، والطائف، وحنينا. [1]. وهذا من حكمة القائد وفطنته وكياسته، وحين يسمع لرؤيتهم، ويمنحهم جانبا مما سألوه، ويكأن هذا الذي سألوه، ولما لم يستقر الإيمان في قلوبهم بعد، ومنه فلما يطلعوا هذا ورسولهم يلبي، فهذا عمل إداري عبقري، به تقر الجهة الإدارية قرارها، ويستقر أمرها، ولما لم يبد من ذلكم شيء من عوارها، أو يؤثر في بعض من سبيلها، وها نحن قد مر بنا كثير من هذا الفقه العملي التربوي جانب غير قليل، وحين أشاروا عليه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح المبين، فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وأن أبا سفيان رجل يحب الفخر ويجعل له النبي صلى الله عليه وسلم شيئا، وحينها قال: ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.[2].

وقد كان معهم رجل يسمى راشد بن عبد ربه السلمي، وقد كان يعبد صنما، وحين رأى ثعلبا يبول على صنمه هذا قال قوله هذا الآنف الذكر:

أرب يبول الثعلبان برأسه * لقد زل من بالت عليه الثعالب

ثم شد عليه فكسره، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فأسلم.

وهذا من فيوضات هذا الرب الكريم على قلب عبيد من عبيده، وحين يريد به خيرا، فتتفتح من أمامه مفاتيح الخير والهدى والصلاح، ويكأنه من ظلام دامس، إلى

(١) الطبقات الكبرى – ط العلمية، ابن سعد: ١ / ٢٣٤
(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٠٢١

نور فجر الهدى، وقد لاح، وإلا فإن راشدا هذا قد كان يعلم، ويرى الثعلبان والطائر وغيرهما يبولان على صنمه، وليس قد كان يحرك فيه شيئا!

وهذه من إشراقات الهدى والرضا الرباني الكريم، وحين يريد بعبد من عبيده خيرا، وها هو قد استرجع صوابه، ويقف على الخير من ذات نفسه، فيعقله، وعلى الشر ومن تلقاء نفسه فيلفظه، وها نحن قد مر بنا الكثير، ومن هذا الصنف من الناس، وحين كان الناس يوما يغطون صنما لأحدهم بالقاذورات، فيروح ويغسله مرة ومرة ومرة، وحين لاح يوم فجر إسلامه صحا واستقر، وقال قوله هذا: لا خير في إله لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الخبث!!! وهكذا ومما قال الله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

ولكن راشدا بن عبد ربه السلمي هذا قد كان اسمه غاويا، فغير النبي ﷺ اسمه إلى راشد، وهذا هدي حسن، وقد مر بنا الكثير من نحوه إبان تناولنا وتشرفنا بهذه السيرة النبوية المباركة.

وكان ﷺ قد أقطعه موضعا يقال له: رهاط، فيه عين تجري يقال لها: عين الرسول، وقال: «هو خير بني سليم» وعقد له على قومه، وشهد الفتح وما بعدها.[١]

وكما هو الشأن فإن هذا الهدي الحسن في الأخذ بأسباب الدفع الاقتصادي للأمة دفعا إيجابيا، وتشجيع الأيدي العاملة على العمل، وجعل المجتمع الإسلامي حركة دائبة، يعمل فيه كل قادر على العمل، وحين تشجيع السلطان الأمير الأمين للأمة، وتخليق فرص عمل، يعود نفعها على الفرد المسلم، وعلى الجماعة المسلمة كلها، ومن ذلك الأخذ باستخدام واستصلاح وزراعة الأراضي واستخدامها

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ١٠٧

واستصلاحها، ولأن ترك الأراضي دون إنتاجية وزراعة وفلاحة يعرضها للبوار والخسارة، ومما ينشأ عن ذلك من تعطيل الطاقات، وما يمكن أن ينشأ عنه من فراغ يؤدي بصاحبه إلى المهالك.

ولكن هذا النبي العربي الأمي الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم قد ولى راشدا بن عبد ربه السلمي هذا على قومه، وكما قلنا آنفا فإن هذا أدعى؛ ولأنه عمل إداري ممتاز، وحين يولى على الناس رجلا منهم، يكون أدرى بشعاب مكة من غيره، ويألفهم ويألفونه معا، فترقى الجهة الإدارية وتؤتي أكلها.

ولكن الملفت أننا وقد صاحبنا هذا النبي الأمي العربي القرشي الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم، ومن ولادته والى الآن، ونحن معه في نهايات السنة التاسعة من هجرته صلى الله عليه وسلم، خطوا خطوا، وحدثا حدثا، ولم يمر علينا يوم، رأيناه قد ولى امرأة على قومها، أو قوما غير قومها! بل كان لا يولي إلا الرجال، وعلى قومهم، وهو الأعم الأغلب، أو على غير قومهم، وهو الأقل الأدنى، ومنه فدل ذلك على أن الولاية للرجال، ولما يكتنفها من مسؤوليات عظام جسام، ولما لم تكن متناسبة مع طبيعة المرأة القارورة الحانية اللطيفة، وإذ كان حنوها ورقتها لازمين من لوازم الأسرة والزوجية والتربية، وإذ ليس يقال حينئذ إنه نقص، بل كمال وتمام وتاج ووسام! وإلا أن ذلك عطاء رباني لها، وكذا مَنٌّ ومنح وفيض إلهي سماوي؛ وكيما يقام المجتمع على إلف من الدعة والأنس والسرور والحبور والأمن والسكينة والطمأنينة، وحين كانت مربيته امرأة من محضنها، ولما كانت منشئتها قارورة من خدرها وسكنها ومودتها ورحمتها. ولما كانت هي مالكة زمامه ومفتاحه، وحين أضحت هي صاحبة أسراره وأسبابه.

الثاني والثلاثون: ما زلنا نتعرف البركة في وجه زياد.

هذا قول بني هلال بن عامر، وحين راحوا مسلمين بين يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان منهم زياد بن عبد الله بن مالك بن نجير بن الهدم بن روبية بن عبد الله بن هلال بن عامر، وحين دخل زياد هذا على أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث، وقد كانت خالته، ولما رآه النبي صلى الله عليه وسلم غضب ورجع، وإنما أخبرته رضي الله تعالى عنها أنه ابن أختها، ومن ثم ذهب غضبه، ودخل ثم أخذ زيادا هذا معه إلى المسجد فصلى معه الظهر ثم أدنا زيادا فدعا له، ووضع يده على رأسه، ثم حدرها على طرف أنفه، فكانت بنو هلال تقول: ما زلنا نتعرف البركة في وجه زياد. ([1]).

وهذا على كل حال جانب من موجبات بركة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد مر بنا كثير من ذلك، وأثناء تعرضنا لهذه السيرة النبوية المباركة.

وإذ كان من أولاء القوم بني هلال بن عامر رجل يدعى عبد عوف بن أصرم، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله، وهذا هو هديه، وفي كل نظير، وكما مر معنا كثير من هذا الباب، وإبان تشرفنا بالتجوال بين صفحات هذا التاريخ المنير، تاريخ هذه السيرة النبوية المباركة.

ولكن بني تغلب كانوا قد أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا ستة عشر، وكان منهم نصارى ومسلمون. وكانوا قد دخلوا دار رملة بنت الحارث زوج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه جواز دخول النصراني بيت، وإحسان ضيافته.

---

(١) البداية والنهاية – ط إحياء التراث، نوىسنده، ابن كثير: ٥ /١٠٧

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان قد صالح النصارى على ألا يضيعوا أولادهم في النصرانية.[1].

وفيه جواز المصالحة على هذا وعند تعذر إسلام القوم وأن يظفر النبي صلى الله عليه وسلم بأولادهم فهذا كسب كبير ولصالح الناس ولصالح هذا الدين أيضا.

الثالث والثلاثون: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه.

وهذا دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لغلام من أهل اليمن، وكان قد جاء مع قومه ليسلموا بين يديه صلى الله عليه وسلم، وحين سأل هذا الغلام النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له، أن يغفر ذنبه، وأن يرحمه، وأن يجعل غناه في قلبه! وحينها دعا له النبي بدعائه هذا: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه. وإذ كان من بعدها، ومن أزهد الناس، وعلى حد قول أهل محلته.

ولكن الذي ينبغي الوقوف عنده، هو ذلكم فقه هذا الغلام، وقد كان غلاما! وحين اختار أجزل الدعاء وأقصره معا! وحين كانت هذه همته، لا دنيا يصيبها ولا امرأة ينكحها. وهذا الذي تنبغي تنشئة أبناء الأمة عليه صغارا؛ وليشبوا عليه كبارا.

وقد وفَدَ وفْدُ خولان أيضا، وحين أسلموا بين يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين سألهم عن صنم له كانوا يعبدونه، وكان يسمى عم أنس! وأخبروه بأنهم قد استبدلوه بما هو خير منه، وفي إشارة إلى الإسلام الحنيف الخالد، ووعدوه وأنهم سيهدمونه بأيديهم، وحين رجوعهم. وحين كان من ألف باء هذا الإسلام وسطوره الأولى هو ذلكم إسلام الوجه لله تعالى وإذ كان منه خلع الأنداد والشركاء والنظراء والأمثال.

---

(١) البداية والنهاية – ط إحياء التراث، نوىسنده، ابن كثير: ٥ /١٠٨

ولكن هذا ما يحسب لأولاء القوم، وحين عزموا أمرهم بهدم صنمهم بأيديهم، وقد مر بنا نقيض من ذلك، وحين كان من ثقيف وشرطها أن يدع النبي صلى الله عليه وسلم لهم الطاغية الربة اللات، ولا يهدمها ثلاث سنين! وهو الأمر الذي رفضه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وتأباه، وحين ساوموه على ثلاث سنين أو سنة أو حتى شهرا واحدا! وحين وف وقفته وأمام ذلكم، وبقوله: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه.[1]. حين كان منه أمره صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة، وأن يهدما هذا الصنم الطاغية الربة اللات. وقد مر بنا هذا الحدث، وتم تناوله من قبل، وفي حينه وموضعه من هذه السيرة النبوية المباركة.

ولكن القوم وقد حسب لهم ذلك الذي كان منهم، وهو التزام طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، من تحريم ما حرم الله، ومن تحليل ما أحل الله تعالى.

وهذا وفد جعفي، وقد كانوا يحرمون أكل القلب! وحين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأكلوه؛ ولحله، وحين ناوله رئيسهم، وقال: لا يتم إيمانكم حتى تأكلوه، فأخذه، ويده ترعد، فأكله، وقال:[2]

على أني أكلت القلب كرها وترعد حين مسته بناني

والواقع أن هذا هو الإسلام، وإذ كانت فرصة مواتية للوقوف على مدى التسليم لأوامر الله تعالى، وإن كان في أكل القلب! وهذه مسألة ولربما تبدو صغيرة، وبكأنها كبيرة، وحين يكون الأمر هو ذلكم المتعلق بمسألة التحليل والتحريم. وهذا يتساوى فيه

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٤ / ٩٦٧

(٢) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ١٧٩/٤

الأمر، وسواء كان صغيرا أو كبيرا، وإذ ليس يوجد من صغير أو كبير وأمام مسألة الحل والحرمة، ولأن مطلق العبودية هو ههنا! وحين قال الله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]. وكذا قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦].

الرابع والثلاثون: هذا وافد السباع إليكم

وبينما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم جالسا مع بعض أصحابه بالمدينة، وإذ جاء ذئب، وجلس بين يديه صلى الله عليه وسلم!

ثم أخبرهم بأن هذا الذئب وافد السباع إلى أهل يثرب! وإن طابت أنفسهم أن يقدموا له شيئا! وفي إشارة إلى الطعام، ولما طابت به أنفسهم له! وإنهم وإن فعلوا ذلك فإن الذئب لا يعدوه إلى غيره! وإلا أن الناس قالوا: يا رسول الله ما تطيب أنفسنا له بشيء!

وهذا شاهد، وعلم من أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين يجلس بين يديه ذئب! بل وحين يأتي قادما ويعرفه بشخصه! ويجلس بين يديه عاويا! بل ويتنازل عن افتراس! وأمام هذا الجمع، وقد كان من إمكانه أن يختلس من ذلكم من شيء!

وعلى كل حال فإن طلبه صلى الله عليه وسلم من أصحابه أن يعطوه شيئا طعاما، وهذا من إحسانه صلى الله عليه وسلم ورقته ورحمته، وليس يجول بخاطرنا

غير ذلك، فإن صاحب الرحمة لا يلام على رحمته، وإن ذا الرأفة لا يتصور ورود غيرها منه!

ولأن الأمر موحش ولا ريب، فقد أقدر النبي صلى الله عليه وسلم الأمور قدرها، وحين لم يلم أحدا، وحين أجمعوا أنهم ليست تطيب أنفسهم له بشيء!

الخامس والثلاثون: علم نبوة ضاف!

ولكن كلام الذئب هذا قد وقع لغير النبي صلى الله عليه وسلم! وحين هاجم ذئب يوما غنم راع فاستلب منه إحداها! فأتبعه صاحبها فانتزعها منه، وحينها أقعى الذئب على ذنبه! وخاطبه قائلا: ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إلي؟! وحينها أخذت الراعي دهشته

فقال: يا عجبا، ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس!

ولكن هذا الذئب يذهب إلى أكثر من هذا، وحين خاطب الراعي بما هو أكثر من ذلك! وحين أخبره بقوله: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد رسول الله ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق!

وهذا علم آخر منضاف إلى أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم!

وحين ذهب الراعي إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأخبره مما وقع، وليزيد النبي صلى الله عليه وسلم الناس علما، وبصدق هذا الراعي، وبأكثر منه علما، وحين أخبره أن من علامات الساعة أن تكلم السباع الناس! وتكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده!

وهذه أمور يبقى أن الوقوف عندها تصديقا ويقينا، وخاصة مع ثبوت أحاديثها، ولأن التسليم والإذعان هو موجب الإيمان بالله تعالى ربا وخالقا ورازقا ومحييا ومميتا سبحانه. وكما أنه موجب الإيمان بأن محمدا رسول الله صلى الله عليه، وبأن الإسلام للعبد دين.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن أبي سعيد الخدري قال: عن أبي سعيد الخدري قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه قال: ألا تتقي الله، تنزع مني رزقا ساقه الله إلي؟! فقال: يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بيثرب يخبر الناس ما قد سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأخبره، فأمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فنودي بـ: الصلاة جامعة. ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: صدق، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما حدث أهله بعده.[1].

(١) الصحيح المسند، الوادعي: ٤١٢، خلاصة حكم المحدث: صحيح، رجاله رجال الصحيح.

الباب الثالث

أحداث السنة العاشرة من الهجرة

الفصل الأول: البعوث

أولا: بعث رسول الله خالدا بن الوليد

أنتم الذين إذا زجروا استقدموا

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لبني الحارث من وفد نصارى نجران، وقد مر بنا هذا الحدث، وحين أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم خالدا بن الوليد رضي الله تعالى عنه، ليدعوهم إلى الإسلام ثلاثا، وإن هموا أبوا فيطلب منهم الجزية، وإن هموا أبوا فيقاتلهم. وإلا أن الناس أسلموا، وحين جاء بهم خالد بين يديه صلى الله عليه وسلم، وكان منه سؤاله إليهم هذا الذي أنف: أنتم الذين إذا زجروا استقدموا؟

أي: أنكم ما أسلمتم ولا جيء بكم إلا الخوف من السيف، قالوا: نعم!

وهذه صراحة القوم وعلى كل حال، وبه دل على أن استعمال أساليب الخوف والزجر سبب لإسلام الناس أول مرة، ومن ثم يحسن إسلامهم من بعد، وهذا الذي حدث مع بني الحارث هؤلاء.

ولكن الناس قد كانت لهم غلظة مشوبة بصدق الحديث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحين هددهم وزجرهم؛ ولعلمه عنهم هذا الذي أنف، ولأن الزجر أحيانا يكون داعية خير للمستقبل، وحين يرسله المرسل، وعلى وجهه، وفي وقته وزمانه ومن محله أيضا، ولأن بعض النفوس، وحين يعلوها كبرها، وإنما هي بحاجة إلى مثل

هذا التهذيب، ولكنه تهذيب أجل خيرهم هم، وقبل خير لأحد آخر، وهذه من شفقة هذا النبي صلى الله عليه وسلم أيضا، وحين قال لهم رسول الله ﷺ: «لو أن خالدا لم يكتب إليَّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا، لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم».

ولكن القوم قد كانت لهم جرأتهم، ومن إجابتهم، ولكنها مشوبة بصدق الحديث والحق والعدل والنصفة، وهذا الذي حمده فيهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كان ردهم: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا.

قال: «فمن حمدتم؟» قالوا: حمدنا الله الذي هدانا بك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «صدقتم».

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم قد كان ماهرا باهرا، وحين سألهم وبم كانوا يغلبون من يقاتلهم، وحين أجمعوا أمرهم على أنهم كانوا يغلبون من قاتلهم باثنتين عظيمتين حسن التنويه بهما، ولأن هذا عمل حفظه لهم التاريخ، ولكل أمة، وحين يجتمعون على أصلين عظيمين أيضا:

الأصل الأول: هو الاجتماع، وعدم الفرقة، وهذا إجماع تاريخي صائب، ولما كان الأمر كذلك، فدل على أهمية الاجتماع وقيمة الاصطفاف؛ لمواجهة الظلم والكيد، ولأن الاجتماع كله خير، ولأن الفرقة كلها شر. ولهذا السبب جاءت أوامره تعالى ونواهيه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة في مجموعها، ومن حيث كونهم جماعة، وحين يأمرهم ربهم بفعل الخير، أو حين ينهاهم ربهم عن فعل الشر.

الأصل الثاني: وهو كونهم لا يظلمون أحدا! وهذه كلية قمنة بالدرس والمعالجة، ورغم أن الناس كانوا كفارا، وإلا أنهم كانوا لايظلمون أحدا! وبل يعدلون، وهذا الذي ضمن لهم بقاء سلطانهم هذا الأمد، وهذا الذي أبقى لهم ذكرهم وإلى الأبد! وحين

سجل لهم التاريخ أن قوما كانوا يعدلون ولا يظلمون، هم أولاء بنو الحارث من نصارى نجران، وها هو خبرهم خبر العدل والنصفة وعدم الظلم، وإذ نتدارسه كابرا عن كابر.

وهذه رسالة عظمى، وهي أمانة كبرى، وحين لم يقم الكون كله إلا على هذين النقيضين معا، وأن تعدل وألا تظلم! وهذا الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقرهم ويصدقهم، وتوقيعا بصحة كلامهم هذا، وحين قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله، إنا كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحدا بظلم. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لهم: «صدقتم».[(١)]

ثانيا: البعث إلى اليمن: يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا

هذا أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأبي موسى عبد الله بن قيس، وكذا معاذ بن جبل رضي إله تعالى عنهما، وحين بعثهما إلى اليمن، وكان اليمن مخلافين، فقسمهما بينهما، تعليما لأهلهما، وتذكيرا أيضا.

ولكن هذا الدين، ولأنه يسر فقد أمرهما النبي صلى الله عليه وسلم بسلوك كل سبيل يسر ممكن، واستدبار كل طريق عسر ممكن أيضا، وبأنه الله تعالى قال ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وكان من أمره صلى الله عليه وسلم لهما بأن يتفقا ولا يختلفا، ولأن الاتفاق خير أبدا، ولأن الاختلاف شر أبدا، وهذه عبقرية هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين رد الأمر إلى بعض من الطبائع، وما جرت به العادة من بروز بعض الاختلاف في وجهات النظر، وهذا الذي يسمونه اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد، وإذ كان الأول ممكن وروده، وإذ كان الثاني قد نهي عنه أيضا، ولأن هذا النوع

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/٣٨٦

من الخلاف، وإذ يكاد يعصف بأمة كان من سبيلها قض مضاجعه، وإغلاق ملفاته، ولأنه سوس ناخر في جسدها، وليس يكاد وإلا أن يساقط بابها هذا؛ ومن نخر سوسه فيه، ولهذا جاء الأمر حازما، ومن قوله صلى الله عليه وسلم: وتطاوعا ولا تختلفا.

وهذا الذي حدث، وحين جاء معاذ بن جبل على مخلاف أبي موسى، ورأى رجلا قد جمعت يداه إلى عنقه، وحين سأل عنه، أخبره بأنه رجل قد ارتد بعد إسلامه، وحينها أدلى معاذ بأنه لن ينزل عن بغلته، حتى يقتل هذا المرتد، وليجيبه أبو موسى، وأنه ما جاء به إلا لذلك، وحين قتله نزل معاذ!

ولكن وقفة ههنا، فالتيسير وعدم التعسير، والاتفاق وعدم الخلاف، وكل هذه الطيبات، لا تعارض بينها وبين حسم، اذا حل أوانه، وبين حزم اذا جاء زمانه، فهذا هو حد الردة، ويطبق وينفذ على مستحقه، ولا منافأة، وكما أنف بين هذا وبين التيسير وعدم التعسير.

وهذه وقفة إيجابية من ايجابيات هذا الدين، وإذ ليس يتأخر، وحين لزم التقدم، وإذ لا يقف متفرجا، وهكذا يرتد من يريد، وهكذا ينكص من شاء.

ولكن هذين الصحابيين، وقد كانا من تربية مدرسة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد تحادثا بخصوص قيام ليلهم وقراءة وردهما، وهذا شأن قراءة القرآن الكريم، وحين كان هاديا شافيا، وهذا شأن قيام الليل، وحين كان حاديا، ولما أضحيا زادا للقلوب، وعونا للولاة، على أداء مهامهم.

وأنت قد اطلعت على هكذا برامج أولاء القادة، ولتعرف طريقة تبلغهم، واستزادتهم من معين قرآنهم، ولتدرك طريقة تزكية أنفسهم لأنفسهم بذلكم، ومع ما

تضمنه ذلكم من قيام ليلهم، ولم تمنعهم مسؤولياتهم الجسام من الاستزادة هذه، ولأنها حقا هي الزاد الحقيقي، ولمواجهة أعباء قيادتهم ومسؤوليات رئاستهم.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال: واليمن مخلافان، ثم قال: يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، فانطلق كل واحد منهما إلى عمله، وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه كان قريبا من صاحبه أحدث به عهدا، فسلم عليه، فسار معاذ في أرضه قريبا من صاحبه أبي موسى، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه، وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس، وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه، فقال له معاذ: يا عبد الله بن قيس، أيم هذا؟ قال: هذا رجل كفر بعد إسلامه، قال: لا أنزل حتى يقتل، قال: إنما جيء به لذلك، فانزل، قال: ما أنزل حتى يقتل، فأمر به فقتل، ثم نزل، فقال: يا عبد الله، كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوقه تفوقا، قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي. [١].

ثالثا: كل مسكر حرام

عن أبي موسى الأشعري: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن، فسأله عن أشربة تصنع بها، فقال: وما هي؟ قال: البتع والمزر. فقلت لأبي بردة: ما البتع؟ قال: نبيذ العسل، والمزر: نبيذ الشعير- فقال: كل مسكر حرام. [٢]

(١) صحيح البخاري : ٤٣٤١
(٢) صحيح البخاري: ٤٣٤٣

وهذا حديث أصل في تحريم كل مسكر؛ ولأن الله تعالى، وإنما أنزل في كتابه تحريم ذلك؛ ولما فيه من ضرر على العقول فيذهبها، وعلى المروءات فيقتلها، وعلى الديانات فيهدمها، وعلى المحرمات فيستحلها، ولأن الله تعالى قد أكرم بني آدم خلقة، وسواهم صورة، وهذه المسكرات، وإنما تذهب بعقول من ابتلوا بها، فتراهم ويكأنهم بهم، وتحسبهم ويكأنهم نَعَمٌ!

والنبيذ هو الانتباذ، والنبيذ هو ما يصنع من نقيع الثمر، مثل: البلح، أو العنب، أو الشعير، أو الذرة، أو العسل، أو غير ذلك، فيترك النقيع حتى يحلو أو يختمر، ثم يشرب، وربما يغلى بالنار حتى يذهب بعضه، ثم يشرب، ومنه ما ليس يسكر، وحين لم تطل فترة انتباذه حتى يتخمر، وهذا ليس بمسكر، وبالتالي فليس حراما. ولهذا السبب جاء قوله صلى الله عليه وسلم: كل مسكر حرام، وقاطعا في أن العله تدور مع معلولها حيث دار. فحيثما تحقق السكر، تحققت الحرمة، في قليل أو كثير، وحيثما انتفى السكر انتفى التحريم، في قليل أو كثير أيضا. ولحديث: ما أسكر كثيره فقليله حرام.[١]

وكل مسكر حرام، وسواء سمي باسم الخمر، أو قد أسماه الناس بأي اسم آخر.

ولحديث أخرجه الإمام ابن ماجه رحمه الله تعالى في صحيحه، وصححه الأباني(٣٢٦٣)، عن أبي مالك الأشعري، أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قال: ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يعزف على رءوسهم بالمعازف، والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير.

---

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٥٦٢٣

رابعا: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر مسجدي هذا وقبري.

كان في بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معاذا بن جبل رضي الله تعالى عنه إلى اليمن، وعلى ما يبدو تلخيصا لأصول هذه الملة الحنيفية السمحة الغراء الإسلام الحنيف الخالد، وحين أمره ببلاغ عام بالإسلام العام، ومن بدئه بالشهادتين، ولأنهما المدخل الأول والأوحد لهذا الدين، ومن ثم ينظر فيما خلا ذلك، ومن بعده، ومرورا بالصلاة، ومن بعد هاتين الشهادتين، ثم أداء الزكاة، وكذا عدم التعدي، واتقاء دعوة المظلوم؛ فإنها ليس بينها وبين الله تعالى حجاب.

ولكن سببا أعظم كان من وراء هذا التلخيص لأصول الملة هكذا، وحين استشعر هذا النبي العربي الأمي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لاحق بربه عامه هذا!! وحين أبلغ معاذا بن جبل رضي الله تعالى عنه بقوله: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر مسجدي هذا وقبري.

وهذا علم آخر ضاف من أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه قد جاء أمره تعالى له عامه هذا، ولما لم يلحق معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، وعلى حد حسابات العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، وقد وقع هذا وبعد إحدى وثمانين يوما ومائة، كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحيث مصير كل حي، وحيث نهاية بني آدم، بأبي هو وأمي ونفسي صلى الله عليه وسلم. وحين قال: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر مسجدي هذا وقبري! وحين ذلك بكى معاذ خشعا لفراق رسول الله ﷺ.

ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم كان قد بين أصل الولاء بينه وبين أمته، من رآه، ومن لم يره، وحين جعل التقوى هي أساس عقد هذا الولاء، وبقوله صلى الله عليه وسلم: إن أولى الناس بي المتقون، من كانوا، وحيث كانوا.

ولكن معاذا بن جبل هذا كان، وكما مسلم غيره، وإذ تدمع عيناه، وحين سمع كلام رسول الله ﷺ هذا أيضا، وحين وقع بكاؤه هذا؛ خشعا لفراق رسول الله ﷺ.

خامسا: لا تبك يا معاذ للبكاء، أو إن البكاء، من الشيطان.

هذا نهي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معاذا بن جبل رضي الله تعالى عنه، وحين بكى رضي الله تعالى عنه، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري.

وإنما بكى معاذ خشعا لفراق رسول الله ﷺ. وهذا يوم أن بعثه إلى اليمن، ليدعو أهل الكتاب هناك إلى الإسلام.

ولكن النهي هنا محمول على ما كان فيه صوت، ولأنه صلى الله عليه وسلم بكى غير مرة، ومنه بكاؤه يوم موت ولده إبراهيم.

فعن أنس بن مالك **دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سيف القين، وكان ظئرا لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم، فقبله، وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يا ابن عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى، فقال صلى**

الله عليه وسلم: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون. [١].

ولكن وقفة أمام تواضع هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحين كان معاذ راكبا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا ويوم بعثه إلى اليمن هذا!!

فعن عاصم بن حميد السكوني، أن معاذا لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم خرج معه النبي صلى الله عليه وسلم يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري. فبكى معاذ بن جبل جشعا لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تبك يا معاذ للبكاء، أو إن البكاء، من الشيطان. [٢].

سادسا: فقد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم يقاتلون على الحق مرتين.

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، ويوم أن بعثه إلى اليمن، ومن ثم كان وصفه لأولاء أهل اليمن أنهم رقيقة قلوبهم، وأنعم بهذا وصفا للقوم! وما أجملها خليقة! وأن يتخلق العبد برقة القلب، ولين الفؤاد، ولأن هذا اللين يبعث في الناس فعلا حسنا، ويكأنهم رحماء بينهم، وكذا نبضة بالحنو والحنان، وإنه لتعدو الرحمة وكثمرة من ثمرات هذه الرقة.

والواقع أنه هذا أمر مشاهد في هذه البلاد، ولازال، وعن تجربة ومعاينة ومعايشة.

---

(١) صحيح البخاري: ١٣٠٣

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٢١٥٧٧

ولكن العجيب أنه كان هذا وصفا لأهل اليمن، وهم لا زالوا كفارا! وبه فيمكن أن يوجد قوم كافرون وهاهم يتخلقون بمكارم الأخلاق، وإذا ما أسلموا، تراهم وكأنهم صنف ملائكة يجوبون الطرقات!

ولكن العجب وأنه لا مناقضة بين رقة قلب وجهاد في سبيل الله تعالى، وهذا يعد من قبيل التفرد في الصفات والنعوت، وإنه ليحسب من قبيل التقلب بين المكارم والفضائل، وحين تكون النفوس مغمورة بين الشمائل، فلا تعوقها رقتها عن جهاد، ولا يقعدها جهادها عن رقتها!

لكن الفن الإداري النبوي ههنا، وإذ أمر معاذا أن يشكل قاعدة إيمانية صلبة، هذه القاعدة الإيمانية وبوصفها هذا، تكون بمثابة قوافل الانطلاق لمجاهدة أقوامهم، وحين يعرضون عن الحق، ولأنهم بلسانهم ينطقون، وبلغتهم يتكلمون، وعنهم يَفهَمون، ويُفهِمون، وهذا فن عسكري مجيد، وإذ إن أرض المعارك يعلمها أهلها، وحيث إن منطقة مسرح العمليات يسبرها قاطنوها. ولهذا السبب تجد عمليات تصدير الجند من بيئاتهم التي سبروها، وإلى محلة لم يألفوها، وحيث يكون ذلكم عاملا حاسما من عوامل كبوتهم وانهزامهم وفرارهم.

وهذه مدرسة الإسلام العسكرية، وحين أسسها هذا النبي العربي القرشي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكنه صلى الله عليه وسلم، وحين كان من أمر الجهاد هذا السمو، وحين أمر معاذا بالاستعانة بأولاء قوم، وحين يقاتل من عصاه منهم بمن أطاعه منهم أيضا، ومرتين، وفي هذا إصرار على معاودة الجهاد، والصبر، والمثابرة، في الله تعالى، وحتى ينكأ في عدو، ولما يثخن في مشرك من عتو.

ولكن هذا فأل نبوي كريم آخر، وحين تشوف النبي صلى الله عليه وسلم إسلام القوم وجوههم لله تعالى رب العالمين، ومن بعد جهادهم، وحين ذلك تلملم الأمة جراحها، وحتى تعود المرأة إلى زوجها، والولد إلى والده، والأخ إلى أخيه، وهذا الي يسمونه في علومهم بالمصالحة الوطنية، وهذا أساسها في الإسلام الحنيف الخالد، ولكنها على أسسها الشرعية، وعلى أصولها الايمانية، وهذا الذي ينبغي عمله طريقة وسلوكا، وكيما يكون الناس على سواء، ومن ثم فيضمنون لهذه المصالحة الثبات والاستمرار.

ولهذا السبب؛ ومنه كان هديه صلى الله عليه وسلم، إنزال السكون والسلام بين المتخاصمين، وحين تغمد الرماح، وتغمد أسنة السيوف، ويحل السلم، ويعم الأمن، وهذه وظيفة الإمام، وأن يكون داعية سلم بين الرعية، وأن يكون صاحب أمان بين المحكومين.

وهذه سياسة الإسلام الشرعية، في رسم العلاقة بين الراعي والرعية، منهجا رشدا يحتذى، وسبيلا قويما يقتدي.

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان قد أمر معاذا وعند انتهاء معامع الجهاد وأن ينزل بين الحيين السكون والسكاسك، وهما بطنان من قبيلة كندة اليمن، ولعل هذا فصلا بين الفريقين؛ ولضمان إحلال السلام بينهما، والله أعلم.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن معاذ أنه كان يقول: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقال: لعلك أن تمر بقبري ومسجدي، وقد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم، يقاتلون على الحق، مرتين، فقاتل بمن

أطاعك منهم من عصاك، ثم يعود إلى الإسلام، حتى تبادر المرأة زوجها، والولد والده، والأخ أخاه، فأنزل بين الحيين: السكون والسكاسك.[١]

سابعا: امتناع السجود لغير الله تعالى

وحق الزوج عظيم

لو كنت آمر أحدا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها!

هذا حديث صحيح رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا حديث جامع؛ ولأنه أبان أن السجود ليس يكون إلا لله تبارك وتعالى، وأن السجود؛ ولأنه عبادة محضة لله تعالى، فكان صرفها إلى غير شركا أكبر مخرجا عن الملة. وهذا أمر جد متواتر معروف.

ولكن معاذا بن جبل رضي الله تعالى عنه، وحين قد أرسله النبي صلى الله عليه وسلم؛ أن يدعو قوما إلى الإسلام، وكانوا نصارى، إذ كان من عاداتهم أنهم يسجدون لأساقفتهم! وإذ كان منه أن قلد عملهم، وحين سجد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وإنما ولجهله، ولتأثره بعادات القوم ممن حوله، وظن أنه يجوز ذلك؛ ولأنهم أهل كتاب، ولربما عندهم علم ما لم يعلم معاذ، وبالتالي فقد كان تقليده لهم ونابعا من هكذا تأويل وظن، وضح بعد أنه تأويل غير سائغ، وعلم بعد أنه ظن في غير محله، وحين نهاه النبي صلى الله عليه وسلم، وبقوله هذا: لو كنت آمر أحدا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها.

---

(١) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٢٢٠٥٣. خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف.

وهذا أدب النبوة في البيان والتذكير بالحكمة والموعظة الحسنة، وأخذ الناس بكريم القول ولطف البيان. وحين يقع هذا من معاذ، والفرض أنه عالم؛ دلالة تأميره، وعلى قيام بالدعوة إلى التوحيد، وأمام النصارى، والفرض أيضا أنه ليس يخلو الأمر من لجج وحجج، وما بالنا إذن بمن هم أدنى منه مرتبة علما وفقها ودرسا ودراية؟

ولكنه قد دار خلاف في المقصود بأهل الكتاب أولئك، أهم كانوا أهل اليمن، والفرض أنه رضي الله تعالى عنه لم يلحق بنبينا؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قد قابل ربا غفورا رحيما، أم أن المقصود بهم نصارى الشام، والله أعلم.

ولكن الحديث أوقفنا على كم هو حق الزوج على زوجته، تلك المرأة الكريمة، وحين أكرمته، وهذه الزوجة الراضية، ولما أرضته، ولتنشئة بيت قائم على الود والصفاء والنقاء والمحبة والرحمة. ولأن ذلك ومن عظم حق الزوج على زوجته دينا.

ولكن الحديث فيه لفتة نحوية بليغة، وحين كان من شأن لو هذه الامتناع لامتناع. ويكأنه وحين كان امتناع أن تسجد المرأة لزوجها؛ ولعظم حقه عليها، ولو جاز، فكذلك يمتنع السجود لغير الله تعالى لبشر، ولو كان كائنا من كان عهده وعرفه وشيمه وقيمه وأخلاقه وآدابه وموقعه ومكانته ومنزلته وسلطانه؛ ولأن هذا السجود، ولأنه عبادة، ومن ثم فلا تصرف وجوه العبادة إلا لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

ثامنا: مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله.

هذا حديث رواه الإمام السيوطي رحمه الله تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا الحديث، ولطالما كان الإسلام الحنيف الخالد يدور عليه، ومن حيث كان الناس في جاهلية عميقة، ألبستهم ثوب الذل، وكستهم كساء المهانة، وحين كانوا عبيدا

لبعضهم بعضا، ولما كانوا يشربون كفرهم، وكما يشربون ماء مالحا ليس يكاد يروي من ظمأ، وليس يكاد يغني من جوع، وحينما كانوا يعبدون حجرا صخرا، ليس يملك شيئا، لا عن نفسه، ولا عن غيره تبعا.

ولكن هذين الجانبين، وحين ابتليت بهما البشرية يومها ذلك، أو أي يوم آخر، فإنما توحل أنفسها في وحل يغوصون فيه، وليسوا هم بخارجين منه، وإلا أن يخلعوا عن أنفسهم ثوب المذلة ورداء المهانة، وحين يستبدلون بذلكم أردية العزة بعباده الله تعالى وحده، وبحيث يكون منهجه تعالى هو المهيمن، بل هو الأوحد ولا منهج يتلقى الناس عنه سواه، وحينئذ يكونون عبادا لله تعالى مولاهم الحق المبين، ومن غير ذلكم فليست تكون شهادة ألا إله إلا الله إلا قولا مفرغا من حقيقة شاهدة عليه وله في الواقع، وليس يكون الناس وبهذا الذي يقولونه أو يدعونه أو يزعمونه إلا قولا مفرغا من برهان، وإلا زعما يعوزه الدليل، وإلا ادعاء مفتقرا إلى موجب.

وهذه كلية الكليات وجامعة الأصول، وحولها جاء هذا الإسلام الحنيف الخالد مدندنا، ولأجله تنزل قرآن كريم يوضحها ويثبتها ويؤكدها يوما ومن بعد يوم آخر، ولأن فيه العزة كل العزة للناس، وحين يتخذون إلها واحدا، منه يستقون الأوامر، ومنه ينتهون عن الزواجر، لا مجالس هنا أو هناك، أو هيئات هنا أو هناك أيضا، وإن هي في الحقيقة إلا أردية تخفي ومن ورائها ذلكم الذي جاء الإسلام الحنيف الخالد بإبطاله وكنسه وإزاحته، ولأنه شوك يعوق مسيرة البشرية نحو عزتها وكرامتها وإبائها.

وهذا قول، وأيما يكون القول، وهو قول موجز، وأيان يكون الإيجاز! وإنما يحسب لهذا الدين هذه البساطة في عرضه عقيدته، وحين كانت هكذا: لا إله إلا الله. أي لا أمر إلا أمره، ولا نهي إلا نهيه تعالى، وكذا نبيه وعبده ومصطفاه من خلقه نبينا

محمد صلى الله عليه وسلم. وحتى هو نفسه هذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر من شيء! وهذا تحقيق لصفاء هذه العقيدة ونظامها ونقائها، ومن حيث كانت مصوبة نحو تعبيد الناس لإله واحد هو الله تعالى العزيز القهار سبحانه، وحينها يكون الناس جميعا أمامه سواسية، ولا فرق لهذا على ذاك إلا بالتقوى والعمل الصالح. وما أجمل هذا الذي قاله ربعي بن عامر رحمه الله تعالى وهو إذ كان واقفا عزيزا أبيا، وأمام رستم: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله، قالوا: وما موعودُ الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: مفاتيحُ الجنَّةِ شَهادةُ أن لا إلَه إلَّا اللَّهُ. [١].

ولكن هذا الحديث جاء وبلفظ آخر على معناه، وعن معاذ بن جبل، وحين قال صلى الله عليه وسلم: ما من نفس تموت تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجع ذلك إلى قلب موقن إلا غفر الله لها. [٢].

---

(١) الجامع الصغير، السيوطي:٨١٧٢. حكم المحدث: ضعيف.

(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٣٠٧٨.

تاسعا: يا معاذ اتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن

هذا حديث صحيح رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى. وقد رواه من وجه آخر، وبزيادة قوله صلى الله عليه وسلم: اتق الله، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.

وإنما جعلت تقوى الله تعالى هي الأمر كله، ولما كانت هي الفعل بأمره تعالى، والانتهاء عن نهيه تعالى، وإذ كانت تمثل هذه التقوى هي العام، ومن ثم يعتبر ما تبعها من قبيل ذكر الخاص بعد العام. ودلالة أهمية هذا الخاص، والذي كان منه اتباع السيئة الحسنة تمحها، وهذا ارتقاء بالنفس العالية، وبحيث يمكنها غض الطرف تماما عما يمكن أن يقع من الناس، وكأن لم يحدث هذا الذي وقع! وحين يكون مسبوقا بتقوى من الله تعالى، تسوق صاحبها سوقا إلى ذلكم العفو والصفح، وأن ليس ذلك فحسب، بل وتتبع سيئة ارتكبت بحسنة تمحو هذه السيئة، ومن جانب آخر تجعل من هذا الذي حدث ماء وبردا، وهذه من فضائل هذا الدين ومهاراته، وحين يجعل مما يحدث بين الناس وهو أمر وارد تماما، وحين تجبره الحسنة وتمحوه، ومن بعد سيئة، ولما تصهره الطاعة، وحين ألهبته المعصية السيئة!

ولكن هذه السيئة، وإنما تحدد بمقياس الشرع، لا غيره، ولأنك ترى قوما يذنبون، وحين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإذ بك تراهم يزعمون أنك تفعل عكسا، وترتكب نقيضا! ولهذا يكون المرجع هو الشرع في تحديد ما هو حسن وما هو سيء.

ولكن هذا الخلق الحسن، ولطالما أوصى به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الناس أجمعين، ولأنه زين، ولأنه مما يجدر أن يكون أثقل بميزان العبد يوم القيامة،

ولأنه سبب موجب أن يكون العبد أقرب مجلسا من نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في الجنة، وبأنه الله تعالى جعل هذا الخلق الحسن شارة ودلالة وعنوانا على هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قال الله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

فعن أبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه: اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.[1].

عاشرا: تذكير قبل الرحيل!

كان في بعثه صلى الله عليه وسلم معاذا بن جبل رضي الله تعالى عنه إلى اليمن وعلى ما يبدو إيجازا لأصول هذا الدين الحنيف وتذكيرا به، ولعل هذا أيضا مما استشرفه صلى الله عليه وسلم من قرب لحاقه بربه تعالى، ومن ثم أراد أن يأمر ويذكر وبما أتى به، وفي لملمة لأوراق دعوة طال بها الزمن ثلاثة وعشرين عاما كاملة. وإذ كانت كثيفة عميقة سخية الأداء.

وها نحن الآن بين يدي هذا الإيجاز، وإذ نقدمه أيضا على مائدة التذكير، ولعل الله تعالى أن يشرح به الصدور، وأن ينفع به. زادا على الطريق، وعونا على الخير والسداد والرشاد.

وبين يدَيَّ الآن حديث قد تضمن ثمانية أصول نافعة:

الأصل الأول: هو ذلكم توحيد تعالى: وإفراده سبحانه بالعبودية، وألا يشرك معه من أحد، ولطالما كان تذكيرنا بهذه الحقيقة السرمدية أبدا؛ ولأنها وما جاء هذا الإسلام الحنيف الخالد إلا دورانا حولها وفي فلكها، وذلك لأن الشيطان أحرص على

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ١٩٨٧

أن يجتال بني آدم عن الجادة، وأن يوقعهم في المهالك، وألا يقربهم من دروب الهدى والمسالك، وأن يفتنهم عما جاءهم من الهدى والنور والسرور والحبور، وزين لهم أعمالا، هي في الواقع ويكأنها ليست دينا إلا دين إبليس اللعين، وبالتالي فالانتهاض بالتذكير بها واجب شرعي، ويسأل عنه من به قدرة على بيانه، وفي وسط هذه البلبلة، والانصراف عن الحق القديم، الذي هو العلم بالله تعالى العلي الأعلى، ربا خالقا ورازقا ومحييا ومميتا ومنزل المطر سحا غدقا مجللا.

ولكنك قد لا مس البيان شغاف قلبك، ولما قد أوقفنا القرآن الحكيم على هذه الحقيقة السرمدية، وأنه ولأنه تعالى هو الخالق البارئ المصور، فكذلكم كان له تعالى، وليس لغيره، ذلكم الأمر والنهي، وحين قال الله تعالى ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٣و١٤]. وهذا ربط بين كونه تعالى خالقا، وبين ما استلزم ذلك من كونه لا يليق أن يتخذ من دونه وليٌّ؛ ولأنه تعالى كيف يطعم، وها نحن ندور في فلك أمر غيره، ونهلك أنفسنا دورانا في سلك نهي سواه؟!

وهذا بيان قرآني كريم آخر، ومن سلسلة بيانات القرآن الحكيم، في رسم هذه العلاقة المتينة الضابطة المحكمة، بين كونه خالقا مدبرا، وبين لزوم عبادته وحده دون ما سواه؛ ولأجل هذه الحقيقة السرمدية، وإذ يعد الفصل بينهما انقلابا على السنن الراتبة، وانخزالا عن أصول الحكمة والعقل السليم! وحين قال الله تعالى أيضا ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٨و٣٩]. وهذا رسم آخر للعلاقة بين

الاعتراف لهذا الرب الكريم، ومن علم البشر، مؤمنهم وكافرهم معا، وأنه تعالى هو خالق هذه الأمم التي هي أمم أمثالنا! وإذ نراها بأم أعيننا، ترفرف في السماء بأجنحتها، وما يمسكها إلا هذا الرب الرحيم الرحمن، أن تقع على الأرض، وإلا بإذنه سبحانه أيضا! وبين كون أن ذلك مستلزم عقلا، وألا يكذب بآيات الله تعالى، ومن أمره ومن نهيه أيضا أيضا!

وبالتالي كان من لوازم ذلك الاعتراف له بالقيومية، هو هذا السلطان لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، من إفراده تعالى بالعبودية، ودون ما سواه، وفي الذي دق أو في الذي جل. وكيما لا يصرف شيء من وجوه العبادة إلا إليه تعالى وحده، ومن خوف ومن رجاء ومن دعاء ومن استعانة، ومن أمر ونهي، وحكم وتشريع، وإعمال ذلكم كله في واقع الناس.

وهذا هو الذي جعل نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وبأمر ربه تعالى، أن يعلن هذه المفاصلة في أمر العقيدة، والتي ليست تقبل إلا ذلكم الفصل والحسم والجزم، ومن حيث كانت مقدمات صحيحة، وإنما لزم وأن تفضي إلى نتائج صحيحة عقلا أيضا، وإنما هذه المقدمات، وتلكم النتائج، كان إيجازها، ومن قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:٥٦].

ثم ما استلزم كل ما أنف إفراده تعالى من أسمائه وصفاته، وعلى الوجه الذي يليق بجلال وجهه تعالى وعظيم سلطانه سبحانه، ولأنه تعالى متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته. ولأنه الله تعالى؛ ومن موجبه، يكون هو الآمر وحده، والناهي وحده أيضا.

ويكأنك تلحظ ربطا محكما آخر وبين استحقاقه تعالى بالعبادة ودون ما سواه وحين جاء ذلك وسطا بين ذكر آلائه تعالى ونعمه، وحين قال الله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ * قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ * وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٥٩-٧٣].

ولأنك رأيت ذكرا لآلاء ربنا الرحمن من الآية التاسعة والخمسين، وإلى الآية الثالثة والستين، ومن ثم رأيت انعطافا قرآنيا حكيما إلى مسألة العبادة وكونها لا تصح عقلا ولا شرعا وإلا أن تكون لله تعالى وحده، وبناء على هذه المقدمات العقلية البحتة، ومن ذكر هذه الآلاء والآيات الباهرة المنظورة، والتي ليست بمعزل عن أحد، وليست بحاجة إلى معامل بحث ومعادلات، وقد يعرفها هذا، ولربما لم يعهدها هذا الآخر أيضا! وثم قد رأيت الآية الثالثة والسبعين، وقد أحكمت هذه العلاقة أيضا، ومن بعد ذكره تعالى وتذكيره، وبقوله سبحانه مرة أخرى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

ويكأننا نلحظ هذه العزيمة على هذا الأمر، وحين نهى صلى الله عليه وسلم معاذا بن جبل رضي الله تعالى عنه عن الشرك، وإن قتل أو شرد. وفي دلالة على أن هذا الدين ذو تبعة، ومن تبعته بيانه على الوجه الذي جاء به، والصبر على الابتلاء فيه، وأن نستحضر معا قول الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣]. وأن نسترجع معا قول ورقة بن نوفل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين جاء بالإسلام أول مرة: ما جاء أحد بمثل الذي جئت به إلا عودي.

فعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: **أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق**

الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم} [العلق: ١- ٣]. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي. وقال: يونس ومعمر (بوادره) [١].

---

(١) صحيح البخاري: ٣

وشاهده قول ورقة بن نوفل: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي.

ولهذا السبب فإن المواجهة بالحق دين وإن الصبر على البلاء فيه تعالى أيضا وإن هذا الدين ذو موجب ومن موجب هذا الابتلاء كان هذا الصبر، وهما متلازمان!

الأصل الثاني: هو ذلكم إقامة الصلاة: وعلى وقتها وصفتها وأن الله تعالى قد برئت ذمته من عبد تركها عمدا.

الأصل الثالث: هو بر الوالدين: وإن كانا مشركين. وعدم العقوق بهما من قول أو فعل أو إشارة .

الأصل الرابع: هو اجتنابه الخمر: شربا أو تصنيعه أو بيعا أو شراء ولأنها أصل كل خطيئة.

الأصل الخامس: اجتناب المعاصي ما ظهر منها وما بطن: ولأن العبد خلق لعبادة مولاه تعالى وحده ولأن المعصية لها ظلمة في القلب والبدن وتكاد أن تعصف بصاحبها وحتى إذا أمكن منه كان أشبه بألعوبة بين يدي شيطانه يركله هنا مرة ويرمي بها هنالك مرة أخرى وليس يكاد يشعر بإنسانيته وليس يكاد يعيش آدميته سويا وعلى صراط مستقيم!

الأصل السادس: عدم الفرار يوم الزحف: وحين نادي منادي الجهاد وأن حي على الجهاد ولأنه تعالى وحين يحل أوان هذا الجهاد وقد حان وقت البيعة وعلى شرطها وحين كانت يوم العقبة الثانية وحين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

الأصل السابع: هو الثبات على الفتن والابتلاءات والمصائب: ولأن هذا من موجب هذا الذي كتبه ربنا تعالى وقدره وإنما كان الصبر على ذلك دينا ولأن النبي صلى الله عليه وسلم ثال: يأتي على الناس زمان القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر.

الأصل الثامن: الإنفاق على العيال احتسابا: ولأن هذا واجب شرعي وإنما كان حقا لأولاء الأبناء وأن ليس لأحد فيه من فضل ولا منة دينا وإن أثيب على ذلك وأجر أيضا. وهو من العول ويدخل فيه كل من لزمت نفقته عليه.

فعن معاذ قال : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات قال : " لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا؛ فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمرا ؛ فإنه رأس كل فاحشة. وإياك والمعصية؛ فإن بالمعصية حل سخط الله عز وجل، وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس، وإذا أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت، وأنفق على عيالك من طولك، ولا ترفع عنهم عصاك أدبا وأخفهم في الله "

حادي عشر: «إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»

هذا أسلوب تحذير، والمحذِّر هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والمحذَّر هو عموم المسلمين، وإن جاء في صورة خطاب لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، والمحذَّر منه هو التنعم.

وهذا الذي يجعلنا نقف ونعجب من أحوالنا ومن حولنا، ولأنه هذا التنعم مقعد عن عمل، وهو داعية بذخ وترف، وهو موجب دعة وقعود، ولربما أردى

بصاحبه، ولربما حمله على بطر، ولربما راح به أن عد نفسه من كوكب والآخرين من كوكب آخر!

ولهذا جاء هذا النهي عنه، وبصورتي التحذير والاختصاص، وليس نهيا وحسب، وكما من استعمال أداة النهي (لا)، ولأنه ولئن كانتا صورتين من صور النهي حقا، وإلا أن أسلوب التحذير هذا يشي من البلاغة في البيان، وما ليس يؤديه أسلوب النهي سالف الذكر، ودلالة عمل هذا التنعم في صاحبه، وإقعاده، وإكساله، وعلى نحو مما مضى آنفا، ولهذا جاء في الحديث الآخر أمره صلى الله عليه وسلم بالاخشوشان، ولأن النعمة لاتدوم، ومن قوله صلى الله عليه وسلم: اخشوشنوا أيها الناس فإن النعمة لا تدوم.

فعن عبد الله بن أبي حدرد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انتضلوا واخشوشنوا وامشوا حفاة، وزاد في رواية تمعددوا. رواه الطبراني وفيه عبد الله بن سعيد وهو ضعيف.[١]

وإذ كان ليس أمرا بهذا وحسب، بل كانت حياته صلى الله عليه وسلم قائمة على ترك التنعم والتزام الاخشوشان.

وقد سبق توا أن هذا التنعم ولربما حمل صاحبه على بطر وكبر وغمط للناس وازدرائهم، وهذا الذي قد يؤدي به إلى هلكته، وحينما ينظر إلى الأغيار من عل!

ولست أروح شططا؛ ولأنه هذا الدين وسط من كل شيء، وحين كانت الوسطية دينا، وأن نعم، ولكن حمل النفس على عدم التنعم من جهة، وأطرها على

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٥ / ١٣٦

الاخشوشان من جهة أخرى أيضا، وهذان عاملان كفيلان أن يثمرا نفسا متواضعة مستكينة راضية مرضية، وبكأنها قد حازت ببساطتها وتواضعها الدنيا بحذافيرها.

ولست أروح بعيدا، بل قريبا، وحين أقرر: وأن نعم، ولأن التوسط والاعتدال من ديننا، ولكنه لابد من تسجيل هذه الوسطية، ومع الأخذ في الحسبان أنه كان لنا نبي قد اتخذ الاخشوشان سبيلا، وليس يقال إنه كان وكان، وعلى ما رووا أنه لبس حلة من كذا وكذا.

فعن ضمرة بن ثعلبة أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعليه حلتان من حلل اليمن فقال يا ضمرة أترى ثوبيك هذين مدخليك الجنة فقال يا رسول الله لئن استغفرت لي لا أقعد حتى أنزعهما عنى فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اغفر لضمرة فانطلق سريعا حتى نزعهما عنه. رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن بقية مدلس. وعن جرير بن عبد الله قال إن الرجل ليلبس وهو عار يعني الثياب الرقاق. رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.[(١)]

ولأن التنعم بالمباح، وإن كان جائزاً، لكنه يوجب الأنس به ثم إن هذا محمول على المبالغة في التنعم والمداومة على قصده فلا ينافيه ما ورد في المستدرك وغيره أن المصطفى صلى اللّه عليه وسلم أهديت له حلة اشتريت بثلاثة وثلاثين بعيراً وناقة فلبسها مرة على أنه وإن داوم على ذلك فليس غيره مثله فإن المعصوم واقف على حدود المباح فلا يحمله ذلك على ما يخاف غائلته من نحو بطر وأشر ومداهنة وتجاوز إلى مكروه ونحو ذلك وأما غيره فعاجز عن ذلك.[(٢)]

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٥ / ١٣٦
(٢) كتاب فيض القدير، المناوي: ١١٩/٣

وهذا قول صدق، ولكنك رأيت الناس قد اتخذوا التنعم قاعدة ومنهجا وسننا، ولكن نبينا محمدا صلى الله عليه، وقد كان غالب حياته ما ئلا عن هذا التنعم، وها نحن رأينا كثيرا، ومما أنف، ومما وقع لنا في هذه السيرة النبوية المباركة، أنه كانت له وسادة من ليف في بيته! وحين أجلس عليها عديا بن حاتم يوم راح إليه للإسلام بين يديه صلى الله عليه وسلم، وهذا مقابلة الذي ذكر آنفا، ولنعلم كم كانت هذه الدنيا في نظر هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم!

ولكن تحذيره صلى الله عليه وسلم من هكذا تنعم؛ لما أنف، وإنما له وجه آخر عظيم، ويكأن العبد وحين يأخذ على يد ذات نفسه من ترك التنعم وأخذ الاخشوشان معا، وإنه بذلك تكون متعلقة نفسه بالجنة أكثر، ونعيمها أوفر وأجدر، ولكنه وحين يكون مستغرقا في هكذا تنعم، ولربما صرفت نفسه عن استشراف ما أعده الله تعالى من نعيم خالد في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

وهذا نبي الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام يأكل الشجر ويلبس الشعر، ويبيت حيث أمسى، لم يكن له ولد فيموت، ولا بيت يخرب ولا يخبأ غداءً لعشاء، ولا عشاء لغداء؛ وكان يقول: كل يومٍ يجيء معه رزقه.[١] .

وهذا هو قول عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: كان ينبذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في سقاء يوكى أعلاه وله عزلاوان ينبذه غدوة ويشربه عشاء، وينبذه عشاء فيشربه غدوة[٢] .

(١) مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور: ٦/٢١٢

(٢) صحيح مسلم: ٢٠٠٥

وقال: العزلاء فم المزادة الأسفل. وقال الخليل: لكل مزادة عزلاوان من أسفلها.[(١)].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبذ له نبيذ الزبيب من الليل، فيجعله في سقاء، فيشربه يومه ذلك والغد، وبعد الغد، فإذا كان من آخر الثالثة سقاه أو شربه، فإن أصبح منه شيء أهراقه.[(٢)].

وفيه ترك شرب النبيذ فيما زاد على ثلاثة أيام، ولاحتمال تخمره.

وقلت: وهذا يرجع الى العادات، فإنه وإن ثبت تخمره، وحسب الأجواء والطقس المحيط أنه تخمر فيما دون الثلاثة الأيام، حرم شربه.

وهذا ليس معارضه ولو من وجه لقوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [الأعراف:٣٢].

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الترجل إلا غبا.[(٣)].

والترجل والترجيل: تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه.[(٤)].

وهذا محمول على التعمق في الأمر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: ألا تسمعون، ألا تسمعون، إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان» يعني التقحل.[(٥)]. أي عدم المبالغة في الهندام والتنعم والصورة. وبه فلا معارضة بينه وبين حديث:

---

(١) تاج العروس، الزبيدي: ج ١٥/٤٨٣

(٢) صحيح النسائي، الألباني: ٥٧٥٥

(٣) صحيح أبي داود، الألباني: ٤١٥٩

(٤) غريب الحديث، ابن الأثير: ٢/٤٩٤

(٥) صحيح أبي داود، الألباني: ٤١٦١

إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.[١] وكذا حديث: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس.[٢]

وعلى كل حال فإن ما سبق حسن وضعه وأمام قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

وثمة لطائف حسن ذكر جانب منها:

١- إن أثر النعمة الربانية على العبد لا يتعارض مع ما أنف، وحين يكون الجمع بينهما، من طريق أن كل ما أنعم الله تعالى به على العبد فإنه من النعم، وليس ينبغي حصر ذلك في ثوب حسن أو نعل حسن، وإنما يمكن أن ينضاف إليه ذلكم الإيمان، ولباس التقوى، ولباس التقوى ذلك خير، وكل ذلك، وحين يكون العبد منه في خير، فإنه يكون من النعم التي يحب ربنا تعالى أن يرى أثرها على عبده.

٢- إن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي قال هذا، والذي قال ذلك أيضا، هو نفسه ذلكم النبي صلى الله عليه وسلم، الذي كان يترجل شعره، وكان يتطيب، ويستاك، ويكتحل، وأن نعم، وهو نفسه ذلكم النبي الذي كان يؤثر الحصير في جنبيه صلى الله عليه وسلم. وانظر قول عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه، يوم أن أجلسه النبي صلى الله عليه وسلم، على وسادة من ليف، وإذ لم ير غيرها يومها!

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٨١٩

(٢) صحيح مسلم: ٩١

٣- إن عموم البلوى بالتنعم والرفاهية، وحتى أصبح الناس، وقد حولوا ما كان سابقا كماليا إلى اعتباره ضروريا، وهذا الذي جعلنا نضرب على وتر الاخشوشان، ولأن الناس وها هم من دنياهم في نعيم مقيم!

ثاني عشر: أرسل إلى هذا الرجل فخذ منه، ودع له

هذا قول عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما؛ ومناسبة مال رآه عند معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، ويوم أن بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، ويأخذ عن كل حالم دينارا! وهذا الدينار هو الجزية، وما أيسره من دين! وحين يكلف الحالم بدفع دينار واحد في العام، ومقابل ذود الدولة عنه، ونظير استتباب أمنه في هذا المجتمع الإسلامي الحني اللطيف، ولما كانت هذه الجزية وبهذا القدر الضئيل، عاملا نفسيا أيضا، ولعل من بعده أن يؤوب الناس إلى الصلاح والهدى والنور والسرور والحبور، ومن ثم لترفع عنهم أصالة، ومن بعد إيمانهم بالله تعالى الغني الحميد.

ولكن معاذا رضي الله تعالى عنه، ولما كان من شأنه معطاء منفاقا باذلا متصدقا، وحتى كان من وصفه أنه لا يرد سائلا أتاه؛ ومنه فقد أصبح غارما، وبسبب أنه راح يستدين؛ ولئلا يرد سائلا! ومن ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ليطلب الدائنين فيسامحوه ويجبروه، وإلا أنهم أبوا ذلك، ولما لم يجد النبي صلى الله عليه وسلم بابا لإجبارهم، بل هي طواعية نفس وسماحة فؤاد.

وهذا الذي حدث على كل حال، ولئن قيل إن الدائنين كانوا يهودا، ولذلك أبوا تلبية النبي صلى الله عليه، ولكننا لسنا نقف على هذا كثيرا، ولأنه ولربما كان هؤلاء الدائنون هم أحوج إلى أموالهم، وبالتالي كان من ذلك رفضهم.

وإلا أن هذا الذي نقف عنده، وأن الإسلام ليس يلزم أحدا بالتنازل عن أمواله، وحين كانت دينا على الآخرين، ولأنه ومن حيث قد أصبح مالا مستقرا دينا في الذمة، فقد أصبح ملكا للدائن، وبالتالي فليست هناك وسيلة لإحراج أحد أن يتنازل عن ماله، وإلا أن يكون عن طيب نفس وخاطر منه، وكيما يبارك الله تعالى في هذه الصفقة، وإن تمت. وهذا هو احترام هذا الدين للذمم المالية لأصحابها. وهذا هو تقدير للملكية الفردية في أنصع أثوابها.

ولكن هذا النبي العربي الأمي الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أراد أن يتبدع صنعة لمعاذ بن جبل؛ ليرتزق من سببها، وحين أرسله إلى اليمن، وعلى ما سلف، وليقوم على تحصيل الأموال المستحقة من أهلها، وسواء كانت جزية من أهل الكتاب الذين بقوا على نصرانيتهم، أو زكاة ممن أسلموا، وحين كانت تبيعا من كل ثلاثين من البقر، وهذا أيضا قدر ضئيل، وإذا قيس تبيع من ثلاثين بقرة! والتبيع ما أتم سنة.

ويكأن هذه الزكاة نماء لأصحابها أموالهم، ويكأنها طهارة لنفوسهم من شح، ويكأنها زاد لقلوبهم من ضن، ويكأنها جبر للخواطر المنكسرة من أولاء الفقراء المحاويج من أفراد هذه الأمة، وحين يجدون ملاذا لهم، وحين حاجتهم، فيعينهم إخوانهم، ويلبون لهم نداءهم، نداء القلب المنكسر؛ ومن حاجة قد ألمت، ومن لمة قد ادلهمت، وما أجمل دينا هذا حسنه، وما ألطف إسلاما هذا لطفه!

ولكنه وعلى ما يبدو فقد كان هذا التكليف من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، وكما أنف وإبداعا لفرص عمل له، ومن بعد عمله، ولعله أيضا لم يجعل له راتبا، بل جعل له نصيبا من عمله هذا، وهذا من براعة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ومن التزامه مواجهة رعيته أيضا، وحين كان الراعي واجبا

عليه إتاحة فرص العمل للرعية، وقدر طاقته أيضا، وكذلك وحين جعل أجره نصيبا مما كلف به.

ثالث عشر: النظرية الاقتصادية في حركة الأمة

وهذه نظرية اقتصادية باهرة في العمل الاقتصادي، وحين يجعل للمكلف نصيب مما جاء به؛ تنشيطا، ودرءا للكسل؛ واعتمادا على راتب يأخذه آخر شهره، وبقطع النظر عن بذله! وهذه النظرية الاقتصادية التي أدت إلى فشل أنظمة الاقتصاد عموما، وحين قامت على إعطاء، ودون بذل مكافئ، وهذا الذي وقف له بالمرصاد هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين فهمنا من عبارة معاذ أنه وإنما كلفه النبي صلى الله عليه وسلم أن يتجر في المال الذي يستحصله من أهل اليمن.

وهذه براعة اقتصادية أخرى، وحين يعمل الراعي على دوران رأس المال، فيتجر فيه، لا أن يودعه خزينة الدولة، ولأنه سيأكل بعضه بعضا، ولكنه، وحين يأمر الراعي باستثمار هذه الأموال المتحصلة، فيكون قد تنشأ مجتمع عامل باذل، وها هي وزارة ماليته تسح مالا غدقا سحا مجللا؛ ومن عمل الدوران، ومن براعة الاستثمار. وهذا شأن عام.

وقد رأينا بعضا من الجمعيات الخيرية تتحصل تبرعات، ولو أحسنت استثمارها لأدت وظيفتها على أكمل وجه وأحسنه، وحين غيرت من وظيفتها وكوسيط للدفع، وإلى مستثمر لصالح طبقات الموسرين والفقراء المعدمين، وبدل أن تنفذ خزائنها تترى، فلا تستطيع تلبية حاجات الناس ومشاكلهم.

وهذه هيئة المحاسبة المالية الساهرة، وحين تمثلت في عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه، وحين أخذ معاذا هذا إلى أبي بكر، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم،

وليأخذ منه أبو بكر هذا المال، وليدع له بعضه وعلى حد قوله: أرسل إلى هذا الرجل فخذ منه، ودع له، وليأبى أبو بكر، وأن يعدل من قرار نبيه شيئا!

ولكن معاذا؛ ومن كثرة قيام عمر الفاروق على رأسه، ولعله رأى من نومه أنه يجر إلى النار، وهذا عمر الفاروق مشفقا عليه! ويذود عنه، وقد ذهب إلى أبي بكر ليرد المال بنفسه! ولكن أبا بكر أبى؛ ولسلامة موقف ذوي العلاقة! وكان من ثم يمكن تأويل منام رآه معاذ هذا، وأنه كان من قبيل أضغاث الأحلام، ومن كثرة تردد عمر الفاروق عليه وإلحاحه. وحتى أصبح الأمر له ملازما وحتى من مناهم أيضا!

وخلاصة ما أنف:

١- كرم معاذ وبذله، وحين كان لا يرد سائلا وأن لو استدان!

٢- حسن خلق معاذ مع الدائنين، وألا يجحد لهم حقوقهم.

٣- معية الله تعالى للمنفق الباذل، وحين يفتح الله تعالى أمامه نوافذ خير شتى؛ ونظير بذله هذا، ولأنه تعالى قال: يا بن آدم أنفق أنفق عليك، وهذا أيضا يقين، وهذا أيضا تصديق.

قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك. وقال: يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض؟! فإنه لم يغض ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع. [١].

٤- عمل الراعي على إنشاء فرص عمل مناسبة للرعية لكفائهم.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٦٨٤

٥- تدوير رأس المال وعدم تركه خزانة الدولة؛ ولأنه هذا التدوير يعمل على سرعة عجلة الدوران، وكيما يعود نفعه، وكما يزداد ربحه، فتستغني خزانة الدولة.

٦- إعطاء الموظف العام نسبة من جهده وجعلا من بذله، وفي هذا تشجيع بإدارة العمل الإداري، وألا يصبح بلية على كاهل الدولة، فتضطر من موجب هذا الاستغناء عن الموظفين، وتسرح العاملين، فتنتشر بسببه الجرائم، وتعم من سببه التعديات!

٧- عمل جهاز المحاسبات على أحسن وجه، وقد تمثل في موقف عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه.

٨- ثبات الإمام مواجهة الادعاء، وألا ينجر وراء كل إشاعة، وقد تمثل في موقف أبي بكر الصلب، وسلامة قرار صائب، كان قد اتخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي هذا استقرار الجهاز الإداري للدولة، وليس يكون أسير التعديلات التي أصابته في مقتل، وكلما جاء مسؤول محا وأبطل وألغى وعدل مما فعله سلفه، فلا تنال الدولة صدقها، ولا تنهض الأمة من كبوتها.

٩- جواز بيع أموال المدين الغارم؛ ولسداد دينه؛ ولأن نفسه معلقة، وإلى حين السداد عنه، ولما كان له مال. ويقسم هذا المال قسمة غرماء، ولو اشتمل ماله كله، وهذا الذي يسمونه إعلان الإفلاس. وهذا أصله في ديننا.

على أن كلاما لطف ذكره، وحسن قوله، وحين رأينا هذا العمل الفردي لمعاذ بن جبل، وحين تصرف في ماله كله، صدقات، وعطاءات، ومنحا، وهبات، وأوجه خير ولا شك، وإذ كان منه عمل أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وحين قد أنفق ماله

كله في سبيل الله تعالى، وحين كان الفاروق عمر على النصف من فعل أبي بكر، وتلك أمة قد خلت.

ولكن طريقا آخر رأيناه، ومن خلال هذه السيرة النبوية المباركة، ويوم عرض كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه، وكذا أبو لبابة، وكذا سعد بن معاذ، وكلهم عرضوا الانخلاع من أموالهم، وإما توبة، وكعمل أبي لبابة وكعب، وإما وقفا وكعمل سعد بن معاذ.

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، قد وقف موقف التوجيه ههنا، ولما عرض عليه الناس وجهتهم، ولتنظيم العمل الاقتصادي في الإسلام، ولأن الناس ليسوا على درجة يقين واحدة، ومن مثل أبي بكر، ومن مثل معاذ، وبالتالي وحين يعرض الأمر على السلطة العامة، فتقف موقفها توجيها، وإن وقفت من معاذ وأبي بكر موقف الساكت أو المقر؛ ولأنه تم وكعمل فردي، ولم يؤخذ ولم يعرض على السلطة العامة لتقول قولها فيه.

وهذان أمران عظيمان، حسن فقههما، وخلاصتهما: أنه إذا تم العمل الفردي، وقبيل عرضه على السلطة العامة، فللواهب سلطته الكاملة في التصرف في ماله، وحين كان صحيحا معافى، أهلا للأداء وللوجوب معا، وحين كان خاليا من عيوب الرضاء، ومن غبن، واستغلال، وتدليس، وإكراه، ومن فقد أو نقص للأهلية، وأما وحين يعرض على السلطة العامة، وقبل إنفاذه، فإن لها إذن سلطة التوجيه، والمنع المبرر، والمفسر، ولصالح الاقتصاد العام للدولة.

وخلاصة هذا المبحث: أنه وإذا تصرف العبد تصرفا فرديا، وكان أهلا له، فليس للسلطة العامة حياله من قرار؛ وإعمالا لاحترام مبدأ الملكية الفردية في الإسلام،

وواقعة معاذ مثلا، وذلك عكس ما لو علمت به السلطة العامة للدولة، وممثلة في ولي الأمر، أو من ينيبه، فلها حين ذلك الحد من هذه السلطات، ولصالح الاقتصاد العام للدولة. وككعب مثلا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه عبد الرزاق في مصنفه وهو صحيح على شرط الصحيحين عن أبي بن كعب بن مالك قال: كان معاذ بن جبل رضي الله عنه شابا جميلا سمحا من خير شباب قومه لا يسأل شيئا الا أعطاه حتى دان عليه دين أغلق ماله فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يكلم له غرماءه ففعل فلم يضعوا له شيئا فلو ترك لأحد بكلام أحد؟ لمعاذ بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يبرح من أن باع ماله وقسمه بين غرمائه قال فقام معاذ رضي الله عنه ولا مال له.[1] .

ورواه الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى عن الإمام المصنف عبد الرزاق بزيادة: قال: فلما حج رسول الله بعث معاذا إلى اليمن. قال: فكان أول من تجر في هذا المال معاذ. قال: فقدم على أبي بكر الصديق من اليمن وقد توفي رسول الله، فجاء عمر فقال: هل لك أن تعطيني فتدفع هذا المال إلى أبي بكر، فإن أعطاكه فاقبله. قال: فقال معاذ: لم أدفعه إليه وإنما بعثني رسول الله ليجبرني، فلما أبى عليه انطلق عمر إلى أبي بكر، فقال: أرسل إلى هذا الرجل فخذ منه، ودع له. فقال أبو بكر: ما كنت لأفعل، وإنما بعثه رسول الله ليجبره، فلست آخذا منه شيئا. قال: فلما أصبح معاذ انطلق إلى عمر، فقال: ما أرى إلا فاعل الذي قلت، إني رأيتني البارحة في النوم - فيما يحسب عبد الرزاق - قال: أجر إلى النار، وأنت آخذ بحجزتي. قال: فانطلق إلى أبي بكر

(١) السنن الكبرى، البيهقي: ج ٦ / ٤٨. حكم المحدث: روي من وجهين ضعيفين.

بكل شيء جاء به، حتى جاءه بسوطه وحلف له أنه لم يكتمه شيئا. قال: فقال أبو بكر رضي الله عنه: هو لك، لا آخذ منه شيئا.[1].

رابع عشر: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟

هذا استفهام تقريري، وجهه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، وحين أرسله إلى اليمن؛ وكيما يطمئن إلى عامله، وإن كان قد أرسله، وعن علم بمن أرسل، ولكن هكذا مهمة القضاة، وعرة تحفها أشعار جسيمة، ويكأنها على شفا أخطار عظيمة، وإن كانت سامية؛ ولأن القاضي مُوَقِّعٌ عن الله تعالى حكمه، وبالتالي كانت له هذه المنزلة، من شفقة عليه، ومن خوف عليه، ألا ينحرف، أو ينجرف، وألا يسقط، وألا يفتن، وألا يميل، وألا يحيد، وألا يهمل، وألا يستعجل، وألا يقصر بحثا، ولا يلوي على خصم، ولا يجور على دَعِيٍّ، ولا يقرب عن مجلسه ولا يبعد، ولا يحيف حكما، ولا ينظر عينا لخصم دون أخيه، ولا يبسم وجها لهذا ويعرض عن هذا.

ويكأن النبي صلى الله عليه وسلم وحين أرسل معاذا، وقد كان يعلمه، شابا حسنا جميلا، وخلوقا حسن فضيلا، وسمتا شميلا، وورعا نبيلا، وهو هذا الذي أرسله، ويوم أن باع عليه ما تبقى من ماله، وقسمه قسمة غرماء على الدائنين، وليس قد استدان ليطعم يومه أو شرابه، وإنما ليصَّدَّقَ، وليكونا من الصالحين، وها هو قد راح إلى اليمن، وأخلف الله تعالى عليه، ويوم أن أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتجر، ومن ثم يكون له جعل مما اتجر فيه، وها هو يعود على أبي بكر بعد وفاة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بعبيد كُثُر، وليضعهم في حساب بيت المال العام

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ١١٨

للمسلمين، ولكن أبا بكر ردهم عليه؛ ووفاء لعهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن هذا معاذا بن جبل، وحين رجع بهم، وصلى بهم وإذ سألهم: لمن صليتم، فقالوا: لله فأعتقهم؛ وكذلك لله! وتلك أمة قد خلت!

ويكأن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد أراد أن يترك لنا أساسا عمليا، لا تنظيريا؛ وفي القضاء؛ وكيما يكون منهجا وطريقة وسبيلا في هذا القضاء أيضا، لتسير عليه الأمة، ولا تحيد عن تطبيقه ولا تتركه تنيفذه، ولا تهمله، بل تعمله، وتفعله، ولأنه هذا القضاء الإسلامي، وإذ يكون فيه القاضي مبلغا عن الله تعالى، فوجب إذًا أن يكون على الجادة، والجادة هنا هي الطريقة، والسبيل هنا هو الكتاب والسنة، وألا يحكم إلا بهما، وألا يحيد عنهما شيئا؛ ولأنهما العمادان اللذان يقوم عليهما سوق العدل والقسطاس المستقيم، وأن غيرهما هو سوق الظلم والميل السقيم، ولأن أمة حكمت بحكم ربها من عليائه، فقمن بها أن تسود، ولأن أمة حكمت بغير أمر ربها فحذار من سلوك سبيلها، ولأنه إلى بوار، ولأنه من خسار، ولأنه من بعد النجعة، وعلى شفا الهلكة.

وأنت ترى مصدري القضاء، وقد حسما، وأنت عرفت أنهما اثنان، محصوران حصرا، ومعدودان عدا، ومقصودان قصدا، وبالتالي فهما هما، وليس يجوز تعديهما إلى غيرهما، وليس يليق استبدالهما، وليس يحسن تغييرهما، أو الإضافة إليهما، أو النقص منهما؛ ولأنهما صنوانا العدل، وعنوانا القسط، وأساسا الميزان، وأصلا الإيمان، وحيد عنهما، وإنما يعد حيدا عن مقتضى هذا الإسلام، أصلا لا فرعا، بل أصلا وفرعا، وإعمال غيرهما تجاوز في حق الرحمن، وميل عن فطرة الإنسان، وبأن شريعة الديان، تعرف سبيلها، وتدرك طريقها، وحين كانت منسجمة مع ما برأ الله تعالى، هذا الإنسان؛

ولأن كل ذي صنعة أعلم بما يصلحها، فأعد لها قطع غيارها، والله تعالى أولى وأعز وأكرم ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

ولكن سؤالا له محله: وكيف يمكننا تمرير اجتهاد معاذ رأيه؟ وكيف إقرار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم له، ومع وجود الأصلين، الكتاب والسنة؟!

وأقول: وكما قيل: فإن البعرة تدل على البعير، وإن السير يدل على المسير، أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟!

ومنه ذلك الذي معنا، ومن وجه، فهذا معاذ تربية مدرسة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا معاذ خريج مدرسة القرآن الحكيم، وهذا معاذ ابن مائدة السنة، ودعي الحكمة، وقرين المحجة، وفحل الحجة، وها هو قد تشرب الحق والهدى، وها هو قد تنسم الكتاب، وقد تضلع بالمنهاج النبوي، وقد تسامق بالعلم القاضوي، من مصدريه: كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وها هو قد كفاه ما قال عنهما هذا النبي العربي الأمي القرشي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي.

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم، فاحذروا، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، كتاب الله، وسنة نبيه. [١].

وأقول: وهل من بعد هذا، وتبقى بقية، وإلا ولمعاذ فيها توفيقه، وسداده، وحكمته، وعدله، وقسطه، ونبله، وفضله؟ وإن هو إلا حاكم بالكتابين المصدرين الأساسين العظيمين الكافيين التامين الأكملين، ولكن شرحا، وإن هو إلا قاض

---

(١) صحيح الترغيب، الألباني: ٤٠

بالوحيين، ولكن تأملا، وإن هو قائل بالمصدرين، ولكن تأويلا، وإن هو إلا فاصل بهما، ولكن تفسيرا، ولكن علما بمطلقهما ومقيدهما، وبكأنه إحاطة بعامهما وخاصهما، ولكنه جهبز العلم بأسباب النزول، وطريقة المناط والتنزيل، ومن حيث كان شأنه هذا الذي مضى، وحين تقلب بين الوحيين علما، وفقها، ودرسا، وعملا، واستنباطا، واستنتاجا، وتأويلا وذكرا حسنا!

والقاضي المسلم النحرير، والحاكم البصير، والناقد القدير، ومن قول الوحيين كان استنانه، ومن نظمهما أضحى انتظامه، وهذا الذي عايش القرآن الحكيم، وهذا الذي عاين سنة خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وقد تقلب بينهما، ليله ونهاره، وانتقاله وترحاله، وسفره وإقامته، ومنه فليس يكاد إلا بهما حاكما، وإن تأبط بالاجتهاد، فاجتهاده ههنا هو من الكتاب، ولما كان له أصلا، واستنباطه ههنا من السنة، ولأنه قد تضلع بها، علمه، وعمله، وقوله، وفعله.

وإذ قد كان من نبل القضاة علمهم، ومن جيد إحساسهم، وعظم مهامهم، وإذ كان حكمهم، ولأنهم يعلمون علما بلغ اليقين، وأن القضاء وعلى مقتضى الوحيين سبيل سعادة الأمم، وطريق صلاح أولي الهمم، وسبيل فلاح ذوي القمم، ولأنهم علموا أن تعطيل الوحيين حكما بهما، وإن هو إلا سبيل الاعوجاج، وطريق البأساء، ومظان الشقاء، ومحال الشحناء، والبلوى، وحرمان عن الهدى والسلوى، ولأنهم علموا، وكما قد علم من سواهم حنفاء أنه: وما عطل قوم كتاب الله وسنة نبيه؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس؟ وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوها: ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل

بها فيهم علانية؛ إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منع قوم الزكاة؛ إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، وما بخس قوم المكيال والميزان؛ إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله؛ إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم.[1].

ويكأن معاذا هذا قد تفرد، وحين أخرج لنا حكما في الميراث، وحين قد مات يهودي، وليس له من يرثه إلا أخا له نسبا، وقد حكم له بإرثه منه؛ ولأن الإسلام يعلو ويزيد ولا ينقص أبدا، وهذا فقه عال على حال، وإن خالف ظاهر السنة، ولقوله صلى الله عليه وسلم: لا يرث المؤمن الكافر، ولا يرث الكافر المؤمن، وإلا أنه يبقى له وجه، وحين لم يعد حق لغيره، والفرض أن اليهودي لم يكن له وارث سوى أخيه هذا الذي أسلم. والفرض أنه تشجيع لإسلام القوم، وليسوا يخشون من فوات ميراثهم، وهذا ضرب من جمع بين الدلائل، ولم يكن عنه بعد، بل قرب، من هذا القاضي النحرير، وهذا الصحابي العاقل الفطن الذكي معاذ بن جبل!

ويبقى القول إن جمهرة العلماء وأكابر الفقهاء قد راحوا غير روحته، وقد رأوا لا كرؤيته، ولكنما سجله له التاريخ اجتهادا، وحين قال صلى الله عليه وسلم: إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر. [2] . وحاله على ما أنف. ولما كان عن تأويل، وجمع وتقريب، لاعن هوى وابتداع جافى البرهان والدليل.

---

(١) صحيح الترغيب، الألباني: ٢١٨٧.

(٢) صحيح البخاري: ٧٣٥٢

والمقصود من ذلك أن الإنسان عندما يبحث في الأدلة وإنما يبحث في القرآن أولا ثم يبحث في السنة، وكل منهما من ناحية الحكم والتعويل واحد؛ لأن السنة متعبد بها كما يتعبد بالقرآن من حيث العمل، وعليه أن يصير إلى ما يجد من دليل من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإذا لم يحصل شيئا من ذلك، ووجد إجماعا أو حكاية إجماع واتفاق العلماء على ذلك فإنه يأخذ به، وإن لم يكن شيئا من هذا ولا هذا فإنه يجتهد رأيه، وذلك بإلحاق النظير بالنظير، وإلحاق الشبيه بالشبيه، أو بإدخاله تحت قاعدة عامة، أو إدراجه تحت لفظ عام، أو ما إلى ذلك من الطرق التي يمكن أن يصار إليها؛ لأن الشريعة مستوعبة لكل شيء، وهذا الاستيعاب ليس بألفاظها؛ لأنه ليس كل قضية لابد أن يوجد فيها نص، ولكن هذا يكون بعموماتها وبقواعدها بقياس الشبيه بالشبيه والنظير بالنظير وهكذا، ولهذا كل نازلة تنزل بالناس ولم يعرف لها مثيل فيما مضى فإنه إذا تؤمل في نصوص الكتاب والسنة وفي قواعد الشريعة، وفي عمومات النصوص، وفي القياس، وما إلى ذلك، فإنه يمكن إيجاد الحل لها؛ لأن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وهي مستوعبة لكل شيء.[1]

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أبوداود رحمه الله تعالى عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل: (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن قال: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا

(١) كتاب شرح سنن أبي داود، عبد المحسن العباد:١٣/٢٥٥

في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله).[1].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: هذا حديث لا يصح، وإن كان الفقهاء كلهم يذكرونه في كتبهم، ويعتمدون عليه، ولعمري إن كان معناه صحيحاً، إنما ثبوته لا يعرف؛ لأن الحارث بن عمرو مجهول، وأصحاب معاذ من أهل حمص لا يعرفون.[2].

خامس عشر: من آذى عليا فقد آذاني

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومناسبة شكوى قدمها عمرو بن شاس الأسلمي، رضي الله تعالى عنه، وكان من أصحاب الحديبية، وحين قدم مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، لدعوة أهل اليمن إلى هذا الدين الحنيف الخالد الإسلام، وكان قد جاء علي وعلى حد قوله هذا عمرو بن شاس الأسلمي، وكما قلنا آنفا، فإن هذا الذي يمكن أن يحدث بين فرقاء العمل الواحد، وحين يمكن تلافيه، فكان أفضل، ولكنه وإن حدث فثم توجيه وعلاجه والأخذ على يدي صاحبيه، وكيما يخمد، ويسكن، ويذهب أدراج رياحه، وهذا الذي فعله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قد بلغه ذكر عمرو بن شاس الأسلمي عليا بما لم يكن فيه، وإلا أنه أمكن علاجه بينهما البين، وعلى فرض حدوث موجب شكواه من علي، أو بتحكيم هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم بينهما، وبالتالي فقد كانوا، وكان مجتمع المدينة النبوية الفاضلة في غنى عما أشاعه عمرو بن شاس الأسلمي، ولهذا السبب فكان الحزم هو هذا الذي تدرعه هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وحين قال قوله هذا: من آذى عليا فقد آذاني.

---

(١) ضعيف أبي داود، الألباني:٣٥٩٢

(٢) العلل المتناهية، ابن القيم: ٢/ ٧٥٨- ٧٥٩

ولأن هـذا النبي يعمـل دائمـا بـالوحي، وكسـن حسـن لغيره ألا يعمـل إلا بـوحي أيضـا، ومنـه فقـد كان اختيـار علي هـو اختيار نبي، وبالتـالي فقـد لـزم ألا تحـوم حولـه إلا الخيرات الحسـان، ولا سـيما أنـه خـريج بيـت النبـوة، ولـيس رجـلا مـن مثـل غيره، والـذين ولا شـك أنهـم تربـوا عـلى المائـدة المحمديـة الكريمـة، وإلا أنـه يبقـى فـارق أنـه مـن بيـت النبـوة، ليلها ونهارهـا، وبالتـالي فقـد كان موضـع الثقـة النبويـة الكريمـة، وإن تـأول عمـرو بـن شـاس الأسـلمي، وإن قـال هـو، أو قـال غيره فيـه، وكمـا قـد أنـف مـن عبـد الله بـن بريـدة، وحـين كانـت مسـألة الغنـائم والوصـيفة، وقـد تناولنـاها مـن وقتهـا وتـوا، ومـن هـذه السيرة النبوية المباركة.

وأقـول: إن القـائد، وقـد اختـار، وكـان يمكـن حـدوث مـا حصـل مـن جفـاء عليٍّ، وعلى دعـوى عمـرو بـن شـاس الأسـلمي، ولأن النـاس مـا زالـوا بشـرا، ويسـري علـيهم قـانون الخطأ، وهذا سـننه الـذي قـال عنـه هـذا النبـي محمـد صلى الله عليه وسلم: كل ابـن آدم خطـاء، وخير الخطائين التوابون. [١] .

وإلا أنـه، وقـد أنـف، وحـين أمكـن عـلاج ذلـك بمـا أنـف أيضـا، ومـن استحضـار طرفي النزاع، وبسـط كل منهمـا حجتـه، ومـن ثـم تتضـح الأمـور جليـة، ولعلـه لم يكـن جفـاء مـن أصل، وبكأنه لم يكن تعدٍ في الغنيمة من أصل، ومن فرع أيضا!

ولكنـك وقفـت عـلى كـم كانـت قلـوب أولاء القـوم! وحـين أمكنهـا استسـلام لـهـذا النبـي، ومـن توهـا، ولم تطـل فـترة استنقاهـا، ولم يعـز الموقـف أكثر مـن توجيـه لـوم، وحـين يرجـع كل إلى صـوابه، ومـن جلسـة واحـدة! وبكأنـك تعجـب وحـين يأخـذ مثـل هـذا أو منـه أقـل، وربمـا الـدهر كـاملا! وبـين أخـوين، كانـت بيـنهما العـروة الثقـة دينـا، وكـان بيـنهما الإلـف

---

(١) الوهم والإيهام، ابن القطان: ٥/٤١٤. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

في الله سننا حسنا وسبيلا، وكان بينهما الولاء في الله شرعة ومنهاجا، وإلا أن الشيطان نفث نفثة واحدة، ففرق بها بين المرء وزوجه، وبين الأخ وأخيه، والله الهادي.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما جاء عن عمرو الأسلمي وكان من أصحاب الحديبية قال كنت مع علي بن أطالب في خيله الذي بعثه فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى اليمن فجفاني علي بعض الجفاء فوجدت عليه في نفسي فلما قدمت المدينة اشتكيته في مجالس المدينة وعند من لقيته فأقبلت يوما ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس في المسجد فلما رآني أنظر إلى عينيه نظر إلي حتى جلست إليه فلما جلست قال إنه والله يا عمرو بن شاس لقد آذيتني فقلت إنا الله وإنا إليه راجعون أعوذ بالله وبالإسلام أن أؤذي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال من اذى عليا فقد اذاني.[1]

سادس عشر: السلام على همدان، السلام على همدان

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين راسله عليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، بإسلام همدان من أهل اليمن، وبعد ستة أشهر من التناوب في دعوتهم، وما بين خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه مرة، وما بين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه مرة أخرى.

وهذا بيان كم كان صبر دعاة الحق والخير والهدى والنور والصلاح والحبور والسرور على أقوامهم وألا تأخذهم العجلة من أمرهم.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج ٤٢ / ٢٠٣

وهذا بيان محبة الخير للناس، وحين كان هدف أهل الحق هو إسلام الناس وجوههم لله تعالى رب العالمين وحده لا شريك له. وما مسألة الجزية وإلا حثا للناس على مراجعة أنفسهم الفينة بعد الفينة؛ وكيما يؤوبوا ويتوبوا.

وهذا إعمال لسورة العصر، وحين كان اشتمالها وعلى هؤلاء الأربعة الأعمدة من أسس نجاحات الدعوات، وحين كانت صلبة في بيان الحق، وألا مهادنة ولا مواربة فيه، وحين كان العمل الصالح هو دلالة إيمان العبد، وإلا كان هذا الإيمان دعوى يعوزها البرهان، وإذ كان برهانها ذلكم العمل، وإذ كان دليلها ذلك الانقياد.

ولما كان هذان الأصلان ليسا ميسورا تحقيقهما في كل حين، ولذا جاء النص على التواصي بهذا الحق، وعلى التواصي بهذا الصبر، وعلى ما يمكن أن يبتلى به الداعية إلى الله تعالى من تعب ونصب، وابتلاء واختبار، وتشديد وترحيل، ونفي وتسجين، وصلب وتعذيب؛ وإن كل ذلك إلا ولأنه يدعوهم إلى النجاة، وإلى طريق الله تعالى المستقيم، صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا. وإذ هم أولئك البعداء يدعونهم إلى النار، يدعونهم ليكفروا بالله تعالى، مما لم يأذن به الله تعالى.

وهذا توكيد لفظي بلاغي من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أضفى على النظم راحة بالسلام، وسكينة ومن سببه، وطمأنينة ومن موجبه، وحين كان هذا البيان العالي معبرا عن هكذا فرح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبما يحمل من بين ثناياه من موجبات هذا الفرح والغبطة والسرور؛ بإسلام همدان، وعلى يدي هذا العبد علي بن أبي طالب، ومن جولته تلك، وحين قد تناوب وأخوه خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنهما، على دعوة أولاء همدان من اليمن.

وهذا الذي نقف عنده، ومن دلالات بلاغية شفافة، من وراء هذا التوكيد اللفظي، وحين قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: السلام على همدان، السلام على همدان، وكناية فرح وسرور، ودلالة غبطة وحبور، بإسلام همدان أولاء، ومن بعد ستة أشهر دعوة كاملة.

وهذا درس للدعاة أن يصبروا وأن يصابروا وألا يعجلوا وإن أخذ منهم ستة أشهر بل سنوات.

وأنت خبير وبعد كم أسلمت قريش وجهها لله تعالى رب العالمين؟ ومن بعد ثمانية عشر عاما كاملة، هي ذلكم الزمن المقيس، ومن بعثته صلى الله عليه وسلم، وإلى يوم الفتح المبين، فتح مكة البلد الأمين! وإذ ولما كان قد دخلها، وإذ كان من إمكانه أن يدكهم دكا دكا، ولكنه ذلكم النبي الرسول الأمي العربي القرشي الكريم، وإذ كان هو الرحمة المهداة، والمنحة المسداة، ولما دخل مكة سلما سلما، وإذ إن بينه وبينهم نسبا وصهرا! وها هو ذلكم النبي يحسب حساب الألفة، ويحمل مشاعر الرحمة، ومن بين نبضات قلبه، ومن بين خلجات فؤاده، تنبض مشاعل الرأفة.

وهذا شأن دعوي عام، وإذ ولما كان المسلمون يرغبون، ويلحون على أقوامهم، وأن يتقوا الله تعالى ربهم مسلمين مذعنين، وإذ ولما كان الناس وبهذا البعد، وبهذا الكيد، وبهذه الجهالة، وهذا الطمس لأبواب الخير، وإغلاق منافذ البر. ولكن المسلمين يحتسبون وقفتهم لله تعالى ربهم الحق، ويتحملون الشيء الكثير، ومما يلاقونه، ولديهم هذا الصبر، ويحملون هذا الجلد، وإذ ها هم يصرون على مواصلة طريق دعوتهم للناس إلى البر والهدي، والذي بينه الله تعالى في كتابه القرآن الحكيم والذكر المبين، وكذا وضح النبي صلى الله عليه وسلم سبيله، وأبان طريقه.

وهذا سجود النبي صلى الله عليه وسلم، سجود الشكر، ولما أتاه نبأ إسلام همدان أجمعهم، وهذا برهان مشروعية سجود الشكر، وعند تلقي خبرا مفرحا، أو نبأ سارا، وإذ كان إسلام القوم هو سيد الأخبار ومن ههنا، وإذ كان إيمانهم هو أصدق الأنباء وأولاها وأحسنها وأفضلها وأعلاها.

وهذا عمل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وحين شكاه بعض إخوانه، ويكأنهم شكوه، وها هو قد أسلم على يديه هذا النفر الغفير، ومن بعد ستة أشهر كاملة!

سابع عشر: إنما لكم فيها سهم كما للمسلمين.

هذا قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لأبي سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان رضي الله تعالى عنه، وحين سأله وصحبه، أن يسمح لهم بركوب إبل الصدقة، ولأن إرهاقا وجدوا إبلهم عليه، وعلى حد قول أبي سعيد الخدري هذا: ونريح إبلنا، وكنا قد رأينا في إبلنا. إن خللا شاهدوه فيها، ومن نصب العمل وكَلِّ السفر، وإلا أن عليا قد أبى؛ ولأنهم يصبرون، وإلى حين قسمة هذه الأموال على المسلمين، ولأنه ليس يشرع الإفادة منها لقسم من المسلمين دون الآخر. وهذا الذي يتبدى لنا من سياق النص وظاهره، وأنهم لم يروحوا إليه بطلبهم هذا أجمعهم. وإلا فما كان قد ردهم، والله تعالى أعلى وأجل وأعز وأعلم.

وهذه هي نظرة هذا الدين الإسلام الخالد إلى المال العام، وأنه يرعى، وأنه يحبس، وإلى يوم قسمته، وعلى قسمة سورة الأنفال، وحين قال الله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾

وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١]. وسورة الحشر ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]. وإن غير ذلك ليعد تعديا، وقف دونه هذا الإمام وقفة حازمة حاسمة.

وإذا انضاف إلى ذلك ما قالوه، وحين راح علي بن أبي طالب، من اليمن إلى المدينة؛ ليلحق بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحج، وحين قد أمر عليٌّ عليهم رجلا منهم، وأنه قد سمح لهم بركوب الخيل، وقد كسا كل واحد منهم حلة، وقبل القسمة، ولدى رجعة عليٍّ، لامه وعلى فعله هذا.

ولعل مسائل ركوب الإبل، والحلة، والوصيفة، كانت وراء شكوى، قدمت ضد الإمام علي بن أبي طالب، وبين يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن الصحب الكرام رضي الله تعالى عنهم، وربما غاب عنهم أمر علي بألا يوزع من الفيء شيء، وإلا حين يقسم هذا الفيء، ولهذا السبب كان لومه لمن خلفه يوم لحاقه إلى الحج رفقة النبي صلى الله عليه وسلم.

وهنا أمور منها:

الأمر الأول: جواز تفويض النائب لغيره، ومن أعمال نيابته، وبرهان إنابة علي لغيره يوم راح إلى الحج مع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن حيث لم يرد في أمر الإنابة الأول ما ينهى عن ذلك أو ينفيه، وبالتالي صار حقا له مشروعا.

وهذا فن إداري سبق، كان لهذا الدين الحنيف الخالد الإسلام قصب السبق فيه. وكيما تنتظم أمور الجهة الإدارية، ولتؤدي أعمالها، وعلى وتيرة مرنة، فلا يصيبها جمود، وحين انعدام هذا التفويض، ولو ببعض الصلاحيات الممنوحة.

الأمر الثاني: مشروعية توجيه اللوم للنائب المخالف، ولما رآه المنيب خروجا، وعن مألوف القرارات الإدارية التي له اتخاذها فترة إنابته، وخاصة وأنه ليست بين أيدينا نصوص لذلك، فدل على مشروعية توجيه هذا اللون من الجزاء الإداري.

الأمر الثالث: عدم التعسف في استخدام السلطات المخولة للنائب، وهو هنا الرئيس الإداري للنائب الثاني، ومنه الاكتفاء بتوجيه اللوم، ورغم ما يظهر من عمله في السماح للصحب الكرام بركوب خيل الصدقات والفيء، وكذا إكساء كل منهم حلة من حلل هذا الفيء، وهما أمران ربما كان الجزاء لمخالفتهما أحدهما أو كليهما غير ذلك، ولأنه وليس ما أنف، وحين لم يذكر شيء من ذلك في قرار الإحالة أو الإنابة، وبالتالي كان توجيه اللوم جزاءً إداريا كافيا.

الأمر الرابع: مشروعية التظلم من قرارات الرئيس الإداري وأمام الجهة الأعلى منه على سلم الهرم الإداري: وهذا عمل أبي سعيد، ويوم رجعوا إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن بعد انقضاء فترة عملهم.

وهذا فن إداري آخر سامق عال رفيع، وحين ينتظر، ولدى لقاء الرئيس الأعلى، وليس من عجلة من أمر؛ وكيما يستقر عمل الجهة الإدارية، ومنه فلا مجال للتمرد، وبل مدعاة للتجرد، وحين لازموا الصبر والاصطبار، ويكأن هذا هو عين التفرد! وإذ كان صفة لازمة لصيقة بهؤلاء الصحب الكرام رضي الله تعالى عنهم.

الأمر الخامس: خلو أوراق الدعوى(التظلم) من أدلة مادية لإدانة الإمام عليٍّ: ويبدو أن هذين السببين كانا وراء شكوى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أمام النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومنضافتان إلى ما أنف من مسألة الوصيفة، والواضح من عرائض الدعوى، أن الأمر خلو من هكذا شكوى، وبرهانا على عدم جدية الدعوى، وبالتالي تعتبر دعوى ساقطة من مبدئها، ومن بعد أخذ أقوال المدعين، وبالتالي صدر الحكم القضائي النبوي بحفظ أوراقها لعدم جديتها.

الأمر السادس: هذا الإلتزام الأدبي: من أولاء الصحب الكرام رضي الله يوم تعالى عنهم، أن صبروا على شكواهم، وإلى حين ملاقاة الرئيس الإداري الأعلى، والقائم على قمة الهرم الإداري، وهذا عمل إداري ممتاز، وحين يمكن التزام المرؤوس، وأمام مهام وصلاحيات رئيسه، وهذا اتباع إداري فائق لقواعد العمل الإداري، وألا يتخطى فيه رئيسه، وألا يحقن فيه أفئدة مرؤوسيه.

الأمر السابع: هو ذلكم سماع النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأطراف النزاع: وسماعا جيدا، ويريح به أفئدتهم، ولعل من شكواهم معتبرا، وإن بدا فيما بعد أنها ليست شكوى موضوعية، ومن بعد سماع أطرافها.

الأمر الثامن: هو هذا الالتزام الخلقي العالي لمكارم هذه الأخلاق الحميدة: والتي نعتبرها كانت متجذرة في قلوب القوم، ومما ساعدهم في ذلك، ألا يبدو من أحدهم خروج على مألوف هذه الخصال الحميدة، ومما لم ينبس أحدهم ببنت شفة واحدة، على أميره؛ دلالة اصطباغ أولاء الصحب الكرام بمكارم خلق دين، قد تدينوه، وحين أصبح وبكأنه لباسهم الذي يلبسون، وبكأنه قد ألفيناه رداءهم الذي به يرتدون أيضا، سننا وهديا حسنا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام العماد الحافظ عن الإمام البيهقي رحمهما الله تعالى عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنه قال: بعث رسول الله علي بن أبي طالب إلى اليمن فكنت فيمن خرج معه فلما أخذ من إبل الصدقة سألناه أن نركب منها ونريح إبلنا وكنا قد رأينا في إبلنا خللا فأبى علينا وقال إنما لكم فيها سهم كما للمسلمين قال فلما فرغ علي وانطفق من اليمن راجعا أمر علينا إنسانا وأسرع هو وأدرك الحج فلما قضى حجته قال له النبي صلى الله عليه وسلم ارجع إلى أصحابك حتى تقدم عليهم قال أبو سعيد وقد كنا سألنا الذي استخلفه ما كان علي منعنا إياه ففعل فلما عرف في إبل الصدقة أنها قد ركبت ورأى أثر الركب قدم الذي أمره ولامه فقلت أما إن لله علي لئن قدمت المدينة لأذكرن لرسول الله ولأخبرنه ما لقينا من الغلظة والتضييق قال فلما قدمنا المدينة غدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد أن أفعل ما كنت حلفت عليه فلقيت أبا بكر خارجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآني وقف معي ورحب بي وساءلني وساءلته وقال متى قدمت فقلت قدمت البارحة فرجع معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل وقال هذا سعد بن مالك ابن الشهيد فقال ائذن له فدخلت فحييت رسول الله وحياني وأقبل علي وسألني عن نفسي وأهلي وأحفى المسألة فقلت يا رسول الله ما لقينا من علي من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق فاتئد رسول الله وجعلت أنا أعدد ما لقينا منه حتى إذا كنا في وسط كلامي ضرب رسول الله على فخذي وكنت منه قريبا وقال يا سعد بن مالك ابن الشهيد مه بعض قولك لأخيك علي فوالله لقد علمت أنه أحسن في سبيل الله قال فقلت في نفسي ثكلتك أمك سعد بن مالك ألا أراني كنت فيما يكره منذ اليوم ولا أدري لا جرم والله لا أذكره بسوء أبدا سرا ولا علانية.[1].

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٥/٩٤. خلاصة حكم المحدث: إسناده جيد.

وكذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن ركانة قال: إنما وجد جيش علي ابن أبي طالب الذين كانوا معه باليمن لأنهم حين أقبلوا خلف عليهم رجلا وتعجل إلى رسول الله ﷺ قال: فعمد الرجل فكسى كل رجل حلة، فلما دنوا خرج عليهم علي يستلقيهم فإذا عليهم الحلل، قال علي: ما هذا؟ قالوا: كسانا فلان. قال: فما دعاك إلى هذا قبل أن تقدم على رسول الله فيصنع ما شاء فنزع الحلل منهم، فلما قدموا على رسول الله اشتكوه لذلك، وكانوا قد صالحوا رسول الله؛ وإنما بعث عليه إلى جزية موضوعة. [١].

ثامن عشر: إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم.

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه؛ مناسبة أن بعث عليٌّ ابن أبي طالب إلى النبي ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ، لم تحصل من ترابها. فقسمها النبي صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه.

وليس يهم كثيرا من هم أولاء، وأهم عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع: إما علقمة بن علاثة، وإما عامر بن الطفيل؟ وبقدر ما يهم أنه صلى الله عليه وسلم كان في زهد عن دنياه، وهذا أولا، وهذه لعاعة الدنيا، وما كان ليذر قلبه ليعلق بها، وهذه ثانيا، وبالتالي كان قرار منحها لنفر من أصحابه فوريا لا تراخيا!

والفرض أنها لم تخلص من ترابها، فليست ذهباً خالصاً؛ وبالتالي فلسنا نسأل، وإلا موقنين بأحقية عليٍّ، فيما فعل وتصرف، وكذا بواقعية قبوله صلى الله عليه وسلم لها، ولأنها ومن حيث ما يظهر كانت من الخمس الذي لله تعالى ولرسوله، وبالتالي يكون من حقه أيضا أن يتصرف فيها تصرفا لا شبهة فيه، وهو ذلكم الخبير برسوله،

---

(١) المرجع السابق: ٨ / ٥

وإذ هو أشد نفرة من دنياه منه! وبالتالي فلسوف يتصرف فيها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تصرف الحكيم الخبير، وهذا هو الذي حدث. وحين وزعها من توه على أولاء النفر، وكما أنف.

ونكرر أنه، وباعتبار أن ذلك قد دخل في الذمة المالية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فله مطلق القرار في اتخاذ ما يراه ملائما حيالها، وهذا الذي كان ينبغي علمه، وهو الذي كان يقدر فقهه.

وإلا أن كل مجتمع، ولو كان فاضلا لتخرج منه أفراد، وما بين الفينة والأخرى، ويقولون قولا عجيبا، ويتصرفون تصرفا مريبا، وهذا الذي حدث، ويوم قام أحدهم هذا ذو الخويصرة، ولدى علمه بتوزيع هذه اللعاعة على إخوانه؛ ليقول قوله هذا: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء!

وهذا اتهام للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وليس مهما أن يبحث في القصد الجنائي من عدمه، وبقدر ما رأيناه هكذا، تعجلا وتعلقا، فإنه أمارة ظاهرة على تعلق قلوب البعض من الرعية بهذه اللعاعة من الدنيا، وهو استعجال من الأمر، أو أنه ومن أقل أحواله جهل بما في ذهن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وإذ قد غاب عنهم! ولعل أحدا ممن أعطوا كان أولى، وهذا الذي كانت تنبغي النظرة فيه، ولا سيما أننا أمام نبي، وإذ كان وصفه، وكما قال هو عن نفسه صلى الله عليه وسلم، أنه أمين من في السماء، وهو الله تعالى، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٨٤]. وبالتالي فليس يكون غائبا عن الأذهان عدله، وليس يكون غافلا من القوم عن مدى حكمته ودربته وفطنته وحجته وبعده نظره صلى الله عليه وسلم.

وهذا هو الذي تنبغي الإشارة إليه، والوقوف عنده مليا، وأن هذا النبي وكان قد استغنى بداية عن هذه اللعاعة، فكان حريا إذًا أن يحسن به وتصرفه الظن، وأنه قد تصرف الحق والعدل والنصفة والقسطاس المستقيم. ولا سيما إذا علم أن هؤلاء الأربعة كانوا رؤساء في أقوامهم، ومتبوعين، وبالتالي فقد كان إعطاؤهم تأليفا، ومنه فقد كان منحهم توفيقا. ومع ما انضاف إلى ذلك، من كونه خمسا تمت قسمته، وقد أصبح للنبي فيه كامل التصرف.

وهذا الذي غاب عن هذا الرجل ذي الخويصرة، وحين قد تسارع به إبليس خطاه، وليلقي التهمة، وليبعد النجعة!

ويكأن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣و٤]. وحين انصرف هذا الدَعِيُّ ذو الخويصرة، وحين اتهم مقام النبوة بشاعة، وحين اطَّاوَلَ عليها، بما يند عن عقل زكي ذكي، وفضلا عن أن يكون من أولي الهمم، وذوي القمم، وصفه غرابة وعجبا وخروجا عن إلف، وحين سمعه خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، ويقول قوله هذا: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟

وقول خالد من فقه، ونبأه عن علم، وهذا الذي تنبغي إليه الإشارة، وإن هذا قول تستحل به الدماء، وحين يتهم أمين من في السماء ولا شك.

وهذا بعد نظر أولاء الصحب الكرام، وحين تربوا على مائدة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، فقهاء، علماء، حكماء.

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، كان هو الأبعد نظرا، وكان هو الأحكم حجة، وبرهانا، وحين جعل الصلاة عاصمة، ولما أضحت موجبا ولئلا يقتل أحد ومخرجا على سبب كان ما كان، وها هو يقيم الصلاة؛ ولأن شأن الدماء عظيم، ولأن

منع القيل والقال مصلحة راجحة، وحين قال صلى الله عليه وسلم: لا لعله أن يكون يصلي. وبه تكون إقامة الصلاة مانعة من استحلال الدماء، ولما كنا أمام مجتمع مسلم، يعرف فيه الناس على دينهم، وأين هم من شرع ربهم الرحمن الرحيم.

وعلى أية حال فهذا شأن هذه الصلاة في ديننا، وإذ كانت سببا عاصما للدماء، فدل على كم هو عظم شأنها! وأبانت عن مدى موقعها من هذا الدين! وحين كانت عهدا، ولما كانت فرقا، وحين أصبحت هي ذاتها قاصمة ظهر من تركها، ذلكم الترك العمد، وإذ ها هو يستتاب، وإذ ها هو يبين أمامه مدى شرعيتها، وحين قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: إن العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة. فمن تركها فقد كفر.[١] وحين قال الفاروق عمر رضي الله تعالى: إنه لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة. وحين روى عروة بن الزبير أن المسور بن مخرمة دخل على عمر بن الخطاب من الليلة التي طعن فيها فأيقظ عمر لصلاة الصبح فقال عمر نعم ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة فصلى عمر وجرحه يثعب دما.[٢].

ولكن القفز على الصلاة، والاستتار بها من استهزاء، والامتناع بها من كفر، وإن هو إلا عمل بين العبد وربه، وهذا الذي وقف به نبينا محمد هذا الموقف، ولما قال: لا لعله أن يكون يصلي، ويكأنها وإن كانت سببا لهذه العصمة؛ بيانا لقيمتها، ومما أنف، وإلا أنه ليس ينبغي التستر بها، ومن حيدة عن السواء أيضا. وكما قد وجد منافقون وإذ ها هم بلغت رائحتهم الزاكمة، مما منه أنف القريب والبعيد، ويكأنهم استخفوا بصلاتهم، وإلا أن الله تعالى قد فضح بواطنهم، ولما أضحت هكذا نفاقا ظواهرهم!

---

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٤٦٢

(٢) إرواء الغليل، الألباني: ١/٢٢٥. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وهذا الذي جعل خالدا يقول قوله هذا: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه!

ولأن هذه دعوى، ولأن الصلاة شأنها عظيم، وهي من شعائر هذا الدين الظاهرة، وبالتالي تكون سببا عاصما من الاستحلال، ويكأنها برهان إيمان في القلوب، قد حل، وإذ إنها موجب إذعان في الأفئدة، قد حط رحاله، ومنه فإنها من استحلال الرقاب مانعة، ويكأنها من اعتصام مقيمها كائنة قائمة حاصلة. وهذا الذي كان منه قوله صلى الله عليه وسلم: إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم. وهذا إشارة إلى الأخذ بالظاهر، والله تعالى هو الذي يتولى السرائر.

وإلا أن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عند انصراف هذا الدعي- ذو الخويصرة- مقفيا، وقد قال صلى الله عليه وسلم: إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. وعلى حد قول الراوي: أظنه قال: لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود.

وقد تناولنا هذا الجانب في حينه، ومن هذه السيرة النبوية المباركة، وبما أغنى عن إعادته ههنا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عبد الرحمن ابن أبي نعم، سمعت أبا سعيد الخدري يقول: بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ، لم تحصل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر، بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع: إما علقمة وإما عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء، قال: فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ألا تأمنوني

وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء، قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال يا رسول الله اتق الله، قال: ويلك، أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله قال: ثم ولى الرجل، قال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: لا، لعله أن يكون يصلي فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم قال: ثم نظر إليه وهو مقف، فقال: إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وأظنه قال: لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود.(١)

تاسع عشر: علم نبوة ضاف!

ثقة في وعد الله تعالى!

إن الله سيهدي لسانك، ويثبت قلبك.

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وحين بعثه على أهل اليمن قاضيا، ولأن عليا، وعلى ما يبدو من ظاهر الحديث، كان قد استوحش التعرض لهذه المهمة، ولعلمه بخطرها، ولأنها جد عظيمة، وليس يتجاسر عليها من أحد عرف قدرها، ولأنها محفوفة بالمكاره، وحين كان الخصوم لهم مشارب شتى، ولما كانت الأحداث لها موارد قددا، وبين هذا وهذا زقاق وحارات وتشعبات وتفريعات، ولا يكاد يتحصل القاضي على حقيقة الأمور وسبرها، وإلا أن حين يكون عونه تعالى سابقه وحاديه، ولما يكون توفيقه تعالى حليفه ومؤيده.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٥١

ولأجل ما أنف، كان استثقال عليٍّ لهكذا مهمة عظيمة، وخاصة أنه لم يكن لذلك أمر عظيم به خبيرا، وحين قال قوله هذا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: تبعثني إلى قوم يكون بينهم أحداث، ولا علم لي بالقضاء. فقد جمع بين اثنتين عظيمتين، وهما:

الأولى: عظم الأحداث والمهام، وكبرها الكبار الجسام، وكما أنف، لحواريها وزقاقها المتشعبة، وكذا اختلاف مشارب الخصوم ودوافعهم وكثرتهم وعددهم، وأدوار كل منهم، حتى ليكاد الوصول إلى الحقيقة منالا عظيما.

الثانية: هو هذه الخبرة بالقضاء، وإذ يكاد الرجل عندها خاليا، ومن ظاهر قوله الآنف الذكر. وبه دل على كم هي تيكم خبرة بالقضاء لازمة، وقبل التصدر إليه؛ ولما أنف من تعدد وتشعب، وكثرة المداخل والمخارج والمآرب والمصالح والغايات والأسباب.

وينضاف إلى ذلك ما ذكر من رواية الإمام أحمد رحمه الله تعالى الأخرى وإذ قال عليٌّ رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني، وأنا حدث لا أبصر القضاء. ولعله قد جمع بين كل هذه الحيثيات، والتي كان من موجبها اشتمامنا تعجبه لاختياره هكذا مهمة، وحاله ما أنف!

وهذا الذي نقف عنده أيضا، ولأن التجشم لهكذا مهمة عظيمة، محفوف بالمخاطر العظام، ومسيج بالمسائل الجسام، وليس يكاد يتعرض لها إلا من علم سبرها، علما، وفقها، وتأدبا بآدابها، ولما أنف ذكره أيضا.

ولكن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وإذ كان ليس يخفى عليه من أمرها هذا الذي ذكره الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وإنما تلزم هذه مهمة

رجالها وأهلها من علم، وفقه، وأدب، وحلم، ولطف، وسداد رأي، وحكمة بالغة، وحجة دامغة، وتجرد من هوى، وانخلاع من ميل إلى أحد المتخاصمين.

ولهذا السبب كان دعاؤه صلى الله عليه وسلم ربه أن يهدي عليا لهكذا مهمة، وبقوله دعاءً مرة: اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه. وبقوله خبرًا مرة أخرى، وعلى رواية الإمام أحمد رحمه الله تعالى أيضا: إن الله سيهدي لسانك، ويثبت قلبك. وفي دلالة على أهمية التجاء العبد إلى الله تعالى، وفي كل ما يقدم عليه من فعل، ولدى سائر ما يعزم عليه من ترك؛ ولأن الله تعالى هو الذي بيده أزمة الأمور، وأنه تعالى بيده مقاليد السماوات والأرض، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ولما كان هذا القضاء من رزق، فكان حريا دعاؤه صلى الله عليه وسلم، لهذا العبد، التقي، النقي، الخفي، علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، بالسداد في مهمته، وبالتوفيق في أداء رسالته.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم، ولعلمه بمدخل عظيم لمهمة القضاء، وحين وضع قدمي علِيٍّ علَى طريقها، وإذ كانت بداية هذا الطريق، ومن قوله صلى الله عليه وسلم: يا علي: إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقض بينهما، حتى تسمع من الآخر، ما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك.

وهذا يعد في الواقع صنوان القضاء، وأساسه، وذروة سنامه، والأمر جد، ليس متعلقا كثيرا بإعمال النصوص فحسب، ولكنه متعلق بمدى سبر القضية المعروضة، والخروج منها، ومن دروبها بخلاصة الحكم، وكيما تنطبق على ذلك النصوص الحاكمة، وهذان أمران جد مهمان:

الأمر الأول: وجوب سماع أطراف الدعوى جيدا، وهذا السماع جد عظيم، وليس من أطرافها وحسب، وإنما من تجرد السماع أيضا! وهذا الذي يورد القاضي

مهلكته، وحين لم يكن واعيا لمهمته جد وعيها! وما أعظم تجرده! وأجمل بحيدته! وحين يكون فيصلا، وحين يكون قائدا، ولما يكون سائقا ودليلا.

الأمر الثاني: هو ذلكم العلم بالنصوص الحاكمة، والتي سينبني عليها قراره وحكمه، وهذه النصوص لها سبرها أيضا، ولدى جوانبها الشكلية، وعند مواردها الموضوعية، وهما أمران جد حاسمان في المسألة، ومن مطلق ومقيد، ومن عام وخاص، ومن أسباب نزول، ومن ناسخ ومنسوخ، ومن فقه لغة، ومن دلالات الألفاظ، ومن مناطات الأحكام، ومن عادات وأعراف، ومن اختلاف الأطراف، والمشارب، والمداخل، والمخارج، والنوازع، والمشاعر، والهواجس، والمقاصد، والرضا، والغضب، والغصب، والإكراه.

وقد بان لقارئ كريم مقصدنا بالنصوص، وإذ ها هي نصوص كتاب ربنا، وكذا سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومنه إننا نعرض النظر، ونكف البصر، عما سواهما؛ ولأن الحكم بهما هو الإيمان، ولأن الحكم مما سواهما فناقض لهذا الإيمان، وطاعن في هذا الإسلام. وربنا الهادي لأمة رشيدة، أن تعود إلى الكتاب، وأن تقضي بما فيه، وكذا سنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أمر حري بها أن تتبوأ مقعدها بين الأمم، وأن تنال الفوز يوم الحساب.

ولكن مراعاة المزاوجة بين جانبي الإجراءات، ومن حيث الشكلية منها والموضوعية معا؛ ولأن الضرب على وتر إحداهما، دون الأخرى، وإنما هو أمر يصيب الدعوى برمتها من مقتل، وتظل عالقة كالمعلقة! لا هي قد طلقت، وقد سرحت بإحسان، ولا هي قد أمسكت! فأمسكت بإحسان! فتراوح مكانها، وكيما ييأس الخصوم من تداعيها، وكيما يتفلت المدعون من دواعيها!

ولكن عليا رضي الله تعالى عنه، وإذ حالفه التوفيق الرباني، وإذ وافقه التسديد الإلهي، ولما قال من إثر دعائه صلى الله عليه وسلم له: فما شككت في قضاء بين اثنين.

وهذه بركات الدعاء، ولاسيما ولما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكأنه نظام العبد، وحين يسلك طريقا، وإذ ها هو متأبط بالدعاء، وإذ ها هو متسلح بالالتجاء، إلى الله تعالى رب الأرض والسماء، ولأن العبد في البدء وفي المنتهى، ليس يملك من الأمر شيئا، ولأن الأمر كله لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

ولكنما أحسب أن موقف عليٍّ هذا من القضاء كان خشية؛ ولأن الرجل كان فقيها، وعالما، ونحريرا، وإنما يكون هذا الصنف من الناس هذا شأنهم، عن القضاء ترفعا، وخوفا، ووجلا، وخشية.

وإنما قلت قولي هذا؛ ولأن عليا بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه هذا نفسه، هو الذي قال يوما: سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل.[١].

ولدينا مثالان، تطبيقيان، عمليان، دالان على ذلكم السداد، وما مُنِحَهُ عليٌّ من رب العباد:

المثال الأول: ويوم أن رفعت أمامه قضية اختلاف ثلاثة الرجال، وحين وطئوا ملك يمين لهم، وكان حكمه فيها على القرعة بين الثلاثة، وأيهم خرجت عليه ألزمه ثلثي الدية، ونسب الولد إليه! ومن ثم يقسم الثلثين على الاثنين الآخرين اللذين خرجا من القرعة، وحين وصل خبر ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا أعلم إلا ما قال علي!

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٤/٣٣

وهذا أمر جد رشيد، وحين يحكم هذا الإمام بحكمه تعالى، وبرهان موافقته لقضاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ ها هو من أصغر الناس سنا، وإذ ها هو حديث عهد بالقضاء!

ولكن القرعة عمل مشروع، وعند عدم القدرة على إيجاد الدليل، ولما كانت هي غاية المقدور عليه، وعند فقدان مرجح غيرها كالبينة، أو الإقرار، أو القافة.

ولكن البراعة والفطنة، ولما لم يسأل علي عن هذا العمل، وكيف أتوه من طهر واحد؛ ولأن ما وقع بعد كان أعظم! وهذا من باب حسن هذا الدين، وحين أرخى سدول ستره على العصاة والمذنبين، ولما أحاطهم هكذا بحجابه! أو كأن جناية أعظم غطت على مخالفة أدنى، أو كأن المخالفة يسبرها استغفار الغفار القهار وكفى، ومن حيث ليس عليها من حد، ويجبرها ذلكم استغفار العبد. أو قل: وكأن الجميع مؤتلف.

فعن زيد بن أرقم: كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء رجل من اليمن فقال إن ثلاثة نفر من أهل اليمن أتوا عليا يختصمون إليه في ولد وقد وقعوا على امرأة في طهر واحد فقال لاثنين منهما طيبا بالولد لهذا فغليا ثم قال لاثنين طيبا بالولد لهذا فغليا ثم قال لاثنين طيبا بالولد لهذا فغليا فقال أنتم شركاء متشاكسون إني مقرع بينكم فمن قرع فله الولد وعليه لصاحبيه ثلثا الدية فأقرع بينهم فجعله لمن قرع فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت أضراسه أو نواجذ. [١]

وبعد، فاختلف الفقهاء في هذا الحكم، فذهب إليه إسحاق بن راهويه، وقال: هو السنة في دعوى الولد، وكان الشافعي يقول به في القديم، وأما الامام أحمد، فسئل عن هذا الحديث، فرجح عليه حديث القافة، وقال: حديث القافة أحب إلي.

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٢٦٩

عشرون: الاقتراع في النسب

وهاهنا أمران:

أحدهما: دخول القرعة في النسب.

والثاني: تغريم من خرجت له القرعة ثلثي دية ولده لصاحبيه.

وأما القرعة، فقد تستعمل عند فقدان مرجح سواها من بينة أو إقرار، أو قافة، وليس ببعيد تعيين المستحق بالقرعة في هذه الحال، إذ هي غاية المقدور عليه من أسباب ترجيح الدعوى، ولها دخول في دعوى الإملاك المرسلة التي لا تثبت بقرينة ولا أمارة، فدخولها في النسب الذي يثبت بمجرد الشبه الخفي المستند إلى قول القائف أولى وأحرى.

وأما أمر الدية فمشكل جدا، فإن هذا ليس بموجب الآية، وإنما هو تفويت نسبه بخروج القرعة، فيقال: وطء كل واحد صالح لجعل الولد له، فقد فوته كل واحد منهم على صاحبيه بوطئه، ولكن لم يتحقق من كان له الولد منهم، فلما أخرجته القرعة لأحدهم، صار مفوِّتا لنسبه عن صاحبيه، فأجري ذلك مجرى إتلاف الولد، ونزل الثلاثة منزلة أب واحد، فحصة المتلف منه ثلث الدية، إذ قد عاد الولد له، فيغرم لكل من صاحبيه ما يخصه، وهو ثلث الدية.

ووجه آخر أحسن من هذا، أنه لما أتلفه عليهما بوطئه ولحوق الولد به، وجب عليه ضمان قيمته، وقيمة الولد شرعا هي ديته، فلزمه لهما ثلثا قيمته، وهي ثلثا الدية، وصار هذا كمن أتلف عبدا بينه وبين شريكين له، فإنه يجب عليه ثلثا القيمة لشريكيه، فإتلاف الولد الحر عليهما بحكم القرعة، كإتلاف الرقيق الذي بينهم.

ونظير هذا تضمين الصحابة المغرور بحرية الأمة قيمة أولاده لسيد الأمة لما فات رقهم على السيد لحريتهم، وكانوا بصدد أن يكونوا أرقاء، وهذا ألطف ما يكون من القياس وأدقه، وأنت إذا تأملت كثيرا من أقيسة الفقهاء وتشبيهاتهم، وجدت هذا أقوى منها، وألطف مسلكا، وأدق مأخذا، ولم يضحك منه النبي صلى الله عليه وسلم سدى. وقد يقال: لا تعارض بين هذا وبين حديث القافة، بل إن وجدت القافة تعين العمل بها، وإن لم توجد قافة، أو أشكل عليهم، تعين العمل بهذا الطريق(١).

وأورد الإمام أبو داود السجستاني رحمه الله تعالى هذه الترجمة: باب من قال بالقرعة إذا تنازعوا في الولد، أي: أن القرعة يفصل بها بين المتنازعين في الولد، ويتصور ذلك -كما جاء في الحديث- إذا وطأ ثلاثة أشخاص مملوكة لهم في طهر واحد، وهذا لا يجوز، أعني: أن يطئوها جميعا، بل يطؤها واحد منهم، ولكن قد حصل هذا وهي ملك يمين لهم، وجاء من هذا الوطء في هذا الطهر ولد، فجاء في هذا الحديث عن علي أنه أقرع بينهم، فضحك الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك، وهو صلوات الله وسلامه وبركاته عليه لا يضحك من الباطل، أي: أنه أقر ذلك، وأن القرعة هي التي يفصل بها بين هؤلاء الذين تنازعوا في ذلك الولد، فكل واحد منهم يدعيه، فقد وطئوها جميعا في طهر واحد، وقد طلب من كل منهم أن يتنازل عن مطالبته وعن حقه إلى شخص منهم، وذلك بأن يتنازل اثنان منهم لواحد، ثم اثنين وهكذا حتى يدور عليهم، فأبوا كلهم وتمسك كل بحقه ويريد الولد، فقال علي رضي الله عنه: أنتم شركاء متشاكسون، وإني مقرع بينكم فمن خرجت له القرعة كان له الولد، وليدفع للآخرين ثلثي الدية، أي: ثلثي القيمة؛ لأن الأمة ليس لها دية وإنما لها قيمة، فأقرع بينهم،

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم: ٥/٣٨٣

فخرجت القرعة لواحد منهم فأعطاه الولد، وألزمه بأن يدفع لهما ثلثي القيمة، وفي هذا دليل على أنه لا يلحق الابن بأكثر من أب.[١]

المثال الثاني: ويوم أن روى الإمام أحمد: عن علي قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فانتهينا إلى قوم قد بنوا زبية للأسد، فبينا هم كذلك يتدافعون إذ سقط رجل، فتعلق بآخر، ثم تعلق رجل بآخر، حتى صاروا فيها أربعة، فجرحهم الأسد، فانتدب له رجل بحربة فقتله، وماتوا من جراحتهم كلهم، فقام أولياء الأول إلى أولياء الآخر، فأخرجوا السلاح ليقتتلوا، فأتاهم علي رضي الله عنه على تفيئة ذلك، فقال: تريدون أن تقاتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي؟ إني أقضي بينكم قضاء، إن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجز بعضكم عن بعض حتى تأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فيكون هو الذي يقضي بينكم، فمن عدا بعد ذلك، فلا حق له، اجمعوا من قبائل الذين حضروا البئر ربع الدية، وثلث الدية، ونصف الدية، والدية كاملة، فللأول الربع، لأنه هلك من فوقه، وللثاني ثلث الدية، وللثالث نصف الدية، فأبوا أن يرضوا، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو عند مقام إبراهيم، فقصوا عليه القصة، فقال: أنا أقضي بينكم، واحتبى، فقال: رجل من القوم: إن عليا قضى فينا، فقصوا عليه القصة، فأجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٢]

وقد استدل بهذا القضاء الذي قضى به أمير المؤمنين، وقرره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن دية المتجاذبين في البئر تكون على الصفة المذكورة، فيؤخذ من قوم الجماعة الذين ازدحموا على البئر وتدافعوا ذلك المقدار، ثم يقسم على تلك الصفة فيعطي الأول من المتردين ربع الدية ويهدر من دمه ثلاثة أرباع لأنه هلك بفعل

---

(١) كتاب شرح سنن أبي داود للعباد، عبد المحسن العباد:٢٤/٢٥٥

(٢) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٥٧٣. خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف.

المزدحمين وبفعل نفسه وهو جذبه لمن بجنبه، فكأن موته وقع بمجموع الازدحام ووقوع الثلاثة الأنفار عليه، ونزل الازدحام منزلة سبب واحد من الأسباب التي كان بها موته، ووقوع الثلاثة عليه منزلة ثلاثة أسباب، فهدر من ديته ثلاثة أرباع، واستحق الثاني ثلث الدية لأنه هلك بمجموع الجذب المتسبب عن الازدحام ووقوع الاثنين عليه، ونزل الازدحام منزلة سبب واحد ووقوع الاثنين عليه منزلة سببين فهدر من دمه الثلثان لأن وقوع الاثنين عليه كان بسببه، واستحق الثالث نصف الدية لأنه هلك بمجموع الجذب ممن تحته المتسبب عن الازدحام وبوقوع من فوقه عليه وهو واحد وسقط نصف ديته ولزم نصفها، والرابع كان هلاكه بمجرد الجذب له فقط فكان مستحقا للدية كاملة، ولم يجعل للجناية التي وقعت من الأسد عليهم حكم جناية من تضمن جنايته حتى ينظر في مقدار ما شاركها من الوقوع الذي كان هلاك الواقعين بمجموعهما.[١]

وقوله: زبية للأسد، الزبية بضم الزاي وسكون الموحدة بعدها تحتية، وهي حفرة الأسد، وتطلق أيضا على الرابية بالراء. قال في القاموس: والزبية بالضم الزابية لا يعلوها ماء ثم قال وحفرة للأسد انتهى. والمقصود هنا الحفرة التي يحفرها الناس ليقع فيها الأسد فيقتلونه[٢].

---

(١) نيل الأوطار، الشوكاني: ج ٧/٢٣٥

(٢) نيل الأوطار، الشوكاني: ج ٧ / ٢٣٥

الفصل الثاني: حجة الوداع!!!

أولا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

هذه هي الآية الثالثة من سورة المائدة، وكما هو بين من ألطافها، هو ذلكم تقاطر الدمع من وجنتيها، وانهمار المقل من حواليها، وانسكاب الشجون من ضفافها، وتهاطل السكون من موجاتها، المتهدهدة، وليس من عهدها، بل فورانها، وثورانها، وتسارعها، وتجديفها، وتداخلها، وتراكبها، وقد تناست عهدها، ووقفت تحكي قصة الألم، وحكاية الثلم، وحين رأت هذا النبيَّ يرقى عرفات ملبيا، وإذ لم يكن يعلم أن هذا هو أخر عهده به، بأبي وأمي ونفسي هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويكأنه الكون كله قد أرخى سدول الغشية، وقد أنزل أستار الخشية، وإذ ها هو يرقب نبينا يصعد عرفات الله تعالى ربه، ملبيا، مناديا، داعيا، خاشعا، متبتلا، قانتا، ويكأنه يهطل دمعا، ويكأنه يسكب حزنا، ويكأنه يرقب من بعيد هذا العهد الذي ملأ الكون عدلا، ورحمة، وإلفا، وسماحة، وعفوا، وحلما، ورحمة، ونبلا، وشيما، وقيما، وهمما، تسامت من عليائها، وتعالت من سمقها، وتنادت من علوها، وإن ههنا محل العبرات، والزفرات، وإن شمس الهدى قد حل يوم مغيبها، وأن قمر النور قد اضمحل خفوتا، ويكأنه من زينته بدا يغالب النهار يوما، ويكأنه من سكونه علا يقارب الشمس ضياء، وعطاء، وهبة، ومنحا، وهما أولاء يضفيان على الكون ظلال الفراق، وها هما يطلان إطلالة المودع، وعن قريب، ويكأنه الكون، تراه باكيا، ويكأن وجودا تحسبه منكسا، وها هي عينه دامعة، وها هو قلبه قاطرا، وها هو فؤاده حاسرا، وقد قرأ في عناوين الكون وصفحاته، ومن خلال دفقاته ونبضاته، هذا النبأ العظيم، وهذا الخبر المبين، ويكأنه استحضر سنن الله الباقية، ويكأنه عايش ما كان خبرا مواتيا، ويكأنه وعن لمح بصر

سيحياه طوعا، أو كراهية، وكم من نجم قد أفل يوما، وكم من ضياء قد انخفت يوما، وكم من نور قد تهدهد يوما، غير أن الحق الذي لا ريب فيه، هو ذلكم النظر، والعبر، والبصر، واللمح، ولجلجة الصدور، وغليان المراجل، واضطراب الأحاسيس، وتداخل المشاعر، واهتزاز الأوتار، وعند القراءة مرة أخرى، ولدى التلاوة كرة ثانية، ولاستحضار ما وراء الكلم، وإذ وراءه ما ليس يقدر قلم عن وصفه، وما ند بيان عن نعته، ومرة أخرى، وحين يسمع، أو حين يقرأ، أو حين يخبر، أو ينبأ، وإذ كل ذلك من معنى واحد، وإن اكتنفته تعابير الألسن، وبيانات الأقلام، وهمهمة الجفون، وإذ هي تحاول أن تغمض مرة، وكيما لا ترى حدثا حملته الآية، أو أن تتسمع حدثا بعثته الآية، أو أن ترى ولو من بعيد بصيصا يقصص قصة الفراق، ونبأ يحكي رواية البعاد، ومن بعد صحبة غنى لها الكون أغنيته، وأنشد لها الوجود أنشودته، وكتب لها البلغاء ما سطره بيانهم الساحر البيان، وحين استحضر هؤلاء وهؤلاء قول رجل، صاحب الإنس، وأبلغ الجن، وترنم القرآن، ودعا للرحمن، وأسلم على يديه الجن والإنسان، وقد عم الكون نور هديه، وقد اكتست الأرض بقناديل سعيه، ووحيه، وإذ ها هي تناظر حولها، وهل من مصدق لما آل به معنى آية المائدة، وما قد حملته إلى القارئين، لطيفا، رفيقا، حانيا، من تهدهد، ومن ترفق بأولاء أناس، عاشوا الهدى، من صورة هذا النبي، وصاحبوا الخير، من دلال هذا الرسول، واستقوا النفع كله، من في، ولسان، وبيان هذا الرسول، وإذ ها هو نلمحه، ونبصره، ونراه، وقد رأينا ميراثا خالدا، يهدي العالمين، كل العالمين، ويكأنه لذلك ترى الدمع حزنا، ومما لا يطاق خبره، وكما لا يكاد يستحضر شجيه، ولولا أن الله تعالى قد تحملت آياته الخبر، ولولا أن الله تعالى قد تراسل قرآنه النبأ، ويكأنه من لطف العبارة، ويكأنه بحنو الإشارة، وأن يوما وعساه ألا يكون وقد قرب عهده، وأوشك قدومه، والناس ما بين شاك به، ومصدق به، ويكأنه عمر

الفاروق، قد عنه عبر، وأبان، وأوضح، وابن عباس الإمام الحبر الترجمان، وحين أنزل الله تعالى قوله الحكيم، وخبره اليقين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

وكذا وحين قال الله تعالي **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾** [النصر:١-٣]. وحين قال الله تعالى أيضًا **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾** [البقرة:٢٨١]. وحسبنا!

ولكن حجة الوداع ويكأنها وداع هذا الرسول للدنيا، وقد حل يوم ميقات ربه، والأجل الموعود.

وقد أسموها حجة الإسلام: ولأنه صلى الله عليه وسلم أدى بها فرض ربه، الحج إلى بيت الله الحرام، وإذ كانت هي حجته الأولى ومن بعد بعثته صلى الله عليه وسلم ولما جاء هذا وقتها، وبه علمنا ان الحج وقد فرض عامه التاسع أو العاشر وعلى قول في ذلك.

وقد أسموها حجة البلاغ، ولأنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ فيها أمر ربه، وأبان عن أصول الملة، وأوضح قواعد الشريعة.

ثانيا: غزا تسع عشرة غزوة، وأنه حج بعد ما هاجر حجة واحدة.

هذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

وهذا حديث مبين عن هكذا مهمة الولي الأولى، وهي القيام على أمر هذا الدين نشرا، ودعوة، وجهادا، وألا يغمض طرفا، أو أن ينام قريرا، وإلا أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

ويكأننا نلحظ من نص حديث الإمام البخاري هذا، أن هذا النبيَّ العربي الأمي القرشي الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم، وقياس النسبة، قد حج مرة واحدة، ومقابل أن غزا تسع عشرة غزوة! يعني ما نسبته: واحد من عشرين! ويعني ٠,٠٥ بالتقدير المئوي أيضا!

ويكأن هذه هي الرسالة، والرسالة ههنا، وفيما يتبدى لنا هي أولوية القيام على النفع المتعدي، مقابلة النفع غير المتعدي، فالنفع المتعدي أولى، وأحكم، وأفضل، ولأنه ينفع أمة بأسرها، وهذا على العكس من النفع الشخصي، أو غير المتعدي، فإن نفعه عائد على فاعله وحسب، وبالتالي يكون أجره على قدر نفسه، وحسب أيضا، ولما الأجر وحين يكون النفع متعديا، فإن له من أجره، ومن مثل من عمل به، إلى يوم القيامة، ودون أن ينقص من أجره شيئا.

وهذه كلية قمنة بالدرس، والتقدير، والبيان، والتأمل.

وثمة جانب آخر ليس يقل أهمية، وعما سلف، وحين النظر الى هذا النفع العام، ويكأنه الغزو، وويكأنه الوقوف على أمر هذا الدين، وأن هذا من معالى الأمور، وأن وظيفة الولي هي ذلكم إحقاق الحق، وحيثما كان الزمان أو المكان، وأن هذا الدين يعوزه رجاله، أولاء السائرون على نشره، توحيدا، وإفرادا، وعقيدة، ومنهاجا، وسبيلا،

وأطر المخالف عليه أطرا، ولصالح هذا المخالف نفسه، قبل أي شيء آخر، ولأن هذا الدين طهارة بأحكامه، وعزة ببيانه، ورفعة بأصوله، وقواعده، وحين جعل العبودية لله تعالى وحده، وليست لأحد من الناس، ولما كان هؤلاء الآحاد هم أولاء آحاد! لا يختلفون عن غيرهم من الناس، وإلا أنهم آحاد مثلهم، ومن هنا تكون العزة، ومن هنا تكون الكرامة، ومن هنا يكون السؤدد، والرقي، والعلو، وأما حين يختار العبد لنفسه، وبنفسه، حياة الهوان، والذلة، والدنية، فلا يلومن حينئذ سوى نفسه التي بين جنبيه، وأنه هو وحده الذي مرغ كرامة نفسه في التراب، وحين رضي أن يكون عبدا لغير مولاه تعالى، ذلكم الرب القهار العزيز المتكبر الغفار، سبحانه.

والحاصل أنه صلى الله عليه وسلم، وقد حج مرة واحدة، وقياسا على أنه غزا تسع عشرة غزوة، ولا بل ليس ذلك فحسب، وإنما غير سرايا قد أمر بها، والتي بلغت وعلى ما قيل ثلاثا وسبعين سرية! وإذا أضفناها إلى التسعة العشرة غزوة، يكون ما حاصله اثنان وتسعون عملا جهاديا فتحويا! وخلال عشر سنين! يعني ما معدله عشر أعمال جهادية فتحوية، لكل عام واحدا! وإذ كانت نسبة اعتماره وحجه إلى ذلك ما حاصله أربعة من اثنين وتسعين يعني تقريبا أربعة من مائة (٠٤،)، وحين يعرف هذا، يعرف كم كانت مهمة الأنبياء على الحقيقة! وكم كان عملهم وبذلهم! وحتى أسلموا لنا هذا الدين غضا طريا! وإذ ترى غبشا قد خيم، وإذ ترى ضبابا قد طم، وإذ ترى ظلاما حالكا قد حل! وما منه دعوة إلى الدرس مرة أخرى، ومحاولة الجواب عن سؤال: أين الناس اليوم من سبيل نبيهم، وإلى أين هم غادون وقد أبدوا النجعة؟!

وعلى كل حال، فهذا هو الذي تركه لنا التاريخ، وكيما يكون حجة على كل أحد عرف، وكيما يكون برهانا أمام كل أحد قصر، في البحث، والدراسة، والتأمل، والتحليل، ومحاولة الوقوف على مهنة الأنبياء الأولى أيضا.

فإنك قد رأيت، وكم كان جهاد رسولك محمد صلى الله عليه وسلم، وبذله في الله تعالى، وعلى طيلة ثلاثة وعشرين عاما كاملة.

ولكننا نقف ههنا!

وإن قيل: ولماذا؟

وأقول: ولأن أمة، وبهذا المجد، أو غير هذا المجد، لم يحك التاريخ أنه قامت مثلها أمة، أو أمم، في هذا الحيز الزماني القصير، وإذ تفتح آفاق العام كله، وحتى كان هذا العالم بها منيرا منيرا، وحين قدمت لهذا التاريخ، وعلى مائدة هداها، ذلكم المثل النبيل، لأمة جاءت لإخراج الناس، كل الناس، من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد للعباد، وإلى عبادة الله تعالى وحده رب أولاء العباد، أجمعين!

وها أنت قد رأيت ثنتين وتسعين: ما بين غزوة قد غزاها نبيك، أو سرية بعثها أيضا رسولك، وها أنت قد رأيت كيف كان نبيك هذا يمشي بين الناس في الأسواق، داعيا إلى الله تعالى بالتوحيد، والسراج المنير، وإذ كان يغشى الناس مجالسهم، أو حجهم، أو أسواقهم، ولم تكن له وظيفة، وإلا هذا الذي بين يدي التاريخ، دعوة إلى التوحيد، وعملا بالمنهج.

وهذه رسالة أخرى، وإن دعوة على غير منهاج النبوة، وقد أمكنه صلى الله عليه وسلم القيام بها، ومن مثل دعوة إلى اقتصاد خال من الربا، وقد كان الناس يرزحون تحت نيره وقيظه وناره، ومن مثل دعوة تطوعية لمد موائد الاطعام وسواعده، وبدل أن يئنوا من الربا، وإذ ها هم تقدم إليهم موائدهم وبعيدا عن حاجتهم إلى هذا الربا! ومن مثل دعوة ثانية، وإلى حياة اجتماعية لمحاربة وأد البنات، وقد كانت زاكمة، ويئن من وطأتها ذلكم المجتمع الجاهلي العربي بأسره، وقد كان ليجد لها هذا النبي أنصارا كثرا!

ويكأنه؛ ولأنه ليس هذا هو الطريق، وبالتالي فلم يفعل، بل فعل الشديد منه، ولأنه تثبيت العقيدة أولا، ونبذ الشرك أولا، ونشر التوحيد أولا، وأن يؤخر ما عدا ذلك، وإلا أن يبلغ الكتاب أجله.

وقال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦].

وعلى كل حال، فإنهم وإن اختلفوا حول عدد مرات اعتماره صلى الله عليه وسلم، أثلاثا هن أم أربعا؟ ولكنهم لم يختلفوا حول أنه حج مرة واحدة، وهي الحجة التي أسموها حجة الإسلام، أو حجة الوداع، أو حجة البلاغ، وعلى ما أنف ذكره.

وإنما نشأ الخلاف من يوم حجه صلى الله عليه وسلم، وهل كان قد اعتمر مع الحج أم لا؟ ولعل بحثا لذلك إن شاء الله تعالى.

ولكن الثابت، وكما قد رأيناه في حينه، أنه صلى الله عليه وسلم كان قد اعتمر عمرة الحديبية؛ ولأنه خرج إليها محرما، وإن لم يؤدها، وكان قد قضاها العام التالي، ومن بعد صلح الحديبية، وعملا بشروطه ولأنه صلى الله عليه وسلم كان اوفى الناس وبما عقد وكان أوفاهم وبما عهد. وهذه التي أسموها عمرة القضاء، وأنه صلى الله عليه وسلم قد انصرف من الجعرانة معتمرا، وبعد انقضائه من تقسيم غنائم يوم حنين.

ثالثا: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة، فقدم مكة لخمس خلون من ذي الحجة.

هذا جزء من حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، بيان أنه صلى الله عليه وسلم قد خرج قاصدا الحج لا غيره.

وهذا بعد أن قلد أحد أصحابه أميرا على المدينة. وعلى قول بأنه كان أبا دجانة سماك بن حرشة الساعدي، أو أنه كان سباع بن عرفطة الغفاري. وهذا عمل إداري، وحين يفوض الإمام من صلاحياته كلها أو بعضها، وفترة غيابه، أو عدم قدرته على الانتصاب للعمل؛ وكيما يبقى الجهاز الإداري عاملا، فتسير أعمال الناس، ولا يتوقف دولاب العمل، ويبقى منهما، وكما لو كان الإمام على رأس الجهاز الإداري للدولة.

والحاصل أنه وهكذا استغرقت حوالي عشرة أيام، هي مدة رحلة سفره صلى الله عليه وسلم وأصحابه، من المدينة إلى مكة.

وهذا أمر ظاهر، وكيف كان نصب السفر وتعبه يوم ذاك. ولكن النصب يهون أمره، وحين يعظم أجره، وكأن المشقة من السفر هي دأبه وعمله في الأبدان والرواحل، ولهذا أعد النبي صلى الله عليه وسلم للأمر عدته.

ولكن سفرا إلى مكة من المدينة يوم الناس هذا، وربما قطع في أقل من ساعة بالطائرة! وهذا من فضله تعالى وجوده، وعلى كل حال، ولكننا أردت بيان كم كانوا ينصبون ويتعبون؛ من سفرهم، وإلا أن أمر الله أوجب، وإلا أن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين.

واللافت أنه صلى الله عليه وسلم، وحين قد خرج، وإنما أعد الراحلة، وفيه التجهز للسفر، وعلى ما يتهيأ للعبد من سبل الراحة لسفره؛ وكيما يتذلل له طريقه،

وحتى يتهيأ من سبيله، وكما أنه صلى الله عليه وسلم كان قد ترجل شعره، وادهن طيبه، وارتدى لباسه رداءه، واتزر إزاره.

ولعل هذا هو الذي يكون منه، هو تأويل قوله صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.[١].

وإلا أنه صلى الله عليه وسلم لم ينه عن شيء من هذه الأردية أو الأُزُرِ، ومن حيث لونها وغيره، وإلا ما كان مزعفرا يترك في الجسم أثرا.

وهذا من يسر هذا الدين الحنيف الخالد الإسلام، وحين لم يجعل من الزي إلا ما ستر، وبغير مخيلة ولا سرف، وكما قال صلى الله عليه وسلم أيضا: كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا، ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة"[٢].

وهذا شأن عام، وحين جعل الله تعالى التزود من الحلال الطيب، وبحسب الوسع، ودون مخيلة ولا سرف، وعلى ظاهر نص الحديث الآنف ذكرا.

ولكن الناس قد وقفوا كثيرا على فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وجنبا إلى جنب مع قوله، وإذ كان فعله، وعلى ذكر حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله.[٣].

وهذا شأن التقلل، وهذا عمل التزهد؛ ولأن النعمة ربما لم تدم، فيكون العبد على حال ليس يكون مدعاة البطر بل الرضا. ولأن حب الدنيا، وإذا استولى على قلب العبد، فإنه يجمع عليه مفاسد عظيمة، ولهذا جاء في الحديث: عن معاذ بن جبل: أن

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٨١٩

(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٩٢٠

(٣) صحيح مسلم:٢٩٧٠

رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث به إلى اليمن قال: " إياك والتنعم؛ فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين " (١) .

وهذا ليس وقفا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده، بل وعلى أهله معه، تقلبا في ترك التنعم، وقد أنف تناول ذلك على حينه، وكلما عنت مناسبته في هذه السيرة النبوية المباركة.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد تجهز للسفر، وأعد له عدته، وبعد أن صلى بأصحابه الظهر أربعا، وذلك لحديث الإمام مسلم رحمه الله تعالى: صلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر بالمدينة أربعا، والعصر بذي الحليفة ركعتين [وفي رواية]: ثم بات حتى أصبح، فصلى الصبح، ثم ركب راحلته، حتى إذا استوت به البيداء أهل بعمرة وحجة. (٢) .

وهذا برهان عظم شأن الصلاة في هذا الدين.

ولست أروح بعيدا، بل قريبا، وحين رأيت أنه صلى الله عليه وسلم، وليس يبعد أنه تعمد بدء يوم سفره، وإلا بعد أن يصلى؛ تبركا بالصلاة، وهذا سنن وهدى حسن اقتداؤهما.

ولكن صلاته الظهر أربعا آكد أن سفره لم يكن يوم الجمعة، وعلى ما ذكر، وإلا كان قد صلى الجمعة ركعتين ومن بعد خطبتها، وهذا لم يرد عنه من حديث صحيح.

وكذا فقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم في ذي الحليفة، وهي ميقات أهل المدينة، ولمن مر عليها من غير أهلها، وإذ كانت صلاته العصر ركعتين، أي أنه قصر

(١) مسند أحمد ابن حنبل: ٢١٦٢٤. وقال الألباني: حديث حسن.
(٢) صحيح البخاري: ١٧١٥

الصلاة، وفيه مشروعية القصر للمسافر، للصلاة الرباعية مثنى مثنى، وأما غير الرباعية فلا قصر فيها.

وأنه صلى الله عليه وسلم بات في ذي الحليفة؛ لإراحة ذات نفسه، وأصحابه، ورواحلهم، من عناء السفر، وللتزود راحة، ولما هو قادم أيضا.

وقد أهل النبي صلى الله عليه وسلم بالحج والعمرة، وبعد أن استوت به راحلته. وهذا بيان قاطع أنه حج واعتمر يوم حجة الوداع هذه، وخلافا لمن رأى أنه حج فقط، ودون ان يعتمر.

والإهلال هو التلبية، وعلى نصها: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان قد أهل ثلاث مرات وطيلة سفره هذا. وهذا هديه صلى الله عليه وسلم.

ولم يكن هذا الإهلال بداية إحرامه؛ فإنه صلى الله عليه وسلم أحرم من مسجد ذي الحليفة، وأهل إهلاله الأول من هناك، ثم أهل إهلاله الثاني حين استقلت به ناقته -أي: قامت وارتفعت-، ثم أهل للمرة الثالثة حين علا شرف البيداء.

ولكنه صلى الله عليه وسلم وبعد أن ركب راحلته حمد الله تعالى، وسبحه، وكان قد أهل بحج وعمرة، وهذا برهان أنه كان قد اعتمر في حجته الأولى والأخيرة هذه، ولذلك كان قد ساق هديه وقلده.

وتقليد البدنة هو: أن يعلق في عنقها شيء ليعلم أنها هدي.

رابعا: ثم صلى بنا العصر بذي الحليفة ركعتين، آمنا لا يخاف في حجة الوداع.

هذا جزء من حديث صحيح رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قد صلى صلاة العصر قصرا لسفره بذي الحليفة ميقات أهل المدينة ولمن مر عليها من غير أهلها، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قد صار آمنا.

وهاتان وقفتان:

الوقفة الأولى: هو ذلكم نظام الضبط الإسلامي، وأن الله تعالى قد جعل هذه المواقيت المكانية للحج، أو الزمانية منها، برهان أن هذا الدين ذو ضبط، وبمعنى أنه لم يترك الناس هملا، بل جعل لهم سننا وحدودا وأنظمة، يسيرون عليها، وهذا يعني أن الإنسان متعبد بالسير على هذا السبيل الذي قد أعده الله تعالى، وكأنه تعالى قد رسم معالم المنهج، وألزم الناس بالتزام تعاليم هذا المنهج، ثم إنهم لا يملكون عنه حولا، ولا تعديلا ولا تبديلا، ولأنهم وحين يفعلون ذلك، ومما ترسمه أدمغتهم، استحسانا، فإنهم بذلك يكونون قد تعدوا ذلك المنهج، وليس ذلك فحسب، وإنما قد خبطوا خبط عشواء، ولعدم أهليتهم لرسم معالم ذلك المنهج، أو حتى رسم معلم واحد فيه!

وأنت خبير، ولما رأيت الناس يخبطون عشواء يمنة مرات لا مرة واحدة، ويسرة مرات لا مرة واحدة، وإذ ها هم من نصب إلى نصب، وإذ يحيطهم البلاء، وإذ يستحثون هم الشقاء، ويدورون حوالي أنفسهم، وما هم ببالغي حد كفافهم، وليسوا هم أنفسهم بمالكين من ذلكم من شيء، وإلا أن يعودوا وإلا أن يؤوبوا، وإلا أن يلتزموا ذلكم المنهج الوضيء، ولما جاءهم بالهدى ودين الحق والقسطاس المستقيم، والذي

منه يسعدون، وحين يكونون له متبعينه كله لا مبتدعين هم شيئا، ويوم ينتشلون أنفسهم من ذلكم الهوس الفكري، ويوم يداركوا أنفسهم من ذلكم الاستحسان العقلي، والذي أوردهم مهالكهم، وإذ وعلى أي أساس شرعوا، وإذ وعلى أي أساس غيروا، وبدلوا، وما هم بمالكين من سبيل سعادتهم من شيء، وإلا أن يتبعوا، وإلا ألا يخالفوا معالم المنهج، ذلكم المنهج الذي قد رسمه القرآن الكريم، وسنة خاتم النبيين والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا ليس عيبا، وحين يتبع الناس معالم المنهج الرباني، بل ميزة عظيمة، ولأننا سرنا في هذه السيرة النبوية المباركة سيرا حثيثا، وإنما نذكر كل مرة، وأن يلتزم الناس معالم منهج ربهم، ولأنه تعالى هو الأعلم بما يصلح الكون، فوضح ووضع أسس صلاحه، وهو الذي يعلم قواعد فساده، فأبان وأوضح أن هذا هو سبيل الشيطان، وأمرنا باجتنابه، وحين قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وها أنت قد رأيت، وكم تفرقت بالناس سبلهم، وها هم يخبطون خبط عشواء، وليسوا يملكون لأنفسهم من شيء، وإلا أن يعودوا، وإلى ذلكم المنهج الرباني، والذي فيه السعادة والصلاح، والفوز والنجاح.

الوقفة الثانية: هو ذلكم الأمان الذي خيم بظلاله الوارفة على أولاء المسلمين، ومن بعد أن كادت تتخطفهم كلاليب الكفر من جزيرة العرب، ومن حواليها، وكما قال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦].

وقد عايشنا هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه طيلة اثنين وعشرين عاما، ورأينا كم عودي، وشاهدنا كم خوصم، وطورد، وابتلي في الله تعالى، وكم صبر، وغفر، وحلم، وثبت، وجاهد، وجالد، قوما لا عهد لهم، ولا دينا ولا صراطا مستقيما، بل عوجا من القول، ومنكرا، وزورا، ولئن تلبسوه مسوح الحق، وما هو بخال عن روائحه الزاكمة، وإذ ها هو صلى الله عليه وسلم يمتطي ناقته، ولا يخاف إلا الله تعالى، والذئب على غنمه! وهذا بحد ذاته تسلية لأرباب الدعوات الصالحة، وأن يثبتوا، ولأن وراءهم فتحا قريبا، وإن طال زمانه، وإذ ها هي أماراته، ولما قد أثمرت شجراته، ولما قد صبر أولاء الثابتون على المنهج، ولما لم يحيدوا، ولما لم يجدوا في أنفسهم حرجا، ولو واحدا، وسلموا لله تعالى تسليما، ولأنهم أيقنوا وعاينوا والتزموا وتعبدوا ربهم وبقوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]. وإذ كان لزاما أن يبدل الله تعالى خوفهم أمنا، وحين كانوا يعبدونه، ولا يشركون به شيئا، وحين ثبتوا، وجاهدوا، وخلعوا عن أنفسهم لباس الراحة والسكون والفرش الوثيرة، وإذ ها هم يفتحون الأكاسرة والأباطرة، والقياصرة، ولعل ليلا وإن طال زمانه، وأن يخلفه النهار من بعده بديلا، وكان الله على ذلك قديرا.

وهذا من معالم المنهج.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك الأنصاري قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر في مسجده بالمدينة

أربع ركعات ثم صلى بنا العصر بذي الحليفة ركعتين آمنا لا يخاف في حجة الوداع.[١]

.

خامسا: اللهم اجعلها حجة غير رياء ولا مَنًّا ولا سمعة.

هذا دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم أن خرج من المدينة إلى مكة قاصدا الحج والعمرة معا.

وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ يدعوه تعالى، وكان قمنا بنا احتذاء، وكان جديرا بنا اقتداء، بهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأن نرفع أكف ضراعتنا، وأن تلهث بدعاء ربنا ألسنتنا، ولأن هذا الدعاء، وهو آلة المسلم، وهو إظهار ضعفه أمام قدرة ربه القهار، وكما أنه إبداء حاجته، وأمام مغفرة ربه الغفار، سبحانه.

وهذا الحج، أو غير الحج، كان الصنيع فيه هو ذلكم الإخلاص لله تعالى العلي الأعلى سبحانه وتعالى، وغير رياء، وغير سمعة، وغير مَنٍّ، وهذه أبجديات أسباب قبول العمل منه تعالى للعبد، وها هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يتقدم القافلة في ذلك، معلنا ولاءه لمولاه وحده لا شريك له، وحين قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد خرج من المدينة، وعلى رحل من قطيفة، تساوي أو لا تساوي الأربعة الدراهم!

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٥/١٠٢. خلاصة حكم المحدث: على شرط الصحيح.

فعن أنس بن مالك: حج النبي صلى الله عليه وسلم على رحل رث وقطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي ثم قال اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة. [١].

وهذا هو التطبيق العملي لزهد هذا النبي في الدنيا، ولتواضعه معا، وانظر كيف كان تطبيقه لنصيحته معاذا بن جبل رضي الله تعالى عنه، وتحذيره من التنعم، ولأن عباد الله ليسوا بالمتنعمين.

فعن معاذ بن جبل: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث به إلى اليمن قال: إياك والتنعم؛ فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين. [٢].

وهذا مثال واحد من أمثلة تواضعه صلى الله عليه وسلم، وأن يركب على بعير، وتحته قطيفة، وهذا هو مقدار ثمنها! وهذا هو تواضعه، وقد كان ذلك، وبعد أن فتح الله تعالى عليهم الدنيا، وحين استقرت بهم الأحوال، وبعد أن فتحوا الأمصار، وبهذا الخلق الزهد، أمكنهم ربهم أن يفتحوا به قلوبا غلفا، وأعينا صما، وآذانا بكما، وكان من الممكن أن يكونوا على شكل وزينة وأبهة، وكما يفعل أهل الدنيا. ولكنه صلى الله عليه وسلم وإذ كان حاذقا في النظر إلى هذه الدنيا، ولما كانت من الدنو، ولما كان يعلم أن هذا ليس هو الطريق.

ولكنه صلى الله عليه وسلم، ويوم أن خرج من المدينة قاصدا الحج، وإذ كان يخرج من طريق الشجرة، ويدخل من طريق المعرس إلى ذي الحليفة، ومن بعد الصلاة، وكما أنف، وإذ كان يرجع إلى المدينة، ومن وادي الشجرة، وبعد أن يصلي أيضا، وهذا وكما أنف شأن الصلاة في هذا الدين، يبدأ بها، وينتهي بها.

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٣٥٥

(٢) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٢٢١٠٥. خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف.

فعن عبد الله بن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج من طريق الشجرة، ويدخل من طريق المعرس، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج إلى مكة يصلي في مسجد الشجرة، وإذا رجع صلى بذي الحليفة ببطن الوادي، وبات حتى يصبح.[1].

ولكن أمامنا وصفا لأولاء صحب كرام، وما كان لهم من دين وخلق حسن رفيع حميد، وما كانوا قد تمتعوا به من حسن صحبة، ويكأنهم أولاء الذين كانوا أحبة، ويكأنهم أولاء الذين كانوا أصحابا، ويكأنهم أولاء الذين كانت بينهم ألفة، وما حكى التاريخ يوما مثلها!

فعن عبد الله بن عمر: صدرت مع ابن عمر يوم الصدر، فمرت بنا رفقة يمانية ورحالهم الأدم، وخطم إبلهم الجرر، فقال عبد الله بن عمر: من أحب أن ينظر إلى أشبه رفقة وردت الحج العام برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه إذ قدموا في حجة الوداع، فلينظر إلى هذه الرفقة.[2].

وإذ كان من سننه صلى الله عليه وسلم، وإذا رجع من سفر، وأن يصلي في المسجد، وقبل دخول مدينته، وقبل غشيانه أهله، وإذ كان يعلمهم بمجيئه؛ وحتى تستحد المغيبة، وتمتشط الشعثاء.

فعن جابر بن عبد الله: إذا دخلت ليلا، فلا تدخل على أهلك؛ حتى تستحد المغيبة، وتمتشط الشعثة.[3]

---

(١) صحيح البخاري: ١٥٣٣

(٢) الصحيح المسند، الوادعي: ٧٦٧. خلاصة حكم المحدث: صحيح، رجاله رجال الصحيح.

(٣) صحيح الجامع، الألباني: ٥٢٥

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان قد اصطحب معه نساءه كلهن يوم حجه هذا، وعلى ما حكت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها كانت تطيبه، وحتى طاف على نسائه كلهن، وإذ كان يخرج يقطر طيبا.

وهذا شأن هذا الطيب في هذا الدين، وحين كان من هديه صلى الله عليه وسلم الطيب.

وهذا شأن الزوجة، وحين تطيب زوجها، وحين كان ذلكم سبب إلف ومودة ورحمة، وهذا الذي كان من ثمرات هذا العقد الغليظ، ومرة أخرى مودة ورحمة! وحين قال الله تعالي ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

وهذا اهتمام الزوج بزوجته، أو بزوجاته، وحين حرص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يصطحبهن جميعهن إلى الحج، لأداء فريضة ربه، وبكأنه صلى الله عليه وسلم كان على إحساسه وشعوره وحديث قلبه، ولعله لا يقدر أن يحج من بعد عامه هذا، وقد أراد أن يقدم لهن حقهن ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ولكن أبا بكر، وقد كان من فعل غلامه أنه قد أضلت منه الراحلة، والناس في شغل واهتمام من يوم حجهم، ولا شك أنه حاجة أبي بكر إلى راحلته، جد حاجة، وكغيره، بل أشد؛ ولأنه كان كبير السن طاعنا فيه، وهذا الذي جعله غاضبا، ومن فعل غلامه هذا، وحتى قام عليه ضربا!

ولكن هذا الرسول النبي الأمي العربي القرشي محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد كان يأمر وببسمته، وإذ كان ينهي وبابتسامته أيضا، وحين ضحك من فعل أبي

بكر، خلقا نبويا حسنا، وإذ رأى أن اللبيب بالإشارة يفهم، وها هو أبو بكر كان لبيبا أيضا!

فعن أسماء بنت أبي بكر، قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حجاجا حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزلنا فجلست عائشة رضي الله عنها إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجلست إلى جنب أبي وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة مع غلام لأبي بكر فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه فطلع وليس معه بعيره قال: أين بعيرك ؟ قال: أضللته البارحة، قال: فقال أبو بكر: بعير واحد تضله قال: فطفق يضربه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم ويقول: " انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع " قال ابن أبي رزمة فما يزيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقول: " انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع " ويتبسم [١] .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم وقد بات في ذي الحليفة وبأمر من ربه تعالى، وعلى حد بيانه صلى الله عليه وسلم، وأن قد جاءه الوحي وبما يصنع.

فعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم بوادي العقيق يقول: أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة. [٢].

---

(١) مسند أحمد : ٢٦٣٢٨

(٢) صحيح البخاري: ١٥٣٤

وهذا برهان الالتزام، وهذا بيان التقيد، وهذا دليل التعبد، وهذا موجب الإخلاص والتجرد، وحين كان رسولا نبيا، ويعمل، وليس يعمل إلا بوحي. ومنه فقد كان غيره بذلك أولى.

وهذا الذي قال الله تعالى عنه، وفي غير ما موضع من القرآن الحكيم، ومن مثل قوله سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

سادسا: صلِّ في هذا الوادي المبارك وقل عمرة في حجة

هذا جزء من حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

وهو امتثال هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه تعالى، وهذا عنوان العبودية له تعالى، وأن يمتثل العبد من شرع، ومن برهان، ومن دليل، لا من عقل، ولا من هوى، ولا من استحسان، وحين وجود ما سبقه من أصول الاستدلال، ومن كتاب وسنة، ومن إجماع أهل السنة.

وسواء كان هذا الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام وحيا، أو كانت رؤيا منام، ورؤيا الأنبياء حق لا ريب، وإنما كانت تأتي كفلق الصباح. والحاصل أنه تأويل صدق، وأن وادي العقيق هذا واد مبارك، وبنص هذا الحديث، وكم من مكان كان ولا يزال مباركا، ولكنه وحين ينزل في هذا وحي، فثمة الوقوف عنده، والنظر من ثم إلى أن هذا المكان أو هذا الزمان مبارك، ومن حيث قد نص على ذلك، وكما هو الآن معنا.

ولكن هذا وادي العقيق، وإذ كان مباركا، وكما أنف، وإلا أنه كان مباركا في جاهلية الناس، ولما كان يحمل سيول الأمطار، وبما تحمله من أسباب الخير والنماء للناس، ولذا كان أهل المدينة ينظرون إلى هذا الوادي نظرتهم تلك.

وهذا الذي جاء الإسلام الحنيف الخالد بإقراره، ولما كان قد أقر ومحا وأبطل وعدل من العادات والموروثات، وبحيث تكون الباقيات موافقة لصحيح الدين.

ولكن هذا وادي العقيق، وإذ يقع قرب البقيع، من المدينة النبوية المكرمة.

ومازال الكلام مستمرا، وليس يكاد ينتهي، حول أهمية الصلاة، ولما كان أمر الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم له بها، وبقطع النظر عن ماهية هذه الصلاة، أو عنوانها.

ولك أن تسأل: ولم الصلاة كانت متفردة ذكرا وهنا وهناك، ومن بعد الإحرام، ومن بعد الطواف، وعند الاستخارة، وما سوى ذلك، وإلا لعظمها، وشأنها، ورسالتها العظمى في التهذيب، وإلا لقيمتها القصوى في التأديب؟!

ولنظل في ظلال الصلاة، وحينا من بعد حين آخر، مذكرين، ومبينين، وشاحذين الهمم العالية، والقمم السامية، وكيما تعلو بصلاتها، في الآفاق، وكيما تسمو بها في النواحي والأرجاء، معلنة أن ههنا العبودية لله تعالى العلي الأعلى سبحانه. ومنضافة إلى موجبات أخر لهذه العبودية، ولما كان يعلوها ويتقدمها هذا التوحيد، الذي هو إفراده تعالى بالعبادة، ونبذ الشركاء والأنداد والنظراء، وحين كان موجب ذلك أنه لا أمر إلا أمره، ولا نهي إلا نهيه تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وترك ما عليه الناس من استداركات على الله تعالى، وإذ ليس يملك أحد هذا الاستدارك، وليس

ببالغه؛ ولأنه تعالى ما ترك خيرا وإلا دلنا عليه، وما ترك شرا وإلا نهاناه عنه، هدى ورحمة.

ولكن هذه الصلاة وحين قد أمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد حملت على أنها ركعتا الإحرام، ولما كان ذاهبا إلى حجة الاسلام والوداع والبلاغ، ولرب ذلك.

ولكن أمر الوحي له صلى الله عليه وسلم بالقران بين الحج والعمرة؛ ومن قوله: وقل عمرة في حجة. وهذا يحمل أمورا منها:

الأمر الأول: هو شرعية القِرَانِ بين الحج والعمرة، وهذا من يسر ديننا، ومن رفعه الحرج عنا، ولما كان بالإمكان أن يقرن العبد بين حجته وعمرته معا، ولينال أجرهما معا، وهذا الفضل من الله، والله ذو الفضل العظيم.

وعلى كل حال فإن هذا من جوده، وإن هذا من كرمه تعالى، وحين يكتب لعمل واحد من صورته أجر عملين معا، وهما الحج والعمرة.

الأمر الثاني: هو ذلكم الهَدْيُ، ونظير القِرَانِ، ولنكبر الله على ما هدانا، ولعلنا أن نكون من الشاكرين، وهذا ملحظ دقيق، ولما كان الله تعالى يغدق على العبيد فضله، ومن مثل أجرين؛ ومن سبب عمل واحد في الصورة، وانما فرقت بينهما النية، عملين مقترنين، فكان قمنا شكره، وكان حريا ثناؤنا عليه تعالى. وما تقديم هذا الهدي إلا صورة أخرى منضافة من صور الشكر له تعالى، والتذلل له بالعبودية.

الأمر الثالث: هو إبطال ما كان عليه عرب الجاهلية الأولى، ومن تحريم القِرَانِ بين العمرة والحج، وهكذا جاء الإسلام الحنيف الخالد، وليبطل ما ابتدعوه من جهلهم، وليحق ما كان حقا من ربهم، وإذ ليس للإنسان أن يشرع شرعا ما أنزل الله تعالى به من سلطان، وحين يأتي الشرع بإزالة هذه العمايات من دنيا الناس، وإذ كان

من شأنهم هو الوقوف والتأمل والتعبد عند قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦].

الأمر الرابع: هو ذلكم التتبع الحثيث لأفعال هذا النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله، وحرص أولاء الصحب الكرام البررة على الاستنان بهديه، وحين رأينا هذا الزخم في التتبع، ولما لمسنا هذا الحرص في الاقتداء، سننا لنا وهديا حسنا، وأن نتابع، وأن نستن، وألا نتدارك على الله تعالى، ولأن إرهاق العقول، وفيما جاء به النص، أو ظله! وإنما معناه هو ذلكم الاستدراك عليه تعالى، وهذا معناه قصوره تعالى، والله تعالى ليس يقصر عنه من شيء، ولما كان هو العليم، وحين كان هو اللطيف الخبير أيضا سبحانه.

الأمر الخامس: هو ذلكم المعنى ومن قوله: عمرة في حجة. وحين وقف الناس وقفاتهم، وعند حرف الجر (في)، وعما إذا كان من معنى مع، وبه تكون عمرة مع حجة، فيكون الإحرام بهما معا. أو كان حرف الجر (في) قد جاء بمعناه على الظرفية، أي: إدخال العمرة في الحج، ومن بعد نية الإحرام الأولى به، ومن ثم يصير قَارِنًا.

وفائدة الخلاف هنا، أنه وفي الحالة الأولى ليس يكون قِرَانًا، وليس يلزمه هدي، ولأنه جاء بمعنى الإفراد، وعنه في الثانية، ولما كان قِرَانًا، ولزمه الهدي.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عمر بن الخطاب: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم بوادي العقيق يقول: أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة.[١]

---

(١) صحيح البخاري: ١٥٣٤

سابعا: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محرم.

هذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وهو حديث عظيم الشأن؛ ولأنه يبين أمرا شرعيا فقهيا هاما، وذلكم هو جواز الطيب للمحرم، وقبل إحرامه، ولو ظل أثره ما ظل، وبدلالة بقائه بعد ثلاث، وعلى حد قول عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وفيما رواه النسائي وابن حبان رحمهما الله تعالى: رأيت الطيب في مفرقه بعد ثلاث وهو محرم. [١] .

وعلى كل حال، فإن هذا كان هديه صلى الله عليه وسلم من أمر الطيب، وكما روى أنس بن مالك: حبب إليَّ من الدنيا، النساء، والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة. [٢] .

وهذا شأن واهتمام هذا الدين بهؤلاء الثلاثة الأمور، وما أنفعها للعبد دينه ودنياه! وحين كان الطيب زكاء، والصلاة صلاحا، والمرأة الصالحة متاعا، وحين قال صلى الله عليه وسلم: الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة. [٣] .

وهذا عظم شأن الزوجة الصالحة في هذا الدين.

وبأن كل شيء حسن رزقه العبد فإنه متاع، وإنما خصص النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة الأمور، ولكرامة الأثر، ولجيد الخبر.

وفيه دلالة فرق الشعر للرجال.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر: ج ٣ / ٣١٦
(٢) صحيح النسائي، الألباني: ٣٩٤٩
(٣) صحيح مسلم: ١٤٦٧

وفيه الإشعار بأهمية الطيب، وعلى ما ذكر، وبقطع النظر عن اسمه، وإن كان تطيبه صلى الله عليه وسلم بالمسك كان كثيرا، وإذ كانوا يسمونه أطيب الطيب.

ولكننا لسنا نذهب مذهب من قال إن تطيبه صلى الله عليه وسلم كان طيبا لا لون له ولا رائحة! فإننا نضرب عن هذا، ولأنه ليس يسمى طيبا من أصله، ولعدم فائدته من أصله وفرعه. وكذا تأويلهم أن الوبيص هو أثر الطيب، وليس هو الطيب! ولأن هذا معارض لصحيح الحديث، وحين قال عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: ما أحب أن أصبح محرما أنضخ طيبا، فقالت عائشة: أنا طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم طاف في نسائه، ثم أصبح محرما. (١)

ولكننا نعرض أيضًا، وعن قول من قال إنه تطيب قبل غسله، ومن بعد طوافه على نسائه كلهن يوم حجه. ولظاهر الحديث السالف ذكرا.

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ساق مائة ناقة يوم حجه هذا، ولأنه تعالى قال ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج:٣٦].

ولكنه قيل إن عليا قد جاء ببدن من اليمن، وساقها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وساعده علي في نحرها، أو أنه قد ساقها النبي صلى الله عليه وسلم معه من ذي الحليفة والله أعلم.

فعن البراء بن عازب قال كنت مع علي حين أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن قال: فأصبت معه أواقي فلما قدم عليٌّ من اليمن على رسول الله صلى

(١) صحيح البخاري: ٢٧٠

الله عليه وسلم وجد فاطمة رضي الله عنها قد لبست ثيابا صبيغا وقد نضحت البيت بنضوح فقالت: ما لك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أصحابه فأحلوا قال: قلت لها إني أهللت بإهلال النبي صلى الله عليه وسلم. قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: كيف صنعت. فقال: قلت أهللت بإهلال النبي صلى الله عليه وسلم. قال: فإني قد سقت الهدي وقرنت. قال فقال لي: انحر من البدن سبعا وستين أو ستا وستين وأمسك لنفسك ثلاثا وثلاثين أو أربعا وثلاثين وأمسك لي من كل بدنة منها بضعة.[1].

ولكن ذكر هذا كله، وتتبع أثره وهديه صلى الله عليه وسلم ولأمره تعالى، وثنائه على فاعل ذلك، وحين قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عائشة رضي الله عنها قالت: كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محرم.[2].

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ١٧٩٧

(٢) صحيح البخاري: ١٥٣٨

ثامنا: من أين أَهَلَّ نبينا صلى الله عليه وسلم للحج؟

هذه مسألة كثر الكلام حولها، ومن موجبها هو ذلكم التتبع لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أثره، وقوله، وفعله، وتقريره، ولأننا متعبدون بكل ذلك؛ ولأنه هذا هو موجب الاقتداء، وسبب الاهتداء، ولا سيما أننا أمام أمر تعبدي، وهو ذلكم الحج ومناسكه، وإنما جاء هذا الحرص في التتبع ومن قوله صلى الله عليه وسلم: خذوا عني مناسككم.[1] ورواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه بلفظ: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه.[2]. وبالتالي كان حرصهم رضي الله تعالى عنهم على هذا التتبع.

ولكن الذي أستبق به الحديث هو ذلك الأمر الإيجابي من أولاء الصحب الكرام البررة رضي الله تعالى عنهم، وهذا ما يحسب لهم ابتداء وانتهاء أيضا، حين كان من سننهم هو ذلكم التعبد لله تعالى باتباعهم نبيهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وإن ظهر ما يبدو أنه اختلاف، وإنما هو ذلكم النوع الذي يسمونه اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

ولكن الذي أستبق الكلام به أيضا، هو ذلكم البيان، وحين رأى أحدهم ما رأى، وإذ ليس يعني ذلك إضرابا عما رآه أخوه الآخر، ومما حاصله أنه يمكن القول وإن ذلكم كله قد حصل، وعلى ما رأى هذا، وعلى ما روى هذا.

(١) غاية المأمول، ابن الملقن: ٣٠. خلاصة حكم المحدث: صحيح.
(٢) صحيح مسلم: ١٢٩٧

والـذي يكـون مـن حاصـله أيضـا هـو ذلكـم جـواز الإهـلال بـالحج أو العمـرة ومـن الثلاثة الأماكن، وعلى ما يلي ذكره بَعْدُ إن شاء الله تعالى، ولئن تحفظنا على مبدأ ذلك، وكونه كان قد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم الإهلال من ذي الحليفة، وبالتالي ليس يمنع أن يتكرر إهلاله صلى الله عليه وسلم، ومن غيرها؛ تذكرة للنفس، وإشغالا لها بالذكر.

وإنما هذا الإهلال هو التلبية أيضا، وهو: **((أن تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك؛ إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.** [(١)].

وأمامنا ثلاثة أقوال في هذا، وأعرضها فيما يلي:

القول الأول: أهل ﷺ عند مسجد ذي الحليفة: وبرهانه ما جاء عن موسى بن عقبة، عن سالم بن عبد الله: أنه سمع أباه يقول: ما أهل رسول الله ﷺ إلا من عند المسجد، يعني: مسجد ذي الحليفة. [(٢)].

وقد حدث ذلك وحين صلى رسول الله ﷺ في مسجد ذي الحليفة، وقد أهل بالحج عنده، فسمع ذلك منه أقوام فحفظوا عنه ذلك.

القول الثاني: أنه ﷺ أَهَلَّ وحتى استوت به راحلته.

فعن عبيد بن جريج: أنه قال لعبد الله بن عمر: يا أبا عبد الرحمن رأيتك تصنع أربعا لم أر أحدا من أصحابك يصنعها، قال: وما هي يا ابن جريج؟ قال: رأيتك لا تمس من الأركان إلا اليمانيين، ورأيتك تلبس النعال السبتية، ورأيتك تصبغ بالصفرة،

---

(١) صحيح البخاري: ١٥٤٩

(٢) المرجع السابق:١٤٦٧

ورأيتك إذا كنت بمكة أهل الناس إذا رأوا الهلال ولم تهل أنت حتى كان يوم التروية. قال عبد الله: أما الأركان: فإني لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمس إلا اليمانيين، وأما النعال السبتية: فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النعل التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها، وأما الصفرة: فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبغ بها، فأنا أحب أن أصبغ بها، وأما الإهلال: فإني لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهل حتى تنبعث به راحلته.[1]

وشاهده قول عبد الله بن عمر: وأما الإهلال فإني لم أر رسول الله ﷺ يهل حتى تنبعث به راحلته.

وقوله: حتى تنبعث به راحلته، أي: تستوي به الدابة قائمة إلى طريقه، والمراد ابتداء الشروع في أفعال النسك.

وظاهره جواز تأجيل الإهلال، وحتى ابتداء الشروع في أفعال النسك.

ولكن الحديث فصل هام من فصول هذا الاستنان والترسم ولأفعال هذا النبي ﷺ، ومن قبل أصحابه الكرام البررة الغر الميامين. وذلك لأنه تضمن أمورا أربعة هامة هي:

الأمر الأول: هو مشروعية مس الركنين اليمانيين. وهما اللذان يقال عنهما: الركن اليماني والحجر الأسود. ومنه عدم شرعية مس الركنين الأخريين وهما اللذان عند الحجر، وبقطع النظر عن علة ذلك، وحيث قيل: ولأنهما من قواعد أبينا إبراهيم عليه السلام، ولا ينتهض؛ ولعدم قيام علة ملائمة، وإنما هذا هو فعله ﷺ، وحسبنا

---

(١) المرجع السابق: ١٦٦

أولا، ولأننا أمرنا بالتعبد توقيفا، وهذا ثانيا، وهذا هو سر العبودية، وأنه ليس كل شأن تبدو علته، وأنه ليس كل أمر تظهر حكمته.

الأمر الثاني: شرعية لبس النعال السبتية. وهي التي لا شعر فيها، مشتقة من السبت، وهو الجلد، وقيل: هو جلد البقر المدبوغ.

وهذا فعله ﷺ، وهذا استنان عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، ومنه فلا وجه لقول من ذهب إلى الاعتراض عليه وللبسه هذا! ولأن الرجل قد استن، وحسبنا أيضا!

ولكن الناس وحين اعترضوا على عبد الله؛ ولأنه لبس نعلين من جلد مدبوغ! وإنما هذا هو لباس التنعم! وإذ نهى النبي ﷺ، وفي غير ما موضع عن التنعم، وكما قد مر بنا ذكره في حينه.

وإذ كان من رأيهم وأنه كان على عبد الله أن يلبس نعلا من جلد غير مدبوغ!!!

ويكأني بهم يقولون: وما شأن قلب عبد الله، وقلب رسول الله! وبون بينهما شاسع! فإن النبي ملك على قلبه! وإن عبد الله بن عمر لا يؤمن عليه من مخيلة! ومن لبس نعل من جلد مدبوغ!!

ولكنك واقف بذهول! ومن اعتراض على لبس نعل من جلد مدبوغ! وما الذي فيه من النعيم؟! وما قولنا: وأمام نعال الناس يومهم هذا؟!

الأمر الثالث: هو جواز الصبغ بالصفرة. وسواء كان المقصود من ذلك هو صبغ الشعر، أو صبغ الثياب، وإلا أن الأمر باق على جوازهما معا، ولعموم قول عبد الله،

ولعموم رده على عبيد بن جريج أيضا، ووقوفا عند قوله: وأما الصفرة: فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبغ بها، فأنا أحب أن أصبغ بها.

ولئن كانت النفس تطمئن أكثر إلى كونه صبغا للشعر؛ والحامل لترجيحنا هذا هو عامل الوقت والزمن والسيرة والرفقة؛ فإنه صلى الله عليه وسلم وقد خرج إلى الحج من المدينة، ومرورا بذي الحليفة، وإلى أن وصل مكة ولم يقل أحد من الذين رافقوه رحلته، بأنه كان يلبس لباسا معصفرا، وخاصة أنهم كانوا يترسمون هديه، وكما أنف ذكره، وكما هي سيرتهم مع نبيهم صلى الله عليه وسلم.

ولكن أمر صبغ الشعر أيسر، وأهون، وأسرع، وهو الذي يمكن فعله، وفي أي وقت من أوقات أيام الحج، ولا سيما أنه ليس طيبا منهيا عنه، والله تعالى أعلى وأعز وأعلم.

وهذا الذي يتأيد بحديث عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أراد الخروج إلى مكة ادهن بدهن ليس له رائحة طيبة، ثم يأتي مسجد ذي الحليفة فيصلي، ثم يركب، وإذا استوت به راحلته قائمة أحرم، ثم قال: هكذا رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يفعل. [١].

وعن نافع قال: كان ابن عمر إذ صلى الغداة بذي الحليفة أمر براحلته فرحلت ثم ركب، فإذا استوت به استقبل القبلة قائما، ثم يلبي حتى يبلغ الحرم، ثم يمسك حتى إذا جاء ذا طوى بات به حتى يصبح، فإذا صلى الغداة اغتسل، وزعم أن رسول الله ﷺ فعل ذلك.

(١) صحيح البخاري: ١٥٥٤

وعن أنس بن مالك قال: صلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر بالمدينة أربعا، والعصر بذي الحليفة ركعتين [وفي رواية]: ثم بات حتى أصبح، فصلى الصبح، ثم ركب راحلته، حتى إذا استوت به البيداء أهل بعمرة وحجة.(١).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا صلى بالغداة بذي الحليفة أمر براحلته، فرحلت، ثم ركب، فإذا استوت به استقبل القبلة قائما، ثم يلبي حتى يبلغ الحرم، ثم يمسك، حتى إذا جاء ذا طوى بات به حتى يصبح، فإذا صلى الغداة اغتسل. وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك.(٢).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا قيل له: الإحرام من البيداء، قال: البيداء التي تكذبون فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم! ما أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من عند الشجرة حين قام به بعيره.(٣).

وعلى كل حال فإنه هذا هو الترسم الحسن لسنن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ولسنا نقف كثيرا عند توجيه الكذب من عبد الله بن عمر لأصحابه، والذين هم جميعا أصحاب النبي، والذي أيضا نقف على أنه خطأ لا تكذيب عمد.

فالكذب يراد به أمران أحدهما الخبر غير المطابق لمخبره وهو نوعان كذب عمد وكذب خطأ فكذب العمد معروف وكذب الخطأ ككذب أبي السنابل بن بعكك في فتواه للمتوفى عنها إذا وضعت حملها أنها لا تحل حتى تتم لها أربعة أشهر وعشرا فقال النبي كذب أبو السنابل ومنه قوله كذب من قالها لمن قال حبط عمل عامر حيث قتل نفسه خطأ ومنه قول عبادة بن الصامت كذب أبو محمد حيث قال الوتر واجب فهذا

---

(١) المرجع السابق: ١٧١٥

(٢) صحيح البخاري: ١٥٥٣

(٣) صحيح مسلم: ١١٨٦

كله من كذب الخطأ ومعناه أخطأ قائل ذلك خبره مطابقا لمخبره كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا والإخبار به فإنه كاذب في حكم الله وإن كان خبره مطابقا لمخبره ولهذا قال تعالى فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفترى الكاذب وإن كان خبره مطابقا. [١]

القول الثالث: كان إهلال النبي ﷺ وإذا أخذ طريق أحد أهل، إذا أشرف على جبل البيداء.

فعن سعد بن أبي وقاص: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ طريق الفرع أهل إذا استقلت به راحلته، وإذا أخذ طريق أحد أهل إذا أشرف على جبل البيداء. [٢].

وهذا حديث ضعيف، وكما هو بين وواضح، ومنه فلا يلتئم الاحتجاج به، وإلا أن يكون، وكما سلف القول، وأنه استمرار واستصحاب لأمر الإهلال، وكلما عن للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك، ولكن الابتداء به يحتاج إلى دليل آخر صحيح من خارج.

وأما عن الإهلال؛ ولأنه دعاء، فقد كان من سننه، أن يستقبل القبلة، وحين أدائه ذلك.

وبعد: فهذه الطرق كلها دالة على القطع أو الظن الغالب أنه عليه السلام أحرم بعد الصلاة، وبعد ما ركب راحلته، وابتدأت به السير، زاد ابن عمر في روايته: وهو مستقبل القبلة. [٣].

---

(١) مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية: ١/٣٦٤

(٢) ضعيف أبي داود، الألباني: ١٧٧٥. خلاصة حكم المحدث: ضعيف.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ /١٣٨

تاسعا: هَلْ أَهَلّ النبي صلى الله عليه وسلم بحج أو حج وعمرة؟

وإنما كان قولنا هذا، وجريا وراء الأدلة أولا، وعملا بما عليه الناس في هذا الشأن ثانيا، وحين كانت أقوالهم دائرة حول نوع نسكه صلى الله عليه وسلم الذي أداه يومه هذا، وعما إذا كان إفرادا بالحج وحده، أو كان حجا وعمرة، وإذا كان حجا وعمرة، فهل هما قران أم تمتع؟

عن عائشة أم المؤمنين: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنا من أهل بعمرة، ومنا من أهل بحجة، ومنا من أهل بحج وعمرة، وأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج، فأما من أهل بالحج أو جمع الحج والعمرة، فلم يحلوا حتى يوم النحر. [وفي رواية]: مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.[١].

هذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري وغيره من أهل السنن رحمهم الله تعالى.

وهو حديث فصل، ولأنه حديث جامع مانع، فإنه جامع لأنواع النسك يوم حجة الوداع، وليسر هذا الدين، وسعته، ولأنه مانع لقول يخالفه.

وهو حديث يوضح أن الناس كانوا يوم الحج الأكبر ثلاثة أصناف، وكلهم على الخيار، وكما هو ظاهر نص الحديث.

وتوصيفه على النحو التالي:

الفصل الأول: هو قول فريق: إن النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان قد أفرد الحج.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٤٠٨

وهذا الذي يؤيده ظاهر نص الحديث، ولاسيما وأن حديثا رواه الإمام أحمد وغيره من أهل السنن رحمهم الله تعالى أيضًا قد وضح ذلك جليا في إفراده صلى الله عليه وسلم بالحج، ولما جاء عن عائشة أن رسول الله ﷺ أفرد الحج.[١].

وإن قيل: ولم ساق الهدي مع أنه أفرد بالحج؟

وقلت: وأن نعم، وربما من أحد الوجهين أو كليهما:

الوجه الأول: أنه خشية الإحصار. ويجبره الهدي. وكما قال الله تعالي ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وكما كان فعله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، ويوم أن رجعوا دون أداء عمرتهم؛ ولسبب صلح الحديبية، وحين أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حين أحصروا في الحديبية أن ينحروا ويحلوا.

وهذا الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى ومن جزء طويل من حديث يوم الحديبية أنف بيانه بلفظ: ((قوموا فانحروا، ثم احلقوا)).[٢].

الوجه الثاني: هو التطوع. ولاسيما أننا أمام محفل وضيئ، هو ذلكم يوم الحج الأكبر.

ولعل إظهارا ليس يتنافى، وحين انتقل الناس من عوز، وإلى يومهم هذا، ومن كفاء، وفضل، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا خائبين!

ولعل إظهارا للقائد، وبما لم يظهر من غيره، ومن كرم وبذل، وهذا هدي حسن.

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ١٧٧٧

(٢) صحيح البخاري: ٢٧٣١

الفصل الثاني: أن فريقا كان قد أهل بالحج والعمرة. وهؤلاء لم يحلوا إلا يوم النحر. وهؤلاء هم الذين عليهم أداء الهدي وجوبا. وسواء كانوا قارنين أو متمتعين.

الفصل الثالث: أن فريقا ثالثا كان قد أهل بالعمرة فقط. وكان منه عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها. ولعل هذا من باب الجواز، أو لعله: ولأنها كانت حائضا.

عاشرا: تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، بالعمرة إلى الحج وأهدى.

هذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

وهو حديث يبين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد قرن بين حجه وعمرته؛ وبرهان أنه لم يخلع إحرامه، وكما في حج التمتع، وبهذا يرتفع الإشكال.

وأما حمل لفظ التمتع الوارد في الحديث على أنه صلى الله عليه وسلم كان قد حج متمتعا، فإن ذلك لا ينتهض؛ ومن جوانب أربعة هي:

الجانب الأول: أنه صلى الله عليه وسلم كان قد ظل على إحرامه الحج كله، ولم يرد عنه انه كان خلع الإحرام بتمام غمرته وليفهم انه تمته ومن ثم دخل في إحرام الحج مرة أخرى، فدل هذا على أنه قد تنسك قرانا. وليس تمتعا وكما أنف.

وإنما استبعد الإفراد، ولأنه أمر أولا بحجة وعمرة، وكما أنف.

ومما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قارنا، وأن المراد بالتمتع هنا القران: قول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: «من كان منكم أهدى، فإنه لا يحل لشيء حرم منه حتى يقضي حجه»، والنبي صلى الله عليه وسلم كان ممن أهدى إلى الحرم.

الجانب الثاني: ومنه فإنه يحمل لفظ التمتع الوارد في الحديث على أصله اللغوي، فالتمتع المقصود هنا محمول على التمتع اللغوي، وبه فإن المراد بالتمتع هنا القران.

الجانب الثالث: أن النبي صلى الله عليه وسلم ومن ظاهر الحديث قد طاف طوافا واحدا، وقد سعى سعيا واحدا، وهذا هو حج الإفراد، وحين نضيف إليه أنه ساق الهدي، فأصبح بذلك قد حج قارنا، ولأجل سوق الهدي.

وأما تخريج أنه لربما كان قد أهدى تطوعا، فإنه يحتاج إلى دليل يؤيده، ومن حيث لم يرد، فنبقى على الأصل، وأنه قد قرن، وهذا تخريج حسن، وبدل أن نبحث عما ليس مدلولا عليه، ولا سيما وأننا أمام حديث أنف ذكره، وأنه أمر بحج وعمرة.

الجانب الرابع: أنه صلى الله عليه وسلم كان قد لبى بالحج والعمرة معا، وكقول أنس بن مالك: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يلبي بالحج والعمرة جميعا. قال بكر: فحدثت بذلك ابن عمر، فقال: لبى بالحج وحده. فلقيت أنسا فحدثته بقول ابن عمر، فقال أنس: ما تعدوننا إلا صبيانا! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لبيك عمرة وحجا.[(١)].

ولما مر معنا آنفا عن عمر بن الخطاب: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم بوادي العقيق يقول: أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة.[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم: ١٢٣٢

(٢) صحيح البخاري: ١٥٣٤

وبعد: فقد جاء في صفة حجه صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة، وأنه حج مفرداً، وجاء أيضاً ما يدل -وهو صحيح- أنه كان قارناً، وجاء ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان قد تمتع، وكلها صحيحة.

والمقرر في علم الأصول وعلم الحديث: أنه إذا أمكن الجمع بين الحديثين، وجب الجمع بينهما إجماعا، ولا يرد غير الأقوى منهما بالأقوى؛ لأنهما صادقان، وليسا بمتعارضين. وإنما أجمع أهل العلم على وجوب الجمع بين الدليلين إن أمكن؛ لأن إعمال الدليلين معا أولى من إلغاء أحدهما كما لا يخفى.[١].

وأما قول: ولا يستطيع عالم مهما بلغ من العلم أن يجمع بين ما تعارض منها؛ لأن معارضتها ظاهرة".

وهذا كلام ليس يؤخذ على ظاهره؛ ولدفع هذا الإيهام عن الأئمة الأعلام؛ ولذا فقد تقرر: أن كل من تحقق بأصول الشريعة؛ فأدلتها عنده لا تكاد تتعارض، كما أن كل من حقق مناط المسائل؛ فلا يكاد يقف في متشابه؛ لأن الشريعة لا تعارض فيها ألبتة، فالمتحقق بها متحقق بما في نفس الأمر؛ فيلزم أن لا يكون عنده تعارض، ولذلك لا تجد ألبتة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما، بحيث وجب عليهم الوقوف؛ لكن لما كان أفراد المجتهدين غير معصومين من الخطأ؛ أمكن التعارض بين الأدلة عندهم.[٢].

ولهذا وجب دفع هذا التعارض الظاهري ما أمكن ذلك، وبطرق الدفع الثلاثة المعروفة، وهي الجمع بين الدليلين، وإذ أمكن ذلك، أو الحكم بنسخ أحد الدليلين

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي: ٥ / ١٦١

(٢) كتاب الموافقات، الشاطبي: ٣٤١/٥

بالآخر، وإن وجد لذلكم طريقات، أو الترجيح بين الأدلة ما أمكن أيضا وإلا توقف، وأحال على غيره.

ولذا فقد خرج من قال إنه حج مفردا، فقد نظر إلى صورة فعله صلى الله عليه وسلم، وصورة حج القارن، وصورة حج المفرد، ومن حيث لا تختلفان.

وأما التمتع، فإنه خارج، ولعدم ورود نص يمكن الإحالة عليه، وقد بان منه أنه اعتمر فحل من عمرته، ثم أحرم للحج، ومن حيث لا ورود ولا وجود لمثل المعنى، فدفع التمتع منه كان أيسر.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى **عن ابن عمر قال: تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، بالعمرة إلى الحج وأهدى، فساق معه الهدي من ذي الحليفة، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم بالعمرة إلى الحج، فكان من الناس من أهدى، فساق الهدي ومنهم من لم يهد، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة قال:: للناس من كان منكم أهدى، فإنه لا يحل لشيء حرم منه، حتى يقضي حجه، ومن لم يكن منكم أهدى، فليطف بالبيت وبالصفا والمروة، وليقصر وليحلل، ثم ليهل بالحج، فمن لم يجد هديا، فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله. فطاف حين قدم مكة، واستلم الركن أول شيء، ثم خب ثلاثة أطواف ومشى أربعا، فركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين، ثم سلم فانصرف فأتى الصفا، فطاف بالصفا والمروة سبعة أطواف، ثم لم يحلل من شيء حرم منه حتى قضى حجه، ونحر هديه يوم النحر، وأفاض فطاف بالبيت، ثم حل من كل شيء حرم منه، وفعل مثل ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهدى**

وساق الهدي من الناس، وعن عروة، أن عائشة رضي الله عنها، أخبرته، عن النبي صلى الله عليه وسلم في تمتعه بالعمرة إلى الحج، فتمتع الناس معه بمثل الذي أخبرني سالم، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.[1].

حادي عشر: اقتداء واهتداء

روى الإمام مالك رحمه الله تعالى في الموطأ أن المقداد بن الأسود دخل على علي بن أبى طالب بالسقيا. وهو ينجع بكرات له دقيقا وخبطا. فقال: هذا عثمان بن عفان ينهى عن أن يقرن بين الحج والعمرة. فخرج علي بن أبى طالب وعلى يديه أثر الدقيق والخبط. فما أنسى أثر الدقيق والخبط على ذراعيه، حتى دخل على عثمان بن عفان. فقال: أنت تنهى عن أن يقرن بين الحج والعمرة؟ فقال عثمان: ذلك رأيى. فخرج عليٌّ مغضبا، وهو يقول: لبيك اللهم لبيك بحجة وعمرة معا. قال مالك: الأمر عندنا، أن من قرن الحج والعمرة، لم يأخذ من شعره شيئا، ولم يحلل من شئ، حتى ينحر هديا. إن كان معه. ويحل بمنى يوم النحر[2].

وهذا حديث يحكي عمل الصحابة يوم حجهم مع نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم وأنه كان متمتعا بقران، وكما مر بنا آنفا، وفيه أمور:

الأمر الأول: هو ذلكم حرص الصحابة الكرام على سنة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يتبعوه، وكما قال، وكما فعل، وكما أمر بذلك صلى الله عليه وسلم. وأن الأمر شرع واتباع، وابتعاد عن استحسانات العقول، وإن العقل ليذهل، وحين يرى

---

(١) صحيح البخاري: ١٦٩١

(٢) الموطأ: مالك بن أنس: ١ / ٣٣٦

استحاسانات، وماهي بسنة، وإن مسماها أنها استدراكات! وإذ لم يسق عليها وثمة دليل واحد، وبل ويخلط معها هذيان، ويحسبه الهازل جدا!!

الأمر الثاني: هو ذلكم الذي يمكن أن يطرأ من خلاف تنوع لا تضاد بين الأصحاب: وهذا أمر لست أقول طبيعيا، وبقدر ما أقول بإمكان حدوث شيء منه، ولكنهم سرعان ما كانوا يتجاوزونه، وبكل خلق حسن حميد، فأنت قد رأيت عليا، وها هو يراهم يخوضون في متعة الحج، التي هي القران، وعلى ما أنف، ولكنه ولكنهم لم ينطقوا ببنت شفة واحدة، وبما يخرج أحدهم عن تصرف الحنفاء الحلفاء الأتقياء الأنقياء.

الأمر الثالث: هو تواضع عليٍّ رضي الله تعالى عنه، وحين كان يسقي للبكرات شرابهن، وهن بنات الإبل وأولادها الصغار.

والبكر بالضم والبكر بالفتح: ولد الناقة فلم يحد ولا وقت أو الفتي منها فمنزلته من الإبل منزلة الفتي من الناس والبكرة بمنزلة الفتاة والقلوص بمنزلة الجارية والبعير بمنزلة الإنسان والجمل بمنزلة الرجل والناقة بمنزلة المرأة أو الثني منها إلى أن يجذع أو ابن المخاض إلى أن يثنى أو هو ابن اللبون والحق والجذع فإذا أثنى فهو جمل وهو بعير حتى يبزل وليس بعد البازل سن يسمى ولا قبل الثني سن يسمى. (١).

وقوله: وهو ينجع، بفتح التحتية وسكون النون وفتح الجيم وعين مهملة من نجع كمنع وبضم أوله وكسر الجيم من أنجع أي يسقي.

وقوله: بكرات له: جمع بكرة بالفتح والضم ولد الناقة أو الفتى منها أو الثني إلى أن يجذع أو ابن المخاض إلى أن يثنى أو ابن اللبون أو الذي لم يبزل.

---

(١) تاج العروس، الزبيدي: ج ٦ / ١١١

وقوله: دقيقًا وخبطًا، بفتح المعجمة والموحدة ورق ينفض بالمخابط ويجفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويخف بالماء ويسقى للإبل ويقال نجعت البعير إذا سقيته المديد وهو أن يسقيه الماء بالبزر أو السمسم أو الدقيق واسم المديد النجوع.[1].

وهذا تواضع عليٍّ، وهذا رفق ديننا بالحيوان والاهتمام به.

الأمر الرابع: هو ذلكم بدار عليٍّ: للذود عن سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعدم الانتظار، وريثما ينتهي من إسقاء البكرات مزيج الدقيق والخبط بالماء.

وهذا برهان العبودية لله تعالى، وهذه هي المسارعة في الخيرات، لا التكاسل عن الاهتمامات، وهذا الذي جعل القرآن الحكيم يثني عليهم ثناءه، ويطري عليهم إطراءه، وحين قال الله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

الأمر الخامس: هو ذلكم التطبيق العملي لسنة النبي: وهو الذي منه نعرف كيف كان قصده، وكيف كان عهده، وكيف كان سبيله، وطريقه، ومن خلال التطبيقات العملية لسننه وهديه صلى الله عليه وسلم.

وهذا أمر جد مهم، فإنه لو كان صلى الله عليه وسلم قال أو فعل ولم يذكر ذلك عنه، وكما قال أو فعل، وبحيث نقف على طريقة تنفيذه للأمر، لاختلف الناس خلافا عريضا.

---

(١) شرح الزرقاني على الموطأ:٢ / ٣٧٨

الأمـر الســادس: وأن الأمـر على الفـور لا التراخي: وهـذه قاعـدة كليـة، توجـب المسـارعة إلى الخيـرات، وتلـزم المبـادرة إلى الطاعـات، وألا تؤجـل، وألا يتراخى فيهـا، فيتكاسل لب، ويهمل فؤاد.

الأمر السابع: هو خروج عليٍّ وبيده أثر الدقيق والخبط، وكما أنف؛ وحتى يسارع ذبا عن سنة نبيهم.

ولكـن هـذا الغضـب، الـذي رأينـاه، ومـن السـياق، لـم يخرجـه عـن إلـف، ولـم يضطره إلى قول لا حسن!

الأمر الثامن: عدم تأخير البيان عن وقت الحاجة: وبرهانه خروج عليٍّ رضي الله تعالى عنه، وهذا أثـر الـدقيق على ذراعيـه، ولأن أمـر النبي أولى، ولأن موجـب العبودية أدعى وأرعى!

الأمـر التاسـع: هـو نسـبة الأمر إلى السـنة: وهـذا أمر جـد مهـم، وأن يقـوم النـاس حيال أمر ربهم نشطاء، وحين علموا أن ذلك هو أمر نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، فينشـطون للاهتـداء، ويسـعون للاقتـداء، وهـذه فضـيلة عليٍّ، وحـين قـال: سـنة نبيكم، ولم ينسب هذا أو شيئا منه لذات نفسه.

الأمـر العاشـر: وهـا هـم الأصحاب بـين يـدي نبـيهم وإذ لـم يعلمـوا: وإلا كانوا قـد بادروا، وكما علي، وكما عهدهم وعرفهم أيضا، ولكن هذا موجب التماس الأعذار، ومن الأخ تجاه أخيه، ولعله لم يصله الحكم، أو قد وصل إليه، ولما لم يفهم منه ما فهمه أخوه، وهـذه أيضا سـنن وجبلة وإذ تتبـاين مقـدورات النـاس على الفهـم عـن الله تعالى، وعـن رسـوله صلى الله عليه وسلم، ولما كان هـذا التبـاين لطيفـا، أو أن مدلولات اللغة

لـديهم غالبـة، ولما لـم يكـن أمـامهم منـد دليـل تـوافرت فيـه صـفتا الثبـوت والدلالـة القطعيتان.

الأمر الحادي عشر: وفي قصة عثمان وعلي من الفوائد إشاعة العالم ما عنده من العلم وإظهاره ومناظرة ولاة الأمور وغيرهم في تحقيقه لمن قوي على ذلك لقصد مناصحة المسلمين والبيان بالفعل مع القول وجواز الاستنباط من النص لأن عثمان لم يخف عليه جواز القران والتمتع وإنما نهى عنهما ليعمل بالأفضل كما وقع لعمر لكن خشي على أن يحمل غيره النهي على التحريم فأشاع جواز ذلك فكل منهما مجتهد مأجور وفيه أن المجتهد لا يلزم مجتهدا آخر بتقليده لعدم إنكار عثمان مع أنه الإمام حينئذ على علي رضي الله عنه [١].

الأمر الثاني عشر: هو إثبات حج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قارنا؛ ومناسبة حديث الباب، وكلام الإمام مالك حوله، فهما صحيحا.

ثاني عشر: حديث عظيم الشأن

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فأهللنا بعمرة، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: من كان معه هدي، فليهل بالحج مع العمرة، ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعا. فقدمت مكة وأنا حائض، ولم أطف بالبيت، ولا بين الصفا والمروة. فشكوت ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: انقضي رأسك، وامتشطي، وأهِلّي بالحج، ودعي العمرة. ففعلت، فلما قضينا الحج أرسلني النبي صلى الله عليه وسلم مع عبد الرحمن بن أبي بكر إلى التنعيم فاعتمرت، فقال: هذه مكان عمرتك، قالت: فطاف الذين كانوا أهلوا بالعمرة

(١) شرح الزرقاني على الموطأ:٢ / ٣٧٨

بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم حلوا، ثم طافوا طوافا آخر بعد أن رجعوا من منى، وأما الذين جمعوا الحج والعمرة، فإنما طافوا طوافا واحدا.[1].

هذا حديث صحيح عظيم الشأن، رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى. ولأنه يحكي أمورا عدة، منها:

الأمر الأول: هو ذلكم حرص النبي محمد صلى الله عليه وسلم على اصطحاب أزواجه معه إلى الحج، وفي هذا من مسؤولية الرجل، وحسن تبعله ما شهد به ظل الحديث، وحين كان من أمره حرصه صلى الله عليه وسلم على تأدية أزواجه نسك الحج، ولعله لا يلقاهم بعد عامه هذا! وهذا الذي حدث بعدُ، وقد سكنت ضمائرهن بالتلبية، وقد أدين مناسك حجهن، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الأمر الثاني: هو كرم الزوجة في هذا الدين، وعظم شأنها، وأهمية مقامها، وحين كانت شقيقة الرجال، فعليها ما على الرجال، وكما أنها لها ما للرجال، وللرجال عليهن درجة، وكلا وعد الله تعالى الحسنى.

وكما أن فيه أنس الرجل لزوجته، وحين تعلم، وهكذا من سيرته، معها حرصه عليها، وحفظه لها، والقيام على شأنها، ورعاية أمرها، وتأدية مناسكها، وعن قرب منه، فيأويها مقيما وسفرا معا، وهذا الحنو، وهذا اللطف، وإنما يشيان بتتويج وتوسيم أطر العلاقة الزوجية الحانية، وفي أسمى صورها، وأحن معانيها، وبه تذوب المرأة، وفي حسن تبعلها لزوجها، وحين كان هذا شأنه معها، حنوا، وعطفا، ورحمة، وإلفا، ورضا.

الأمر الثالث: هو المبادرة إلى الحج، بل وإلى أداء الواجبات الشرعية، وعلى الفور، لا التراخي، وحين انعقدت أسبابها، وتوافرت شروطها، ولا سيما فريضة الحج،

---

(١) صحيح البخاري: ١٥٥٦

ومن ملك الزاد والراحلة والأمن، وهذا الذي توافر عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كان من أمره ما أنف.

الأمر الرابع: هو تأجيل حج النبي صلى الله عليه وسلم، ويوم أرسل أبا بكر أميرا على الحج، ومن العام التاسع، وريثما يعلن، وكما قد أعلن سورة براء، وأنه لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وفيه تمهيد الأرضية الثابتة الصلبة أولا، ثم يمكنه صلى الله عليه وسلم أن يحج من بعد، وقد طهرت مكة من شرك قومها، وقد علا صوت التوحيد من مآذنها، ومن قول قاطنيها، وحين أنزل علم شرك الناس، ولما قوي بالمسلمين الباس!

الأمر الخامس: هو من فقه هذا الحديث، وحين حاضت عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وقد أمرها صلى الله عليه وسلم أن تحول النية إلى حج مفرد، ودون عمرة معه، ولأنه يجوز تأخير سعي وطواف الحج إلى يوم النحر، ولما تطهر من حيضها، وأما العمرة فحلها، وكما أمرها، وكما سيأتي، وفي هذا يسر ديننا، ومن هذا لطف ربنا وخالقنا تعالى، وحين أمكن تحويل النية، ومن حج وعمرة، وإلى حج وحسب، ولعامل الحيض وكما أنف.

الأمر السادس: وحين طهرت عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وأرسل معها أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر إلى التنعيم؛ ولتحرم للعمرة من أدنى الحل من هناك، وفيه جواز الإحرام، ومن أدنى الحل، أي: أقرب مكان حل من الحرم، ولمن كان وصفها وصف عائشة، ولمن كان من المسلمين، قد أراد عود العمرة، ومن أدنى الحل أيضا.

الأمر السابع: هو القيام على شأن المرأة ورعايتها وحفظها، وحين أرسل معها أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر، راعيا، وحافظا، ومؤنسا، وكافلا، ومعينا، وكما أن فيه عدم سفر المرأة وحدها، وإلا مع ذي محرم.

الأمر الثامن: هو اعتبار مسافة التنعيم سفرا، وهي لا تكاد تعادل إلا سبعة كيلو مترات تقريبا من الحرم. وكما أنف، وهذا عمل الإسلام مع المرأة، حفظا، ورعاية، وقياما على شأنها. وتنطبق أحكام السفر الأخرى، وعلى الصلاة والصوم وغيرهما، ومما له حكم المسافر.

الأمر التاسع: هو اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بمصالح الأمة العليا، وحين بقي مع المسلمين، وليدير، شؤونهم، ولم يذهب بنفسه مع عائشة أم المؤمنين للإحرام، ومن التنعيم أدنى الحل، وحين زاوج صلى الله عليه وسلم بين المصالح، ومصالح الرعية، وحين أناب أخاها عنه، وبقي هو مع المسلمين، وكما أنف، فان مصالح الأمة العليا أهم، ومن مصالح الأسرة، ومع عدم إهمالها، وحين أناب عنه نائبا، وكما أنف.

الأمر العاشر: وهذا هو التفويض الإداري، وهذا هو التفويض الجزئي، وفي بعض مهام الإمام، وليس كلها، أو كلها، وحسبما يراه مناسبا في التفويض ببعض الصلاحيات، أو جلها، أو كلها، ولمن فوضه في ذلك.

وليس يقال: إن فعله صلى الله عليه وسلم هذا كان خارج أعمال التفويض، حجة أن قد أرسل أخاها؛ ومن باب المحرمية، بل هو التفويض، وحين جمع بينه وبين عامل المحرم من ذوي رحم المرأة شرعا ودينا.

الأمر الحادي عشر: ليس يشترط لمن أراد الإحرام ثانية، أو ما عداها للعمرة، أن يكون من التنعيم خاصة، بل من أدنى الحل، وسواء كان ذلك من التنعيم، أو مما سواه، وحسبما تيسر للعبد ذلك، وكان من مقدوره، ورفعا للعنت عن الأمة.

الأمر الثاني عشر: هو جواز الحج تمتعا خاصا، وهو الإحرام للعمرة، ثم التحلل منها، ثم الإحرام للحج، وشاهده ما قالت عائشة: فطاف الذين كانوا أهلوا بالعمرة بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم حلوا، ثم طافوا طوافا آخر بعد أن رجعوا من منى.

وكذا جواز التمتع العام، وهو القران، وشاهده ما قالت عائشة أيضا: وأما الذين جمعوا بين الحج والعمرة، فإنما طافوا طوافا واحدا.

وبه فقد تحققت أنواع النسك يومها هذا، ومنضافا اليه حكمها الخاص بها، ومن كان على شاكلتها من أمر الحيض، وكما أنف.

الأمر الثالث عشر: هو وجوب الهدي على القارن والمتمتع متاعا خاصا، لمن قدر على ذلك، ومن لم يجد من قدرة، فعليه بالصوم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله، وتلك عشرة كاملة، وهذا يسر ديننا أيضا.

ولكنه لزم تحقق شرط عدم القدرة، وشرط عدم الإيجاد، وبينهما اختلاف.

وقال الله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:١٩٦].

ثالث عشر: المرأة المسلمة تاج بيتها ووسام عشها

إن للمرأة المسلمة في هذا الدين قيمة عظمى؛ ولأنها قلادة وتاج ووسام على رؤوس القيم والمبادئ والهمم والشيم والنبل والأخلاق الحميدة والبذل والعطاء والتفاني.

ولأجل هذا جعل لها ديننا مكانتها التي تناسب عطاءها وبذلها هذا، وحين كانت يدا يمنى لزوجها، ولما أضحت ساعد العطاء والبذل لشريك حياتها، وها نحن ندَّارس قصة هذه أسماء بنت أبي بكر، وما تحملته مع الزبير بن العوام زوجها رضي الله تعالى عنهم، ومن سبيل الحق والنصفة، ومن طريق الاعتراف بالفضل لكلٍّ، وحين كان هذا الزبير ليس يملك من زاد الدنيا الكثير، وما كان عليه حال كثير من الصحابة يومهم هذا، وحين صبروا، واحتسبوا صبرهم هذا على الله تعالى مولاهم الحق سبحانه، وحين زوج أبو بكر -وقد كان غنيا- ابنته أسماء للزبير هذا، وقد كان فقيرا، ليس يملك من شيء وسوى قطعة أرض ملكه إياها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهكذا تحكي أسماء راضية، وهكذا تقصص علينا، وليكون دربا منيرا لأخواتها المسلمات المؤمنات القانتات التائبات العابدات السائحات، ومثلا يحتذي، وسبيلا يقتدي، وعلى طريق الفناء في هذا بيت الزوجية العامر بهذا الذي نحسبه تاريخا مضيئا من صفحات هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، وحين ترك لنا إرثا وزادا عرفنا منه قيمة المرأة المساندة، وشأن الزوجة المساعدة، ودور الأخت الراعية، ولأنها مجتمع هذا بذله، ولترقى أمة هذه بناتها.

ولكن الذي نقف عليه هو هذا العمل الذي كانت تقوم عليه أسماء محتسبة راضية، وغير أنها كانت عليه متوافرة، وإذ ها هي لم تعتمد على كون والدها كان تاجرا

غنيا، وحين زوجها هو الآخر من هذا الزبير الفقير، ولعل الله تعالى يحدث بعد ذلك أمرا، بل تمرسا وفي أحوال الدنيا، ومن بعد ضيق وبأس، وعند فقر وعوز، وحاجة؛ ولترضى، ويرضى كل عبد، ويوم أن يتبوأ مقعد صدق عند مليك مقتدر.

رابع عشر: ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس

وإذ كان المهم هو السعادة الثانية، في الدار الآخرة، وإذ كان الشأن هو الرضا بالقسمة التي قسمها الله تعالى رب العباد على العباد، وها هنا تكون السعادة حق السعادة، وحين يقنع العبد بأعطيات مولاه، ولما يرضى بقسمة ربه، ومَنِّه، وهباته تعالى، وأن الله تعالى ليعطي للعبد أو يمنح وإنما ولحكمة يعلمها، ولما كان من ظاهر ذلك هو الابتلاء، وحين العطاء أيشكر عبد، أو وقت الابتلاء حين المنع فيصبر عن رشد، وهذا الذي حدث صبرا للزبير، وهذا الذي وقع صبرا من أسماء مثله، والعاقبة للمتقين.

خامس عشر: الاختلاط شر

ولكنك وقفت على كم كان بذلها، ومن ذات الوقفة قد رأيت أنها لم تزاحم رجلا، ولم تختلط في سوق عملها بشيء من ذلك، وهذا أمر جد مهم، ولأن هذا الدين قد وقف من مسألة الاختلاط بين النساء والرجال موقفا حسما، حزما ومنعا، وحين قطع دابر الاختلاط أو أشباهه، ولأن هذا الاختلاط هو العامل الأول من عوامل هدم الأسر، وإتيان على البنيان من أصله فيقتلعه ويهدمه ويحطمه ومن بعد أن كان قد شل أركانه!

ولأنه هذا الاختلاط هو ذلكم الداء الأعظم من وراء الفتنة، ومن قضاء على المروءة والحشمة، ومن قض لمضاجع الأسر، ومن فتنة عند اللبنة الأولى من بناء

المجتمعات، وحين أطلق الناس الحبل على الغارب، ولا ثمة فارق أو حد ولا ثمة فاصل أو حاجز أو مانع! وحين استوى المحرم مع غير المحرم! وهذا داء قتال، وهذا بلاء فتاك، ويحسن بالناس مراعاته، ويجمل بالمتقين مجاراته، ولما قد أراد الناس عيشة هنية، ولما استشرفوا حياة هانئة رغيدة شجية، يرفرف عليها ظل السكن، ووارف الرضا، وموجب العفاف أيضا.

سادس عشر: والمرأة راعية في بيت زوجها

ولكنك قد رأيت خدمة المرأة لزوجها، راضية مرضية، ومقابلته شأنه؛ من سعادة، ومبادلته نصبه؛ ومن رضا، وحين كان الزبير هذا ليس قعيد بيته، ولكنه هو ذلكم الباذل نفسه ووقته للجهاد، وحين خرج ذبا عن دينه، وها هي امرأته بنت أبي بكر تقوم على فرسه إطعاما وقياما وإسقاء. و ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣].

تواضع نبي: ولكنه وهذا هو النبي صلى الله عليه وسلم، وحين رآها وعلى حالها هذا، فأناخ راحلته؛ وكيما تركب معه؛ ومن خلقه؛ شفقة عليها، ورحمة بها، وإذ ها هي مثقلة بالنوى حملته، وإلى فرس الزبير أعدته، وإذ ها هي يعلوها رهق وتعب ونصب شديد.

سابع عشر: بعد المنال عن النبي المختار!

ولكن وقوف الناس على هكذا عمل للنبي صلى الله عليه وسلم، وحين اتخذوه بدس وطعن؛ وأنى لهم؟! وهذا هو النبي قد أناخ الراحلة، على قارعة الطريق، وعلى مرأى الناس، غدوهم ورواحهم، وإذ ليس يلزم من الركوب مماسة، وهذا أمر مشاهد وإلا عند ذي قلب أنين! وما نبينا إلا هذا الطاهر الصادق الطاهر الأمين.

وهكذا ينتهي الأمر، ووقوفا عند هذا الحد العظيم، ودون ولوغ في جانب أطهر رجل عرفه التاريخ، وكذا امرأة ذكرت حياءها، وادَّارَكت كرامة زوجها، وغير بعلها، ولم تفعل ذلك لذينك الشيئين، وكرما فعلت، وحسنا نهجت.

وهذه امرأة تلقي بالها لغيرة زوجها، وهكذا كل الأزواج يغارون، وحسن لكل امرأة عفيفة فعل ما فعلته أسماء.

ولكن الزبير هذا قد كان عليها شفيقا رفيقا، وحين ذكر أن نصبها طالها، وإذ كان وقعه عليه شديدا، ولما كان منه رهقها وتعبها، ومن حملها النوى ومن مسافة أربعة الكيلو مترات!

وإذ ها هو يلتمس العذر لفعل النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يحمل، ولأنه يعرف ألا خلوة، ولأنه يدرك ألا مماسة، وإذ ليس من موجب ركوبها خلفه صلى الله عليه وسلم أن يتلامسا، وحسبنا.

ولكن هذا أبو بكر والدها، وحين قد ادَّارك شأنها ونصبها، فأخدمها، وهو القادر على ذلك، ومن فضل ربه ومولاه، ولما لم يتكلم حرفا واحدا، يعرف به إحراج الزبير، وها هو قد زوجه أول أمره، وإذ كان يعرف حاله، والرجال ليسوا بأموالهم، وانما هم بدينهم، وورعهم، ومروءاتهم.

وهذا الذي رأيناه من شأن الزبير، ورضي الله عنهم أجمعين، وصلى الله وسلم على هذا النبي العربي الأمي القرشي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أسماء بنت أبي بكر: تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء؛ غير ناضح وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن

أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ،فجئت يوما والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من الأنصار، فدعاني، ثم قال: إخ إخ؛ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أني قد استحييت، فمضى، فجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني.[١].

ثامن عشر: نهى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن صفف النمر وعن الذهب إلا مقطعا وعن الحرير. وزاد معاوية أنه نهى عن متعة الحج.

وهذا الحديث شمل بعض المنهيات التي ورد الشرع المطهر بها، ودلالة على رحمته تعالى بعباده، وأن حرم عليهم كل ما منه ضرر، وسائر ما منه زينة وتفاخر، وجميع ما موجبه سرف ومخيلة.

هذا، وقد شمل الحديث منهيات أوردها كما يلي:

النهي الأول: أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن جلود مالا يؤكل لحمه: من السباع ركوبا وافتراشا، وسواء كانت مدبوغة أم غير مدبوغة، ولأنه تتخذه الأعاجم لباس زينتهم! وكما أن هذا هو موجب التخلق بأخلاق هذه السباع في الباطن، وكما الظاهر أيضًا، ولكن المسلم إلف مألوف، وهذه السباع لا تعرف إلفا، وليس من طبعها

---

(١) صحيح البخاري: ٥٢٢٤

إلا ذلكم الافتراس! وكما أن جلود هذه السباع نجسة في ذاتها، وليست مذكاة، ولا يصح تذكيتها أيضا.

النهي الثاني: هو لبس الذهب والحرير: وهذا مقصود به الرجال لا النساء؛ ولما فيه من التنعم، وهذا خاص بالنساء، والرجال عنه في معزل. ولحديث: الحرير والذهب حرام على ذكور أمتي حلال لإناثها. [١].

وقد حملوا النهي عن لبس الذهب، وصرفوا هذا النهي عن زينة السيف أو الرمح، وبقدر قليل، ولئلا يصار مطية إلى التفلت من الزكاة، أو أن يكون مدعاة سرف أو مخيلة. ومنه ايضا ما كان من سن أو إصلاح أنف.

النهي الثالث: هو نهيه عن الشراب في آنية الفضة: ولأن ذلك أيضا من موجب الترف، وسبب السرف، وبرهان التعجم، ودليل التنعم، وديننا عن كل ذلكم قد نهى. وكما الذهب والحرير تماما بتمام.

النهي الرابع: هو النهي عن التمتع في الحج: وهذا درس تم تناوله، وبما كفى عن إعادته، وموجزه أن هذه مسألة خلافية بين أهل العلم، ومن موجب هذا الحديث، وحين رجح بعضهم حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان قد أفرد بالحج، وقد حمل على أنه أفرد أعمال الحج. وذلك جمعا بين فعله الحج، وهذا إفراد بأعماله، وبين سوقه الهدي، وهذا موجب القران، والجواب: أن رواية من روى أنه أفرد الحج محمولة على أنه أفرد أفعال الحج، ودخلت العمرة فيه نية وفعلا ووقتا، وهذا يدل على أنه اكتفى بطواف الحج وسعيه عنه وعنها، كما هو مذهب الجمهور في القارن،

---

(١) المحلى، ابن حزم: ١/١٧٧. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

خلافا لأبي حنيفة رحمه الله حيث ذهب إلى أن القارن يطوف طوافين، ويسعى سعيين، اعتمد على ما روي في ذلك عن علي ابن أبي طالب، وفي الإسناد إليه نظر. [١].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن معاوية بن أبي سفيان: أنه شهد معاوية وعنده جمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لهم معاوية: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ركوب جلود النمور؟ قالوا: نعم. قال: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس الحرير؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يشرب في آنية الفضة؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس الذهب إلا مقطعا؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن جمع بين حج وعمرة؟ قالوا: اللهم لا. قال: فوالله إنها لمعهن. [٢].

تاسع عشر: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

هذا إعلان نبوي كريم هام، وهو بيان عالمي صالح، وهو إشعار إسلامي واضح، وبأن الألوهية لله تعالى وحده، وأن الحكم والأمر والشرع لله تعالى وحده لا شريك له، وأن النفع والضر ليس إلا من جبروته، ولا يأتي إلا من كبريائه وقهره وعظمته، وأن من راح إلى الحج فهذا عقده، وأنه من ذهب إلى هذه البقاع عنده فذاك عهده، وأن الملك لله وحده، وأن الأمر والنهي له تعالى وحده، وأن من كان ذا نية حسنة صادقة خالصة، وإذ هو يؤدي فرض الحج، فإنه وجبت في حقه هذه المعاني، وكيما يكون مسلما ابتداء،

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٤ / ٢٧٦

(٢) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ١٦٩٠٩.خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وحتى يضحي موحدا ابتداء وانتهاء، وأن مجرد العج والثج وحدهما ليسا بكافيين، وإلا أن ينضاف إليهما ذلكم المعنى السامق العالي، من هذه التلبية، وذلك لأن الله تعالى أعلن من عليائه، أن الإخلاص والعمل الصالح هما عمادا دين الحق، وهما ركنا عقيدة الإسلام، ويكانهما دليلا ركن الإيمان، وحين كان من موجب هذا الصدق، هو الصدق في إعلان العبودية لله تعالى وحده لا شريك له، وأن هذا الدين وما جاء يوم أن جاء وإلا حين كفل هذين الأصلين كفالة تامة غير منقوصة، وحين أحكم رباطهما، وحد بينهما، وأن الحكم ليس إلا لله، وأن الأمر أمره، وأن النهي نهيه، وكذا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا هو مقصود الحج، ويوم أعلن الله تعالى من براءة، براءة الله تعالى من المشركين ورسوله، يوم الحج الأكبر، وحين قال تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[براءة:١-٦].

وحين كان معنى ذلكم هو إعلان الإذعان الشامل الكامل لهذه السلطة الربانية صاحبة الحق الأصيل لأمرها ونهيها، وكما أنها صاحبة الحق الأصيل في خلقها وإيجادها،

وكما أوجزت ذلك الديانة، وكما أحكمت ذلك الرسالة، وحين قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

ولهذا كان الإكثار بالتهليل والتكبير والتحميد هو موجب هذا الإعلان، وبرهان هذا البيان، وإذ لسنا ننسى، وأننا أمام محفل عالمي، كان هذا الإعلان أساسا لازما، وبيانا حاكما، ولا سيما وأن يوم الجاهلية قد أفل نجمه، وها نحن أمام وضع عام لكل الجاهلية، ويوم أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ويوم الحج الأكبر!

وليس من بابنا في هذه السيرة النبوية المباركة الإسهاب الفقهي، ولا التتبع الخلافي الإطنابي في بيان التلبية، أو ما سواها، ومن جانبها الفقهي، ومتى بدأت؟ ويوم استوى صلى الله عليه وسلم على راحلته، ومتى انتهت؟ ويوم رمي جمرته، أو حين كانت للكعبة رؤيته، أو ها هنا وهناك وعلى ما مر بنا آنفا، وبقدر ما إن بياننا منصب على كونها إجابة المنادى، وهو الله تعالى، وكذا الإقامة على طاعته، وإعلان الخضوع والذل له تعالى، وكذا من بيان حكمها، وأنها سنة من سنن الإحرام، ومن كونها، وكما أنف برهان إعلان عام بالعبودية وبراء عام من الشرك والمشركين، وحين قدم الله تعالى العداوة والبراءة من المشركين، وعلى شركهم، وإن تساويا في هذا الإعلان العام، وحين قال تعالى ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم:٤٨].

ولهذا أمر الملك جبريل نبينا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم برفع الصوت بهذه التلبية؛ وليتوافق مع وضع الجاهلية تحت قدميه صلى الله عليه وسلم يومه هذا، فكان إعلانا قوليا مصحوبا بإعلان عملي نبوي كريم. وحين قال صلى الله عليه وسلم جاءني جبريل! فقال لي: يا محمدا! مر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم.[1].

ولكن أسماء بنت عميس زوجة الصديق أبي بكر كانت قد نفست بولدها محمد بن أبي بكر يوم الحج، وحين أمرها صلى الله عليه أن تغتسل للنظافة، وأن تستثفر أي تضع ثوبا أو خرقة على محل الدم، وأن تفعل كل أفعال الحج، وإلا الطواف بالبيت. وإلا بعد أن تطهر المرأة من نفاسها أو حيضها.

ولكنك وقفت على كم كان اتباع هذا الجيل لنبيه صلى الله عليه وسلم، وحين نادى منادي الحج، وإذ بك على مرمى بصرك ترى الحجيج، وعن يمينه، وعن شماله، ومن أمامه، ومن خلفه صلى الله عليه وسلم، ليعلموا علمه، وليتبعوا نهجه، وكما قال أو فعل أو أقر، وبيان عام آخر ضاف على أن هذا هو موجب صدق هذه العبودية. وحين إخبارك عن أنفسهم، وأنهم خرجوا يريدون الحج، في بيان صادق عن مدلول صدقهم، وحين لم يخرجوا إلا لحجهم. وحين قالوا: لسنا ننوي إلا الحج! وأنهم وحين يتنزل على نبيهم قرآن ربهم، وإذ هم ينتظرون منه تأويله، واذ ها هم يتلقون عنه تفسيره، في حرص شديد، وفي تتبع فريد، لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا عنوان صدق العبودية لله تعالى وحده لا شريك له. وحين قالوا أيضا: لسنا ننوي إلا الحج.

---

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٢٧٥٢

ولكن ربط قافلة التوحيد بأساسها كان منهجا وسبيلا، وحين انتهي صلى الله عليه وسلم من طوافه، وليتخذ من مقام إبراهيم مصلى، وفي إعلان هام عام آخر ضاف، وأن هذه هي قوافل التوحيد، من أول، وإلى الانتهاء أيضا، وحين كان من مبدأ إعلان هذا البراء العام، وعلى لسان هذا النبي إبراهيم عليه السلام، وإذ كان من منتهاه هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كان التوحيد قاسما مشتركا، ولما كان البراء من المشركين عاملا بينهما، وهذا تفرد، وهذا سنن، وحين ربطت قوافل الموحدين أجمعهم، ولما قد أخذنا أوائلهم وآخرهم فشمل ما بينهم أيضا، وحين قال الله تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

وهذا شأن الإسلام، وهذا بيان الاقتداء، وحين يجعل لهذا الدين نقطة ابتداء الإمامة، ومن هذا المكان لا غيره، وفي ربط لمسيرة هذا الدين، وفي ربط له أيضا، وحين كان سلسلة متصلة، ومن مبدئها وإلى انتهائها، وكما أنف. وفي بيان عام أن الإسلام دين النظام العام، وأنه كذلكم ذو ضبط والتزام هام. وأن هذه أمة تعرف حقا سبيلها، وكما أنها تقف عند سنن نبيها، وحين اشترك نبي الله تعالى إبراهيم، ونبي الله محمد عليهما الصلاة والسلام في هذا البيان الهام الشامل الكامل ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم:٤٨].

ولكنك قد وقفت أيضا عند سنن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهديه، وحين صلى ركعتي الطواف، ومن هاهنا من عند مقام إبراهيم عليه السلام، وكما أنف استصحابا لهذا الجيل الكريم الفريد، قوافل الأنبياء والمرسلين الكرام عليهم الصلوات والتسليمات أولا، وثانيا وحين كان قصد أن يقرأ في ركعتي الطواف هاتين سورتي

الإخلاص والكافرون، ترتيبا أو على غير ترتيب بينهما؛ ولأنهما بيان عام هام شامل كامل في التوحيد، وإعلان الولاء لله وحده، وفي إعلان البراء مما يعبد من دونه تعالى.

وانظر فعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهديه، وانظر قوله أيضا وسننه، وحين كان متبعا لنصوص الكتاب قيدا قيدا، وشبرا شبرا، وليس يكاد يخالف، وكيف له! وليس يكاد يعارض، وأنى له! وليس يكاد يبدل، أو يغير، أو يعدل، وها هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، المؤتمن على وحي ربه تعالى، وحين قال: «نبدأ بما بدأ الله به» في بيان آخر ضاف على مطلق العبودية لله تعالى، وإذ كان عنوانها ذلكم الاتباع الفوري، ودون تراخ، وفي ثوبها العملي، ومن لباسها الفعلي، وحين بدأ سعيه بالصفا، ومنتهيا بالمروة، وائتمارا بأمر ربه تعالى وحين قال سبحانه ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِۦفَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۦوَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨].

وحري بأمة أحبت نبيها محمدا صلى الله عليه وسلم وأن تحذو حذوه، وبل كان ذلك أقوم قيلا؛ ولأنه برهان صدق الاتباع، وموجب صدق المحبة، وها نحن أمام قرآن يأمرنا باتباع هذا الرسول النبي محمد صلى الله عليه وسلم، غير مستحسنين خلافه، وحين كان هذا الرسول نفسه وقافا عند قول ربه تعالى، ومنه فنحن تبع غير مستأنسين تركا، ولا تأويلا يخرجنا عن ظلال النصوص الوارفة، ولا عن ريها المجدول ماء عذبا فراتا سائغا للشاربين، وحين قال الله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۦوَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

العشرون: إن فاطمة لبست ثيابا صبيغا، واكتحلت، وقالت: أمرني به أبي.

هذا جزء من حديث صحيح رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

ومنه يبين حكم ما تلبس المرأة المسلمة، وبعد تحليلها من إحرامها، ومن بعد حجها، وانتهاء مناسكها.

وهذا أمر الشرع الحكيم، وهذا هو جواز التحلل بعد انقضاء مناسك الحج، وارتداء ما تيسر من اللباس الساتر، ولو كان صبيغا، أي مصبوغا.

وإذ كان من فعل فاطمة ذلك، ومن أمر والدها، وهو النبي صلى الله عليه وسلم لها به، فإنما دل على ما أنف أولا، ثم إنه يجرى مجرى الحق، ومن عموم ما نصت عليه الرسالة، واستصحاب هذه الأصول معنا، ومن حيث احتجابها، ومن حيث تأويل ذلك على أنها فعلت ذلك، وبمعزل عن الرجال، وإلا نكون بذلك قد خرجنا عما علمناه عن هذا الجيل، من إطباق على الحجاب، ومنه فيؤول عمل فاطمة هذا، وإذ اكتحلت على أنه من تستر، وعلى أنه من بعد عن الرجال، ولا سيما أن المعروف من الحج، هذه الخيام السواتر، وهذه الحجب، المانعة من اختلاط، ومن إبداء زينة المرأة المسلمة، وإلا أمام محارمها.

وهذا الاكتحال لا شك أنه زينة أيضا، وبالتالي فيحمل على ما أنف، ومن باب التحلل، ومن باب التزين الطبعي للمرأة، ولا سيما أن زوجها عليا كان قد جاء من اليمن، وها هي قد جاءت من المدينة، وها هي قد أرادت أن تتزين لزوجها.

وهذا الذي ينظر إليه، وكيف وقفت الزوجة المسلمة على حق زوجها حافظة، وعلى إرضائه وإشباعه؛ متعبدة بذلك ربها تعالى.

وهذا هو الذي حدث، وكما أنف، وحين جاء عليٌّ من اليمن، وها هو يحج معهم، وبالتالي أيضا فقد راعت حق الزوج، ولو كان في الحج، ومن حيث قد انتهينا من مناسكه، أو على الأقل كان يوم النحر، ولما كان منه التحلل الأول، والذي يجيز كل شيء إلا النساء.

وليس يقال إن فعل فاطمة الزهراء هذا كان في مشهد من الأجانب، أو أنه كان اختلاطا، وإلا نكون قد خرجنا عن مألوف هذا الجيل الكريم الفريد، ولا سيما أن فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر له قيمته، وخاصة وأن ديننا قد اكتملت مظاهره، وأن إسلامنا قد تمت شعائره، وإذ كان منه قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وليس يقال إن فعل فاطمة هذا كان على ملأ من الناس، وأن يقال إن هذا من الدين! وإلا نكون قد نسفنا تاريخا للحجاب عظيما، وها نحن قد مر بنا كثير من مظاهره المتواترة والمتكاثرة، وعلى مدار تتبعنا لهذا الهدي الإسلامي الرشيد، ومن خلال هذه السيرة النبوية المباركة.

وأن غاية الأمر هو قولنا، ومماهاة بهذا الشرع المطهر، وحين أجاز لباسها، ومن زينتها، ومن بيتها، وأن ذلك هو حجابها، وأن هذه هي حشمتها.

«لا إله إلا الله وحده لا شريك، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده وصدق وعده، وهزم - أو غلب - الأحزاب وحده».

وهذا الذي قاله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين صعد الصفا، و ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:٣]. وفي تأكيد على هذه الوحدانية، واستصحابا لتاريخ نبوي مجيد، وحين جاء أول ما جاء بهذه العقيدة الصلبة في الله تعالى وحده لا شريك له، وهذه هي أيضا عقيدة الناس في ربهم الحق، ويوم أن جاهدوا في الله تعالى حق جهاده، وليتركوا لنا إرثا آخر مجيدا، يحكي لنا صورة البذل في أوجها، ويروي لنا حكاية الصدق في نصاعة ثوبها، وحين كان هذا التوحيد عزيزا منيرا، وإذ ها هم أولاء الجيل الكريم، قد قدموا فيه النفس والمال، حكاية يتدارسها الأجيال، وجيلا من بعد جيل آخر، وناصعا أبيض شفافا كريما، وإذ يحكي لنا الوفاء والإباء، وحين كان بذل المهج في سبيل إحقاق هذا المنهج، ولما كان سبيل فلاحهم، ولما كان قد استنقذهم من براثن عهد مظلم طويل دامس داهمهم من معاشهم ووعدهم ووعيدهم، وإذ كان هذا النبل الذي سطرت فيه قوافل الموحدين تاريخا، حكاه هذا التاريخ عنهم، وفي أبلغ بيان عرفه أهل الأدب، وفي أسمى بلاغ أهل الأرب!

وهذا الوفاء لهذا المنهج، وإن كلف ما كلف، وإذ ليس شيء غاليا دونه، بل رخيصا دونه، وإذ كان من شأن هذا المنهج وإلا حين تراه يقف حائلا أمام أنصاف الحلول، ورافضا، وإذ يقف مزلزلا عروش التعدي والتحدي والطغيان، ولأول مرة في

هذا الحرم الرباني الشريف البيت العتيق، وليعلن الولاء لله تعالى وحده، والبراء مما سواه أيضا، وكما أنه إعلان لهذا التلقي عنه تعالى وحده.

وهذان هما صنوان هذا الدين، وعنوان هذه الرسالة الجديدة المجيدة أيضا ولأنها استصحاب لرعيل كريم من أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلوات والتسليمات والتبريكات أبدا أبدا، هذا العنوان وحين كان مقتضاه أنه إله واحد، بمنهج واحد، وولاء واحد، ودك حصون الجاهلية، ووضعها تحت قدميه صلى الله عليه وسلم؛ ولأن الله تعالى مقتها ووضعها من قبل أيضا.

وهذه هي معاني العزة أولياتها وابتداؤها وانتهاؤها، والتي أضحت من نصيب وقدر ولي الله تعالى، ولما أن جعل ولاءه لله تعالى وحده لا شريك له، وإذ يقف أمام كل جاهلية موقفه هذا رافضا وداكا، وحين أعلن أيضا أن عهدا جديدا قد بدأ ينشر نوره وسناه وضياه وهداه، على هذا العالم التائه الضائع الحائر المسكين، وحين تلقفه الشر يمنة مرة ويسرة مرة أخرى، وفي وضع مهين بالغ به حد الإهانة مبلغها! وبكأنه ليس ببالغ رشدا!!

وإذ جاء هذا الدين لينتشل العباد -كل العباد-، وليردهم ردا جميلا إلى دين ربهم الحق الرحمن سبحانه. وحين قض مضاجع الجاهلية كلها، وأجمعها، وأبعاضها، وأجزائها، حتى صارت من بين يديه ركاما أطلالا، وإذ كانت عهدا مضى، ودينا سلف!

وهذا الذي نستصحبه ونتألفه، وحين إطباقنا على هذه الدينونة لله تعالى القهار العزيز الجبار وحده، ولما كان الناس هكذا قد رأوا نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهكذا يضع الجاهلية وأركانها، وإنما هو سنن، وإنما هو سبيل ومنهج، وليس دغدغة للمشاعر بهذه الشهادة، وكما يقال يوم صعود الناس الصفا أو المروة أو ما سواهما،

وها هم أولاء يحكون حكاية التصرم من منهج ربهم، وها هم يتداولون ومما بينهم، وعلى صعدهم مناهج شتى، وإذ ها هي خالية من اتباع، وإذ ها هي نائية عن سداد.

ولكن الربط بين ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفات، وهكذا الذي قاله يوم الصفا والمروة، وإذ كان ربطا حقيقا بين اللفظ ومقتضاه، وأن القول لزمه من عمل، ما ينهض برهانا على أن هذا الدين قول واعتقاد وعمل، ولا ينتهض فصل بين هذه الثلاث ولو شيئا، وليس يقبل فصم بينهما، ولو قدرا، ولا فصام عن أي من هذه التركيبة النوعية المتآلفة المنسجمة المترابطة ويكأنها كل واحد.

وانظر كلام نبينا صلى الله عليه وسلم على عرفات الله يوم الحج الأكبر، وأن الله برئ من المشركين ورسوله، وأن الله مخزي الكافرين، ويوم ترك لنا هذا الربط الوثيق بين مدلول الشهادة قولا ولفظا، وتوثيقا بينا لمعناها؛ إحقاقا لله تعالى بمنهجه، وضبطا لسلوك الناس على نظام هذه الشهادة، وأن الفصل بينهما قيد شيء، وإذ يحسب وعلى أنه فصل بين الجسد ورأسه، ومن ثم فلسنا: لا قد ربحنا رأسا! وإذ كانت هامدة، ولا نحن قد كسبنا جسدا! وإذ أصبح هلاما خاملا، والحراك هو هذه الحياة التي تدب فيهما، وحين التأما، ويوم اتصلا، بهذه الروح التي كانت سببا في بعث الحياة فيهما، ومن جديد.

وانظر مرة أخرى إلى هذا الميثاق الخالد، ويوم عرفات الله، ويوم الحج الأكبر، وليظل منهجا قويما، وسبيلا رشيدا؛ لإنقاذ هذه البشرية، من تيهها، وحين أسس لها منهج فلاحها وصلاحها. وحين قال صلى الله عليه وسلم : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا

دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل، وربـاء الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه من ربانا ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، واتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لم تضلوا بعده أن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات.[١]

---

(١) صحيح مسلم: ١٢١٨

مراجع الجزء الرابع

١- صحيح البخاري.
٢- صحيح أبي داود، الألباني.
٣- السلسلة الصحيحة الألباني.
٤- مجمع الزوائد، الهيثمي.
٥- السيرة النبوية، ابن هشام.
٦- الآحاد والمثاني، ابن أبي عاصم.
٧- العهد الجديد، إرمياء.
٨- صحيح الترمذي، الألباني.
٩- سنن الترمذي، الترمذي.
١٠- صحيح الجامع، الألباني.
١١- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي.
١٢- مسند أحمد، أحمد شاكر.
١٣- البداية والنهاية، ابن كثير.
١٤- تخريج سير أعلام النبلاء، شعيب الأرناؤوط.
١٥- تفسير القرطبي، القرطبي.
١٦- صحيح مسلم.
١٧- تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط.
١٨- البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي.
١٩- السلسلة الضعيفة، الألباني.
٢٠- صحيح ابن خزيمة، الألباني.
٢١- صحيح النسائي الألباني.
٢٢- صحيح ابن ماجه، الألباني.
٢٣- ضعيف أبي داود، الألباني.

٢٤- تاريخ الإسلام، الذهبي.
٢٥- تفسير ابن كثير.
٢٦- الخصائص الكبرى، البيهقي.
٢٧- لسان العرب، ابن منظور.
٢٨- تخريج زاد المعاد، شعيب الأرناؤوط.
٢٩- المستدرك على الصحيحين.
٣٠- صحيح الأدب المفرد، الألباني.
٣١- إغاثة اللهفان، ابن القيم.
٣٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر.
٣٣- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر.
٣٤- أسد الغابة، ابن الأثير.
٣٥- جمهرة اللغة، ابن دُرَيْد.
٣٦- كتاب شرح المفصل، ابن يعيش.
٣٧- معاني صيغ الزوائد، حسن غازي عكروك السعدي.
٣٨- صحيح ابن حبان.
٣٩- مجموع الفتاوى، ابن تيمية.
٤٠- معالم السنن، شرح سنن أبي داود، الخطابي البستي.
٤١- الصحيح المسند، الوادعي.
٤٢- تخريج كتاب السنة، الألباني.
٤٣- السيرة الحلبية، الحلبي.
٤٤- المغني، ابن قدامة.
٤٥- نيل الأوطار، الشوكاني.
٤٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني.
٤٧- أهل الصُّفَّة بعيدًا عن الوَهْم والخيال؛ صالح أحمد الشامي.

٤٨- منهاج السنة النبوية، ابن تيمية.

٤٩- شرح النووي على صحيح مسلم.

٥٠- معرفة علوم الحديث، الحاكم.

٥١- تهذيب السنن، ابن القيم.

٥٢- الحبائك في أخبار الملائك: جلال الدين السيوطي.

٥٣- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد.

٥٤- تاريخ الطبري، الطبري.

٥٥- مسند أحمد بن حنبل.

٥٦- الموطأ: مالك بن أنس.

٥٧- كتاب فيض القدير، المناوي.

٥٨- مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور.

٥٩- تاج العروس، الزبيدي.

٦٠- غريب الحديث، ابن الأثير.

٦١- السنن الكبرى، البيهقي.

٦٢- صحيح الترغيب، الألباني.

٦٣- كتاب شرح سنن أبي داود، عبد المحسن العباد.

٦٤- العلل المتناهية، ابن القيم.

٦٥- الوهم والإيهام، ابن القطان.

٦٦- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر.

٦٧- إرواء الغليل، الألباني.

٦٨- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي.

٦٩- زاد المعاد، ابن القيم.

٧٠- نيل الأوطار، الشوكاني.

٧١- غاية المأمول، ابن الملقن.

٧٢- مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية.

٧٣- أضواء البيان، الشنقيطي.

٧٤- كتاب الموافقات، الشاطبي.

٧٥- تاج العروس، الزبيدي.

٧٦- شرح الزرقاني على الموطأ.

٧٧- المحلى، ابن حزم.

٧٨- السيرة النبوية، ابن كثير.

الفهرس